"لو كان البحر مدادا"

للصحفية الأمريكية كارلا باور

(حوار مع الشيخ أكرم ندوى)

"لو كان البحر مدادا"

للصحفية الأمريكية كارلا باور

(حوار مع الشيخ أكرم ندوى)

عرض وتحليل

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

هل القرآن يقبل التفسير ونقيضه؟

منذ عدة أشهر نشر الصديق المصرى المُتَيَّبِن أ. ميسرة عفيفى على صفحتى فى الفيس بوك خبرا عن ترجمة يابانية لكتاب إنجليزى عن الإسلام لصحفية أمريكية اسمها كارلا باور عنوانه: "If the Oceans were Ink". وهذا العنوان بمثابة ترجمة للعبارة القرآنية التى تقول: "لو كان البحرُ مِدَادًا" الموجودة فى قوله تعالى: "قل: لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لَنَفِد البحر قبل أن تَنْفَد كلماتُ ربى ولو جئنا بمثله مَدَدًا" بسورة "لقمان"، فحفزنى هذا الخبر على البحث عن الأصل الإنجليزى حتى وجدته وشرعت أقرأ فيه. والكتاب عبارة عن تسجيل لحوار طويل دار بين المؤلفة الأمريكية (اليهودية الأم الكويكرية الأب) كارلا باور وبين د. أكرم ندوى الأستاذ الجامعى الهندى الذى يعيش فى أكسفورد حيث أمضيت سنوات دراستى للحصول على درجة الدكتورية فى النقد الأدبى الحديث من ١٩٧٦ إلى ١٩٨٢م. وقد شدنى الكتاب شدا قويا، وبخاصة أننى قد كتبت عن د. الندوى عدة فقرات فى كتاب سابق لى حول ما طالعتُه عن رصده وترجمته لآلاف النسوة المحدِّثات فى التاريخ الإسلامى، ذلك الإنجاز الذى قرأت أنه بلغ أربعين مجلدا، وإن لم يظهر منه سوى المجلد الأول، وألفيت نفسى بعد قليل أبدأ فى تسجيل تعليقاتى على ما تقوله الكاتبة. وهذا أول الغيث، وهو يدور حول بعض ما ورد فى الفصل المسمى: "The Quran in Twenty-Five Words".

وأبدأ بإيراد السطور التالية، ثم أثنى بالتعقيب عليها:

"Revered by a population as diverse as the umma, or worldwide Muslim community, the Quran can refract in dazzling ways. The San Francisco civil rights lawyer may discover freedoms in the same sura, or chapter, in which a twelfth-century Cairo cleric saw strictures. A Sudanese mullah, or religious teacher, may read a command for wifely obedience; an Indonesian wife may interpret the same passage as a call for equality and compassion. The Marxist and the Wall Street banker, the despot and the democrat, the terrorist and the pluralist—each can point to a passage in support of his cause.

Sheikh Mohammad Akram Nadwi, the Islamic scholar who taught me the Quran, once told me an old Indian joke. A Hindu goes to his Muslim neighbor and asks if he could borrow a copy of the Quran. “Of course,” said the Muslim. “We’ve got plenty! Let me go get you one from my library.” A week later, the Hindu returns. “Thanks so much,” he said. “Fascinating. But I wonder, could you give me a copy of the other Quran?” “Um, you’re holding it there,” said the Muslim. “There’s just one Quran, and you’ve got it.” “Yeah, I read it,” replied the Hindu. “But I need a copy of the Quran that’s followed by Muslims.” “The joke is right,” said Akram. “All this talk about jihad and forming Islamic states, that’s not what the Quran says!”".

تقول الكاتبة إن النص القرآنى يقبل التفسيرات المتعارضة: فالحاكم المستبد يجد فيه ما يعضد استبداده مثلما يجد الحاكم الديمقراطىّ فى نفس النص ما يدعم حجته. والمدافعون عن حقوق المرأة يجدون ما يريدون فى ذات الآية التى يستشهد بها من يضيقون على حواء ويحرمونها حقوقها. وبالمثل يجد الماركسى فيه ما يقوى عقيدته الماركسية فى الوقت الذى يجد الرأسمالى ما يقوى المذهب الرأسمالى. وبغض النظر عما تريد الكاتبة من وراء هذا الكلام فلا بد من معرفة أن المسلمين فى عصر النبى لم يختلفوا فى فهم القرآن على النحو الذى تصوره كلمات الكاتبة. ولو كان القرآن فى ذاته يؤدى إلى هذا الاختلاف لرأيناهم فرقا وشيعا، كل فرقة تمضى فى اتجاهها لا تتلاقى مع سائر الفرق والشيع. لكننا ننظر فنجد أنهم كانوا جميعا على قلب رجل واحد.

أما لو وقع خلاف بين أحد وآخر أو حدث سوء فهم من أى منهم لنص قرآنى فما أسرع ما يقضى النبى، بوصفه المرجعية الصحيحة، على هذا الخلاف بتوضيح الصواب من الخطإ كما هو الحال مثلا حين استغرب عَدِىُّ بن حاتم قول القرآن عن أتباع النصرانية إنهم قد "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله"، إذ قال للنبى: "ما كنا لنعبدهم". فكان أن وضح له النبى أن المقصود بالعبادة هنا تشريعهم لهم من عند أنفسهم اتباعا لنزواتهم وأهوائهم وشهواتهم لا بناء على وحى سماوى، فكانوا يتبعون تعاليمهم رغم انحرافها عن دين الله. وعندئذ اقتنع عدىّ.

ويمكن أن نُلْحِق بذلك تردد الصحابة فى قبول معاهدة الحديبية لما رأوا فيها من إجحاف ولما تنص عليه من رجوعهم ذلك العام دون اعتمار، مما دفع بعضهم إلى التساؤل: ألم ير الرسول فى منامه أننا سوف نؤدى العمرة؟ فكيف نعود من حيث أتينا دون أن نؤديها؟ فما كان من النبى إلا أن سألهم بدوره قائلا: وهل قلت لكم إنكم ستعتمرون هذا العام؟ فحسم بسؤاله ذلك حيرتهم وترددهم. وهو ما أشارت إليه آية سورة "الفتح": "لقد صَدَق اللهُ رسولَه الرؤيا بالحقّ: لتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء اللهُ آمنين محلِّقين رؤوسَكم ومقصِّرين لا تخافون. فعَلِم ما لم تعلموا، فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا".

ومثله كذلك ما رد به رسول الله على عمار بن ياسر حين أتاه فزعا تكاد روحه تزهق بعد أن نطق بكلمة الكفر تحت تأثير التعذيب البشع الذى صبه عليه كفار مكة، فما كان منه عليه السلام إلا أن سأله عن حال قلبه وما فيه من إيمان، فطمأنه بأن إيمانه باقٍ على قوته رغم اضطراره للنطق بكلمة الكفر فرارا من استمرار التعذيب الشنيع. فواساه الرسول وخفف عنه ومَرْهَمَ جراحَ ضميره مبينا له أنه ما دام إيمانه باقيا على حاله فى صدره فلا خوف. بل زاد فنصحه بأنهم إن عادوا إلى تعذيبه فلينطق أمامهم بما يسكتهم

عنه ويجعلهم يطلقون سراحه. ذلك أن العبرة فى الإسلام فى تلك الأحوال بالنية والقلب. كما أن ديننا لا ينتظر من البشر أن يتحول كل منهم إلى سوبر مان، إذ يعرف أن مُنَّتهم ضعيفة وأن لاحتمالهم قسوة العذاب حدودا ينتهى إليها مهما كان الواحد منهم شجاعا راسخ اليقين قادرا على التضحيات: "وخُلِق الإنسانُ ضعيفا"، "ما يفعلُ اللهُ بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟ وكان الله شاكرا عليما". والله فى الإسلام رب الرحمة واللطف والود والكرم، ورحمته تسبق دائما غضبه، وتسامحه مع عباده بلا حدود.

وعودةً إلى ما قالته كارلا باور نقول إن هناك دائما، لدن شرح أى نص، عدة شروط ينبغى الانتباه إليها ومراعاتها، وإلا فشل الشرح وابتعد عن المعنى الصحيح ابتعادا قد يصل إلى حد التناقض الذى لا يمكن جبره. ومنها احترام السياق، إلى جانب الذكاء والمرونة العقلية والإخلاص بطبيعة الحال، فضلا عن المعرفة الواسعة والعميقة بالموضوع المراد شرحه. والسياق فى موضوعنا ليس ضربا واحدا بل ضروبا: السياق اللغوى، والسياق التاريخى، والسياق القرآنى، والسياق الحديثى. فلا يصح أبدا أن يهجم هاجم على القرآن الكريم وهو لا يعرف العربية، أو يعرف العربية المعاصرة بينما يجهل العربية القديمة التى كانت سائدة أيام نزول الوحى على سيدنا رسول الله، وإلا لفسر "الذَّرَّة" مثلا على أنها الجزء المتناهى فى الصغر من المادة فى حين أن المقصود فى القرآن هو النملة الضئيلة، ولَفَسَّر "السيارة" فى قوله تعالى: "وجاءت سيارةٌ فأرسلوا وارِدَهم فأَدْلَى دَلْوَه" بالعربة ذات المحرك رغم أنها فى القرآن هى القافلة، ولَفَسَّر "الخير" فى قوله عز شأنه فى سياق الحديث عن الإنسان: "وإنه لِحُبِّ الخير لَشديد" على أنه نقيض الشر مع أن القرآن إنما يقصد به هنا الأموال والأملاك، ولفسَّر "الفرح" المنهىّ عنه بالسرور، فى الوقت الذى يريد به القرآن الغرور والبطر ونسيان الآخرة، ولفسَّر "اللَّعِب" لَدُنْ وصفه سبحانه للدنيا بأنها "لعبٌ ولهوٌ" على أنه تصريف الطاقة فى الجرى والقفز وتمضية الوقت فى السباق البدنى والعقلى وما إلى ذلك بغية تنشيط الجسم والعقل والتسرية عن النفس، بينما يقصد القرآن أن حياة الأرض عابرة زائلة وغير جوهرية على عكس الآخرة بأبديتها وجوهريتها، ولفسَّر "اليد والوجه والعرش" بالنسبة لله على أنها اليد والوجه والعرش كما نعرفها فى حياتنا البشرية مع أنها تعنى قدرة الله وعظمته وسلطانه الشامل العميم على الترتيب، ولفسَّر "الجهاد" فى كل الأحوال بمعنى الحرب ضد الكفار الذين يريدون بالإسلام والمسلمين شرا رغم أن "الجهاد" هو بذل الجهد فى مواجهة الخصم أيا كان نوع هذا الجهد، ومن ثم فقوله تعالى لرسوله فى المرحلة المكية: "وجاهِدْهم به جهادا كبيرا" ليس معناه: حارِبْهم،

بل معناه: اجتهد بكل قوتك لإيصال الوحى إليهم وإقناعهم بصحة ما فيه وكسبهم إلى صف الإيمان بالحجة والموعظة الحسنة.

وبالمناسبة فأنت إذا ما سألت مصريا الآن عن معنى "الصعيد" فلن يخطر فى ذهنه سوى القسم الجنوبى من بلاده، وبالتالى كان من الصعب عليه، إذا لم يكن على علم بالأسلوب العربى القديم، أن يفهم أن المقصود بقوله عز شأنه: "فتَيَمَّموا صعيدًا طيبًا" هو الطاهر من التراب والرمل وما إلى ذلك... بل قد يكون قارئ القرآن صحابيا، وتفوته مع ذلك نكتة بلاغية مثلا فيخطئ فهم النص، كما وقع لعدى بن حاتم حين أخذ الآية القرآنية التالية على حرفيتها، ومن ثم أحضر خيطا أبيض وآخر أسود وظل يأكل فى خيمته كلما جاع طوال الليل إلى أن تبين له اللونان عند انتشار النور فى الآفاق، وفاته أن الآية إنما تعنى النور والظلام لا الخيطين المـاديين، إذ هى استعارة لا تعبير حقيقى. ونص الآية هو: "وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفَجْر"... وهكذا.

وكثير من القراء اليوم لن يفهموا بسهولةٍ التراكيب التالية: "وإنّ كُلًّا لمـّا لَيوَفِّيَنَّهم ربُّك أعمالَهم" (بمعنى أنهم بكل يقين سوف يوفيهم جميعا ربُّك أعمالهم)، أو "وإنْ كُلٌّ لمـّا جميعٌ لدينا مُحْضَرون" (ما منهم أحد إلا وسوف يُحْضَر إلينا)، "فلا تكن للخائنين خصيما" (لا تأخذ جانب الخائنين وتدافع عنهم)، "ولاتَ حينَ مناصَ" (لامَهْرَب ولا مَنْجَى لأحد فى ذلك الحين)، "وإنْ كادوا لَيفْتِنُونكَ عن الذى أوحينا إليك لِتَفْتَرِىَ علينا غيره" (لقد كادوا أن يفتنوك عن الذى أوحينا إليك...)، "الطفل الذين لم يظْهَروا على عورات النساء" (الأطفال)، "وكَأَيِنْ من قريةٍ هى أشدُّ قوةً من قريتك التى أخرجتكَ أهلكناهم" (ما أكثر الأمم التى كانت أقوى من أمتك، ورغم ذلك أهلكناهم)، "مما خطيئاتهم أُغْرِقوا" (بسبب خطاياهم تم إغراقهم)، "ولا تكونوا كالتى نقضتْ غَزْلَها من بعد قوةٍ أنكاثًا تتخذون أيمانكم دَخَلًا بينكم أن تكون أُمَّةٌ هى أَرْبَى من أُمَّة" (بُغْيةَ أن تكون أُمَّة هى أَرْبَى من أمة).

فهذا هو السياق اللغوى للنص القرآنى. أما السياق التاريخى فيأتى على رأسه "أسباب النزول"، إذ بدون الإحاطة بهذه الأسباب سوف نُلْفِى كثيرا جدا من المسلمين يصلّون متجهين إلى الجهة التى تعنّ لهم دون الالتزام بالقبلة اعتمادا على أن هناك آية تقول: "ولله المشرق والمغرب. فأينما تُوَلُّوا فثَمَّ وجهُ الله"، وفاتهم أن الآية إنما نزلت ردا على شعور بعض الصحابة بالحرج بعد اكتشافهم أنهم قد صَلَّوْا ذات ليلة فى غير اتجاه القبلة بسبب الظلام الدامس وخطئهم فى تحديد جهة الكعبة، فبين القرآن لهم أن العبرة بالنية والاجتهاد المخلص، وأنهم معذورون فى هذا الخطإ، وأن صلاتهم مقبولة. فهم، وإن كان استقبال

القبلة قد أفلت منهم، لم يفلت منهم الأجر لأن الله ليس هنا أو هاهنا بل وجوده مطلق غير منحصر فى أى اتجاه، وهو سبحانه قد قبل منهم صلاتهم نظرا لظروفهم القهرية.

وبدون الاستعانة بأسباب النزول سوف يشرب بعض المسلمين الخمر بناء على فهمهم لما تقوله الآية التالية من سورة "المائدة": "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُنَاحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوْا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتَّقَوْا وآمنوا ثم اتَّقَوْا وأحسنوا. والله يحب المحسنين"، وهو ما فعله أحد المسلمين على عهد عمر بناء على ما فهمه من ظاهر الآية، الذى يقول إنه ليس على المسلم حرج فى أكل أى شىء أو شربه ما دام تقيا محسنا يعمل الصالحات، بينما معناها الحقيقى غير ذلك. فقد تساءل بعض الصحابة أيامَ النبى عن مصير المسلمين الصالحين الذين ماتوا وكانوا يشربون الخمر، إذ لم تكن أم الخبائث قد حُرِّمَتْ بعد. فوَضَّح القرآن أنهم ناجون يوم القيامة لتقواهم وإحسانهم وعملهم الصالحات رغم أنهم كانوا يشربون المسكر. ذلك أن الإسلام لا يحاسب الناس بأثر رجعى، ولا عقوبة إلا بنص. وما دام النص القرآنى الخاص بتحريم الخمر لم يكن قد نزل بعد فليس على هؤلاء الصحابة حرج. كما أنه بعد نزوله لا ينسحب على الزمن الذى مضى. بل ما مضى قد مضى، وانتهى أمره. والمهم فى هذا كله هو التقوى والعمل الصالح سواء كان ذلك قبل تحريم الخمر أو بعده. فإن كان الشخص تقيا صالحا ومات وهو يشرب الخمر قبل تحريمها فهو ناجٍ، أما إن لم يكن تقيا ولا صالحا والتزم، لسبب آخر، بترك الخمر بعد تحريمها فليس من الناجين.

وفى قوله تعالى جَدُّه: "إن الصفا والمروة من شعائر الله. فمَنْ حَجَّ البيتَ أو اعتمر فلا جُنَاح عليه أن يطَّوَّف بهما" يمكن جدا أن يظن كثير من المسلمين أن السعى بين الصفا والمروة هو فى أحسن أحواله غير محرَّم لكنه غير واجب، استنادا إلى ظاهر الآية من أنه ليس هناك إثم على الساعى بينهما، وهو ما يفهم منه أن هذا كل ما هنالك بحيث إذا لم يسْعَ الحاجُّ بينهما فلا جُنَاح عليه من باب الأَوْلَى. لكن سبب نزولها يقلب المعنى رأسا على عقب، فقد كان بعض الصحابة يتحرج من ذلك السعى نظرا إلى أنه كان فوق كل من التلين صنم فى الجاهلية، فظنوا أن من الأسلم عدم السعى بينهما تجنبا للتشبه بما كان يصنعه الوثنيون آنئذ. وفاتهم أن الصنمين قد أزيلا، وعاد السعى بين التلين إلى وضعه الأصلى قبل انحرافه على أيدى أهل الجاهلية. فالآية لا تقول عن السعى إنه لا بأس به، بل تزيل ما حاك فى نفوس بعض الصحابة من أنه إحدى شعائر الوثنية، أما حكمه فباقٍ على الوجوب.

وأما السياق القرآنى فمعناه أنه يجب النظر إلى أى نص من كتاب الله فى ضوء النصوص القرآنية التى ترسم الخطوط العامة للإسلام، وبخاصة تلك التى تتعلق بموضوع النص المراد تفسيره. ولنأخذ مثالين على ما نقول: فأما المثال الأول فله صلة بما كتبه ابن سلام فى مقدمة كتابه: "طبقات الشعراء" عن النحل والانتحال فى الشعر الجاهلى، إذ كان من رأيه أن ما بلغنا من أشعار لعاد وثمود هى أشعار منحولة لهاتين القبيلتين زورا وبهتانا. وحجته فى ذلك، وهو ما يهمنها هنا، أن القرآن قد أخبرنا أنهما قد أبيدتا عن آخرهما طبقا لما جاء فى سورتى "النجم" و"الحاقة". ومن ثم فالسؤال هو: من يا ترى حفظ أشعارهما وأداها إلينا رغم أن أحدا لم يبق منهما؟ وقد كنت، إلى بضع سنين مضت، أمرّ على تلك الحجة موافقا تمام الموافقة مَثَلِى مَثَلُ جميع الباحثين الذين تناولوا ابن سلام ونظريته فى النحل والانتحال، إذ بدا لى، فى مناسبة لا يهم القارئ ذكرها هنا، أن أراجع ما قاله القرآن عن عاد وثمود، فألفيته يقول بمنتهى الوضوح والصراحة فى سورة "هود" إن الله قد نجى كلا من هود (نبىّ عاد) وصالح (نبىّ ثمود) والذين آمنوا معه. وهو ما يعنى أن حجة ابن سلام باطلة تمام البطلان، وأنه لا يصح الارتكان إلى دعوى تدمير هاتين القبيلتين لأنها دعوى متهافتة لا حقيقة لها. والسبب هو أن ابن سلام توقف إزاء نصين قرآنيين يذكران أن تينك القبيلتين لم يتبق منهما باقية، مغفلا نصين آخرين يوضحان أن الذين تم تدميرهم إنما هم الكفار المعاندون من القبيلتين لا كل القبيلتين. لكن هذا لا يعنى بالضرورة أن ما بلغنا من شعر منسوب لعاد وثمود هو شعر صحيح، بل تلك قضية أخرى.

وأما المثال الآخر فيتعلق بالقتال. وفى هذه الأيام يتَّهَم الإسلام دائما بأنه دينٌ عدوانىٌّ يسارع إلى قتال أعدائه بل إلى قتلهم. ويشَار فى هذا الصدد إلى قوله تعالى مثلا فى سورة "التوبة": "فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلَّ مَرْصَد" وقوله جل جلاله من ذات السورة: "قاتِلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُه ولا يدِينون دينَ الحق من الذين أُوتُوا الكتابَ حتى يعطُوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون". وفات من يشير إلى تَينِك الآيتين وأمثالهما قوله تعالى: "وقَاتِلُوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين"، "وإن عاقبتم فعَاقِبوا بمِثْل ما عُوقِبْتم به. ولَإِنْ صبرتم لَهُوَ خيرٌ للصابرين"، "وإنْ جَنَحُوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكل على الله".

كما أن قوله تعالى فى سورة "التوبة": "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيوْمِ الْآخِرِ وَلَا يحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يعْطُوا الْجِزْيةَ عَنْ يدٍ وَهُمْ

صَاغِرُونَ" الخاص بقتال أهل الكتاب ليس فى الأمر بقتالهم من الباب للطاق، بل فى قتال الروم، الذين كانوا يعِدّون العدة للهجوم على المسلمين والقضاء على دينهم. أما الآية الخامسة من ذات السورة: "فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" فهى فى المشركين الذين كانت بينهم وبين المسلمين معاهدات سياسية بالموادعة لمدة معلومة غدروا بالمسلمين وحلفائهم بعد توقيعها بقليل وقتلوا منهم طائفة دون أن يكون المسلمون ومن حالفوهم قد أساؤوا لهم قط. ومع هذا فإن القرآن لم يقل للمسلمين: هيا اهجموا عليهم فى الحال. بل قال: أعطوهم مهلة أربعة أشهر يتنقلون فيها بطول البلاد وعرضها حسبما يحلو لهم دون أن تتعرضوا لهم بشىء. بل زاد فأوجب على المسلمين أنه متى أتاهم آتٍ من الكفار يستجير بهم فَلْيجِيروه حتى يسمع كلام الله ثم فلْيبْلِغوه المكان الذى يأمن فيه على نفسه تمام الأمان. ثم بعد ذلك كله حين تنتهى مهلة الأشهر الأربعة فعاقبوهم وأذيقوهم من نفس الكأس التى أذاقوا منها إخوانكم المغدور بهم. ومعروف أن المسلمين لم يقتلوا أحدا من المشركين عندئذ، وكأن الآيات قد نزلت للترهيب وتحطيم الروح المعنوية لديهم ليس إلا. وعلى كل حال فقد تسارعت وتيرة الأحداث، وتم فتح مكة، ثم دخل أهلها فى دين الله، لينتشر الإسلام بعدها بإيقاع أسرع حتى عم ضياؤه بلاد العرب جمعاء. فأين العدوانية هنا؟ ولن نتكلم عن راية السلم التى ظل المسلمون يرفعونها طوال الفترة المكية أيام كان الاضطهاد والأذى يحيق بهم من كل جانب وفى كل لحظة.

ويؤيد كلامَنا ما ذكره رسول الله فى بعض أحاديثه كقوله: "لاتَتَمَنَّوْا لقاء العدو. فإذا لقيتموهم فاثْبُتوا"، إذ لو كان قتال غير المسلمين واجبا من الباب للطاق لكان تمنى لقاء العدو مكرمة لا يمكن أن ينهى عنها النبى عليه السلام. وفى واقعة الحديبية قال صلى الله عليه وسلم عن المشركين وتعنتهم معه هو وأتباعه: "والذى نفسى بيدِه لا يسألونِّى خُطَّةً يعظِّمون فيها حُرُماتِ اللهِ إلَّا أعطَيْتُهم إياها" مؤكدا أنه لن يبدأ أبدا بعدوان وأنه سوف يصابر المشركين إلى أبعد مدى. بل إنه، حين بلغه أن قريشا قد أقبلت تريد مقاتلته وصده عن زيارة البيت الحرام بالقوة الغشوم، أعلن قائلا: "إنَّا لم نجِئْ لقتالِ أَحدٍ، ولكنَّا جِئْنا معتمرين. فإنَّ قريشًا قد نهَكَتْهم الحربُ وأضرَّت بهم. فإنْ شاؤوا مادَدْتُهم مدَّةً ويخَلُّوا بينى وبينَ النَّاسِ: فإنْ ظهَرْنا وشاؤوا أنْ يدخُلوا فيما دخَل فيه النَّاسُ فَعَلُوا وقد جَمُّوا. وإنْ هم أَبَوْا فوالَّذى نفسى بيدِه لأُقاتِلَنَّهم على أمرى هذا حتَّى تنفرِدَ سالفتى أو لَيبْدِيَنَّ اللهُ أمرَه". فكما ترى كان عليه السلام

حريصا على السلم إلى آخر المدى، أما الحرب فعندما لا يكون من الحرب مناص. وقد تجلى ذلك فى المعاهدة التى كتبت بينه وبينهم، إذ قَبِل الشروط المجحفة التى أملاها المشركون على المسلمين، وساءت كثيرا من الصحابة، ومع هذا ظل الرسول على موقفه.

ثم إذا كانت سياسة القرآن هى العدوان على المخالفين مهما كانوا له من المسالمين فلِمَ كتب النبى عليه السلام صحيفة المدينة إرساءً لأسس التعايش السلمى بين فئات سكانها من أوس وخزرج ومهاجرين ويهود؟ لقد كان الأحرى به أن ينقضَّ على اليهود فور هجرته قبل أن يستفيقوا فيقضى عليهم بكل سهولة وسلاسة. ولماذا لم يقتل مشركى مكة لدن الفتح منتهزا ما كانوا عليه عقيب ذلك من ضعف وتهافت بعد الهزيمة النكراء التى حلت بهم؟ لقد كانت كلمته لهم: "اذهبوا، فأنتم الطُّلَقاء"، تلك الكلمة التى سكنت مسامع التاريخ ولم تغادرها منذ ذلك اليوم الخالد. وقد رفض صلى الله عليه وسلم ما ردده أحد الصحابة اليثربيين حين قال فى ذلك اليوم العصيب تعبيرا عن نيته فى تطيير رؤوس المكيين عند دخوله المدينة المقدسة: "اليومَ يومُ الملحمة. اليومَ تُسْتَحَلّ الحرمة"، ونهاه عن ذلك، ونحاه عن القيادة فورا. وهذه الأمثلة تبين لنا وجوب الاستعانة على تفسير القرآن بالسياق الحديثى أيضا.

ومن هذا الباب كذلك ما رواه المغيرة بن شعبة فى قوله: "لما قدمتُ نجرانَ سألونى فقالوا: إنكم تقرأونَ: "يا أُخْتَ هَارُونَ"، وموسى قَبْلَ عيسى بكذا وكذا. فلما قدمتُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألتُه عن ذلك، فقال: إنهم كانوا يسَمُّونَ بأنبيائِهم والصالحين قبلهم". يقصد صلى الله عليه وسلم أن أم المسيح ليست أختا لهارون على الحقيقة، لكنْ كان من عادة الإسرائيليين أن ينسبوا ناسا منهم إلى المشاهير الماضين من بنى جلدتهم رغم انتفاء صلات الدم بين الطرفين. وهو ما تقوله دوائر المعارف الكتابية من أن كلمات "أب وابن وأخ وأخت" كثيرا ما تستخدم فى الكتاب المقدس على نحو رمزى يدخل تحته بكل أريحيةٍ مناداةُ الإسرائيليين لمريم أم عيسى عليهما السلام بـ"يا أخت هارون" طبقا لما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام. ثم إن القرآن لم يقل إن مريم أخت هارون، بل ذكر أن بنى إسرائيل هم الذين نادوها بذلك.

وهذا فيما يتعلق بالأمور الدينية وما أشبهها، وإلا فتفسير القرآن أَحْرَى أن يستعين بكل ألوان المعارف والعلوم والفنون من تاريخ وجغرافية وطب وفلك وكيمياء وفيزياء ونفس واجتماع وتربية ونحت وتصوير... إلخ. وقد كنت فى صغرى مثلا أمرّ على قوله تعالى فى سورة "الفجر": "إِرَمَ ذاتِ العِمَاد * التى لم يُخْلَقْ مثلُها فى البلاد * وثمودَ الذين جابوا الصخر بالْوَادِ" فلا تستثير منى انفعالا ولا

تُحَصِّل منى التفاتا، إذ كنت آنئذ لا أحقق معنى الكلام عن إِرَم ولا أفهم وجه تميز عمادها، كما لم أكن أتصور أن ثمود قد فعلت أكثر من إحداث فتحات بدائية فى الجبال وتحويل باطنها كهوفا ساذجة يسكنونها، إلى أن قرأت منذ بضعة عشر عاما أن إِرَمَ كانت متقدمة فى فن العمارة حتى لقد كانت أعمدة مبانيها أضخم أعمدة فى زمنها. وبالمثل لم تكن ثمود تسكن مغاور وكهوفا وحشية فى جوف الجبال بل نحتت فيها قصورا رائعة مزخرفة بديعة مما لا يستطيعه كثير منا اليوم. وقد رأيت صورا لبعض تلك القصور فشُدِهْتُ لما شاهدتُ. والفضل فى هذا وذاك إنما يرجع إلى تقدم عِلْمَيِ التاريخ والجغرافية واكتشافاتهما المذهلة التى لا تتوقف. ومن هنا صككت شعارا علميا فى كتابى: "مسير التفسير" هو "كل العلوم فى خدمة التفسير".

كذلك فقوله تعالى فى معرض الحديث عن خلق الجنين وأطوار تشكله: "يخلقكم فى بطون أمهاتكم خَلْقًا من بعد خَلْقٍ فى ظُلُماتٍ ثلاث" يمكن تصوره عن طريق علم التشريح. فكما قرأت فى بعض المواقع العلمية: "يحاط الجنين فى داخل الرحم بمجموعة من الأغشية هى من الداخل إلى الخارج كما يلى: غشاء السلى أو الرهل (amnion)، والغشاء المَشِيمِىّ (chorion)، والغشاء الساقط (Decidua). وهذه الأغشية الثلاثة تحيط بالجنين إحاطة كاملة فتجعله فى ظلمة شاملة هى الظلمة الأولى. ويحيط بأغشية الجنين جدار الرحم، وهو جدار سميك يتكون من ثلاث طبقات تحدث الظلمة الكاملة الثانية حول الجنين وأغشيته. والرحم المحتوى على الجنين وأغشيته فى ظلمتين متتاليتين يقع فى وسط الحوض، ويحاط إحاطة كاملة بالبدن المكون من كلٍّ من البطن والظهر، وكلاهما يحدث الظلمة الثالثة تصديقا لقول ربنا تبارك وتعالى".

وهناك قوله تعالى من سورة "فاطر": "وما يستوى البحران: هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُه، وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ. ومن كُلٍّ تأكلون لحمًا طريا وتستخرجون حلية تلبسونها". ورغم أن الآية تقول بصريح العبارة: "ومن كُلٍّ (أى من كل من البحر الملح والبحر العذب، وليس من الملح فقط)... تستخرجون حلية تلبسونها" نقرأ فى تفسير الطبرى (القرن الرابع الهجرى): "تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا: يعنى الدرّ والمرجان. تستخرجونها من الملح الأجاج". وفى تفسير أبى السعود (القرن العاشر الهجرى) نقرأ ما يلى: "قوله تعالى: وَمِن كُلّ (أى من كلِّ واحدٍ منهما) تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيا، وَتَسْتَخْرِجُونَ (أى من المالح خاصَّةً) حِلْيةً تَلْبَسُونَهَا". ويقول الشوكانى (القرن الثالث عشر الهجرى): "وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيةً تَلْبَسُونَهَا: الظاهر أن المعنى "وتستخرجون منهما حلية تلبسونها". وقال المبرّد: إنما تستخرج الحلية من

المـالح. وروى عـن الزجاج: أنه قـال: إنـما تـستخرج الحلية منهما إذا اختلطا لا من كل واحد منهما على انفراده. ورجح النحاس قول المبرّد".

ويقـول الطباطبـائى (وهـو مفـسر معـاصر) فى تفـسير "الميـزان": "والحليـة المـستخرجة مـن البحـر اللؤلـؤ والمرجان والأصداف... فظاهر الآيـة أن الحلية المستخرجة مشتركة بين البحـر العـذب والبحـر المـالح، لكن جمعا من المفسرين استشكلوا ذلك بأن اللؤلـؤ والمرجان إنما يستخرجان من البحر المـالح دون العذب. وقد أجابوا عنه بأجوبة مختلفة منها أن الآية مَسُوقَة لبيان اشتراك البحرين فى مطلق الفائدة، وإنِ اختصّ ببعضها، كأنه قيل: ومِنْ كُلٍّ تنتفعون وتستفيدون كما تأكلون منهما لحما طريا، وتستخرجون مـن البحـر المـالح حليـة تلبسونها، وتـرى الفلـك فيـه مـواخر. ومنهـا أنـه شـبه المـؤمن والكـافر بالعـذب والأجاج، ثم فضَّل الأجاج على الكافر بأن فى الأجاج بعض النفع، والكافر لا نفع فى وجوده. ومنها أن قولـه: "وتـستخرجون حليـة تلبسونها" مـن تتمـة التمثيـل عـلى معنـى أن البحـرين، وإن اشـتركا فى بعـض المنـافع، تفاوَتـا فيـما هـو المقـصود بالـذات لأن احـدهما خالطـه مـا خـرج بـه عـن صـفاء فطرتـه. والمـؤمن والكافر، وإن اتفقا أحيانا فى بعض المكارم كالشجاعة والسخاوة، متفاوتان فيما هو الأصل لبقاء أحدهما على صفاء الفطرة الأصلية دون الآخر".

أما عبد الله يوسف على فنراه، فى تعليقه على هذه الآية فى ترجمته الإنجليزية للقرآن المجيد، يذكر مـن الحـلى البحـرى اللؤلـؤ والمرجـان، ومـن الحـلى النهـرى العقيـق وبـرادة الـذهب وغيرهمـا. وفى مـادة "Pearl" من "Encyclopaedia Britannica" أن اللؤلؤ يوجد أيضا فى المياه العذبة. أما "المنتخب فى تفسير القرآن الكريـم" فيقول فى الهامش المخصص لتلك الآية: "قد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرا للحلى، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك. أما اللؤلؤ فإنه، كما يستخرج من أنواع معينة من البحر، يستخرج أيضا من أنواع معينة أخرى من الأنهار، فتوجد اللآلئ فى المياه العذبة فى إنجلترا وأسكتلندا وويلـز وتـشيكوسلوفاكيا واليابـان... إلـخ، بالإضـافة إلى مـصايد اللؤلـؤ البحريـة المـشهورة، ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالمـاس، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة بالبرقة. ويوجـد اليـاقوت كـذلك فى الرواسـب النهريـة فى موجـوك بـالقرب مـن بانـدالاس فى بورمـا العليـا. أمـا فى سيام وفى سيلان فيوجـد اليـاقوت غالبـا فى الرواسـب النهريـة. ومـن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة منتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال وسيبيريا) وهو فلورسيليكات الألمونيوم، ويغلب أن يكون أصفر

أو بنيا. والزيركون (circon) حجر كريم جذاب تتقارب خواصه من خواص الماس، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية".

ومع هذا فإن بعض المترجمين الأوربيين فى العصر الحديث قد استبعدوا أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحُلِىّ. وقد تجلى هذا فى ترجمتهم لهذه الآية: فمثلا نرى رودويل الإنجليزى يترجم الجزء الخاص بالحلى منها هكذا: " Yet from both ye eat fresh fish, and take forth for you ornaments to wear. ". وعبارة "from both" تصلح لترجمة آية سورة "الرحمن": "يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان"، لكنها لا تصلح لترجمة هذه الآية. كذلك ينقل رودى باريت هذه العبارة إلى الألمانية على النحو التالى: " Und (aus dem Salzmeer) geurnnt ihr scmuck… um ihm euch anzulegen. وترجمته: "وتستخرجون (من البحر المالح) حلية تلبسونها". ويرى القارئ أن المترجم قد أضاف من عنده بين قوسين عبارة: "من البحر المالح: aus dem Salzmeer"، وهو ما يشير إلى استبعاده أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر اللؤلؤ والعقيق وغيرهما من أنواع الحلى على ما تقول الآية الكريمة. أما ترجمة سيل وبالمر (الإنجليزيتان)، وترجمتا كازيمريسكى وماسون (الفرنسيتان)، وكذلك ترجمتا ماكس هننج ومولانا صدر الدين (الألمانيتان) على سبيل المثال، فقد ترجمت كلها النص القرآنى كما هو، ولكنها لزمت الصمت فلم تعلق بشىء. فمن الواضح أن الاستعانة بالعلوم الطبيعية يمدّنا بالتفسير الصحيح لكثير من آيات القرآن الكريم. والسبب فى كل هذا أن القرآن كتاب لكل العصور ولكل البيئات وأنه كتاب إلهى، وليس من تأليف محمد، وإلا لكان انعكاسا لمستوى بيئته وعصره ثقافيا وحضاريا ولامتلأ بالأخطاء كما تمتلئ كتبنا بها مهما تحرَّزْنا ودَقَّقْنا ومَحَّصْنا.

وقد نقلت الكاتبة عن د. أكرم ندوى الهندى المسلم أنه ينبغى مواجهة القرآن مباشرة دون أن نشغل أنفسنا بما كتبه الفقهاء والمفسرون حوله توضيحا وشرحا. وقد سمعنا هذا الكلام أيضا من جمال البنا، الذى يقصد إهمال كلام العلماء حول كتاب الله تماما ودخول كل من هب ودب على الكتاب المجيد دون أدوات تساعد على فهمه. فإن كان د. أكرم ندوى يجرى فى ركاب البنا فهذا ضلال علمى مبين. أما إن كان مقصده أن الواجب علينا، بعد الاطلاع على ما قاله الفقهاء والمفسرون فى كتاب الله، الاجتهاد فى ألا يقف ما قالوه حائلا بيننا وبين كتاب الله فلا نزيد عن تكرير ما قالوه بعُجَره وبُجَره ولا نأتى بشىء جديد أو صحيح، ويكون ما وصلنا إليه هو مجرد اجترار لما قيل من قبل مهما يكن خاطئا أو ضعيفا فأنا حينئذ معه، ولكن بشرط أن يكون الشخص أهلا لهذا الأمر علما وعقلا وإخلاصا. ويمكننى

أن أضرب مثالا على ما أقول. فلقد غبرعليَّ زمان كنت أردد فيه ما درستُه فى الفقه الشافعى وأنا ولد صغير فى الأزهر من أن المسح بالتراب على اليدين ينبغى أن يكون إلى المرفقين قياسا على التوضؤ مع أن آيتَيِ التيمم تتكلمان عن مسح اليدين لا غير دون أن تحددا ذلك بكلمة "إلى المرفقين"، التى وردت فى آية الوضوء. كذلك كنت أتصور أن التيمم فى السفر لا يصح إلا إذا عدم الماء مع أن الآيةلا تقول ذلك بل تسوق السفر والمرض وعدم الماء أسبابا ثلاثة تجيز التيمم، وإلا لأشارت إلى عدم الماء وحده دون النص على السفر. وقد نبهنى إلى ذلك ما كتبه الشيخ محمد عبده والشيخ شلتوت فى هذه النقطة، وألفيت ما كتباه مقنعا أشد الإقناع، فأخذت به من يومئذ.

وأيا ما يكن الأمر فهل القرآن وحده ينفرد بهذا الذى قالته المؤلفة الأمريكية عن اختلاف الناس فى فهمه؟ أبدا، بل هذا يصدق على كل كتاب: سواء كان كتابا دينيا كالكتاب المقدس، وهو كتاب الأمة التى تنتسب المؤلفة إليها، أو أى كتاب آخر. وعندنا مثلا، فى مجال الأدب والنقد، وهو مجال تخصصى الأكاديمى، ما قاله أرسطو حول "التطهير"، الذى تقوم به المسرحيات بالنسبة للمشاهدين. لقد اختلف النقاد ومؤرخو الآداب فى تفسير هذه الكلمة على مدى القرون. كما أخطأ المترجمون العرب القدماء فهم كلامه فى كتابه: "فن الشعر" عن المأساة والملهاة فى المسرح ظنا منهم أنه يعنى المديح والهجاء فى الشعر الغنائى، الذى لم يكن العرب يعرفون من الشعر غيره. وهو ما ترتب عليه أن كتب ابن رشد كلاما عجيبا غريبا ما أنزل الله به من سلطان فى ذلك الموضوع، وجعلتُه أنا محورا من محاور كتابى: "ابن رشد- نظرة مغايرة" حيث أوضحت التخبط الفاحش الذى تخبطه الفيلسوف القرطبى لعدم تأنيه أو إعماله مبدأ التشكك فيما لا يحسنه ولايعرف عنه شيئا واندفاعه فى هوج وثقة فى غير موضعهما مرافئا أرسطو على كل ما قاله رغم أنه لا يعرف عَمَّ كان الفيلسوف الإغريقى يتحدث، فأتى بالعجب العجاب مما كان كفيلا بأن يتجنبه لو اعتصم بالتريث والتنبه إلى أنه يقدم على أمر ليس له فيه عير ولا نفير ولا أثارة من علم.

واختلف محمود شاكر وطه حسين وعبد الغنى الملاح وأنا حول نسب المتنبى: فطه حسين يزعم أنه أتى إلى الدنيا ثمرة اعتداء من أحد الجنود القرامطة على أمه. وشاكر يقول إنه ابن لأحد العلويين، وهو ما مد عبد الغنى الملاح خيطه إلى النهاية مدعيا، إى والله، أنه ابن المهدى المنتظر ذاته. أما العبد لله فلم يرَ ما يدعوه إلى تنكب ما قاله القدماء من أن أباه كان سقاء. وقد بينت، فى كتابى: "المتنبى- دراسة جديدة لحياته وشخصيته"، تهافت ما قاله كل من طه حسين وشاكر والملاح وصلابة ما ذكره القدماء فى

هذا السبيل. كما اختلف النقاد ومؤرخو الأدب حول عقيدة المتنبى، فزعم لويس ماسينيون أنه قرمطى، وصال وجال وأتى بها حسبه براهين قاطعة على زعمه هذا، وتابعه على هذا الزعم بعض الكتاب العرب، وهو ما حفزنى على معاودة فتح ذلك الملف، فكانت الثمرة كتابا فى ذلك الموضوع نَفَى بكل قوةٍ وثقةٍ واطمئنانٍ قرمطية الشاعر الكبير اعتمادا على تحليل مرهق ومنطقى للظروف التاريخية والنصوص الشعرية والترجمات التى تركها لنا القدماء للرجل مما يجده القارئ فى كتابى: "المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام للويس ماسينيون– ترجمة وتعليق ودراسة إبراهيم عوض".

وغير خافٍ الاختلافُ حول مضمون رواية "وليمة لأعشاب البحر"، التى أثارت ضجة مصمة فى تسعينات القرن المنصرم، وانقسم النقاد حولها: فمَنْ كان على شاكلة حيدر حيدر فى اتجاهه السياسى والأيديولوجى دافع عن الرواية زورا وبهتانا مدعيا أنها لا تعادى الإسلام بل تدعو إليه وتعلى من شأنه، بينما رأى نقاد آخرون منهم العبد لله أنها تعادى الله ورسوله والإسلام وتتطاول على الذات الإلهية وتتجرأ على عِرْض النبى الكريم وأن ما يقال عكس ذلك هو هراء فى هراء، وقدموا الشواهد القاطعة على صدق ما يقولون.

ومنذ عدة أشهر وقع لى بحث عن معلقة امرئ القيس تناولها فيه صاحبه طبقا لأحد المناهج النقدية الأخيرة، فرأى فيها محاولة من الملك الضِّلِّيل للتعبير عن شعوره بالذنب تجاه أبيه، الذى كثيرا ما عصاه ودار على حل شعره وراء الغيد الحسان فى صحبة الصعاليك الذين لا يناسبونه ولا يناسبهم، وللتعبير كذلك عن رغبته فى التطهر من ذلك الإثم الملح على ضميره كما يقول البحث. ومن ثم فقد فسر الكلام عن المطر والسيل فى المعلقة المذكورة على أنه رمز إلى حرص الشاعر على ذلك التطهر. وفاته بكل بساطة أن القصيدة إنما قيلت أيام صعلكة الشاعر وجريه مع نزواته إلى آخر مدى تحديا لرغبة أبيه الملك فى أن يتصرف ابنه تصرف أبناء الملوك، أى قبل مقتل الأب. وبالتالى فلا شعور بالإثم ولا يحزنون. وهذا هو السياق التاريخى الذى كان على الباحث استصحابه لدن كتابته بحثه، لكنه لم يفعل، بل انطلق مفتونا بالمنهج النقدى الجديد الغريب الاسم، فوقع فيما وقع فيه من غلطة بلقاء لا تغتفر، مثلما وقع فيها من راجعوا له البحث عند نشره فى إحدى المجلات المحكَّمة، إذ لم يتنبهوا إلى ما صنعه الباحث فيردوه عن هذا الذى صنع ويطالبوه بإعادة كتابة البحث من جديد أو الانصراف عنه إلى غيره من البحوث المجدية.

كما قد فات الأستاذ الباحث أن القصيدة نفسها تحتوى على ما يدل على أن الشاعر، حين نظمها، كان مبتهجا بسلوكه متلذذا بإباحيته وخروجه على العرف والتقاليد مفاخرا بمغامراته المفحشة مع الفتيات وبالحصان الذى يركبه ويعتقد أنه أفضل حصان فى العالم، مثلما غاب عنه أنها لا تأتى على سيرة الأب ولا مقتله ولا التأثم جراء ذلك بكلمة واحدة من قريب أو بعيد. ثم هل كان الوثنيون فى بلاد العرب قبل الإسلام يعرفون معنى التطهر على هذا المنوال؟ لقد كان كل ما فعله امرؤ القيس عندما بلغه مقتل أبيه على يد رعاياه، وكان الشاعر وقتئذ يشرب الخمر، هو أن استمر يشرب تلك الليلة قائلا: "ضيعنى صغيرا، وحَمَّلَنى دمَه كبيرا! اليوم خمر، وغدا أمر!"، ثم تَرَكَ الشرابَ بعد تلك الليلة إلى أن مات وهو عائد من عند ملك الروم، الذى كان قد قصده ليعينه على أخذ الثأر لأبيه من قَتَلَته. وكان العرب فى مثل تلك الحالة يحرّمون النساء والاغتسال على أنفسهم إلى أن يدركوا ثأرهم. فكما يرى القارئ كان الأمر يجرى عند العرب على خلاف ما ظن الباحث. بل إن حنق الشاعر على أبيه وتحميله إياه المسؤولية هو أكبر برهان على أنه لم يكن يشعر بأى إثم يدعوه إلى التطهر، إذ كان المخطئَ فى نظره أبوه لا هو. وهذا كله إنما يدل على أن العبرة فى التأليف والكتابة لا مجرد استخدام المناهج النقدية الجديدة بل حسن التأتى للموضوع والإخلاص لأصول البحث العلمى. ومع هذا فيحسب للباحث أنه، حين لفتُّ نظره، خلال اتصاله بى هاتفيا من خارج البلاد، إلى الغلطة العنيفة التى سقط فيها، لم يكابر بل أقر بأنها قلة خبرة منه.

فإذا ما انتقلنا إلى الكتاب المقدس استطعنا أن نجد فيه التوحيد مثلما نجد فيه تعدد الآلهة والقول بأن هناك بشرا ينتسبون إلى الله بوصفه أباهم. كما نقابل فيه أشخاصا يصفهم ذلك الكتاب بالتقوى والبر، ويراهم آخرون زناة فسقة مجرمين ديايثة. وكلهم تقريبا أنبياء ورسل. كما نراه متناقضا فى تصوير العلاقة بين بنى إسرائيل والله رب العالمين: فهم أحباؤه خلقهم لنفسه شخصيا، وفى ذات الوقت نقرأ من لعناته عليهم وسبابه لهم ما لا يمكن أن يصدر إلا عن عدو مضطغن حاقد لا من أب على أبنائه أو حاكم على شعبه. ودعنا من التناقضات الحسابية والتاريخية والعقلية التى لا يمكن أن تنجبر أبدا مهما بُذِلَت فيها الجهود وتضافرت فى رتقها عبقرية العبقريين كما هو الحال فى ذلك الملك الذى مات وعنده أربعون عاما ليتولى عقب موته ابنه، الذى كان يبلغ من العمر آنذاك اثنين وأربعين عاما. إى والله!

أما بالنسبة إلى الأناجيل فقد اختلف النصارى فرقا وأحزابا يكفر بعضهم بعضا، وكل فرقة تتكئ على نصوص الإنجيل. فما العمل فى هذا؟ كما كان ملوك أوربا وقساوستها يعتمدون عليها فى تألههم

واستبدادهم على عكس ما يقال الآن من أن الرحمة بالشعوب وحكمها بالديمقراطية ينبعان من تلك الأناجيل نفسها. و هناك من الغربيين من يكذِّب بوجود المسيح، ومنهم من يتهمه بالدجل والشعوذة وترتيب الأمور مع بعض تلاميذه بحيث تبدو للسذج المغفلين معجزات عجيبة، ومنهم من اتهمه بالشذوذ الجنسى، ومنهم من يقول إنه قد تزوج مريم المجدلية. وهناك كذلك من يؤكد أنه نبى السلام والرحمة والمحبة، ومن يرى أنه قد أتى لينشر العداوة والخصام والكراهية بين الناس بل بين أبناء البيت الواحد. ومنهم من يرى أنه عصبى شديد الانفعال هجام شتام يثور ويسب لأتفه سبب، ومنهم من يراه على العكس من هذا وديعا مسالما ينصح أتباعه بإدارة الخد الأيسر لمن يصفعهم على خدهم الأيمن. وهو نفسه يقول فى الأناجيل إنه ما جاء لينقض الناموس، الذى أتى به موسى، لنفاجأ به عقيب ذلك ينقّض على ذلك الناموس تبديلا وإلغاء. وكل هذا وكثير غيره إنما يستند القائلون به إلى نصوص الأناجيل ذاتها.

وفى موضع آخر من الكتاب تسأل الكاتبة الأمريكية د. أكرم الندوى عن المراد بـ"المغضوب عليهم والضالين" فى قوله تعالى فى سورة "الفاتحة": "اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين" لتعرف كيف ينظر الإسلام إلى اليهود والنصارى. ترى هل تظن أن الإسلام يمكن أن يقر بصحة ما عليه الفريقان؟ إنه لو فعل ذلك لكان قد دق مسامير نعشه فى الحال. ذلك أن الإسلام قد أتى، ضمن ما أتى من أجله، لتوضيح الأخطاء العقيدية والتشريعية والمتصلة بسِيَر الأنبياء عندهم، وإلا ما أدانهم وشدد النكير عليهم. إلا أن ذلك شىء، والتفكير فى إكراههم على تغيير ما يؤمنون به شىء آخر لم يفكر الإسلام فيه لأنه ضد مبادئه العظيمة مِنْ تَرْك كل أهل دين وما يدينون به دون التدخل فى شؤون ضمائرهم انطلاقا من دعوته الملحة إلى حرية الاعتقاد والدين. وقد لخصت السيدة باور رأى د. أكرم الندوى فى أن "المغضوب عليهم والضالين" ليسوا هم اليهود والنصارى بالذات بل أى مسلم ينحرف عن صراط المتقين.

وكنت، قبل معرفتى بكتاب المؤلفة بأسابيع، قد سجلت فهمى لذلك الموضوع فى كتاب لى ذكرتُ فيه أنى أُوثِر القول بأنهم كل من تبين له أن محمدا رسول الله رب العالمين ثم عاند وتمرد وكفر، أو عصى وتجبر وسام البلاد والعباد سوء الطغيان والعذاب والاستبداد واجتيال الأموال. وهؤلاء أوسع من أن ينحصروا فى أهل الكتاب، بل يدخل فيهم الوثنيون والمجوس وعبدة الجمادات وعبدة البشر وعبدة الحيوانات والملاحدة، وكذلك العصاة المجرمون والمنافقون ممن ينتسب زُورًا ومَينًا إلى دين

محمد. وفى عصرنا هذا يمكن أن نضيف الماركسية والوجودية والنازية والفاشية، ومن أديان القدماء البوذية والكونفوشيوسية والشنتوية.

فكل من يتحقق من غير المتسبين إلى الإسلام أن الإسلام هو الدين الحق، ثم يتعامى عن ضيائه الباهر ويكفر بنبيه وكتابه ويعاديه فهو من المغضوب عليهم والضالين حتى لو لم يكن يهوديا أو نصرانيا. أما قصر التفسير على اليهود والنصارى فينبغى النظر إليه على أنه من باب التمثيل ليس إلا. وقد يكون السبب فى ذلك أن الإسلام فى عمره الباكر لم يجد فى طريقه سوى هاتين الديانتين اللتين عادتاه واصطدمتا به وحاولتا استئصاله، فكان من الطبيعى أن تتبادرا إلى ذهن مفسرينا الأوائل رضى الله عنهم. نعم ليس الغضب والضلال مقصورين على غير المسلمين مثلما أن الهدى والرضا ليسا منحصرين فينا نحن أتباع محمد عليه السلام. ألم يكن بين الأمم السابقة مؤمنون مطيعون مستقيمون ينصاعون لما يقوله رسلهم ويلتزمونه ويتمسكون به؟ أليس من بين المسلمين من يشايع أعداء وطنه ودينه، ومن يعمل بعكس تعاليم الإسلام عمدا وعن سبق إصرار وترصد؟ أليس بين المسلمين من يعيش هملا لا يعرف لحياته معنى ولا لوجوده غاية، فهو يأكل ويشرب ويتناسل ليس إلا، ويؤثر ما هو عليه من جهل وفوضى وقبح وتشوه وإجرام وتسيب وتبلد ولامبالاة وتمرد على القانون وبذاءة وقذارة ونتانة، على العلم والنور والنظام والانضباط وحساسية الشعور والاهتمام واليقظة والجمال والرقى والنظافة وطيب الرائحة، ويكره كل من يحاول مد يده إليه لانتشاله من تلك الظلمات المتراكبة التى يعشقها عشقا ويذوب فيها هياما وغراما؟ أليس بين المسلمين لصوص عتاة يختلسون من المال العام الملايين والمليارات ويتركون أممهم تتضور جوعا وعريا وبلا مسكن يليق بالآدميين؟ أليس بين المسلمين طغاة مجرمون سفاحون سفاكو دماء متغطرسون متألهون تافهون لا يرحمون شعوبهم ولايفكرون فى ترقيتها والأخذ بيدها فى مدارج الحضارة والتقدم، بل يعسفون بها عسفا ويعصرونها عصرا ويقتلون منها من يقتلون دون مبالاة بالعواقب ويأخذونها فى مغامرات شيطانية إلى الدمار والخراب بغير حسيب أو رقيب، ويمصون دماءها بلا شفقة أو رحمة؟ أليس بين المسلمين ثعالب منافقة خبيثة اتخذوا الدعوة الدينية محترَفا يأكلون به الدنيا أكلًا لمًّا، فهم يمالئون الظالمين ويضللون الجماهير ويشغلونهم بالتفاهات والشكليات والبهلوانيات وتفصيص الشعرة حتى لا يعرفوا شيئا عن الدور الحضارى العظيم الذى يقوم به الإسلام وتنتقل به الأمم التى تتخذه وتنتهج سبيله من الفقر إلى الغنى،

ومن ظلمات الجهل المتراكبة إلى ضياء العلم الباهر، ومن التبلد إلى التوثب، ومن استعذاب الظلم والاستبداد إلى التلذذ بطعم الحرية والمجاهدة فى سبيل نيلها.

ولا أتصور إلا أن هؤلاء داخلون مع المغضوب عليهم والضالين، فإن الله سبحانه لم يكتب النجاة فى الآخرة للإنسان لمجرد أنه قد نطق بالشهادتين. وإلا فما أسهل الإسلام والإيمان! وما أرخصه على كل من هب ودب! إلا أنه لا بد من التمييز بين غضب وغضب، وبين ضلال وضلال. فهناك درجات ودركات لكل شىء فى هذا الوجود، وعلى رأسه الحساب الإلهى. ثم لقد أطلق القرآن القول إطلاقا، فذكر: "المغضوب عليهم والضالين"، ولم يقل: "اليهود والنصارى". ترى ما الذى منعه من تعيينهم بأسمائهم التى نعرفها بدلا من هذا التعميم؟ إنه دائما ما يذكرهم بـ"اليهود والنصارى" حين يريد التفصيل، وبـ"أهل الكتاب" حين يريد جمعهما معا. فلم نأتى نحن ونحدد، وقد أطلق هو الكلام؟

كذلك فإن "الفاتحة"، التى ورد فيها ذكر "المغضوب عليهم والضالين" قد نزلت فى مكة مبكرا جدا قبل أن يصطدم الإسلام باليهود أو النصارى، بل قبل أن يبرز فى حياة الإسلام اليهود والنصارى، فكيف يهاجمهم الإسلام قبل تجريبه إياهم وظهور عداوتهم وبغضهم له؟ كما أن "الفاتحة" بطبيعتها سورة تجريدية، فهى تخلو من القصص والجدال والتفاصيل، وتكتفى بمناجاة الله حمدا واستعانة وطلب هداية، ولا تتحدث عن أحداث أو أشخاص، ومن ثم كان غريبا القول بأنها تدين اليهود والنصارى بوَسْم أولئك بـ"المغضوب عليهم"، وهؤلاء بـ"الضالين".

إلا أن المؤلفة لم تسترح إلى تفسير د. ندوى، وظلت تنقّب فى التفاسير والدراسات القرآنية المكتوبة بالإنجليزية حتى وجدت ما كتبه فضل الرحمن، وهو كاتب إصلاحى مسلم، من أن النجاة فى الآخرة، حسبما تنص الآية ٦٢ من سورة "البقرة" لا تقتصر على المسلمين فحسب بل تشمل معهم الصابئين واليهود والنصارى متى آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات، فعندئذ شعرتْ بالراحة العميقة ورجعتْ إلى ما كان عليه رأيها فى الإسلام من أنه دين واسع الأفق. وهذا ما كتبته عن تلك المسألة:

"I sat with my tower of tafsirs, finger-scanning index columns for "Al-Fatiha" and for "Quran—attitudes to Jews and Christians." I found some comfort in an introductory text by Fazlur Rahman, a great twentieth-century Muslim reformist. In Major Themes of the Quran, he cites a verse from the second sura: "Those who believe [Muslims], the Jews, the Christians and the Sabaeans—whosoever believe in God and the Last Day and do good deeds, they shall have their reward from their Lord, shall have nothing to fear, nor shall they come to grief." Ultimately, concludes Rahman, these words have an "obvious meaning," which is simply that those "from

any section of mankind—who believe in God and the Last Day and do good deeds are saved.” There. It was ultimately about belief in God, and being good. A flood of relief. That I could do. I regained my faith in Islam as being a force for harmony between faiths".

والحق أنْ لو كان الأمر كذلك ما كان هناك معنى لمجىء محمد ودعوته إلى الإسلام ولكذَّب القرآن نفسه بنفسه كما قلت، إذ يكفى أن يكون الشخص يهوديا أو نصرانيا أو صابئيا كى ينجو. والصواب أننا ينبغى أن نرقّم الآية التى تشير إليها الكاتبة: "إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" على النحو التالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". أى أن عندنا صنفين من الناجين يوم القيامة: المسلمين، الذين عبر عنهم القرآن بـ"الذين آمنوا"، ثم عندنا اليهود والنصارى والصابئون إذا كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات. فأما عمل الصالحات فلا مشكلة فيه، لكن المشكلة كلها تكمن فى معنى الإيمان بالله واليوم الآخر هنا.

ستقول لى: وكيف مَيزْتَ بين الفريقين على هذا النحو؟ فأجيبك أنه لا يعْقَل أن يقول القرآن عن قوم إنهم "آمنوا"، أى آمنوا بالله واليوم الآخر، ثم يدور على عقبيه مشترطا أن يكونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر، إذ هو شرط لا معنى له لأنه متحقق فى وصفهم بـ"الذين آمنوا". كذلك أرجوك أن تتمعن فى الآيات التالية من سورة "النساء": "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيرِيدُونَ أَنْ يفَرِّقُوا بَينَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيرِيدُونَ أَنْ يتَّخِذُوا بَينَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يفَرِّقُوا بَينَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا"، ولسوف ترى بنفسك أن من لا يؤمن ولو بنبى واحد هو كافر فى نظر الإسلام حتى لو آمن بسائر الأنبياء الآخرين. فما بالك إذا كان النبى المكفور به هو محمدا عليه السلام؟ ومعنى هذا أن اليهود والنصارى ليسوا من المؤمنين بالله ورسله. وبالمثل أرجوك أن تقرأ الآية التالية من سورة "الأنعام"، والكلام فيها عن القرآن: "وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَينَ يدَيهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يحَافِظُونَ". وهذا منطوق النص، أما مفهومه فهو أن من لا يؤمن بالقرآن ليس مؤمنا بالآخرة فى نظر الإسلام. فهل فى هذا ما يعيب الإسلام؟ أبدا، فكل دين يرى أنه هو المذهب الصحيح، وإلا لترك كل أهل دين دينهم ولم يتدينوا بشىء!

وهناك حل آخر يتمثل فى قوله تعالى من سورة "النساء": "وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يغْفِرُ أَنْ يشْرَكَ بِهِ وَيغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يشَاءُ وَمَنْ يشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا" وفى قوله عز شأنه: "لا يكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا" بما يعنى أن الحساب يوم القيامة سيكون بناء على مدى اجتهاد الشخص وإخلاصه فى البحث عن الدين الصحيح ومدى مساعدة الظروف أو معاكستها له. وعلى هذا فمن يبحث ويجدّ ثم لا تتضح له الصورة على حقيقتها فالله سبحانه عاذره. ومن اتضحت له الصورة ثم عاند وتمرد وأغلق قلبه عن نور الإسلام وكفر بمحمد فهو فى النار. أما من لم يسمع عن الإسلام ونبيه بتاتا، ومن ثم لم يؤمن به، فهل تظن أن الله سوف يحاسبه على ما هو خارج وُسْعِه وفوق طاقته؟ وبالمثل من لم يكن عنده من العقل ما يستقلّ به ويعرف أن ما يقال له عن محمد عليه السلام ودينه من الاتهامات الكاذبة كلام زائف مبطل فإن الله سبحانه وتعالى يأخذ وضعه هذا فى الحسبان. وبهذه الطريقة ينحل هذا الإشكال. وبهذا نرى مدى سماحة الإسلام وتفهمه لحال البشر وضعفهم ومحدودية قدراتهم وضغط الظروف القاسية عليهم.

أكرم ندوى

يدور الكلام فى هذا الفصل حول ما ذكرته الكاتبة فى الفصل الخاص بتعريف القراء بالدكتور أكرم ندوى، الذى توجد تقاطعات بين حياتى وحياته، وإن كان الفارق الزمنى بيننا من ناحية الميلاد بعيدا، إذ ولد عام ١٩٦٤م بينما ولدت أنا عام ١٩٤٨م، فهو فى سن قطاع كبير من تلاميذى، كما أن الفارق الجغرافى بين بلدينا أشد بعدا، فهو من الهند، وأنا من مصر. أما التقاطعات فهى أن كلينا ريفى قروى، وكلينا تعلم تعليما إسلاميا فى صغره، فقد حفظت القرآن فى الكتاب، وانتقلت حين بلغت الثانية عشرة إلى المعهد الدينى بطنطا، وإن كنت قد تركت الأزهر بعد حصولى على الإعدادية وحولت أوراقى إلى المدارس. وبالمثل تلقى هو تعليما دينيا، إلا أنه ظل يتلقى هذا اللون من التعليم. وبالمناسبة فإنى، رغم تركى الأزهر، قد عدت فى قسم اللغة العربية بآداب القاهرة إلى دراسة اللغة العربية والتفسير والحديث والتاريخ الإسلامى وما إلى ذلك مما له أشد الارتباط بالدين. كما درس كلانا اللغة الفارسية، إلا أننى قد أهملتها بمجرد تخرجى من الجامعة فنسيت كل ما تعلمته منها، وحين عدت إلى تعلمها من جديد على نفسى فى لندن بعد حصولى على الدكتورية من جامعة أكسفورد أواسط عام ١٩٨٢م طوال الشهرين اللذين عقبا ذلك، واستطعت التحدث بها بشىء من السهولة فسرعان ما أهملتها فور رجوعى من بريطانيا. والطريف أننى شرعت بعد ذلك فى تعلم الألمانية أنا وزوجتى فى معهد جوته بوسط القاهرة، لكنى للأسف قد أهملتها عند مغادرتى مصر للعمل سنة ١٩٨٩م بجامعة أم القرى بالسعودية رغم أنى آنذاك كنت أقرأ بشىء غير قليل من السهولة ترجمات القرآن بها.

كذلك ذكرت المؤلفة أن د. ندوى لم يكن مبهورا بما يراه فى أكسفورد من جمال الطُّرُز المعمارية وأبراج الكنائس وخضرة الأفنية المشذبة وما إلى ذلك، إذ كانت نزعته عملية. ولعلى، وأنا هناك، كنت إلى حد ما مثله. لا أقصد أنى لم أكن أقدّر ذلك، بل كنت أتقبله كأمر واقع لا أقف أمامه طويلا، فهو مبذول فى كل مكان. إلا أننى بعد عودتى ومقارنتى بين ما خلفته ورائى من نظافة ونظام وجمال واتساق وخضرة وتنسيق فى كل شىء وبين الفوضى والقبح والقذارة والضوضاء والتشويه الذى يطبع جميع مناحى حياتنا فى بلادنا بطابعه البشع صرت أتحرق شوقا إلى هذا الذى كنت أعيش وسطه دون أن أقدر النعمة العظيمة التى كنت فيها كما كان ينبغى أن أقدرها. ومن الواضح أن بعض الناس، حين يتعودون على الجمال والنظام، لا يعودون يتنبهون كثيرا إليه، اللّهم إلا إذا حُرِموه ووجدوا أنفسهم محوطين بنقيضه، فعندئذ تبدأ حسرتهم. وقد أكون أنا من هذا الصنف من الناس. إننى هنا لا أُعْلِى من شأن بريطانيا على حساب مصر، لكنى أُعْلِى واقعهم على واقعنا، الذى صنعناه بأيدينا ونشقى به ونظل نشكو

منه ليل نهار مع أن الحل فى أيدينا، لكن دون أن نحاول التغيير، وهو ليس بالمستحيل، وإن كان يتطلب جهدا وصبرا وتخطيطا وعزما وطول بال مما لا نريد أن نفعل شيئا منه كراهيةً، فيما يبدو، لأى شىء جميل، إذ من الواضح أننا فقدنا القدرة على تذوق الجمال او الهفوّ إليه. نعم فى الغرب أشياء بديعة، وعندنا أشياء زفت وقطران، ونستطيع أن نجعل بلادنا فى نظافة بلاد الغرب وجمالها وروعتها بل أفضل، لكننا نبدو وكأننا قد امتُصِصْنا حضاريا كما يعْصَر عود القصب تماما ولا يعود صالحا لأى شىء فيرْمَى به فى أكوام القمامة. ربما يبدو كلامى هذا قاسيا، لكن المتدبر المتعقل سوف يوافقنى عليه أو على كثير جدا منه. أكتب هذا وأنا ممرور حزين على بلادى وأمتى وحاضرنا وماضينا، وعلى مستقبلنا القريب على الأقل. ولكن ما العمل؟

وبالمثل أتفق والدكتور ندوى حول رفض الفتوى القائلة بعدم تعليم النساء القراءة والكتابة لمنعهن من تحبير الخطابات الغرامية. ليس ذلك فقط، بل إنى أرى مثل تلك الفتوى مناقضة لما يقوله الإسلام ورسول الإسلام، الذى حض على العلم ومجّده وحث المسلمين والمسلمات جميعا على وجوب طلبه. وهل هناك علم بدون قراءة وكتابة؟ ألم تكن بعض زوجات الرسول يقرأن ويكتبن؟ هل قال الرسول يوما إن القراءة والكتابة محرمتان على النساء؟ هل قال بوجوب لزوم النساء حالة الأمية التى نزلن بها من بطون أمهاتهن؟ ألم يقسم القرآن بالقلم؟ أم تراه أقسم بأقلام الرجال فقط، واستثنى الأقلام النسائية من ذلك؟ وهل القراءة والكتابة خطابات غرامية وحسب؟ أليس فى القراءة والكتابة قرآن وأحاديث وشعر وأدب وطب وفقه وكيمياء وفيزياء ورياضيات؟ هل البنات فى المدارس يتعلمن كتابة الخطابات الغرامية؟ ثم ماذا فى الخطابات الغرامية بين المرأة وزوجها مثلا إن غاب عنها وسافر فى تجارة أو طلب علم أو علاج أو حتى إن خاصمها أو خاصمته وغلبها الشوق إلى بيتها وأرادت العودة إلى دفء أحضان زوجها؟يا عالم! يا هوه!

إن هذا يذكرنى بطبيب شاب أزهرى قريب لى من الريف حديث عهد بالتخرج من الجامعة كنت أتحدث معه فى منتصف ثمانينات القرن الماضى عن وجوب زواجه، فقال إنه يريد أن يتزوج من فتاة أمية. فرددت مصدوما: بعد الشر! ولماذا أمية يا شيخ؟ فقال: حتى لا تكون عندها الفرصة لكتابة الخطابات الغرامية. فقلت له: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ومن قال إنها لا بد أن تكتب خطابات غرامية؟ ثم هل الفتاة الأمية لا تجرى فى دمائها الشهوة والعاطفة كما تجرى فى دماء المتعلمة؟ وهل الأمية أقدر على ضبط غرائزها ومشاعرها من التى تقرأ وتكتب؟ أليس للفتاة الجاهلة فم تستعمله فى توصيل

رسائلها الغرامية إن عدمت القدرة على الكتابة؟ أليس للفتاة الجاهلة أذنان كأذنى الحمار تستطيع أن تستقبل بهما الرسائل الغرامية إن عدمت القدرة على القراءة؟ إن المتعلمة على الأقل تتعلم فى المدرسة كم آية قرآنية مع كم حديث شريف، فضلا عن أنها تتعلم الصلاة فى دروس مادة الدين، أما الجاهلة فلا تعرف إلا الثرثرة مع أمها حول الزريبة والخبيز والطحين والجلة والفرن والكانون. فهل أنت تفضل هذا على ذاك؟ وكيف ستتفاهمان، وأنت طبيب، وهى جاهلة محدودة الأفق؟ ثم اقترحت عليه أن يتزوج إحدى بنات فلان الفلانى، وبيته مقابل لبيتهم عبر المصرف. وقلت له ضاحكا: ما عليك إلا أن تقطع المصرف بمياهه العطنة وما فيه من قاذورات ونُفَايات سباحةً إلى بيت جاركم فى البر الآخر وتدخل عليهم وملابسك تشرّ ماءً وسخًا عطنًا، فيكون هذا دليلا ملموسا على أنك تريد بحرقةٍ الإصهار إليه، وأنك غاوٍ، والغاوى ينقّط بطاقيته. ثم تركت الأمر عند هذا الحد لأعلم بعد فترة أنه خطب كبرى بنات ذلك الجار، وعَزَم البلدة كلها فى الفرح إلا العبد لله رغم أنى صاحب الاقتراح ورغم قرابتنا. أليست هذه بالله عليكم خيبة، وخيبة ثقيلة؟ أنا غلطان! يا ليتنى تركته يتزوج فتاة جاهلة! منه لله!

وبالمناسبة لا أحب أن تفوتنى الإشارة إلى أن اسم أخى الشيخ، وهو مُزَّمِّل، يذكّرنى باسم أول شاب مسلم قابلته فى لندن أول يوم لى هناك صيف ١٩٧٦م، إذ كنت قد نزلت بيتا من بيوت الشباب لأقضى فيه ليلتى لقاء خمسة جنيهات إسترلينية، وما إن وضعت شنطتى فى الغرفة المخصصة لى حتى سألتُ فتاة الاستقبال عن الطعام لأنى كنت جائعا، فقالت إنهم لا يقدمون سوى الفَطُور والمبيت. وعلىَّ أن أدبر أمرى بالبحث عن أى محل لا يزال مفتوحا بعد الخامسة والنصف أشترى منه شيئا يؤكل، وهو ما يمكننى أن أجده إذا ما ذهبت إلى الشارع الرئيسى مرورا بالمسجد. وما إن سمعت كلمة "مسجد" حتى قلت فى نفسى: جاءك الفرج يا مشتهى الطعام! فقد كانت إنجليزيتى ضعيفة جدا آنذاك لأنى إنما درست الفرنسية فى المدرسة والجامعة فى مصر، وتوقعت أن أجد عونا فى المسجد على نحو أو على آخر. وقد وجدت هناك الشاب الذى أومأت إليه آنفا، وكان نيجيرى الأصل فيما أذكر، واسمه مُدَّثِر أحد أسماء نبينا محمد عليه الصلاة والسلام مثل "مزمل". والاثنان اسما سورتين قرآنيتين متتاليتن تتحدثان عن النبى عليه السلام فى أبكر مرحلة من مراحل الوحى. وقد حل لى مدثر مشكلة الطعام، إذ قدم لى فى المسجد طبقا شهيا من البامية بالسمك، إلى جانب الأرز الأصفر، وإصبع موز هو أكبر إصبع رأيته فى حياتى آنذاك. ومن يومها وأنا أفضل هذا النوع من الموز.

وفى عام ١٩٨٩م ذهبت إلى السعودية للعمل بجامعة أم القرى- فرع الطائف، وهناك قرأت بالمصادفة إعلانا فى الصحف عن حاجة مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية إلى مشرفى رسائل جامعية محليين ليرْعَوُا الطلاب المنتسبين من منازلهم إلى المركز، فراسلتهم فى المعهد فاختارونى للإشراف على باحث فلسطينى، وكانت الرسالة عن د. غازى القصيبى ناقدا أدبيا. وكنت قد أصدرت كتابا كبيرا من ٦٠٠ ص بعنوان "أدباء سعوديون" احتل القصيبى فيه قريبا من مائة صفحة، فكان مرجعا لذلك الباحث الذى كتب رسالة قوية فى موضوعه. وفى ذلك الوقت تقريبا التحق د. أكرم الندوى بالمركز المذكور.

على أن المشابهة لا تقف عند هذا المدى، بل تمضى أبعد من ذلك. فقد تعرض الندوى، عند تقدمه لشغل وظيفة أستاذ بالمركز، لسؤال من مديره عن موقفه من قضية سلمان رشدى وكتابه عن الآيتين الشيطانيتين بغية استطلاع طِلْعه ومعرفة اتجاهه الفكرى. وكنت فى ذلك الحين قد أصدرت كتابا لى عن ذلك الموضوع. كما أننى قد تعرضت، حين تقدمت لشغل وظيفة مشابهة بكلية التربية بالطائف، لسؤال مشابه عن نجيب محفوظ وموقفى من فوزه بجائزة نوبل فى ذلك الحين. فكان جوابى أن محفوظ، شئنا أم أبينا، ينتمى لنا وننتمى له، وهو ابن العروبة والإسلام بغض النظر عن السبب الذى دفع الأكاديمية السويدية إلى إعطائه جائزتها السنوية فى الأدب، ومن ثم ينبغى لنا أن نفرح بحصوله على تلك الجائزة التى تأخرت عنه سنوات طوالا، إذ هو بكل يقين أفضل من بعض من فاز بها. كما أن فوزه بالجائزة فخر لنا نحن العرب والمسلمين. وأحسب أن الأستاذ الذى سألنى لم يخطر له أن يسمع هذا الجواب من متقدم لشغل وظيفة فى الجامعات السعودية فى الوقت الذى كان هناك حظر على أعمال محفوظ فى معظم دول العالم العربى بما فيها المملكة؟ ومع هذا فقد ظهرت علائم الارتياح عليه رغم أنه متخصص فى الدراسات الإسلامية لا الأدبية. وقد أعربت عن رأيى فى عبقرية نجيب محفوظ وتفوقه على كثير من نظرائه فى آداب العالم الأخرى فى أكثر من كتاب لى.

أما د. أكرم ندوى فكان رده على السؤال الخاص بموقفه من رواية سلمان رشدى والتظاهرات المشتعلة التى كانت تعج بها بريطانيا هو أنه ينبغى تجاهل الرواية تماما كأنها لم تكن، وأن التظاهر لا يفيد بشىء، فالله ورسوله لن يؤذيهما هذا الكتاب، أما المسلمون فإن تلك المظاهرات تؤذيهم بما وقع فيها من أعمال شَغْب وحرق للكتاب سَوَّأَتْ صورتهم فى أعين الرأى العام البريطانى. وكان المفروض، على العكس من ذلك، أن يهتبلوا تلك الفرصة ويقوموا بتصحيح صورة الإسلام المشوهة فى الغرب. ومن

جهتى فأنا أدين التظاهرات العنيفة وحرق الكتب، وأرى مثله أنه كانت هناك فرصة أمام المسلمين لتوضيح جوانب العظمة فى الإسلام، ولكنى لست مع تجاهل الكتاب ولا مع القول بعدم إيذاء الكتاب لله ورسوله. نعم، إن الله فوق الأذى، لكن المعنى هنا على المجاز، وقد قال الله تعالى فى سورة "الأحزاب": "إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة، وأعدَّ لهم عذابا عظيما"، كما قال فى سورة "التوبة" عن المنافقين: "ومنهم الذين يؤذون النبيَّ ويقولون: هو أُذُنٌ". ثم كيف يطلب الندوى من المسلمين إهمال كتاب رشدى وأمثاله فى الوقت الذى لا يهمل هو فيه الرد على من يقولون بوجوب ارتداء الرجال غطاء الرأس فى الصلاة أو حرمة تقصير المرأة المسلمة شعرها كما سوف نرى لاحقا؟ أترى هاتين المسألتين وأشباههما أهم من الرد على سلمان رشدى؟ إن هذا لعجيب!

ومن ناحية أخرى فأنا مع التظاهرات السلمية التى يعبر بها المسلمون عن ضيقهم بما يسىء إلى دينهم. ذلك أن المسلم لا يمكن أن يصمت إزاء ما يوجَّه من أذى إلى دينه، وإلا تبلدت مشاعرنا مع الوقت، وتجرأ عدونا على النيل من مقدساتنا مطمئنا إلى أننا سوف نصمت ولا نبالى، علاوة على أن الصمت يترك أثرا ضارا شديد الضرر بنفوس الضعفاء منا، فيختل إيمانهم مع الأيام. وعلى الكاتبين من أمثالنا أن يكتبوا مفندين ذلك السخف ومجهضين العدوان الموجه لديننا ونبينا وربنا وكتابه. وقد وضعتُ كتابا درستُ فيه الرواية من ناحية الأسلوب والبناء والتاريخ والجغرافيا وما فيها من بذاءات وألفاظ عارية ومنفّرة تثير الاشمئزاز. ولعلى أول من صاغ المصطلح الموازى للكلمة الإنجليزية الدالة على ذلك، وهو مصطلح "الخُرْئِية" فى مقابل "Scatology". كما أرجو أن أكون أول من حلل لغة رشدى فى روايته، وهو ما استغرق خمسين صفحة بالتمام والكمال من الكتاب. وقد ألفيتها رواية متهافتة سخيفة مفعمة بالبذاءات والقاذورات والنفايات والتجديفات، وعملا مفككا من الناحية الفنية لم تستطع بهلوانيات صاحبه أن تنقذه من هذا التفكك وتلك التفاهة.

وليس فى التظاهر فى بريطانيا أم الديمقراطية من عيب أو حرج. فليتظاهر المسلمون إذن معبرين عن موقفهم دون عنف أو تحطيم أو فوضى أو إحراق كتب. وهم فى هذا لا يأتون عملا شاذا ولا غريبا، فالتظاهر عند البريطان أمر اعتيادى كالأكل والشرب والتنفس يلجأون إليه كلما عن لهم أن يعربوا عن موقفهم فى قضية عامة. ومَثَلُهم فى هذا كمَثَل الغربيين جميعا. أم ترى التظاهر حلالا زلالا لهم، وحراما علينا دون البشر جميعا؟ ألم يقل الرسول: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان؟ وبطبيعة الحال لا يصح أن يغير المسلم منكرا بيده إذا كان

المنكر أمرا عاما تنظمه الدساتير والقوانين، لكنه يستطيع بكل يقين وبكل سهولة أن يغيره بلسانه فى مثل تلك القضية عن طريق الهتاف والانتظام فى مسيرة احتجاجية، إذ القانون فى صف المسلمين فى تلك الحالة، وما عليهم سوى أن يتفقوا على ميعاد التظاهرة وحجمها ونظامها ويبلغوا بذلك السلطات البريطانية، وهى من جانبها تؤمن التظاهرة وتحميها وترافقها طوال خط سيرها حتى تنتهى فعاليتها فينصرف كل إلى حال سبيله، وقد أدى واجبه نحو دينه واحترم البلد الذى يعيش فيه والقانون الذى يستظل بمظلته، وكان الله يحب المحسنين. أم ترى د. ندوى يريد أن يكمم أفواه المسلمين بالذات حتى لا يعبروا عن أفكارهم ومواقفهم؟ فَلِمَ يا ترى؟

نعم أعرف أن من المسلمين من يرى مثله إهمال الرواية وعدم الانشغال بها بأى حال بحجة أن الرد فى مثل تلك الحالة من شأنه نشر السِّبَاب الموجه إلى الدين والرسول على نطاق أوسع ولفت النظر إليه بحيث يتنبه إليه من لم يكن واعيا به. وعوضا عن أن نكون قد أطفأنا النار نزيدها اشتعالا والتهابا. لكن هذا إنما يصح لو كانت الرواية مجرد حديث جرى بين اثنين مثلا فى غرفة مغلقة لم يطلع على ما جرى فيها أحد ثالث. أمّا، وهى عمل منشور على نطاق واسع طُبِعَتْ منه نسخ بمئات الآلاف، وحِيطَ بدعاية رهيبة، فلا يصلح معها السكوت لأننا لو سكتنا عن الرد عليها لفُسِّر صمتنا بأنه عجز عن المواجهة، وثَبَتَتِ التهم المبثوثة فيها على الإسلام ونبيه. ومن ثمرة هذا أن يشك كثير من المسلمين فى أمر دينهم. أى أننا، بدلا من أن نجنبهم الفتنة طبقا لمنطق الداعين إلى الصمت والإهمال، قد عرَّضناهم لها أيما تعريض. ثم إن منهج القرآن الكريم فى هذا الموضوع هو منهج الصراحة والمواجهة وعدم الصمت. فما من كلمة وجهها الكفار أو اليهود أو النصارى أو المنافقون إلى النبى أو دينه إلا انبرى كتاب الله يرد عليها ويفندها ويسخر من أصحابها. وكان الرسول من جهته أيضا يفعل هذا. بل إنه عليه الصلاة والسلام كان يستعين بحسان وابن رواحة وكعب بن مالك فى الذَّبِّ عنه وعن دينه. ولو كانت خطة السكوت هى الخطة السليمة لكان عليه الصلاة والسلام أول من ينتهجها.

والواقع أن أى كتاب عدائى ضد الإسلام هو بمثابة قنبلة لا بد من تفكيكها قبل أن تنفجر فى الوجوه، وهذا يكون بالرد عليه وإظهار عواره من خلال الكتب والدراسات التى تُظْهِر أخطاء ذلك الكتاب وتبين بالحجة والبرهان والمنطق العلمى الصارم أنه كتاب تافه متهافت حتى تطمئن النفوس إلى دينها فلا تتزعزع عقيدتها. وأخيرا هل ينتهج الغرب هذا السبيل فى التعامل مع الدعاية المضادة لسياساته؟ إنهم فى الغرب يستبِقون الأحداث ويخططون لمواجهة ذلك قبل الهنا بسنة. ولهم فى ذلك

خطط وبرامج شيطانية تدل على يقظة لخصومهم وعمل دءوب على إفشالهم قبل أن يفكروا مجرد تفكير فى مناوأتهم. فلِمَ يقال لنا نحن بالذات إن التجاهل هو الوسيلة المثلى لمواجهة أمثال رشدى وروايته؟

وهنا أود أن أتريث قليلا أمام نقطة تتصل بهذا الموضوع، وهى عَزْوُ د. أكرم الندوى الفتوى التى أهدر بها الخمينى دم رشدى إلى دوافع سياسية، إذ كان الخمينى، كما يقول، قد باء بكراهية المسلمين حول العالم بعدما كانوا متحمسين له فى بداءة أمره، فأراد أن يسترد شعبيته المتقلصة من خلال فتوى تُظْهِره بمظهر المدافع عن الإسلام والرافض لأية إساءة توجَّه إليه. وأنا معه فى أن الفتوى لا معنى لها، ولكن باعتبار مختلف. فالفكر لا يواجَه إلا بالفكر. ثم إن رشدى رعية بريطانية، وليس لنا عليه من سلطان. فهل نحب أن تتصرف الدول الأخرى مع رعايا بلادنا بنفس الطريقة؟ كذلك من المعروف أن بريطانيا، بل والغرب كله، سوف يضربون نطاقا من الحماية حول سلمان رشدى يجعل الوصول إليه شبه مستحيل، وهو ما حدث، إذ لم تستطع يدٌ أن تنال منه منالا. ثم انتهى الأمر تماما مع الأيام ولم يعد هناك إهدار لدمه.

وقد غاب عن د. ندوى، فى تفسيره لإصدار تلك الفتوى، أن رشدى قد صور الزعيم الإيرانى تصويرا بشعا، إذ رسمه على هيئة وحش خرافى بشع يبعث على النفور والاشمئزاز. ذلك أن رواية سلمان رشدى تتألف من أربع قصص لا تربط أيةً منها بالقصص الأخرى صلة فنية أو مضمونية البتة. وتدور القصة الثانية من هذه القصص الأربع حول إمام يعيش فى لندن عيشة متقشفة بحيث لا يوجد فى المبنى الذى يشغل هو وأتباعه ثلاثة طوابق منه خمر ولا قمار ولا نَرْد ولا حتى صُوَر، اللّٰهم إلا صورة امرأة فى غرفة نوم الإمام العجوز. وهذا الإمام يمجد الماء، ويلعن صاحبة الصورة محتسية الخمر ودماء البشر: الإمبراطورة الإيرانية، ويلعن كذلك أغاخان، ويعلن أنه عندما ينتصر الماء سوف تسيل الدماء. ويبرز رشدى أثناء ذلك كيف أن كل ما يقوله الإمام فى غرفته المغلقة الشديدة الحرارة إنما هى أوامر تتحكم فى مصائر الآخرين.

وهو يصف الإمام بالضخامة وعدم الحركة قائلا إنه "حَجَرٌ حَيٌّ". ثم يمضى قائلا إن التاريخ هو عدو الإمام ولعبته، وإنه يرى فى "التقدم والعلم وحقوق الإنسان" ثلاث أكاذيب كبيرة، وإن العلم فى نظره ليس سوى وهم لأن خلاصة العلم موجودة فى القرآن، وليس هناك ما يمكن أن يضاف إليه بعد انتهاء الوحى على ماهوند. ويُنْطِق المؤلفُ بلالًا المؤذنَ مخاطبا الجموع بصوت هادر: الموت للإمبراطورة والنبيذ! أحرقوا كل الكتب، واستمسكوا فقط بالكتاب الذى أنزله جبريل على ماهوند،

والذى يفسره لكم إمامكم. ويسخر المؤلف من الإمام بقوله إنه يحرك العالم، لكنه هو لا يتحرك، وإن لحيته تبلغ الأرض، وتطيرها الريح فى كل اتجاه. ويصوره وقد تلفع بتلك اللحية وأرسلها على كتفه، ثم طار فى الجو ودار قليلا قبل أن يستقر على كتفى جبريل فاريشتا منشبا "براثنه" فى رقبته. وفى أثناء ذلك تظهر ساقا الإمام المغزليتان، وقد غطاهما شعر وحشى كثيف. وفى مشهد آخر نراه يتحول إلى وحش يرقد فى الفناء الأمامى للقصر وقد فتح فمه متثائبا، وأخذ يبتلع الجموع التى تعبر بوابة القصر. وهنا يبدأ عصر "اللاوقت".

وأول ما يلفت النظر فيما يخص الإمام هو ذلك التصوير الهزلى المؤلم المهين الذى لا بد أنه كان أحد الأسباب الرئيسية وراء فتواه بإهدار دم سلمان رشدى، إذ ليس من السهل أن يقال عن زعيم روحى وسياسى له فى قلوب الملايين من أتباعه ما نعرفه من الحب والإجلال: إنه حجر حى، وإن له ساقين كالمغزلين يغطيهما شعر وحشى كثيف، وبراثن ينشبها فى رقبة جبريل فاريشتا، وإنه لطول لحيته قد تلفع بها وأرسلها على كتفيه، وإن حاجبيه يرفرفان فى الهواء كأنهما رايتان. إن هذه ليست صورة إنسان بل وحش أسطورى آت من خارج الزمن. فهذه الحواجب المرفرفة وتلك السيقان المغطاة بالشعر الكثيف تدل على أن صاحبها لا يشعر بمرور الزمن. وقد ذكر المؤلف صراحة أن الإمام قد استحال فى نهاية القصة وحشا فاغرا فاه وشرع يبتلع الجموع. كما ذكر بصراحة أيضا أنه، بانتصار الإمام، قد ابتدأ عصر "اللاوقت". إن سلمان رشدى يريد أن يقول إن هذا الرجل لا يصلح أن يكون زعيما روحيا، بل هو وحش مفترس، وإنه لا يستطيع أن يقيم دولة عصرية، فدعوته تتجاهل التاريخ والتطور وظروف البيئة ومتغيرات الزمان والمكان، ولا تعترف بشىء اسمه العلم أو التقدم أو حقوق الإنسان. والآن هل كان أكرم ندوى قد قرأ الرواية؟ لا أدرى. ثم هل كان هذا رأيه الحقيقى أم هل أراد أن يريح نفسه من النقاش الذى يمكن أن يضيع عليه فرصة الانخراط فى التدريس بمركز أكسفورد المذكور؟

وقد احتارت الكاتبة فى تصنيف د. ندوى كما احتار، طبقا لكلامها، كل من حاول من معارفها هذا التصنيف: سواء كان المصنِّف مسلما أو غير مسلم، شرقيا أو غربيا. فهو فى نظر البعض سلفى، وفى نظر البعض الآخر منفتح. وهو فى نظر هؤلاء متشدد، وفى نظر أولئك متساهل. وهو فى نظر طائفة محب لدينه، وفى نظر طائفة أخرى متابع للغرب على ما يريد بالمسلمين من تفسخ وابتعاد عن دينهم. أما هو فيقول إنه مستقل لا ينتمى إلى جماعة أو اتجاه بعينه، ويؤثر الانتساب فقط للإسلام فى وقت كان على كل مسلم فى بريطانيا أن يحدد موقفه فيعتزى إلى هذه الجماعة أو تلك، وإلا ضاع وطاردته التهم من الجميع.

والحقيقة أن هذا يصيب كل من سار على درب الاستقلال. وقد عانيت وأعانى من هذا أنا أيضا، فلا أذكر أنى فكرت يوما فى الانضمام إلى جماعة أو حزب، إذ لا أجد نفسى إلا فى فرديتى على ما فى الفردية من عيوب أراها تتضاءل بجوار الانتساب إلى هذه الجماعة أو إلى ذلك الحزب. فهناك من يتهمنى بالانغلاق بعد كل ما كتبته عن حرية الفكر والضمير. ومع هذا فإنى فى ذات الوقت أحب أن يكون الناس جميعا مسلمين رغم معرفتى بأن هذا مستحيل بناء على أن الله قد خلق البشر، كما قال فى كتابه المجيد، مختلفين. وهناك من يتهمنى بعكس ذلك. كما أننى لا أتباطأ شعرة واحدة فى الرد على من يهاجم الإسلام أو يسىء فهمه وينشر سوء فهمه على الناس بل أنبرى له وأعرّى نقاط ضعفه بالعقل والمنطق والوثائق والشواهد.

وهناك من يرى أنى معتزلى مع أنى انتقدت المعتزلة كثيرا. وهناك من قد يظن أنى آخذ صف بنى أمية ضد الحسين، وجوابى هو أن ظُفْر قدم الحسين برقبة يزيد. ولعن الله من قتل الحسين وحرض عليه ورضى به. إن قلب المسلم ليشتعل نارا كلما فكر فيما حدث آنذاك، إلا أن الحسين لم يسلك سبيل النجاح السياسى منذ البداية، فكانت النتيجة هى فاجعة كربلاء. فمن الواضح أنه لم يكن خبيرا فى ميدان السياسة ودهاليزها وما تحتاج إليه من دهاء، فدارت الدائرة عليه وخلق مقتله بين المسلمين ميراثا من الضغائن والعداوات. وهناك من يظننى كذا، وهناك من يظننى كذا، ولكنى أقول دائما: إننى مسلم، وكفى. وإذا صح ما نسمعه من أن الإيرانيين نهضوا فى العقود الأخيرة نهضة صناعية قوية فهذا يحسب لهم رغم إنكارنا على الشيعة فى ذات الوقت تنطعهم فى موقفهم من الصِّدّيق والفاروق وابنتيهما وحرصهم على إخراج زوجات النبى كلهن تقريبا من دائرة أهل البيت مع أنهن يدخلن فيها بكل جدارة، وبنص القرآن؟ ألم تقل الملائكة لسارة زوجة يعقوب: "رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت"، فجعلوها من أهل البيت كما نرى؟ ألم يخاطب الله سبحانه زوجات النبى فى الآيتين ٣٢- ٣٣ من سورة "الأحزاب" بوصفهن من أهل البيت فقال: "يا نِسَاءَ النَّبِى لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِى بُيوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يرِيدُ اللَّهُ لِيذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيتِ وَيطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا"؟ اللّهم إلا إذا مزقنا رباط الآيات وفككناها لتذهب منا شَذَرَ مَذَرَ كما يفعل مفسرو الشيعة تخلصا من دخول نساء النبى عليه السلام فى أهل البيت.

ويا ليتهم قد وقفوا هنا، بل مَضَوْا بكل أسف يخرجون معظم الصحابة من الدين ولم يبْقُوا به إلا على من رافأ عليا كرم الله وجهه. ولو جرينا على هذا النهج لأمكن إخراج جميع المسلمين من دينهم، إذ مَنْ مِن الناس لم يخرج فى هذا الأمر أو ذاك على ما تقتضيه أوامر الإسلام أو نواهيه؟ كذلك فالخوارج محقون فى القول بأن الحكم لا يورَث، بل هو شورى بين المسلمين . صحيح أن الأمر فى التاريخ قد جرى على خلاف ذلك. بيد أننا إنما نتحدث فيما ينبغى أن يكون لا فيما وقع وكان. لكنى مع هذا لست مع الخوارج فى تنطعهم وخروجهم على علىّ بن أبى طالب والعيب عليه والظن السىء فيه وفى دينه وتصورهم أنهم يفهمون الإسلام خيرا منه، وأنهم أعظم تدينا منه. خيبة الله على التنطع والغباء وضيق الأفق.

ولو حاولت الآن أن أعرف كيف تم انعتاقى من شرنقة المذاهب لكان أول ما ينبغى أن أتذكره وأذكره هو وعيى لأول مرة فى الثانية عشرة أن قريتنا تدين فقها بالمذهب الشافعى. كان ذلك حين تقدمت إلى المعهد الأحمدى بطنطا فى العام الدراسى ٥٩ - ١٩٦٠م، إذ رأيتهم يذكرون فى أوراقى الرسمية أنى شافعى المذهب. وهذا مسجل أيضا فى الشهادة الإعدادية التى حصلت عليها من المعهد المذكور والتى كانت آخر عهدى بالأزهر. أما القرية المجاورة لقريتنا فمالكية. وكان لكل مذهب كتابه الفقهى الذى يدرسه الطلاب المنتسبون إليه. وقد تنبهت أن صيغة التشهد عند أهل القرية المجاورة تختلف فى بعض الكلمات عن صيغتنا. كذلك أذكر، وأنا فى الإعدادية، أننى صليت المغرب ذات مرة خلف طالب من دار العلوم، فكنت أقرأ الفاتحة بعد أن ينتهى هو من قراءتها فى الوقت الذى لم يترك هو مسافة زمنية بين الفاتحة والسورة القصيرة التى كان يقرؤها فى الركعتين الأُولَيين بعدها. وقد سألنى بعد الصلاة باستنكار عن الحكمة من قراءتى الفاتحة وأنا مأموم، فقلت له: لأن قراءتها أساسية فى الصلاة بحيث تبطل إذا لم أفعل. فأفهمنى أن قراءة الإمام فى الركعات الجهرية تجزئ عن المأموم، فلم أقتنع. لكننى عرفت عقيبها أنه حنفى المذهب. فكان هذا درسا لى فى اتساع الأفق ما دامت المذاهب مختلفة فى بعض التفاصيل، وكلها مقبولة عند الله. وحين دخلت الجامعة قرأت عند الشيخ محمد عبده وغيره أن التيمم يجوز لمطلق السفر سواء وُجِد الماء أو عدم رغم ما كنت أعرفه من الفقه الشافعى أنه لابد من انعدام الماء فى السفر حتى يصح التيمم. لكنى عندما تفكرت فى الأمر ألفيت محمد عبده أصح فهما للمسألة.

وفى هستنجز بالمملكة المتحدة كنت أسكن مع أسرة بريطانية، ومعنا شاب إيرانى أرسله أبوه ليتعلم الهندسة هناك. ورغم أنه لم يكن يصلى أو يصوم فقد عرفت منه أن شيخ المسجد عندهم فى إيران قد علمهم أن التيمم يكون بالمسح على الوجه واليدين فقط دون أن نصل بالمسح إلى المرفقين. وفى البداية بدا لى الأمر غريبا، إذ كان كتاب الفقه الشافعى الذى درسته فى الأزهر يقيس مسح اليدين فى التيمم على غسل اليدين إلى المرفقين فى الوضوء. لكن سرعان ما ألفيت الآية لا تقول شيئا من ذلك. إنما هو فهم بعض الفقهاء. ولما ذهبنا للحج للمرة الثالثة، أيام كنت أعمل بتربية الطائف فى النصف الأول من تسعينات القرن المنصرم أردنا أن نعرف تفصيل شعائره فى المذاهب المختلفة، فتبين لنا أن هناك من لا يوجب المبيت بمنى ومن لا يوجب تحديد رمى الجمار بالزوال، فأخذنا بهذا وذاك تيسيرا على أنفسنا ومن معنا من النسوة والأطفال. بل كنت أقوم نيابة عن كل أفراد أسرتى برمى الجمار وفَشّ غِلِّى كله فى اللعين ابن اللعين... وبهذا انهدم الاستمساك الأعمى بمذهب بعينه فى الفقه. وعلى نفس الشاكلة سار الأمر معى فى المذاهب الكلامية، وبخاصة عندما كنت بصدد تأليف كتابىَّ عن مذاهب التفسير ومناهجه، إذ انبسطت أمامى الآراء المختلفة للمذاهب الإسلامية والفِرَق الكلامية فى تفسير كتاب الله، فصرت لا أبالى بأى الآراء أخذت ما دمت مقتنعا به ويقبله تفسير الآية دون تمحك أو تمحل. بل كثيرا ما يكون لى تفسيرى الخاص بالنص مؤسسا على الدليل الصلب والشواهد الكافية والروح العامة للدين.

وهكذا يرى القارئ أننى مسلم، وكفى. لكن هل معنى هذا أننى أمثل الإسلام الصحيح مائة فى المائة؟ أكون مغرورا إن قلت: "نعم" رغم تصورى أننى أفهم الإسلام فهما سليما. لكننى مع هذا أعرف أنه ما من إنسان يمكنه أن يمثل فكرة ما تمثيلا دقيقا تامّ الدقة، إذ هناك دائما فجوة بين النظر والعمل، وفجوة أخرى بين الحقيقة وتصورنا لها. إننا جميعا ندندن حولها، أما هى فبمثابة امرأة فاتنة الجمال مختفية خلف نقاب، فضلا عن أننا لا نستطيع الكلام إليها. ومع اجتهادنا فى معرفة ملامحها لا نستطيع الادعاء بأننا متأكدون من تلك الملامح. وإنى لعلى يقين من أنه سوف يأتى اليوم الذى ينتقدنى فيه المنتقدون قليلا أو كثيرا حسب اتجاه كل ناقد. ولماذا أقول: "سوف"، وأنا من الآن أسمع أصواتا انتقادية لا ترى لى فضلا كبيرا ولا صغيرا فى دراساتى وبحوثى؟ وهكذا يرى القارئ أن هناك تقاطعات متعددة بينى وبين د. ندوى. إلا أنى أختلف عنه فى أنه، كما يصف نفسه، لا يستطيع الغضب إلا إذا بذل جهدا فى أن يغضب، وذلك من كثرة ما اجتهد وهو شاب فى تعويد نفسه الهدوء والسكينة حتى نجح فى ذلك، وهو ما أفتقر أنا إليه، إذ إنى عصبى المزاج. وليس معنى هذا أننى نارى الطبع، بل معناه أننى كما أرضى

أغضب، وكما أنفعل تمر على أوقات أكون فيها هادئا ساكنا. لكنه فى كل الأحوال يتميز علىَّ بهذه الفضيلة. كما يتميز، طبقا لكلامه، بمراعاته المستمرة لما كان يفعله رسول الله فى حركاته وسكناته مما ليس فرضا على المسلم الالتزام به، وإن كان الأفضل التزامه. فأنا مثلا حين أدخل المرحاض قد أستعيذ بالله من الخبث والخبائث، وقد أنسى فلا أهتم بذلك...

وقد ذكرت الكاتبة، بناء على ما أخبرها به أكرم ندوى، أنه قد أثار غبارا كثيفا جراء إفتائه فى بريطانيا بأن ارتداء الرجال للطاقية خلال الصلاة غير وجوبى، بل مجرد عادة محلية عند الهنود المسلمين وأمثالهم، ولا علاقة له بقبول الصلاة أو عدم قبولها البتة. وهو كلام صحيح تماما دون أى نقاش. والرأس ليست داخلة فى عورة الرجل بأى حال. وأقصى ما تبلغه العورة الذكورية أثناء الصلاة فى المذاهب الفقهية الإسلامية هو المساحة التى تقع بين السرة والركبة. فأين هذا من الرأس حتى يظن الظانّون أن تغطيتها جزء من شعائر العبادة؟ بل إن هناك من يقصر عورة الرجال فى الصلاة على السوأتين ليس إلا. وأيا ما يكن الحال لقد كان ينبغى أن يطالب المعارضون الرجل بالدليل الذى يستند إليه وألا يحولوا الحبة قبة. والملاحظ أن جماهير المسلمين، بتأثير من الوعاظ والدعاة الشعبيين التافهين المتنطعين الذين يبحثون عن جماهيرية زائفة أو الذين يعملون بوحى من ترتيب خارجى يصب فى مصلحة أعداء الإسلام عن طريق شغلهم بالتفاهات عن لباب الدين وجوهره الأصيل، قد حولوا الدين إلى طقوس وأشكال وممارسات فولكلورية مضحكة، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا. وقد كنت، فى صباى وشبابى أيام صعودى المنبر لأخطب الناس يوم الجمعة متصورا، حُمْقًا منى وخُرْقًا، أن لدىَّ ما يمكننى أن أفيد به الناس فى دينهم ودنياهم، أضع على رأسى طاقية أو أعصبها بمنديل، وإلا تعرضت للاحتجاج والنكير وظَنّ من يصلّون خلفى أن صلاتهم باطلة. وكنت، حين أصنع ذلك، إنما أجارى الجو لا غير. والآن، بعدما عقلت وأفقت من أوهامى السابقة، لم أعد أصعد منبرا ولا أفكر فى وعظ أو دعوة. وماذا أستطيع أن أفعل، والعوام المسلمون يظنون أنهم أعرف منك بالدين وأقوم سبيلا وأهدى منهجا، ويفهمونها وهى طائرة؟ وبالمناسبة فالدكتور ندوى يرتدى فى الصور التى رأيتها له على المشباك طاقية فوق رأسه وملابس بلاده رغم فتواه بصحة الصلاة من دون غطاء رأس. وقد كنت وأنا طفل وصبى بالقرية ألبس أيضا طاقية، لكن من طراز مختلف، ثم لما كبرت قليلا خلعتها ولم أعد إليها بعد هذا.

كذلك أثار د. ندوى عليه مسلمى بلاده فى بريطانيا حين بين لهم أن قص المرأة المسلمة شعرها متى أرادت لا غبار عليه ولا حرج فيه، إذ كيف يقول ذلك والمرأة الغربية تقص شعرها؟ أفيريد من المسلمات أن يتشبهن بالغربيات الكافرات؟ والحق أننى، حين أقرأ أمثال تلك الحكايات، تشتعل النار فى عقلى ونفسى وأتساءل: أية لُوثَةٍ اعترت العقل الإسلامى حتى وصل إلى هذه الدرجة من التساخف؟ وقد سبق أن أثار الشيخ محمد عبده هوجة هائلة عندما أفتى منذ أكثر من قرن بجواز لبس المسلم القبعة فى الصلاة. ترى ما وجه الخطإ فى أن تقص المرأة المسلمة شعرها مثل المرأة الغربية؟ أهى تتشبه بها فى الانحلال الجنسى مثلا أو فى الكفر والإلحاد؟ أبدا. ثم إن المرأة الغربية تأكل وتشرب وتنام وتمشى وتطبخ وتتكلم مع زوجها وتمارس الجنس معه وتربى أولادها وتتعلم وتقرأ وتكتب، فهل يحرم على المسلمة ان تفعل ذلك نَأْيا بنفسها عن تقليدها؟ كذلك فالمرأة الغربية تضع الطعام حين تأكل فى فمها، وتتنفس حين تتنفس من منخريها، وتسمع بأذنيها وتبصر بعينيها، فهل يتوجب على نظيرتها المسلمة أن تقلب أمرها رأسا على عقب توخيا لمخالفتها، فتسمع بفمها وتأكل بعينيها وترى بأذنيها ولا تمشى على قدميها بل على رأسها وتتنفس من منخر واحد فقط مع سد الفتحة الأخرى بالأسمنت والرمل والزلط اتباعا للمثل القائل: المنخر الذى يجيء لك منه الريح، سُدَّه لتستريح؟ ألا إن هذا لهو العجب العجاب.

ومع هذا فقد اضطر د. ندوى إلى الاستشهاد بما صنعته نساء النبى بعد وفاته صلى الله عليه وسلم من قصهن لشعورهن. وهذا هو الحديث كما وجدتُه فى "صحيح مسلم": "كَانَ أَزْوَاجُ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يأْخُذْنَ مِنْ رُءُوسِهِنَّ حَتَّى تَكُونَ كَالْوَفْرَةِ". وكان يكفى أن يقول للمتنطعين إن الدين لم يتعرض لذلك الأمر بخير أو شر، فهو إذن باقٍ على حِلِّيته جريا وراء القاعدة الفقهية التى تقول: ما سكت عنه الشرع فهو عَفْو. أى أنت فيه بالخيار، ولا إثم عليك: فَعَلْتَه أو لم تفعله. لكن إياك، عزيزى القارئ، والظنَّ بأن المسألة قد حُلَّتْ هكذا، فها هو ذا شيخ مطمطم يزيد المسألة تعقيدا وإرباكا وتفصيصا وتفعيصا كأنه إزاء فتح عكا، إذ يقول ما نصه: "قص المرأة شعر رأسها إن كان على وجهٍ يشبه أن يكون كرأس الرجال فإن هذا حرامٌ ولا يجوز، بل هو من كبائر الذنوب لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لعن المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء. وأما إن كان على وجه يخالف ما يكون عليه من شعر رؤوس الرجال فإن المشهور من مذهب الحنابلة رحمهم الله أن ذلك مكروه. وذهب بعض أهل العلم إلى جواز ذلك محتجا بما يروى عن أمهات المؤمنين رضى الله عنهن أنهن كن يقصصن رؤوسهن بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يكون كالوفرة. ولكن أُجِيبَ عن

ذلك بأنهن يفعلن هذا من أجل أن يعْلَم عزوفهن عن الأزواج لأن نساء النبى صلى الله عليه وسلم بعد موته لا يحل لأحدٍ أن يتزوجهن كما قال الله تعالى: "ولا يحلّ لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تَنْكِحوا أزواجَه من بعده أبدا. إن ذلكم كان عند الله عظيما". وقول السائلة إنها لا تريد التشبه ينبغى أن يعلم أنه إذا حصلت المشابهة حيث لا تحل فإنه لا يشترط فيها القصد لأن المشابهة صورة شىءٍ على شئ فلا يشترط فيها القصد. فإذا وقعت المشابهة على وجهٍ محرَّم فإنها ممنوعة سواءٌ قصد ذلك الفاعلُ أم لم يقصده. وكثيرٌ من الناس يظنون أن المشابهة المحرمة لا تكون محرمةً إلا بالنية والقصد. وهذا خطأ، بل متى حصلت صورة المشابهة المحرمة كانت محرمة سواءٌ قصد الفاعل هذه المشابهة أم لم يقصدها".

لقد سد سيدنا الشيخ، كما نرى، كل المنافذ وخنقنا خنقا دون أية بارقة من الأمل فى التنفيس عنا. ثم انظر تنطعه حين يقول إن أمهات المؤمنين إنما قصصن شعورهن كى يعلم الناس أنهن لا يفكرن فى الزواج. الله أكبر! وكأنهن إذا لم يفعلن ذلك سوف يتوافد الخطاب على الأبواب طالبين أيديهن. ترى ماذا يمكن أن يقال لهذا التنطع؟ أيمكن أن يدور فى عقل صحابى أن يفكر مجرد تفكير فى التقدم لخِطْبة أية من أمهات المسلمين؟ إن هذا خروج ساطع على نهى القرآن المجيد للمسلمين أن يتزوجوا نساء النبى رضى الله عنهن بعده. بل كيف ظنت أمهات المؤمنين أن الزواج بهن بعد وفاة الرسول جائز فأحببن من ثم أن يقطعن الطريق على كل من يخطر له ذلك؟ وعلى كل حال كيف يشغل الشيخ وأمثاله أنفسهم بهذا الأمر إلى هذا الحد المعنت، وهو لا يقدم ولا يؤخر، إذ المرأة المسلمة التى تقص شعرها إما أن تكون من اللاتى يغطين رؤوسهن طبقا لأمر الدين فى مسألة التحجب أَوْ لا: فإن كانت الأولى فالعبرة فى أنها تلتزم أمر ربها ورسوله فتغطى شعرها حتى لا يراه غير المحارم، ومن ثم لا تكون متشبهة بالمرأة الغربية، إذ المرأة الغربية لا تعرف شيئا اسمه التحجب. ولا يهم بعد ذلك ما تفعله المسلمة بينها وبين زوجها وسائر محارمها، إذ هى حرة آنذاك ما دامت لا تنكشف على غير المحارم. وإما أنها لا تلتزم بأمر دينها فيما يخص تلك المسألة، فهى تكشف رأسها وشعرها أمام غير محارمها، وفى هذه الحالة تكون آثمة لتعرية هذا الجزء من رأسها لا لقصها شعرها، إذ العبرة كما قلنا بالتزام الواجب لا بممارسة المباح الذى يحق لها أن تفعله أو لا تفعله. ومن هنا نرى أن المسألة لا تعدو أن تكون زوبعة فى فنجان. أرأيتم الآن لماذا تخلف المسلمون وما زالوا يزدادون تخلفا؟ ذلك أنهم شغلوا أنفسهم وعقولهم وحياتهم كلها بهذه التوافه، وتركوا أهل الغرب يركبونهم ويضربونهم بنعالهم لما يرَوْنه من ضعفهم وهوانهم وتخلفهم وعجزهم عن مجاراتهم واعتمادهم فى كل شىء تقريبا عليهم بالإضافة إلى الفروق الهائلة الشاسعة التى

تفصل بين الغربيين فى السماء السابعة ومعظم المسلمين فى الحضيض فيما يخص أمور الدنيا من قوة وصناعة وعلم ونظام ونظافة وتخطيط وإتقان وحرص على أن يكون كل شىء يخصهم جميلا معجبا وممتعا وطموح إلى المعالى والتفوق والسيادة.

ومن مظاهر هذا التساخف فى السنوات الأخيرة بمصر، حسبما لاحظتُ، انتشارُ عبارة "إن شاء الله" لدى الحديث عن الماضى أو الحاضر أو الوضع الدائم الذى لا يتغير، كقولهم مثلا: أتيت الأسبوع الماضى من القرية إن شاء الله، أو أنا أقطن حدائق القبة إن شاء الله، أو أنا هذا العام فى السنة الثالثة إن شاء الله، أو أنا فلان الفلانى إن شاء الله، أو اسمى كذا إن شاء الله. ثم زادوا فى الطنبور نغمة فقالوا: فلان المرحوم إن شاء الله، أو المغفور له بإذن الله. وكأنك هنا تَسُوق خبرا ولا تدعو الله أن يغفر لفلان أو يرحم فلانا. وغاب عن المتنطعين قول الرسول: "إذا دعا أحدُكُم فلْيعْزِمِ المسألةَ، ولا يقولنَّ: اللَّهمَّ إن شئتَ فأعطنى، فإنَّهُ لا مستكْرِهَ لَهُ"، "لا يقولَنَّ أحدُكُم: اللَّهمَّ اغفِر لى إن شِئتَ، اللَّهمَّ ارحمنى إن شِئتَ. لِيعْزِمِ المسأَلة، فإنَّهُ لا مُكْرِهَ لَهُ". فإذا كان هذا هو قول الرسول فهل بعد قول الرسول قول؟ خيبة الله على التنطع والمتنطعين! والمضحك المبكى فى الأمر أنك حين تقول لأحد هؤلاء المتنطعين: لماذا تقول فى هذا السياق: "إن شاء الله"؟ يجيبك وهو يظهر التقوى والورع والوقار مع أن كل ما فيه ينضح بالغباء والجهل والبلاهة: إنى أقدم المشيئة اتباعا لأمره تعالى: "ولاتقولَنَّ لشىء إنى فاعلٌ ذلك غدا إلا أن يشاء الله"، فأقوم أنا بهجوم مضاد من جانبى قائلا: لكن ذلك إنما يتعلق بما سوف يحدث غدا. فيقول فى تنطع لا يحتمل: "للمزيد من التحرز". ألا تعسا للأغبياء المغفلين!

وكنا، ونحن فى بريطانيا فى سبعينات القرن الماضى، نتلقى بين الحين والحين مطبوعات صغيرة ترشد المسلم إلى كيفية تحرى الطعام الحلال. وهو أمر طيب ومشكور، لكن بعض المسلمين كانوا يغالون مغالاة سمجة كأن يحرموا شراء اللحم من الجزارين البريطانيين، فيقال لهم إن طعام أهل الكتاب حِلٌّ لنا، لتأتى الإجابة على نحو لا يتوقعها أى عبقرى لأنها لا يمكن أن تخطر إلا لذهن يريد التضييق والتنكيد على عباد الله متلذذا بذلك تلذذا مرضيا، إذ تقول الإجابة: أليست السكين التى يقطع لك بها الجزار الإنجليزى لحم البقر أو الجاموس أو الغنم الذى تظنه حلالا بلالا هى نفس السكين التى يقطع بها لزبائنه غير المسلمين لحم الخنزير. وأضحك من أعماق قلبى قائلا لنفسى: فعلا، فاتتنا هذه، بل فاتت سيدنا النبى، الذى لم يذكرها فى أحاديثه. لكن بالله ألم يكن سيدنا محمد عليه السلام يعلم ذلك، ورغم هذا أحل طعامهم لنا؟ ثم هل سيأكل المسلم اللحم الذى اشتراه دون أن يغسله؟

ويدعو د. ندوى طلابه، الذين يعقد لهم دروسا خاصة يعلمهم فيها أمور دينهم والذين يفدون عليه رجالا ونساء وشبانا وفتيات من كل أنحاء بريطانيا، إلى الاعتماد على أنفسهم فى التفكير والتحليل والتفسير والرجوع مباشرة إلى القرآن والحديث ذاتهما دون أن يتركوا أقاويل الفقهاء والمفسرين تتدخل بينهم وبين هذين المصدرين فتعرقلهم عن تشغيل عقولهم. وأحاول أنا فى محاضراتى محاولات مضنية تحريك عقول طلابى وطالباتى، الذين تعودوا على الدروس الخصوصية حيث يحفظِّهم المدرس الخاص الفتات الضئيل الذى لا يعرف هو نفسه غيره، فيحفظونه ويرددونه كما هو دون تفكير بل دون فهم فى كثير من الأحيان وينجحون فى الامتحان محرزين درجات عليا لم نكن نحن نحصل عليها رغم أننا كنا أفضل تعليما وأعكف على العلم وأقرأ للكتب حتى إن أوائل الجمهورية فى القسم الأدبى فى امتحان التوجيهية على أيامى مثلا كانوا لا يتجاوزون منتصف الثمانين بالمائة على حين يقتربون الآن من النهاية الكبرى فى الدرجة، وحتى إنى أنا الذى أحرزت المركز الأول فى مادة اللغة العربية فى التوجيهية فى منتصف ستينات القرن الماضى لم أحصل على أكثر من ٤٦ درجة من خمسين بينما نظيرى الحالى يحصل بكل سهولة على الدرجة النهائية.

بيد أن طلبتى عموما يكرهون هذا الاتجاه ولا يقْبِلون على المحاضرات كما أتوقع رغم تصفيقى لمن أشعر أن عنده شيئا مهما ضؤل، ومكافأتى بالحلوى والفلوس والكتب من يشارك فى المحاضرة بالسؤال والجواب على ما أطرحه من أسئلة والثناء الجم عليه، وتكريرى القول بأنى أستفيد من كل طالب وأتعلم منه ومن أسئلته وأن كثيرا من كتبى قد تم تأليفها انطلاقا مما يثار فى المحاضرات وأننى لست سوى طالب علم مثلهم رغم ما قرأته من آلاف الكتب وألّفته من عشراتها ورغم سنوات عمرى التى تشارف السبعين. بل إن بعضهم يقول لى بصراحة تامه كلما حدثتهم عن وجوب القراءة خارج الملخصات والرجوع بأنفسهم إلى الكتاب الذى ألفتُه لهم والذهاب إلى المكتبة للاستزادة من العلم: إنهم يكرهون القراءة، ويصيبهم الصداع كلما فتحوا كتابا. وعبثا أُفْهِمهم أنه لا تحضر ولا تقدم ولا قوة ولا سعادة حقيقية بدون القراءة. وعبثا أقص عليهم آيات القرآن وأحاديث الرسول حول أهمية القراءة وتحصيل العلم فى الإسلام من مثل وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم تواضعا له وإكراما، واستغفار الأسماك فى البحار من أجله، وإعلاء شأنه على العابد، ومساواته بالمجاهد فى سبيل الله. كما أننى أجتهد بكل طاقتى فى تشجيعهم على التفكير المستقل، لكن دون أن يهملوا ما قاله العلماء بل لا بد من عودتهم إليه وقتله بحثا وتقليبا ثم التفكير بعقولهم هم بعد أن تكون قاماتهم قد طالت جراء وقوفهم فوق جهود

أولئك العلماء العباقرة، الذين دائما ما أقول لطلابى إننى على استعداد لأن أجلس فى تواضع تام عند أقدامهم وتقبيلها مع احتفاظى بفكرى مستقلا تمام الاستقلال رغم هذا.

وهذه نقطة الخلاف فى هذا الموضوع بينى وبين د. الندوى. فهو يريد من طلابه، كما فهمت من كلام كارلا باور الصحفية الأمريكية مؤلفة الكتاب الذى بأيدينا، أن يقصدوا إلى القرآن رأسا دون التعريج على ما قاله العلماء، مهملين تلك الغنيمة الباردة التى أتتهم جاهزة لمعونتهم، فكأنه يريدهم أن يبدأوا من نقطة الصفر مع أن العلم ككل شىء فى الدنيا تراكمات وطبقات: كل طبقة منه تضيف شيئا. ومن شأن الاطلاع على تلك التراكمات، التى صنعتها العقول الكبيرة، أن يزيد علمُك بالنص القرآنى غِنًى، وشعورك بقدرتك على الفهم اتساعا وعمقا، وحريتك على الانتقاء والاختيار قوة واستحصادا. ثم أنت بعد ذلك بالخيار: تستطيع أن تختار أحد الآراء أو أن تؤلف بين هذا أو ذاك أو ذلك منها أو أن تختط طريقا جديدا. وسوف يساعدك على هذا تحققك بنفسك من خلال هذه الخطوة أن الآراء كثيرا ما تختلف وتتفاوت فى تفسير النص القرآنى بما يعزز عندك ميلك إلى الاستقلال ما دام ذلك النص من الاتساع والعمق بهذه الدرجة. أما البدء فى كل من مرة من جديد دون الاطلاع على ما قاله السابقون فيجردك من هذه الفرصة العظيمة ويوقفك وحيدا أمام النص دون معونة من أحد. فكيف تواتى الإنسانَ نفسُه على إدارة ظهره لهذا كله؟ وإذا كنا نحن الأساتذة بسننا الكبيرة وتجربتنا الطويلة ولغتنا التى تَعَمَّقْنا وتخصَّصْنا فيها نحرص، عند دراسة القرآن، أشد الحرص على الاطلاع على أكبر قدر من التفاسير فما أحرى الطلاب أن يفعلوا ذلك حتى لا يضلوا أو على الأقل: حتى لا تفوتهم تلك الفوائد العظيمة. وإذا كان محمد عبده، كما قال هو نفسه، قد رجع إلى عدد من كتب التفاسير لمعرفة وجه الصواب فى حكم التيمم فى السفر لينتهى إلى رأى غير ما عليه جمهور المفسرين، إذ يقول بجواز التيمم فى السفر حتى لو توافر الماء، فما بالنا بطلابنا بصغر سنهم وقلة اطلاعهم، وبخاصة إذا كانوا طلابا غير عرب كما هو الحال مع طلاب د. ندوى؟ ولكن ثمرة كلامى مع طلابى، فيما أرى، ضئيلة مزعجة الضآلة. وعبثا أُفْهِمهم أن الحساب سيكون عسيرا يوم القيامة على كل من كان فى استطاعته أن يقرأ ويتثقف ولم يفعل. فإذا صح ما تقوله الكاتبة عن تحمس طلاب أكرم ندوى لطريقته وانطلاقهم فى القراءة والاستقلال الفكرى تبعا لتوجيهاته كان د. الندوى أفضل حظا منى رغم أنى أجد طريقتى أحرى بأن تقودنا إلى ما لا يستطيع الإنسان وحده أن يلتقطه من جواهر الأفكار، إذ إن طلابه يثنون عليه وعلى منهجه فى التدريس كثيرا أمامها. أما أنا فالذين يحبون محاضراتى من طلابى قلة فيما أعرف.

لكـن لا ينبغـى أن ننسـى الفـارق الكبير بين بريطانيـا ومـصر فى الفـترة الحاليـة التعيسة مـن تـاريخ العرب والمسلمين. ولا ننس أيضا أن د. الندوى، من خلال ما فهمتُه من ترجمة الكاتبة له، أطول بـالا منى وأصبر وأهدأ طبعا وأقل عصبية. صحيح أن من طلابى من يقول لك عنى: إن طريقة تعليم هذا الدكتور لنا طريقة ممتازة، وإننا قد صرنا نقرأ بفضل استحثاثه إيانا ونَخْسه لنا، لكنهم فيما أتصور قليلون جدا. ولكن قرائى على المشباك (النت) كثيرون، أو بالأحرى: كانوا كثيرين، وإن تقلصوا بعد ثورات الربيع العربى، التى فشلت كلها تقريبا حتى الآن. لقد فهمت من كلام كارلا باور أن طلابه وطالباته هؤلاء فى بريطانيا هم بَلَدِيوه وبلدياته، أى من جنوب قارة آسيا، بيد أنه لا ينبغى أن يغيب لحظة واحدة عن الخاطر رغم هذا أنهم يعيشون فى بريطانيا، فضلا عن أنهم قد حصلوا على شهادات جامعية، فهم خريجون لا طلاب ليسانس وبكالوريوس صغار قليلو الخبرة والتجربة والثقافة. كما أنهم يقبلون على دروس الدكتور الدينية برغبة شخصية منهم، فهم محبون لما يسمعون، إذ الكلام هنا عن دروس الشيخ غير الرسمية لا التى يلقيها فى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية. أما عندنا فحين أدخل قاعة المحاضرة فى الجامعة فكأنى قد أقبلت على عشة فراخ: هيصة وزمبليطة ومشيا فوق البنشات وأوراقا وأكياسا فارغة هنا وهناك، فضلا عن تناثر علب المشروبات ولفائف الساندويتشات فى كل مكان، مما يضيق صدرى رغم ما أردده بينى وبين نفسى وأنا فى طريقى إلى القاعة من وجوب التحلى معهم بالصبر وطول البال، فأجدنى غصبا أنفعل وأصر على تنظيف المكان حتى لو اكتفَوْا بإزاحة الزبالة من فوق البنشات إلى ما تحت أقدامهم بعيدا عن عينى فقط. ناهيك عن سرعة مللهم ونفورهم من أى شىء جاد وانصرافهم فى أول فرصة عن متابعة ما نقول عبثًا بالمحمول أو مسارَّةً مع زملائهم أو سرحانا منهم مع لاشىء.

إلا أننى لا أفهم موقف د. ندوى من الأمر التالى، فقد اتصلت به أسرة مسلمة فى بريطانيا فزعة أشد الفزع لاكتشافهم أن ابنتهم العَزَبَة حامل، فكان رأيه أن الله هو الذى يحاسب الخطاة فى الآخرة (إلى هنا ولا خلاف بيننا فى أن الله هو الذى سوف يحاسب الفتاة ويحاسب البشر جميعا فى الآخرة)، وأن الأهل عليهم مساندة ابنتهم لا الحكم عليها (الجزء الأول من هذا الكلام أفهمه وأتقبله، ولكن الجزء الأخير غير واضح، إذ ما معنى الحكم عليها هنا؟ إذا كان يقصد حكم الأسرة عليها بالقتل وتنفيذ هذا القتل كما نسمع أحيانا عن بعض المسلمين المقيمين بأوربا غسلا للشرف الملطخ فأنا أيضا معه لأن هذه مهمة السلطات لا الأهل. أما إذا كان يقصد ألا تحكم الأسرة عليها بأنها آثمة فهذا ما لا أوافقه عليه.

لقد أثمت البنت فعلا، وإن لم يعن هذا أن الله سوف يعاقبها فى الآخرة بالضرورة، فقد يتوب عليها ويردينا نحن فى النار لدواعٍ يعلمها هو وحده). لكن أكرم ندوى صمت عن الحد الذى يطبق فى هذه الحالة، مما قد يظهره بأنه لا يعتقد فى الحدود.

لا أقصد أن الأسرة يجب عليها إخبار السلطات حتى تطبق على ابنتهم العقوبة التى حددها الدين، إذ البنت وأهلها يعيشون فى بريطانيا حيث لا شريعة ولا يحزنون، بل حيث الحرية فى أمور الجنس بعد البلوغ. بل إنى لأحبذ الأخذ فى هذا الموضوع بما قاله الرسول لرجل رأى زانيين فجاء متحمسا يخبره بها شاهد، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال له: هلا سترتَهما بثوبك؟ وجاءه ذات مرة أحد المسلمين يقر بأنه زنى، فأخذ يسأله: لعلك قبَّلْتَ؟ لعلك فاخَذْتَ؟ هل أنت مجنون؟ وهو ما أفهم منه أنه عليه الصلاة والسلام يومئ من طَرْفٍ خفيٍّ أن ينصرف الشخص ويتوب إلى الله وينتهى الأمر عند هذا الحد بدلا من توقيع الحد، والحد شديد. وهناك واقعة أخرى، إذ جاءته صلى الله عليه وسلم امرأة تعترف بأنها اجترحت الزنا، فكان أن أجل الكلام فى أمرها إلى أن تضع حملها، فلما وضعت عادت إليه فكان أن طلب منها أن تذهب فترضع وليدها إلى أن يحين وقت فطامه. والملاحظ أنه لم يقل لها مثلا: "لا تَنْسَىْ أن تأتى حتى أوقع بك الحد" أو يكلف أحدا ممن حوله بمتابعة موضوعها واستدعائها حين تفطم وليدها كى يحِدّها، بل اكتفى بصرفها من حضرته، فكانت تعود هى من تلقاء نفسها فى كل مرة بغية تلقِّى العقاب، وهنا لم يجد صلى الله عليه وسلم فى نهاية الأمر بدا من الأمر بحدها قائلا ما معناه أنها قد تابت توبة تكفى أهل الأرض جميعا. ولا أظنه كان يطلبها لو لم تأت من تلقاء نفسها. كما أن عُمَر رضى الله عنه قد هدد أسرة كانت لها ابنة عملت ما عملته هذه الفتاة وحُدَّت فى الإثم الذى اجترحته، ثم تقدم شاب لخِطْبَتها فارتبكت الأسرة وفكرت فى أن تخبر الخاطب بما حصل، لكنهم قبل تنفيذ ما اعتزموه أرادوا أن يستشيروا عمر، فكان أَنْ أَمَرَهم بالستر على الفتاة وتزويجها زواج المُحْصَنة مهددا إياهم بالعقاب لو خالفوا عن هذا.

فكان ينبغى أن يتطرق د. ندوى إلى هذه الجوانب! ثم شىء آخر شديد الأهمية والخطر. ألا وهو: ما مصير الجنين الذى فى بطن الفتاة؟ ماذا سيفعلون به؟ أسيتركونه حتى ينزل؟ أم هل سيجهضون الفتاة؟ وإذا كان إجهاضٌ فما حكمه؟ وإذا تركوه حتى يرى نور الحياة فإلى من سينسبونه؟ هل سيرضى الشاب الذى زنا بالبنت أن يتزوجها ولو مؤقتا فيعْزَى إليه المولود وتنحل المشكلة الخاصة بالولد؟ أم هل سيكون نذلا جبانا كما يحدث كثيرا فى مثل تلك الحالة ويرفض إصلاح غلطته تاركا شريكته

المسكينة لمصيرها التعيس؟ لقد ترك د. أكرم كل ذلك وحصر نفسه فى أن الأسرة لا ينبغى أن تحكم على البنت وأن عقاب الآثمة الصغيرة سيكون فقط فى الآخرة. ربما لم يكن فى ذهن الدكتور سوى المجتمع البريطانى حيث لا يجد الشعب ولا السلطات ولا القانون أى ضير فى زنا فتاة أو إجهاضها لنفسها أو فى نسبة الولد الذى سيأتى. لكن هل الدنيا كلها بريطانيا؟ وماذا عن الجالية الهندية أو الباكستانية المسلمة هناك؟ كيف ستواجهها البنت دون شعور بالعار والشنار بسبب الولد الذى ستضعه دون أن يعْزَى إلى أبيه؟ وماذا سيكون موقفهم من الولد المحمول به، وبخاصة حين يكبر ويريد أن يتزوج إحدى بناتهم مثلا؟

ومما أجدنى لا أتفق معه فيه أيضا بوجه عام قوله إن المسلمين الذين يشغلون الرأى العام بما تكتبه الصحف عنهم يركزون على الرسول كزعيم سياسى، بينما هو فى المقام الأول معلم يحذر الناس من الجحيم ويعمل على إنقاذهم منه. فهو لم يكن يدعو الناس إلى حيازة السلطة أو إلى إنشاء حكومة إسلامية، بل كان يعلمهم شيئا واحدا هو كيفية نجاتهم من النار بالتزامهم الخطة التى وضعها الله لهم. كما أنه عليه السلام لم يكْرِه أحدا على تغيير معتقده، بل كان الإيمان عنده يقوم على الفهم والاقتناع لا الإجبار. كما كان يعرف حدوده كزوج فلم يمْلِ على أية من زوجاته كيف تتصرف. وبالمثل كان يعرف حدوده مع الآخرين فلم يكن يتدسس إلى قلوبهم ليطلع على ما فيها ولا كان يسمح للآخرين بأن يفعلوا ذلك. ولا شك أن الرسول قد أُمِرَ فى القرآن مرارا وتكرارا بألا يتدخل بين ضمير الشخص وربه، فهو ليس بحفيظ ولا مسيطر ولا وكيل على أحد، بل مجرد بشير ونذير، وليس نذيرا فقط كما هو واضح من كلام أكرم ندوى. وهذا فى الفترة المكية، أما فى المدينة فقد اختلف الوضع، إذ صارت هناك دولة تعمل على تطبيق الإسلام حتى لا يبقى مجرد دعوة فى الهواء لا يأخذها الناس مأخذ الجد، وأصبحت هناك علاقات سياسية مع غير المسلمين تنظمها المعاهدات والاتفاقيات، وأضحت هناك معارك وحروب داخلية وخارجية، وأمست هناك مؤسسات إدارية تنظم حياة المسلمين الشخصية والاجتماعية والأخلاقية طبقا لأوامر القرآن ونواهيه. فقول د. ندوى إن الرسول فى كل أطوار حياته لم يكن سوى معلم يعمل على إنقاذ الناس من النار فى الآخرة هو كلام غير منضبط ولا مقبول.

بل إن القرآن، حتى فى مكة حيث لم يكن هناك سوى الدعوة والدعوة وحدها، لم يصفه بأنه نذير فحسب، بل قال: "بشيرا ونذيرا". أما إن كانت هناك بعض الآيات التى يقول فيها صلى الله عليه وسلم عن نفسه: "إنما أنا نذير مبين" فهناك آيات أخرى تركز فقط على التبشير. وكيف يكون النبى مجرد نذير،

والقرآن والحديث مفعمان بالكلام عن الجنة أيضا وأوصافها وما فيها من وجوه النعيم المختلفة؟ كما أن الله غفور رحيم أكثر منه معاقبا جبارا، ورحمته سبقت غضبه، والحسنة فى الإسلام بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة بينما السيئة بمثلها لا غير، بل كثيرا ما تُمْحَى فلا تُذْكَر يوم الحساب. لكل هذا وغيره أجدنى مستغربا ما قاله أكرم ندوى فى هذا المضمار استغرابا شديدا. الواقع أن كلام د. ندوى فى هذا الصدد لا يعنى سوى أن الرسول لم يكن يجد أمامه طوال الوقت أينما اتجه غير المشركين والمنافقين واليهود والنصارى، ولهذا كان كلامه كله إنذارا، وكأنه لم يكن هناك مؤمنون على الإطلاق يستحقون الطمأنة والتبشير. ترى هل هذا معقول؟ ثم من يا ترى كان يرفع الشعار التالى: "بَشِّروا ولا تنفِّروا" ويوصى أتباعه به دائما؟ أليس هو الرسول صلى الله عليه وسلم؟

وقد سبق أن قالت كارلا باور إن لشخصية الرسول عليه السلام جوانب مختلفة، وإن كل واحد من الذين كتبوا عنه قد ركز على الجانب الذى يرضيه أو يهمه: فهو رب أسرة، وهو زعيم سياسى، وهو قائد عسكرى... إلخ. فلو قال د. ندوى إنه يركز على الرسول كمعلم، دون أن يخرج الجوانب الأخرى من الاعتبار، لفهمت موقفه، لكن كلامه يعنى أنه ينكر قيام الرسول بإنشاء حكومة إسلامية أصلا. أفلم يكن الرسول هو حاكم دولة المدينة أولا ثم العرب جميعا بعد ذلك فى آخر حياته؟ ألم يكتب صحيفة المدينة كى ينظم علاقة طوائفها بعضها ببعض بوصفهم مواطنى الدولة الجديدة التى كان هو حاكمها؟ ألم يكن يقوم بالقضاء بين مواطنى تلك الدولة؟ ألم يكن يجيش الجيوش ويقود المعارك؟ ألم يكن يقوم بتوزيع الغنائم والأنفال والصدقات؟ ألم يستقبل وفود العرب؟ ألم يرسل الولاة والعمال لتدبير شؤون المناطق البعيدة عن المدينة من البلاد؟ ألم يبعث بسفرائه إلى الملوك من حوله يدعوهم إلى الإسلام؟ ألم يبشر المسلمين بفتح فارس والروم والاستيلاء على القسطنطينية والانتصار على الأديان جميعا مع تحذيرهم فى ذات الوقت مخاطر الترف والانشغال الضار بالدنيا؟ أم تراه صلى الله عليه وسلم قد أخطأ حين أقام دولة ولم يتنبه أحد منا إلى ذلك الخطإ حتى جاء د. ندوى فنبهنا إليه؟ ألم يسر الصحابة على نهج الرسول فيحافظوا على الدولة التى أنشأها ثم زادوا فمدوا حدودها شرقا وغربا وشمالا؟ أم تراهم هم أيضا قد أخطأوا كما أخطأ الرسول؟ ثم إذا لم يقِم المسلمون حكومة إسلامية فكيف يمكنهم أن يأمنوا على أنفسهم وعلى دينهم فى دولة لا يحكمونها هم؟ ومن يضمن لهم أنهم لن يمْنَعوا من ممارسة دينهم أو يعْتَقَلوا أو يقَتَّلوا أو يعَذَّبوا؟ ولو لم يكن الرسول حاكما فى المدينة وكان عليها ابن أبى بن سلول مثلا، ثم أراد هذا المنافق سجن الرسول أو طرده من المدينة، فماذا كان الرسول فاعلا؟

ولقد ترك الرسول مكة هو وأتباعه حين وجد ألا مستقبل لهم هناك نظرا للتضييق البشع الذى كان يضيقه عليهم أهلها، فهل كان المفروض أن يظل عليه السلام متنقلا فى بلاد العالم مهاجرا من وجه الإجرام والطغيان بدلا من أن يفكر فى الحل الناجع الشافى الذى يمكن أن يضع نهاية لكل تلك المتاعب، وهو إقامة دولة إسلامية؟ ونحن نعرف أن الإسلام ليس مجرد نظام أخلاقى كالنصرانية مثلا يمكنه أن يتعايش مع الأوضاع السائدة فى المجتمع دون أن يعنى نفسه بتغييرها، بل هو دين شامل أتى بنظام خاص به فى السياسة والاقتصاد والأخلاق والعبادات لا بد أن يطبَّق. وأخيرا فكلام د. ندوى هنا يذكرنا بما جاء فى كتاب "الإسلام وأصول الحكم" للشيخ الأزهرى على عبد الرازق، ذلك الكتاب الذى أقام العالم الإسلامى ولم يقعده من يوم صدر منذ نحو قرن حتى الآن، والذى يقول بعض من كتبوا عنه إن صاحبه قد عاد عن رأيه الذى عرضه فى هذا الكتاب قبل وفاته، وبعض آخر إنه ليس مؤلفه الحقيقى بل شخصا آخر أراد أن يتخفى وراء شيخ معمم حتى يكون لوقع كلامه فى العقول والنفوس تأثير كبير.

على أن هذا شىء، وانتهاج البعض سياسة العنف فى سبيل الوصول إلى سدة الحكم شىء آخر مختلف تماما، وبخاصة حين لا يكون هؤلاء المتحمسون مستعدين للقيام بمهام الحكم مكتفين بما هم عليه من غشم وسذاجة وجهل سياسى ينتهى دائما بهم وبالبلاد التى وصلوا لحكمها نهايات مأساوية، إن لم تكن غاية كثير منهم هى التسيد والتسلط والتجبر باسم الإسلام، والإسلام منهم براء. لقد ظل الرسول يدعو قومه فى مكة بالحسنى حتى أمسى طريق الدعوة مسدودا انسدادا بشعا، فهاجر إلى المدينة حيث وجد استقبالا كريما، وترحيبا من أهلها نبيلا، واستعدادا للعمل تحت رئاسته زعيما سياسيا، وقائدا عسكريا، وقاضيا شرعيا. ولو كانت الانقلابات وسيلة مقبولة إسلاميا لانتهجها الرسول والمسلمون فى أم القرى بدلا من هجر مراتع صباهم وممتلكاتهم وأموالهم وأقاربهم ومغانى ذكرياتهم بكل ما يعنيه هذا من إيلام نفسى شديد وخسارة مالية فظيعة. أما فى المدينة فاختلف الأمر. ولو وجد صلى الله عليه وسلم الجو فى يثرب مثله فى مكة تلبدا وغيوما وانسداد أفق ما هاجر إليها، فضلا عن أن يفكر فى إكراه أهلها على قبوله حاكما. فيمكنك القول، وأنت مطمئن، إن الرسول قد حاز زعامته السياسية والدينية بما يشبه الديمقراطية، إذحين رفضه المكيون ترك لهم البلد مهاجرا إلى يثرب، التى قبلها أهلها زعيما وقائدا بملء حريتهم وإرادتهم.

ثـم مـا العمـل أمـام قولـه تعـالى فى النـصوص التاليـة: "وأنِ احكـم بيـنهم بـما أنـزل الله، ولا تتبـع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك"، "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَرَ بينهم ثـم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيتَ ويسلّموا تسليما"، "يسألونك عن الأنفال. قل: الأنفال لله والرسول"، "وإنْ جَنَحُوا للسَّلْم فاجْنَحْ لها وتَوَكَّلْ على الله. إنه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ. هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين"، "يا أيها النبى، حَرِّض المؤمنين على القتال"، "يا أيها النبى، جَاهِدِ الكفارَ والمنافقين واغْلُظْ عليهم"، "براءةٌ من الله ورسوله إلى الناس يـوم الحجِّ الأكبر أن اللهَ بـرىءٌ مـن المشركين ورسـولُه"، "كيف يكـون للمشركين عهـدٌ عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام؟ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم"، "ما كان للمشركين أن يعْمُروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر"، "يا أيها الذين آمنوا، إنما المشركون نَجَسٌ، فلا يقرَبوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا. وإن خفتم عَيلَةً فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء"، "خذ من أموالهم صدقةً تطهِّرهم وتزكيهم بها"، "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبُهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله"، "فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم. ولو كنتَ فظا غليظ القلب لانفضُّوا من حولك. فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر. فإذا عزمتَ فتوكل على الله"، "وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط"... إلخ؟ ولا داعى للاستشهاد فى هذا المجال بأحاديث النبى، فهى كثيرة ومعروفة.

ومن بين ما قالته كارلا باور أيضا فى كتابها الذى نحن بصدده إن التاريخ ليس نسخة واحدة، بمعنى أنه إنما يعتمد على من يرويه، ومن ثم تتعدد رواياته بتعدد أصحابها حسب اتجاه كل واحد منهم. إلى هنا أنا معها، وإن كان هناك دائما من يحرصون بأقصى طاقتهم على أن يذكروا الحقيقة كما بلغتهم مهم كلفهم ذكرها من أثمان وتضحيات. ثم ضربتْ مثلا على ما تقول من النساء المحدِّثات اللاتى كشف عنهن د. أكرم الحجاب فى عمله الضخم المكون، كما قرأنا، من أربعين مجلدا، وإن لم يظهر منه سوى مجلد واحد، بعدما ظللن وقتا طويلا بعيدات عن الأعين والآذان لا يحس بهن ولا بوجودهن أحد، وكأنما لم يعـرف تـاريخ الإسـلام أن هنـاك نـساء محدِّثات بـالألوف، مـضيفة أن الأمـر كـان كـذلك لأن التـاريخ الإسلامى إنما رواه الرجال. وهنا أحب أن أعترض على طريقة تفكير الكاتبة المعوجة، إذ كيف تتهم الرجالَ بإخفاء دور النساء فى مجال علم الحديث، والرجال هم، وهم وحدهم، الذين كتبوا عنهن وترجموا لهن ومدحوهن وأكبروا من شأنهن وذكروا ما لهن من فضل على الرجال وأبرزوا تلمذة كثير من

الرجال لهن، إذ لا أعرف معجما أو موسوعة فى القديم كتبتها امرأة عن بنات جنسها من المحدِّثات أو من غير المحدِّثات؟ وأكرم ندوى، الذى كشف الحجاب عن هؤلاء النسوة كما تقول، أليس أحد الرجال؟

وقد فات الكاتبة أيضا أن السبب الذى منع هؤلاء النسوة من الاشتهار شهرة المحدِّثين الرجال كمالك والبخارى ومسلم والترمذى مثلا أنهن لم يتركن وراءهن كتبا حديثية كالتى تركها هؤلاء المحدِّثون، فضلا عن أن هناك من الرجال المحدِّثين آلافا مجهولين لا يعرفهم أحد مثلما أن هؤلاء النسوة غير معروفات لأنهم لم يتركوا خلفهم كتبا تخلدهم كما فعلت كتب الصحاح والمسانيد وغيرها لأصحابها. فهل نقول إن أمهاتهم أو زوجاتهم أو أخواتهم أو بناتهم هن المسؤولات عن هذا؟ كما فات المؤلفة كذلك أن أولئك النسوة المحدِّثات قد تَلَقَّيْنَ تشجيعا ودعما من آبائهن أو أزواجهن أو إخوتهن، وإلا لما استطعن، اللّهم إلا فى حالات نادرة أو شاذة، أن يطلبن الحديث فيتعلمنه ويعَلِّمْنه بدورهن للرجال والنساء.

وهنا مجال للكلام عن التقاطع بين جهود الرجل العلمية وما بذلته أنا كذلك من جهود فى إبراز دور المرأة فى مجال العمل العقلى. فقد أُسْنِد إلىَّ، وأنا بالدوحة أعمل بجامعتها أوائل القرن الحالى، تدريس مقرر النثر العربى الحديث، فحاولت فى الفصل الأول من الكتاب الذى عكفت أوانذاك على إعداده أن أتحدث عن الجديد الذى انفرد به هذا النثر عن نظيره القديم، فوجدت ضمن ما وجدت أن المرأة العربية الحديثة قد دخلت ذلك الميدان، الذى لم أجد فى حدود علمى واجتهادى أنها قد ولجته قديما رغم أنه كان هناك محدِّثات كثيرات، وفقيهات وشاعرات أيضا. وقد أنفقت أياما وليالى أقرأ تراجم النساء المسلمات فى كل ما وجدتُه فى مكتبة جامعة قطر من موسوعات ومعاجم، فلاحظت أن كثيرات منهن كن محدثات، وكان هذا من الوضوح البارز بمكان مكين. وهو ما رصده د. الندوى أيضا. وللأسف لم أعلم وقتها بصنيع د. الندوى بل ولا بالندوى نفسه.

وهذا ما سجلته عن هذا الموضوع فى الكتاب المذكور، وهو بعنوان "المرأة ناثرة": "ويدخل فى مظاهر التطور الذى لحق بالنثر العربى الحديث أيضا مشاركة المرأة فى الكتابة النثرية. لقد كان بين نساء العرب القدماء شاعرات منذ الجاهلية، وإن كان عددهن وإنتاجهن قليلا جدا بالنسبة للرجال وأشعارهم، إذ كانت المرأة لا تزيد فى شعرها عادة عن بعض الأبيات أو المقطوعات والقصائد، ولم يمر بى فى قراءاتى فى أدبنا القديم أنه كان لامرأة ديوان شعرى كامل حاشا الخنساء. لقد كان هناك مثلا

جليلة بنت مُرّة وليلى الأَخْيلِية ورابعة العدوية ونَزْهُون الغرناطية وولاّدة بنت المستكفى، إلا أن ما وصلنا عنهن من الشعر قليل قليل قليل. أما فى النثر فقد حاولت أن أستعرض ما فى ذهنى من أسماء الجنس اللطيف، غير أنى لم أوفَّق إلى تذكر شىء. لقد كانت هناك محدِّثات وفقيهات مثلا، أما أديبات يكتبن النثر رسالةً أو مقامةً أو حكايةً فلا. لكن الوضع قد اختلف فى العصر الحديث، الذى سمع منذ فترة مبكرة انطلاق أصوات المصلحين الداعين إلى تحرير المرأة من قيودها والعناية بتعليمها. بدأ هذا رفاعة الطهطاوى رائد النهضة الثقافية الحديثة. وفى بداية القرن العشرين أصدر قاسم أمين كتابيه: "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة"، اللذين أقاما الدنيا ولم يقعداها منذ ذلك الحين. وكانت هناك أصوات أخرى فى مصر وفى غير مصر كلُّها تعطف على المرأة وتدعو إلى احترام إنسانيتها وإعطائها نفس الفرص التى يتمتع بها الرجال.

وكان من ثمرة هذا أنْ دخلت المرأة المدرسة ثم الجامعة بعد ذلك، وخرجت إلى الدنيا ولم تعد قعيدة المنزل، وعملت مع الرجل فى كل المؤسسات والمصالح، وأصبحت هناك نساء كاتبات مثلما هناك رجال كتّاب، فرأينا عائشة التيمورية الشاعرة المعروفة تكتب الرواية، ومَلَك حفنى ناصف تدبّج المقالات وتلقى الخطب، ومىّ زيادة تخطب وتكتب نثرا وجدانيا مجنَّحا وتتبادل الرسائل مع بعض مشاهير الأدباء كالعقاد وجبران، وبنت الشاطىء تمارس الكتابة الإصلاحية والنقد الأدبى والإبداع القصصى والترجمة الذاتية والغيرية وتلقى المحاضرات فى الجامعة، ومثلها فى ذلك سهير القلماوى، وكذلك نعمات أحمد فؤاد ولطيفة الزيات ورضوى عاشور. وهذا الكلام يصدق على البلاد العربية الأخرى كفلسطين، التى يمكن أن نذكر منها كلثوم عودة وسلمى النصر ونجوى قعوار وأسمى طوبى ووداد سكاكينى وعنبرة سلام الخالدى وفدوى طوقان وسميرة أبو غزالة وامتثال جويدى وثريا ملحس، وسوريا ولبنان حيث ظهرت وردة اليازجية ونديمة المنقارى وألفت إدلبى وسلمى الكزبرى وضياء قصبجى ونجاح العطار وبثينة شعبان ومارى عجمى ونازك بيهم وروز غريب وليلى البعلبكى وغادة السمان وليلى عسيران، والعراق، ومنها بولينا حسون ومليحة إسحاق ونازك الملائكة وعاتكة الخزرجى ولميعة عمارة وديزى الأمير وسليمة خضر وسهيلة الحسينى. كما نستطيع أن نضيف إلى هذه الأسماء ليلى أمين دياب وآسيا جبار وزهور ونيسى (من الجزائر)، وباحثة الحاضرة (ملكة الفاسى) وفتاة تطوان وآمنة اللوة وفاطمة الراوى وخناتة بنونة (من المغرب)، وزينب الكعاك وناجية ثامر وعروسية النالوتى وهند عزوز وحياة بنت الشيخ (من تونس)، وزعيمة البارونى وحميدة العنبرى وجميلة الزمرلى

(من ليبيا)، وزينب الكردى وشرقية الراوى ودُرَر (من السودان)، وخديجة السقاف ورقية الشبيب ولطيفة السالم و سميرة بنت الجزيرة العربية وصفية عنبر (من السعودية)، وزهرة المالكى ودلال خليفة وكلثم جبر وهدى النعيمى وشمة الكوارى (من قطر)، وخولة القزوينى ومنيرة الفاضل ومعصومة المطاوعة (من البحرين)، وسلمى مطر سيف وليلى أحمد ومريم فرج وأمنية بو شهاب (من الإمارات)، وأمل عبد الله وشفيقة زوقرى ورمزية الأريانى وأمل اللوزى وبلقيس الحضرانى (من اليمن)، وزكية بنت سالم العلوى وبدرية الوهيبى (من عمان). بل لقد أصدرت المرأة العربية المجلات ورأست تحريرها، وأورد أنيس المقدسى فى كتابه: "الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث" بضع عشرات من المجلات التى كان يتولاها عدد من النساء العربيات فى مصر والشام وأمريكا فقط حتى عام ١٩٥٥ فحسب".

ومما قاله د. أكرم ندوى أيضا واستغربته المؤلفة كثيرا أن المسلم ينبغى أن يرضى بواقعه وأن يكف عن التذمر والشكوى، فالمهم أن يتمسك بالتقوى. وقد ضرب على ذلك بعض الأمثلة منها أنه لا يصح أن تشتكى المسلمات فى فرنسا منع السلطات الفرنسية لهن من التحجب وألا يتوقفن طويلا أمام السفور المفروض عليهن فى الأماكن العامة، فمنع التحجب لا يعوقهن أن يكن مسلمات تقيات. والمسلم فى أوربا يستطيع أن يمارس التقوى مهما كانت الظروف لأن أحدا لن يمنعه ذلك. فليس شرطا أن يعيش المسلم فى ظل حكومة إسلامية لكى يمارس التقوى، التى يراها د. ندوى أهم شىء فى حياة المسلم... وهكذا.

ولا شك أن التقوى هى مدار الأمر كله فى الإسلام. وهناك فى هذا الصدد حديث بديع أحفظه منذ كنت صبيا فى المرحلة الثانوية: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا (ويشير صلى الله عليه وسلم إلى صدره)". وثَمَّ حديث آخر يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى". وحديث ثالث: "ليس الإيمان بالتمنى، ولكنْ ما وَقَرَ فى القلب وصدَّقه العمل"... كذلك فالإسلام أولويات، وليس أمرا سبهللا. وأذكر أنى اختلفت مع زملاء بعثتى إلى بريطانيا صيف ١٩٧٦م حين كنا نتلقى دروس اللغة الإنجليزية فى أحد المراكز البريطانية بالقاهرة استعدادا للطيران إلى بلاد جون بل، فكان رأيى أن القراءة أهم كثيرا من نوافل الصلاة. وكان بعض زملائنا يقولون بالعكس، فأستغرب محاولا أن أفهمهم أن القراءة فريضة، أما النوافل فنوافل. ولكن الأمور كانت معكوسة فى أذهانهم. والغريب أنهم كانوا متخصصين فى العلوم الطبيعية، فكنت أتصور أنهم ينبغى أن يكونوا أسبق منى فى هذا الاتجاه، ولكنْ "طَلَع نَقْبِى على شُونَة".

فأنا مع د. ندوى حين يقلل من شأن اللحية والنقاب مثلا إذا لم يراع الملتحى أو المنتقبة أصول الجيرة والزمالة وما تقتضيانه من التبسم فى وجوه من حولنا. وكثيرا ما أستغرب كيف أن أول شىء يصنعه كثير من "التائبين" هو إطلاق اللحية أو الانتقاب، ثم هم بعد ذلك يجرون على ما كانوا يجرون عليه قبل التوبة من ضيق أفق وكسل وتبلد وبكش وقسوة وركون إلى الجهل ونفور من القراءة. كما أننى أضيق صدرا حين أرى طلابى وطالباتى الحريصين على مثل تلك الأشياء لا يتميزون فى خلق أو علم أو عمل عمن حولهم ممن هم فى عرفهم وعرف الناس من حولهم أقل تدينا، إذ أحيانا ما أشير إلى طالب

ملتح أو طالبة منتقبة طالبا إجابة سؤال طرحتُه أو مشاركة فى مناقشة فكرة عرضتها، لكن أفاجأ بهزة من الرأس معناها: ليس فى أدمغتنا شىء نشارك به. أى أنهما لم يقرءا مثلما لم يقرإ الآخرون، ولم يهتما بالإنصات إلى ما يقوله الأستاذ مثلما لم يهتم الآخرون، ولا يريان للعلم أية قيمة مثلما لا يرى له الآخرون، فأغضب وأتساءل: فما فائدة اللحية إذن والنقاب؟ فهما يظنان أنه متى التحى الشاب أو انتقبت الفتاة فقد حازا الإيمان من جميع أطرافه. وعبثا أفهمهما بأن أهم شىء فى حياتهما وحياة أمثالهما من الطلاب والطالبات هو العلم. فإذا ما قصَّرا فإن دخول الجنة يصير صعب المنال جدا. ولكن لا حياة لمن تنادى. ومع ذلك فآه ثم آه ثم أواه إذا ما تحدثت عن عدم وجوب إطلاق اللحية أو ارتداء النقاب! ذلك أنهما يتحولان مفتيين من الطراز الرفيع ومجادلَين على أحسن ما يكون.

لكننى لست مع . ندوى فى عدم اعتراض الشخص على واقعه وظروفه. إن هذا الإنكار الذى يقلل من شأنه ويدعو إلى التخلص منه هو بداية التغيير إلى الأحسن. ولست أدرى كيف يتوقع الدكتور من شخص ما أن ينشط لتغيير واقعه دون أن يتألم من هذا الواقع ويشكوه ويعترض عليه. إن مثل ذلك الاعتراض ليس إثما يُخْشَى لأنه ليس اعتراضا على قضاء الله وقدره. إنه تطلع إلى قضاء وقدر آخر، فنحن طوال الوقت بين أقضية الله ننتقل من قضاء منها إلى قضاء آخر، ولا يمكننا الخروج عنها مهما فعلنا ونفعل. وكما أن المريض يضيق بمرضه ويجتهد فى التخلص منه واسترداد ثوب الصحة والعافية فكذلك كل متألم من ظروفه السيئة لا حرج عليه أبدا فى الضيق بها والرغبة فى استبدالها، بل يجب عليه ذلك. وأنا إذن مع كارلا باور فيما قالته عن الثقافة التى تربت عليها والتى تَنْشُد من كل شخص أن يعمل طوال الوقت على تجاوز ذاته وواقعه إلى ما هو أفضل، وأن يبذل كل ما لديه من طاقات ومواهب فى تقديم الجديد، وإلا أَسِنَت الحياة وتعطنت كما هو حال المسلمين عموما اليوم فى كل مناحى الحياة تقريبا. وبهذه الروح تقدم الغرب وسبق العالم فى الصناعة والزراعة والعلم والقوة. وقد كنت أعيب فى شبابى الأول بعض فلاسفة الأمريكان حين أراهم يرفعون شعار النفعية (البراجماتية) بمعنى أن مقياس صدق فكرة ما هو أن تكون نافعة، أى يمكن تحويلها أولا إلى واقع، وأن تكون مفيدة لا مجرد شقشقة باللسان أو كلام نظرى لا يترتب عليه شىء، ظنا منى أن الحق حق مهما تكن النتيجة. لكننى صرت أكثر ميلا إلى هذا الرأى بعدما رأيت كثيرا من المسلمين يضيعون وقتهم فى محاولة إثبات صحة شىء ما دون أن تكون لذلك أية ثمرة فى الواقع، ومن ثم يظل حال المسلمين كما هو إن لم يزدد سوءا.

وعلى هذا ينبغى أن تسعى المسلمة التى تعيش فى الغرب ويجبرونها على السفور فى الأماكن العامة إلى الحصول على حقها فى أن ترتدى ما تشاء ما دام هذا الذى ترتديه لا يؤذى أحدا. أما قوله إن تلك المسلمة تستطيع أن تكون تقية فى بيتها فهو كلام فى الهواء، إذ الحجاب إنما جُعِل للأماكن العامة لا للبيت حيث تكون المرأة عادة مع زوجها وأولادها أو مع أبيها وإخوتها، وهى لا تحتاج إلى مثل ذلك الحجاب فى تلك الظروف. وأمامها وأمام أهلها القضاء أو الضغط السياسى عن طريق توظيف الأصوات الإسلامية والمتعاطفة معها أو الكتابة فى الصحف أو الظهور فى برامج التلفاز أو المذياع لعرض وجهة نظر الإسلام أو التظاهرات. أما الاستسلام فلا أوافق د. أكرم عليه، فإن الاستسلام يغرى الغربيين بمزيد من الضغط على المسلمين إلى أن ينسلخ المسلمون عن دينهم تماما. ولنا فيما حدث بالأندلس عبرة، وأى عبرة. أما إذا لم تستطع تلك المسلمة بعد ذلك كله شيئا فهى معذورة عند الله. أقول هذا وأنا أعرف أن الحجاب ليس بكل تلك الأهمية التى يعلقها عليه المسلمون فى الوقت الذى لا يقرأون ولا يعملون بكل طاقتهم ولا يحسنون تأدية ما يعملون أو يتقنونه ولا يهتمون بجمال أو نظام أو نظافة على وجه العموم ولايبتكرون شيئا ولا يكتشفون قانونا من قوانين الكون بل يعيشون عالة فى ذلك على الغرب. أما الذين يقولون برجوع المسلمين من البلاد الأوربية إلى بلادهم فلنا عندهم سؤال: ترى ما الذى دفعهم إلى المجىء إلى تلك البلاد؟ أليس هو الفقر والاستبداد والتضييق الذى يجدونه فى بلادهم؟ ولا يقل أحد من فضلكم إنه لا يوجد فرق بين ما أقوله وما يقوله أكرم ندوى. ذلك أن كلامه يعنى الاستسلام المبدئى، أما كلامى فيعنى أن يبذل المسلم جهده، كل جهده، فى تغيير ما يتعرض له من تضييق وإجحاف ولا يسكت ما دام هناك باب.

أما قوله إن المهم هو التقوى فأية تقوى يمكن أن تبقى بعد اقتطاع الدين جزءا جزءا، إذ من يضمن لنا أن الرضا بذلك الظلم لن يترك مع الأيام أثره فى نفس المسلم المضطهَد تصاغرًا وذلةً وتباعدًا عن مظاهر الدين وشعاراته ورموزه، ثم عن عباداته وعقائده بعد ذلك؟ إن الغربيين لا يسكتون عما يحسبونه حقا من حقوقهم، بل يناضلون دونه. وكلام السيدة باور يصب فى هذا الاتجاه. فلِمَ يريد د. ندوى من المسلم أن يفرط فى حقوقه منذ اللحظة الأولى بحجة أن المهم هو شعوره بالتقوى؟ وهل كل هم المسلم هو أن يعبد الله فى السر وعلى خوف ورعب؟ لماذا؟ إن الغرب يصِمّ أسماع الدنيا تفاخرا بديمقراطيته وليبراليته، فلم لا نضعه أمام ادعاءاته تلك ونحاكمه إليها؟ إننى لا أحب الصدام بين المسلمين وبين الدول الغربية التى يعيشون فيها، لكنى أيضا لا أحبذ أن يعيشوا هناك أذلاء. والغرب

يقيم الدنيا ويقعدها قعقعةً ودمدمةً من أجل الأقليات التى تعيش فى العالم الإسلامى. فلماذا يضيق صدره عندما يطالب المسلمون فيه ببعض ما يطالب هو به لهؤلاء فى بلاد الإسلام؟

إن المسألة ليست مسألة زى فحسب، إذ هناك أيضا بناء المساجد، الذى ترفضه أو تقيم دونه العقبات بعض الدول الغربية، وإذا رضيت ببنائها اعترضت على إنشاء المآذن، بل وعلى الأذان نفسه، فى الوقت الذى تدق فيه النواقيس الكنسية كما يحب أصحابها. مرة أخرى لا نريد الصدام بل نريد نيل الحقوق، وليس شرطا أن تُنَال دفعة واحدة بل يمكن أن يتم الأمر تدريجيا وقليلا قليلا. ولو كان الزنوج مثلا اتبعوا خطة د. ندوى ما كان أوباما وصل إلى رئاسة أمريكا ولكانوا لا يزالون يقتَّلون فى الشوارع الآن ويمْنَعون دخولَ المطاعم والمدارس والكنائس التى يستخدمها البيض. ولقد نادى أحد المرشحين للرئاسة الأمريكية منذ أيام بالتضييق على المسلمين فى أمريكا واعدا أنه سوف يطبق ذلك متى ما نجح فى الانتخابات الرئاسية هناك، لكنه تحت الضغط من جانب المسلمين وغيرهم داخل أمريكا وخارجها اضطر إلى التراجع والاعتذار. فأى الخطتين أفضل وأكرم وأدنى إلى العدل والإنصاف؟ خطة أكرم ندوى الداعية إلى التقهقر والرضا بالإجحاف أم خطة التمسك بالحقوق التى كفلها القانون لكل المواطنين والمقيمين فى الولايات المتحدة؟ إن تمسك المسلمين بقوانين البلاد فى الدفاع عن حقوقهم هو التقوى فى أكرم صورها وأبعدها عن إثارة المشاكل وأكفلها لتجنب الصدام مع السلطات أو أى طيف آخر من أطياف الأمة. أما د. ندوى فينادى بتقبل المسلمين الهوان والظلم والإجحاف والتمييز العنصرى والدينى.

لكن من ناحية أخرى ينبغى أن يعمل المسلم على منافسة مواطنى البلد الغربى الذى يعيش أو يقيم فيه فى بلوغ الخيرات، فيحرص على أن يكون لديه عمل، وعمل يدر عليه دخلا كبيرا يضمن له حياة كريمة. كذلك عليه أن يلتزم قيم الإسلام الحضارية من صدق ووفاء بالوعد والعهد، وإتقان للعمل الذى يؤديه مهما كان نوعه، وتشغيل لمخه دائما ابتكارا واختراعا وتوصلا إلى الجديد المفيد، وحرص على الجمال والنظام والتخطيط والذوق الكريم واللياقة العالية. وإذا كان الغربى يعمل هذا ويتمسك به لدنيا يصيبها، وما هذا بالقليل، فعلى المسلم أن يعمل هذا لدنياه وآخرته، أى احتراما للقانون ومراعاة لله المطلع على كل شىء والذى يحب لعبده أن يعيش متحضرا راقيا متفوقا كريما متعاونا مع من حوله على الخير والنفع. وهذه هى التقوى كما أفهمها لا تطويل اللحى ولا تقصير الثياب

ولا تنقيب الوجه ولا كثرة التمتمة وترديد الصيغ الدعائية التى لا تؤدى إلى شىء لمفارقتها أهم ضمان لاستجابتها من الله، وهو العمل والاجتهاد.

التقوى فى الإسلام، كما أفهمها، هى الحضارة، الحضارة النظيفة التى تحوطها العفة والتواضع والإيمان بالله والعمل على نيل مرضاته، بخلاف الحضارة الغربية التى لا تضع العفة والتواضع والإيمان برب الحياة فى ذهنها، فتجد أهلها يشربون الخمر ويزنون ويلوطون ويضاجعون الحيوانات ويتكبرون على الأمم الأخرى ويضعون العراقيل فى طريق انعتاقها من الاستبداد والاستعمار والتخلف ويتهكمون بالآخرة والألوهية والنبوة والدين. أما غير ذلك فتضييع وقت وهلس سوف يحاسبنا عليه رب العالمين فى الدنيا تخلفا وهوانا وذلة، وفى الآخرة جحيما متسعرا أعده سبحانه لمن ضيعوا حياتهم ورَضُوا بالهوان كما يفعل كثير جدا منا نحن المسلمين. وليس معنى هذا أن المسلمين كلهم لا يشربون الخمر ولايزنون ولا يلوطون مثلا، بل معناه أن الغربيين لا يجدون فى ذلك معابة ولا خروجا على القانون ولا يتواصَوْن بتركه ولا يتعرضون لمن يفعله بالنصح فضلا عن الإنكار، أما نحن فمن يفعل ذلك منا يأثم ويشعر ضميره بالوخز الأليم ولا يسامحه المجتمع ولا يفلت من القانون. ونرجو ألا يأتى اليوم الذى نلحق فيه بالغرب فى هذا الاتجاه بدل أن يتحول هو ناحية العفة والتواضع والإيمان.

لقد كفلت الديمقراطية الغربية للشواذ حق ممارسة شذوذهم والتظاهر ضد أى قانون يضيق عليهم ولو بعض التضييق، بل إن بعض الدول الغربية تجيز زواج المثليين، فلماذا ننكر على المسلمين ممارسة حقهم فى أن تغطى نساؤهم رؤوسهن؟ أذكر أنه، حين أثير موضوع الحجاب فى فرنسا منذ بضع عشرة سنة، أن اسْتُثْنِيت الطاقية اليهودية والصليب النصرانى رغم أنهما رمزان دينيان، ورُفِض غطاء الرأس للمرأة المسلمة، ولكنهم أجازوا للمسلمة أن تضع على ثيابها ما يسمى: "كف فاطمة"، أى خمسة وخميسة، التى يتقى بها العوام أذى العين حسب اعتقاداتهم. فانظر هذا التنطع: يجيزون أن تمارس المسلمة السخافات، ويرفضون لها الالتزام بالواجبات رغم أن استعمال المسلمة للطرحة مثلا لتغطية الرأس لا يختلف فى شىء عن وضع الفرنسية الإيشارب لتغطية شعرها. فلماذا إذن هذه التفرقة؟ سيقولون إن علمانية الدولة ترفض استعمال الإشارات والرموز الدينية لأن من شأنها إثارة التعصب. لكنهم يتجاهلون عن عمد أن كف فاطمة أقرب إلى الإشارة الدينية، بينما غطاء الرأس ليس إشارة ولا رمزا بل واجبا تأثم المرأة المسلمة إذا ما أهملته كما تأثم بالكذب وترك الصلاة، وإلا كان من حق الدولة العلمانية أن تمنع الناس الصلاة والصيام والحج أيضا. وإذا كانت تلك الدولة ترى فى الطرحة رمزا دينيا

إذن فمن واجبها أن تهدم أبراج الكنائس أيضا لأنها من الرموز الدينية الفاقعة التى تخزق العين ويراها الناس من بعيد ولايخطئون أبدا مرماها ومغزاها. أليس كذلك؟ إن الدولة العلمانية، بهذه الطريقة، تتدخل فى الشؤون الدينية لبعض رعاياها مع أنها، حسبما هو مفروض فى العلمانية، لا علاقة لها بالدين من قريب أو من بعيد، إذ تترك الناس يباشرون تلك الأمور بأنفسهم دون تدخل من جانبها لا بخير ولا بشر.

وقد كان محمد أركون ممن استعانت بهم الدولة الفرنسية آنئذ لتسويغ تلك التفرقة فى المعاملة بين المسلمين وغيرهم. وها هو ذا أكرم ندوى يتدخل مبررا ذلك الصنيع، ولكن على أساس آخر، ولكن الغاية عند الاثنين واحدة. إن المسلم مطالب بتغيير المنكر بيده، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه. فأما باليد فلا تجوز مخالفة قوانين البلاد والقفز فوقها. لكنْ إذا تعرض المسلم فى الشارع مثلا أو فى بيته لما يهدد حياته أو ماله فمن حقه الدفاع عن نفسه وعدم ترك المهاجم يسرقه أو يقتله أو يحرق بيته ويمضى لحال سبيله بجريمته ليمارس هو التقوى بعد موته فى الوقت الضائع بعد أن يصير عظاما وترابا، مع أن التقوى تقتضيه الدفاع عن نفسه وعدم ترك المجرم يمضى خفيفا هانئا سعيدا بما صنع. أما باللسان فبالكتابة فى الصحف والخطابة فى المنتديات واستعمال لعبة السياسة من خلال التصويت مثلا لمن يقف مع حقوق المسلمين من المرشحين للرئاسة أو لتمثيل الدائرة والاستعانة بالصحفيين والكتاب والسياسيين المتعاطفين معهم. أما د. ندوى فيقفز مرة واحدة وإلى الأبد إلى ما بعد التغيير بالقلب محرقا المراحل الثلاث كلها دفعة واحدة فذة لا مثنوية فيها، أى بممارسة العبادة فقط فى البيت. إنه لم يقل حتى بالتجاء المسلم إلى الاحتفاظ بغضبه فى قلبه، بل بالضرب صفحا عن الأمر برُمَّته كأنه غير موجود قائلا إن المهم هو ممارسة التقوى. فأية تقوى يا ترى سوف تبقى بعد ذلك كله؟

وبمناسبة ما نحن فيه هناك من الأوربيين من يزعم أن المسلمين فى البلاد الغربية يريدون أن يطبقوا الشريعة فيها. وهو زعم خبيث فوق أنه كاذب، فالمسلمون لا يطبقون كثيرا من أحكام الشريعة فى بلاد الإسلام الأصلية مع أنهم يشكلون الأغلبية الساحقة فيها بل قد ينفردون بها وحدهم تقريبا، فكيف يقال ذلك عن بلاد يعيشون فيها لاجئين أو باحثين عن الرزق ويشكلون مع مسلميها الأصليين أقلية غير ذات أنياب، فضلا عن أنهم من الضعف بحيث إن أقصى أمانيهم أن يجدوا مكانا يصلون فيه ولو كان مركن سيارات كما يحدث فى كثير جدا من أماكن الصلاة حتى إن بعض القساوسة فى تلك البلاد يسمحون لهم أحيانا بالصلاة داخل الكنيسة متأسين، عن وعى أو بغير وعى، بنبينا عليه السلام

حين سمح لنصارى نجران بالصلاة فى مسجده بالمدينة حسبما جاء فى بعض الروايات، وسمح للأحباش باللعب فيه بالدرق والحراب، وعائشة تنظر معه إليهم وتستمتع بلعبهم. وإلى جانب هذا كله فإن الدول الغربية هى أقوى دول العالم فى عصرنا الحالى. فكيف بالله عليكم يمكن أن يتصور متصور مهما كان خياله نشيطا وملتهبا أن المسلمين فى بلاد الغرب يمكن أن يفرضوا الشريعة على أهل تلك البلاد غير المسلمين؟

إن هذه المزاعم السخيفة توهم من يسمعها ولا يعرف الحقيقة أن المسلمين فى تلك البلاد لهم من القوة العسكرية والاقتصادية والإعلامية والإدارية والثقافية والعلمية، ولهم فوق هذا من مساندة الدول الكبرى، ما يستطيعون به تحقيق المستحيل وفرض إرادتهم على الأغلبية الكاسحة من غير المسلمين فى أى بلد أوربى يقطنونه وإقامة دولة إسلامية تطبق الشريعة. وهذا، كما يرى القارئ، منتهى السخف والاستبلاه. والذين يشيعون هذا يعلمون تمام العلم أنهم يكذبون ويخدعون جماهير بلادهم حتى تمعن فى كراهية المسلمين والتضييق عليهم ليتركوا البلاد ويرحلوا. وعلى كل حال فالإسلام لا يعرف أسلوب الانقلابات العسكرية والقفز فوق كرسى الحكم بالقوة ما دامت الأغلبية لا توافق عليه. ودليلنا ما صنعه النبى فى مكة حين تترست قريش خلف وثنيتها فى عناد وتشبث رافضة دين الحق، إذ لم يفكر عليه السلام فى القيام بانقلاب يصل به إلى سدة الحكم مباغتة وغصبا وجبرا، بل إنه لم يرض لأصحابه أن يدخلوا فى صدام مع المشركين المعتدين موصيا إياهم بالصبر الجميل، ومفضلا الهجرة إلى يثرب مع من آمن به على البقاء مرفوضا من أغلبية أهل مكة بعدما تبين له أنهم لن يتزحزحوا عن شركهم وينصتوا لدعوة الإسلام. وهو، عندما هاجر إلى المدينة، لم يفرض نفسه على أهلها، بل هم الذين دعَوْه إليهم وأكدوا له أنهم سوف يؤمنون به ويحمونه ويدافعون عن دعوته، علاوة على أنهم قد قبلوه زعيما لهم ورَضُوا بأن يحكمهم.

فوصوله صلى الله عليه وسلم إلى الحكم لم يكن بالقوة الجبرية بل بالرضا والقبول التامين. وهذه هى الديمقراطية فى أنقى صورها. أما إن كان هناك من يفجر القنابل أو يقتل الناس فى بلاد الغرب فإن سائر المسلمين يرفضون صنيعه رغم أن الأوربيين قد ساموهم ولا يزالون يسومونهم العذاب والإهانة عن طريق مباشر أو غير مباشر. نقول هذا مع ما نعرفه من أن هؤلاء المفجرين للقنابل فى أوربا قد يكونون صناعة مخابراتية غربية للتمهيد لتقنين بعض السياسات الظالمة المجحفة بالمسلمين والعالم الإسلامى. إن المسلمين، رغم أكثريتهم فى الحبشة مثلا ولبنان، لم يفكروا فى الوصول إلى الحكم عن

طريق القوة. كما أنهم فى كثير من البلاد الأفريقية يشكلون نسبة عالية جدا من السكان، ومع هذا لم يفكروا فى السيطرة على البلاد بالعنف. ولبنان والحبشة والبلاد الأفريقية لا تعد شيئا من حيث القوة والمنعة بجانب بلاد الغرب. فكيف يقال إنهم يعملون على تطبيق الشريعة هناك؟ إن هذا لهو الهزل المبين!

وننقل الآن تلخيصا لما قالته وزيرة الخارجية الأسبانية السابقة آنا بالاسيو عن سياسة الغرب تجاه دول العالم الثالث وتعضيدها للحكام المستبدين الذين يقتلون شعوبهم ويزجون بأحرارهم فى المعتقلات وينزلون بهم أشد ألوان البطش والجبروت. وعنوانه: "الغرب يرضى بحكام الزنا" نقلا عن جريدة "المصريون" الضوئية بتاريخ الثلاثاء، ٨ ديسمبر ٢٠١٥: "عندما سُئِل الرئيس الأميركى فرانكلين د. روزفلت عن الدعم الأمريكى للطاغية السيئ السمعة أناستاسيو سوموزا فى نيكاراجوا قال: "ربما يكون ابن زنا، ولكنه ابننا من ذلك الزنا". وسواء كان هذا التعليق الساخر الذى جاء على لسانه ملفقا أو لم يكن فإنه يلخص نهجا غربيا قديما فى قسم كبير من العالم، وهو النهج الذى ارتكزت إليه السياسة الخارجية الأمريكية طَوَال فترة الحرب الباردة. هكذا كتبت آنا بالاسيو وزيرة الخارجية الإسبانية سابقا والمحاضِرة فى جامعة جورج تاون فى تحليلٍ نَشَرَه موقع "قنطرة" الألمانى قائلة: "يبدو أن ميلا جديدا أكثر إزعاجا ظهر مؤخرا مع استعداد زعماء الغرب ليس فقط للرضا بأبناء الزنا الذين تولِّدهم ممارساتنا نحن، بل بأى ابن زنا قادر على فرض الاستقرار بأى ثمن. وهى عقلية مغرية، ولكنها خطيرة".

وترى آنا بالاسيو أن الحكم الرشيد وليس الاستبداد هو المفتاح إلى الاستقرار على الأمد البعيد. وتحذر زعماء الغرب من تكرار السقوط فى فخ الحرب الباردة حين كانوا يرْضَوْن بالطغاة مقابل تأمين الاستقرار بأى ثمن. وتابعت: "كان المفترض أن تكون التجربة سببا فى دفع زعماء الغرب فى الاتجاه المعاكس. فمع مرور الوقت أثبتت المحسوبية الواقعية ظاهريا خلال الحرب الباردة أنها بعيدة كل البعد عن المثالية. بل وفى العديد من الحالات (شاه إيران، ولون نول فى كمبوديا، وأوجستو بينوشيه فى تشيلى، وموبوتو سيسيه سيكو، على سبيل المثال لا الحصر) أدى ذلك النهج إلى انعدام الأمن وتفشى الفوضى فى الأمد البعيد".

على أن هذا لا يعنى ألا يدعو المسلمون هناك مَنْ حولهم من الغربيين وغيرهم إلى دينهم. فكل إنسان يحب أن يتابعه الناس على ما هو عليه من دين أو فلسفة أو مذهب سياسى. فِطْرَة الله التى خلق

الناس عليها لا تبديل لخلق الله. والغرب يقوم بدعاية هائلة لتسويق أسلوبه فى الحياة وإقناع الناس فى مختلف أرجاء العالم بأن سياسته هى أفضل السياسات وأنه صاحب رسالة عالمية للبشر جميعا. وهو يدعو بتلك الدعاية بكل الطرق والوسائل والأساليب، وينفق فى ذلك الميزانيات الضخام. والإسلام الآن يجد طريقه فى غير عسر بالمقارنة بذى قبل حين كان المسلمون الغربيون قليلين جدا جدا حتى إننى شُدِهْت حين علمت أن أحد أخوال الفيلسوف والسياسى البريطانى الشهير برتراند راسل كان مسلما، وبخاصة أن أسرة راسل هى من علية القوم، فقد كان منها رئيس وزارة قبل ذلك. أما الآن فهناك مسلمون غربيون دبلوماسيون وسياسيون وفنانون وكتاب وصحافيون ورياضيون وأساتذة جامعات ومستشرقون، وبعضهم كان يناهض الإسلام ويناصبه العداء قبلا، لكن الله أتى به طائعا مختارا إلى دينه. وعلى المسلمين فى الغرب أن يكونوا مثالا كريما لدينهم، وهذا وحده كافٍ لإقناع الناس بحسن الدين الذى يتبعونه، ولا يحوجهم كثيرا إلى الدعاية المكلفة.

إن فى الغربيين، رغم عيوبهم الجسيمة، فضائل جمة. ولا شك أنهم قد ورثوا عن أجدادنا الكثير من العلم والفن والذوق والتحضر والنظافة والنظام بعدما كانوا مثالا على الهمجية والتوحش. لكن أن نسلب عنهم فضائلهم ونذهب فنتغنى بما ليس فينا فهذا كلام فارغ ولا يؤدى إلا إلى مزيد من تخلفنا وتأخرنا. ذلك أن التغيير إنما يبدأ من يوم أن تشعر بأن وضعك سيء وأن هناك من هو أحسن منك. والمقال التالى مثال على ما أخشاه من خداع النفس الذى يمارسه بعض المسلمين مع أنفسهم متوهمين أنهم حازوا وما زالوا يحوزون كل الفضائل وأن الغرب مجرد سارق لا فضل له فيما أبدعته وتبدعه يداه. نعم لقد أخذ عنا الغربيون الكثير، بيد أننا قد أخذنا بدورنا عن غيرنا الكثير أيضا، وأضفنا إليه وطورناه وصححنا ما فيه من عوج وأخطاء واستدركنا عليه وقفزنا بهذا كله قفزات هائلة فى مضمار الحضارة. وهو ذاته ما عمله الغربيون حين أخذ منا ما أخذ. فكيف ننكر عليهم فضائلهم ونغمطهم محاسنهم؟ إنهم يصنعون معنا نفس الشىء فينكرون على حضارتنا أصالتها، فنغضب بحق لهذا، فلا ينبغى لنا من ثم أن نفعله معهم. ليس هذا فحسب بل إن كاتب المقال لا يريد الإقرار بأننا نحن الذين فرَّطوا فى تفوقهم بتخلينا عن القيم الحضارية الإسلامية الجليلة من عمل وإبداع ورجولة وتحمل مسؤولية وعلم وذوق وجِدٍّ وصبر واستعداد لمواجهة المخاطر فى شجاعة وقدرة عارمة على التضحية، جاعلا كل عيوبنا من صنع الغربيين. ولنفترض أن كلامه صحيح فما الذى يعنيه هذا؟ يعنى أننا بلغنا من الضعف

والهوان والتبلد والجبن والانكباب على التفاهات والانشغال بالشهوات الحد الذى يمكِّن الغرب من هزمنا والتنكيل بنا، ونحن نغط فى ذل عميق محيط.

وهذا نص المقال، وهو لعبد الراضى الزناتى، وعنوانه: "ماذا خسر المسلمون بسقوط الأندلس؟"، وقد نقلتُه عن جريدة "المصريون" الصادرة يوم الأحد ٢٠ ديسمبر ٢٠١٥: "نشر فريق عمل "رؤية" ونشطاء صفحة "المسلمون فى الاندلس" حملة جديدة للتعريف بخسائر المسلمين بعد سقوط الاندلس، وجاءت هذه الحملة تحت مسمى "ماذا خسر المسلمون فى الاندلس؟" حيث نشر نص بيان للحملة جاء فيه: "فى ذكرى التمكين الذى حدث لنصارى أوروبا الغربية على أرض الأندلس، وفى ذكرى ضياع ركن مهم فى خارطة الأمة الإسلامية، لن أتوج السطور بما خسرناه بل بما ربحه قطاع أوروبا من تراجعنا، وما خسره العالم أجمع بعد ذاك الربح المغشوش . مرت قرون؟ نعم. نعلم كم هى؟ نعم. نحصى رقم الذكرى ونقوله بسلاسة وطلاقة؟ نعم. ثم ماذا؟ ثم انتكاسة وخمول وغشاوة نجح الغرب فى وضعها على بصيرتنا قبل أبصارنا، ونحن مستسلمون! فى الحملات التى سبق وأعددنا لها بفضل الله عرضنا الكثير عن فضل الأندلس على الإسلام والمسلمين. فمؤكد أن هذا الفضل حرّك تلك الأمم الغربية الراكدة من الدونية السحيقة إلى قمة الفوقية. بعيدًا عن سرديات التاريخ الحقيقية والمزيفة وأوهام الواقع التى ستغدو تاريخًا ويكْتَب قريبًا وفقًا للهوى أيضًا مسئولية على قبلكم جميعًا أن نعرف ما الموقع الذى نحيا فيه والصورة الذهنية الثابتة عند الغربى عنا. نعم ثابتة. وما إن تتحرك جموع حتى من أبنائهم لتعديلها حتى تندلع الحرب، الحرب التى أشعلوها لانتزاع فضل الإسلام على العالم لينسب لهم.

إذن المعضلة التى تؤرقهم هى "انتزاع نسب". وهل نجحوا؟ نقولها وبكل ثقة: لا، ونكررها. لو نجحوا لما دامت حروبهم علينا بهذه القسوة والدموية حتى الآن. الجاهل حينما يتحدى العاقل أول ما يهاجمه به هو قوته العضلية قبل فكره. وهذا ما حدث مع المجتمع الأوربى. توجهوا بالحرب وجمعوا القاصى والدانى من جياعهم أصحاب الأبدان حتى دانت لهم الأرض، وما إن تمكنوا حتى برحوا يستخدمون "عقولهم" الفارغة لتمتلئ بحكمة المسلمين وعلومهم . ما نحن فيه مرحلة مؤقتة من الكساد والتراجع وبطالة العقل قبل الأيدى، أى تعطيل عطاء الإسلام للزمن. وهذه بداية الخطوة التى يريدونها، لكنها لم تكتمل بعد. إذن أمامنا فرصة لإفسادها عليهم. إن العالم اتخذ من فشل المسلمين الأخير اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا دليلًا بينًا على عدم صلاح الإسلام لقيادة المسلمين بل والعالم كله!

ومن هنا وجه أبناءنا إلى أحضان الغرب ليستمد منه ناسيا أن كل هذا ميراث إسلامى مسلوب. وبدا طريق التبعية رائجًا وناجحًا، وله مردود قصير الأجل. المهم أن الختم النهائى فى ورقة العلم والتحرك والتاريخ بحرف لاتينى، وبمسمًّى أعجمى!

فى الثقافة المعمارية لا تتهاوى الأبنية مرة واحدة، بل هناك تنبيهات يراها صاحب الملك قبل الترميم. فى الأندلس قبل اكتمال احتلالها تهاوت مدن وأرسلت النذير للأخرى لتأخذ الحيطة والحذر. لكن هذا لم يحدث! الغرب لم يعرف الإسلام بعدُ بالصورة الكاملة الصحيحة. فمنذ ظهوره واتساع رقعته وهم يتخذون منه موقفًا عدائيا رسخ فى عقول أجيالهم رغم أنه المرشح الوحيد لوراثة الإنسان الغربى والشرقى والمناسب لقيادة البشرية فى هذا العالم المادى الخاسر. خسارة العالم كل يوم تتزايد وتتجدد بخسارة المسلمين لمواقعهم وخسارة الشعوب لعطاء الإسلام. خلف جبال البرانس أعطت الأندلس الإسلامية الكثير، وذلك بشهادة مؤرخيهم بأن الغرب كان يمكن أن يكون أحسن حالًا لو تم دمجه بـ"الإمبراطورية الإسلامية القوية" فى أوائل العصور الوسطى. يكفيها الإدريسى والخازن، اللذان سبقا نيوتن فى القول بالجاذبية، وابن النفيس، الذى سبق هارفى فى معرفة الدورة الدموية، وابن مسكويه، الذى سبق دارون فى القول بالتطور، وابن خلدون، الذى سبق لامارك فى القول بأثر البيئة على الأحياء.

أضف إلى ذلك التأثير الأخلاقى والاجتماعى والقيم الرشيدة والنبوغ العمرانى والفلكى. إن كانت تلك الأمة قد كتب لها الغرب قصر الأجل فى العطاء، فكيف لو امتد؟ روى الإمام أحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لينقض الإسلام عروة عروة. فكلما انتقضت عروة يتشبث الناس بالتى تليها. وأولهن نقضًا الحكم، وآخرهن نقضًا الصلاة". أدرك الغرب جيدًا هذا المعنى، فكان إسقاط الخلافة فى كل مرحلة هى بغيتهم: بدايةً من سقوط الخلافة العباسية والأندلسية، وآخرهن الخلافة العثمانية. لم تكن جهود محاربتهم أحادية. لذلك ما إن تفتر جهة كافرة من العالم حتى تنشط أخرى. بعدما فازوا بالأندلس قامت الراية الأرثوذكسية فى الشرق الأوروبى هى الأخرى وحاربت مسلمى القوقاز والبلقان وقطعت عنهم أواصر الصلة المتينة بالدولة العثمانية وسقطت الخلافة. وأبيد ربع مسلمى هذه الأمة فى أقل من نصف قرن! وفى تلك الأثناء ظهرت "الصهيونية"، التى اعتبرت اليهود قومية بدون وطن وحمَّلت أمم العالم مسئولية إيجاد هذا الوطن، واختارت فلسطين لذلك.

وحركت مجريات التاريخ المادى بعصا رؤوس أموالها ضاغطة بكل ما لديها من قوة على أمة الإسلام لتناسبها مع الواقع الروحى والإنسانى المرفوض عندهم! ففى فرنسا "إحدى رؤوس

الإرهاب بالقرن العشرين والحالى" عام ١٩٨١ تمكن اليهود من إصدار قانون ينص على عدم التشهير بأى شخص بسبب انتمائه إلى عرق معين أو أمة أو جنس أو دين. أى أن من يكشف حقائق الصهيونية يتهم باللاسامية! وهذا لا يطبق مع المسلمين إلى اليوم! وظهرت محاولات إسلامية جادة مخلصة للنهوض بالمجتمع الإسلامى مرة ثانية بعد الانفتاح الغربى المزيف، وحوربت جميعها. ومنها من نجح فى التغيير البسيط، ومنها من لم يكتب له البقاء فى ظل التناقض والدونية التى ملأت المجتمعات الإسلامية. لذلك ليس من الصدق أن أصنف أمتى بأنها متخلفة كما يقول الغرب ولا أن أدرجها تحت مسمى "العالم الثالث". التصنيف ينبع من الحقيقة. وما تخلفت أقوام وأمم إلا لأن دولا أخرى كانت تنمو على حسابها. فدول العالم الثالث تخلفت نتيجة لاستغلال وسلب العالم الأول. الأمة الإسلامية تحتاج اليوم لجيل أتقى عن مساكنة الدنيا من أجل الآخرة، جيل يعلم أن تقصيره فى الجهاد أضاع انتصارات أمته وأوقفها، فصار واجبًا عليه تغيير القيادة الإنسانية المادية الحالية لأن سنة الله فى أرضه أن يحكم هذا الدين. فالعقيدة الإسلامية عقيدة استعلاء تجبر المسلم أن يكون عزيزًا واثقًا مجدِّدًا فى غير ابتداع. فأمته خير أمة أخرجت للناس، ويجب أن تكون خير أمة تقود".

إن إنكار فضائل الغرب مضيعة للوقت وطمس لمعالم الطريق. إن فى الغرب عيوبا قاتلة، ولكن فيه محاسن جمة من ينكرها فكأنما يضع يده على عينه فى عز ظهيرة الصيف كيلا ترى نور الشمس الباهر. ولا يضير الشمس أن يحجب إنسان عن نفسه ضياءها الغامر بل إنه هو المَضِير. ولا بد أن نستفيد من تجربة الغرب ونأخذ منه محاسنه وعلومه وفنونه ونظافته ونظامه وتوثُّب عقله وفكره واعتزازه بنفسه وحرصه على استقلاله ونشاطه وحيويته وتخطيطه ويقظته لخصومه لا يغفل عنهم طرفة عين بل يضع الخطط لمواجهتهم لعشرات السنين القادمة... وهكذا. ونحن حين نفعل هذا إنما نستعيد فضائل ديننا. ومن ثم يمكننا، متى ما أخلصنا النية وصفينا العزم من الغش والدَّخَل، أن نسامت الغربيين ثم أن نتفوق عليهم لأنهم إذا كانوا يعتمدون فى تقدمهم على العقل وحده فنحن نعتمد على العقل وعلى الدين معا، وإذا كانوايعملون من أجل الدنيا وحدها فنحن نعمل من أجل الدنيا والآخرة جميعا، مما من شأنه أن يجعل انبعاثنا أقوى وأكثر حيوية وأطول بالا وأعظم ثمارا. أما إن لم نستطع فلنضعن فى أفواهنا حذاء قديما ونسكت بل نخرس ولا نقول بعد اليوم: إننا مسلمون نسير على سنة محمد. فمحمد لم ينجب أبناء كسالى كذابين يقولون ما لا يفعلون ويخونون أنفسهم ولا يستحون ويهملون عقولهم فى تحدٍّ صريح للقرآن والحديث ثم يظنون أنهم متدينون.

هذا، وما دامت كارلا باور تكثر من الحديث عن الجنس اللطيف وحقوق النساء فى الحضارة الغربية فينبغى أن نعرض هنا لما يقوله ديننا فى هذا الموضوع. وعلى المسلم، سواء كان يعيش فى بلد إسلامى أو فى الغرب، أن يلتزم بقيم دينه وفاء منه أولا لهذا الدين، وثانيا لكيلا يعطى أحدا من غير المسلمين فرصة للإساءة إلى الإسلام ظلما. فما هو موقف الإسلام من المرأة؟ من المعروف مثلا أن بعض العرب فى الجاهلية كانوا يئِدُون بناتهم، أى يقتلونهن صغيراتٍ، خوفا من الفقر والعار. وفى مواضع متعددة من القرآن الكريم آيات تتناول هذا الموضوع وتَنْهَى عنه وتجرّمه وتتساءل بأى ذنب تُقْتَل تلك المسكينة التى لا حَوْل لها ولا طَوْل وتُحْرَم حق الحياة، وتسفِّه العقلية المتخلفة التى تُقْدِم على ذلك السلوك الوحشى الهمجى، وتصف ما كان يعترى بعض العرب من الشعور بالعار حين يسمع أن زوجته قد أنجبت له بنتا، بما يعنى أن تلك الظاهرة كانت متجذرة فى بعض القبائل العربية قبل الإسلام، فنزل القرآن يحذر من هذا الفعل الإجرامى الآثم: "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَى ذَنْبٍ قُتِلَتْ"، "وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"، "أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِى الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ". وفى الحديث الشريف: "مَنْ وُلِدَتْ له ابنة فلَمْ يئِدْها ولم يهِنْها ولم يؤْثِر ولده عليها أدخله الله بها الجنة". وفى الحديث أيضا أن من وأد بنتا دخل النار. وهو ما يدل على بشاعة تلك الجريمة اللاإنسانية من جهة، وعلى رحمة الإسلام بالبنات وعطفه عليهن واحترامه لهن وعدم التفرقة بينهن وبين الأولاد الذكور من ناحية أخرى.

وبالمناسبة ليس العرب هم الأمة الوحيدة التى عرفت الوأد، بل عرفته أمم أخرى. وهو حتى الآن لا يزال يمارَس فى أماكن مختلفة من العالم. وفى موسوعة "الويكيبيديا" مثلا أن الإجهاض بسبب جنس الجنين (وأد البنات) ما زال يمارَس حتى الآن فى مناطق تقوم فيها العادات والتقاليد والثقافة المحلية بتفضيل الذكور على الإناث كما هو الحال فى بعض المناطق من جمهورية الصين الشعبية وكوريا وتايوان وباكستان والهند والقوقاز. وتضيف "الويكيبيديا" أن وأد البنات والأطفال عموما ما زال يحدث الآن بالصين مثلا بسبب تحديد النسل أو الفقر، وكذلك فى المجتمعات المحافظة حين لا يكون

الحمل شرعيا. بل إن الإجهاض الأنثوى قد انتشر الآن فى بعض المناطق فى العالم بسبب القدرة على معرفة نوع الجنين قبل الولادة من خلال الأشعة التلفازية فوق الصوتية.

كذلك لا يفرق الإسلام بين الذكر والأنثى فى الاحتفال بالمولود، أى العقيقة، بل كلا المولودين مرحَّب بهما دون أى تمييز، ويقام لهما نفس الاحتفال دون زيادة أو نقصان. ومن الأمور التى تلفت النظر أن النبى محمدا لم يعش له أى طفل ذكر. وقد لفت هذا انتباه القرشيين الكفار فعيروه بذلك ونبزوه بـ"الأبتر"، أى المقطوع الذيل. يقصدون أنه لن يبقى له ذِكْر فى الدنيا لأنه ليس له أولاد ذكور يحملون اسمه، بل سينقطع ذكره بمجرد موته. إلا أن القرآن قد رد على ذلك التصور الجاهلى المتخلف بأن من يكره الرسول ويتمسك بتلك المفاهيم الجاهلية المهترئة إنما هو "الأبتر"، بما يدل على أن الأمر لا يعتمد على إنجاب الذكور أو الإناث، إذ لا فرق فى الإسلام بين النوعين كما رأينا، بل على الإنجازات التى يقدمها الشخص لأسرته ووطنه والإنسانية جمعاء. قال تعالى: "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ".

وفى الإسلام أنه إذا ربى الأب ثلاث بنات أو بنتين أو حتى بنتا واحدة وزوَّجها فإنه يدخل الجنة. وهذا يدل على مدى اهتمام الإسلام بالأنثى ورحمتها والعطف عليها وإيلائها وضعا متميزا لما فيها من ضعف بالنسبة إلى الذكر بوجه عام. ومن ذلك أيضا أن أحد الصحابة جاء النبى وسأله: أى الناس أحق بصحبتى يا رسول الله؟ فقال له: أمك. فأعاد القول ثلاث مرات، وفى كل مرة كان الجواب هو "أمك"، إلى أن جاءت الرابعة، فكان الجواب فى هذه المرة فقط أنَّ أحق الناس بصحبته هو أبوه. ويؤكد هذا الموقفَ الأثرُ المشهورُ الذى يقول إن "الجنة تحت أقدام الأمهات"، وهى عبارة لها مغزاها الواضح العظيم.

وفى الزواج لا يصح أن تُكْرَه الفتاة على التزوج ممن لا تحب، وليس من حق أبيها ولا أمها ولا أى شخص آخر فَرْضُه عليها مهما تكن الظروف. ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الموضوع: "أشيروا على النساء فى أنفسهن. فقال (أحد الصحابة): إن البِكْر تَسْتَحِى يا رسول الله. قال: الثَّيب تُعْرِب عن نفسها بلسانها، والبِكْر رِضَاها صُمَاتها". وفى الحديث أيضا: "لا تُنْكَح البِكْر حتى تُسْتَأْذَن، ولا الثَّيب حتى تُسْتَأْمر. فقيل: يا رسول الله، كيف إذنها؟ قال: إذا سَكَتَتْ". ومعنى الحديث واضح شديد الوضوح، وهو أن زواج الفتيات أمر خاص بهن فى المقام الأول، فلا بد من استشارتهن وعدم تزويجهن من غير إذنهن. وليس معنى تفسير سكوت الفتاة فى هذا السياق برضاها عن الزواج أنه ينبغى

تفسيره فى كل الأحوال على هذا النحو، فقد يكون سكوت الفتاة فى بيئة أخرى لونا من الخوف أو الخجل من الرفض الواضح. ومن ثم كان لا بد من مراعاة السياق فى كل حالة، أما الحديث الشريف فيتحدث عما كان معروفا عن نفسية الفتاة آنذاك. وفى البيئة المصرية الآن صارت الفتاة فى معظم الحالات تعبر عن رأيها فى هذا الموقف بكثير من الشجاعة، وبخاصة بينها وبين أمها أو أختها مثلا. وكان الرسول أول من طبق هذا المبدأ مع بناته جميعا، فلم يحدث أنْ فرض على أيتهن زوجا لا تحبه. وقد وَقَع على أيامه صلى الله عليه وسلم أنْ "جاءت فتاة إلى عائشة فقالت: إن أبى زَوَّجنى ابن أخيه ليرفع من خَسِيسَتِه، وإنى كرهت ذلك. قالت: اقعدى حتى يجىء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاذكرى ذلك له. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرت ذلك له، فأرسل إلى أبيها، فجاء أبوها وجعل الأمر إليها. فلما رأت أن الأمر جُعِل إليها قالت: إنى قد أَجَزْتُ ما صنع أبى. إنى إنما أردت أن أَعْلَم هل للنساء من الأمر شىء أم لا".

وهنا يجب القول بأن الإسلام يعطى المرأة الحق فى مَهْرٍ يدفعه لها الرجل حتى تصح أن تكون زوجة له، وهذا يختلف عن النظام الذى تعرفه أوربا مثلا، والذى بمتقضاه تَحْمِل الزوجة إلى بيت الزوجية مبلغا من المال حسب مقدرتها أو مقدرة أسرتها المالية. ومن الممكن، إذا لم يكن الزوج المسلم غنيا، أن يقدّم لزوجته مهرا فى حدود طاقته دون تثريب عليه. وقد قال الرسول ذات مرة لأحد أصحابه حين رآه عازما على الزواج دون أن يكون قادرا على دفع مهر ذى قيمة: "الْتَمِسْ ولو خاتما من حديد". وقال لصحابى آخر يعانى من ضيق ذات اليد، وقد أتى إليه يريده أن يزوِّجه امرأة معينة: "زَوَّجْتُكها بما معك من القرآن". كما أن الإسلام يوجب على الزوج الإنفاق على زوجته وعلى أبنائه، فضلا عن دفع الديات والغرامات، على حين تُعْفَى هى تماما من المشاركة فى النفقات الأسرية، اللّهم إلا إذا شاءت ذلك من تلقاء نفسها. ويظل مَالُها مكتوبا باسمها تتصرف فيه بحرية تامة دون أن يكون للزوج حق التدخل فيما تفعل.

وفى الميراث يخصص الإسلام للمرأة نصيبا مما يتركه الأب أو الأم وبعض الأقارب الآخرين رغم أنها لا تتحمل شيئا من تكاليف الإنفاق كما رأينا. ويظن بعض الناس أن المرأة ترث دائما نصف ميراث الرجل، وهذا غير صحيح على إطلاقه، بل هو غير صحيح إلا فى أربع حالات فقط فى مقابل حالات كثيرة ترث فيها المرأة أكثر مما يرث الرجل. وهذه هى الحالات الأربع: عند وجود أولاد للمتوفَّى: ذكورًا وإناثًا لقوله تعالى: "يوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيين"، وعند

التوارث بين الزوجين إذ يرث الزوج من زوجته ضِعْف ما ترثه هى منه لقوله تعالى "وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيةٍ يوصِينَ بِهَا أَوْ دَينٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَينٍ". كما يأخذ والد المتوفَّى ضِعْف الوالدة إذا لم يكن لابنهما وارث، فيأخذ الأب الثلثين وزوجته الثلث. وبالمثل يأخذ والد المتوفَّى ضعف ما تأخذه الوالدة إذا كان عند ابنهما المتوفَّى ابنة واحدة، إذ للبنت النصف، بينما تأخذ الأم السدس، ويأخذ الأب السدس، والباقى تعصيبًا.

وفى المقابل نجد أن الإسلام قد وهب المرأة فى كثير من الأحوال من الميراث مثل الرجل: فى حالة وجود أخ وأخت لأم فى إرثهما من أخيهما إذا لم يكن له أصل من الذكور ولا فرع وارث، فلكل منهما السدس. وإذا تُوُفِّى الرجل، وكان له أكثر من اثنين من الإخوة أو الأخوات، فإنهم يأخذون الثلث بالتساوى. وفيما بين الأب والأم فى إرثهما من ولدهما إن كان له ولد أو بنتان فصاعدًا، ففى هذه الحالة َ"لأَبَوَيهِ لِكُلِ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ" (النساء/ ١١)... بالإضافة إلى حالات ست أخرى مشابهة. وهناك حالات خمس أعطى الشرع فيها المرأة أكثر مما أعطى الرجل، وحالات خمس أخرى ترث فيها المرأة، ولا يرث الرجل شيئا، وهو ما يجده القارئ مفصلا فى كتب المواريث. وعلى هذا فما يتردد على ألسنة الناس من أن الإسلام يعطى المرأة من الميراث دائما نصف ما يعطيه الرجل هو كلام غير صحيح. وعلى الناحية الأخرى نجد أن المرأة فى كثير من الحضارات تُحْرَم من الميراث تمام الحرمان.

ومن المعروف أن المرأة تتعرض للضرب فى كل حضارات العالم منذ أقدم العصور حتى الآن بما فيها الدول المتقدمة ثقافيا وصناعيا واقتصاديا كأمريكا وفرنسا وبريطانيا، مثلها فى ذلك مثل دول العالم الثالث سواء بسواء، رغم إيقاف العمل بالقانون الذى كان يبيح للرجل فى أمريكا وبريطانيا مثلا أن يضرب زوجته لتأديبها. ورغم أن هناك زوجات كثيرات يضربن أزواجهن لأن هذه المسألة الأخيرة لا تشكل ظاهرة. فما موقف الإسلام من قضية ضرب الرجل لزوجته؟ بوجه عام لا يحب الإسلام أن يضرب الرجل زوجته أو يهينها. وقد شدد الرسول فى ذلك إذ يقول: "لا يَجْلِدْ أحدُكم امرأته جَلْدَ العبد ثم يجامعها فى آخر اليوم". ولم يحدث قط أن ضرب صلى الله عليه وسلم أيا من زوجاته. بل إنه لم يضرب أية خادمة عنده. وأقصى ما قاله لإحداهن حين أخرجته عن بعض حِلْمه إنه لولا خوفه من الله وسؤاله له يوم القيامة لأوجعها بالسواك الذى فى يده. فعن أم سلمة زوجته رضى الله عنها: "دعا النبى

صلى الله عليه وسلم وصيفة له، فأبطأت عليه، فقال: لولا مخافة اللوم يوم القيامة لأوجعتُكِ بهذا السواك".

وفى القرآن آية يخطئ بعض الناس فيظنون أنها توجب ضرب النساء لأنها تستخدم فعل الأمر، جاهلين أن الأمر كثيرا ما ينصرف إلى أغراض بلاغية أخرى غير الإيجاب، فيكون للإباحة أو تقرير الواقع مثلا. وعلى أية حال هناك طائفة من النساء طُبِعْن على الشَّكَاسَة والتمرد والمعصية، فماذا يفعل الرجل مع الواحدة من هؤلاء؟ يبين القرآن أنه ينبغى أن يبدأ بوعظها، فإذا لم تستجب فيمكنه أن يهملها فى الفِرَاش، فإذا استمرت فى الشَّكَاسة والعصيان فهل هناك ما يضمن ألا تفلت منه أعصابه فيضربها، وهو المسؤول عن البيت؟ لكنْ من الممكن جدا أن ترفض الزوجة أن يضربها زوجها، وهذا حقها. وفى هذه الحالة إما أن تطيعه وتنبذ أسلوب العصيان والتمرد ويعود الصفاء إلى الحياة الزوجية، وإما أن تطلب منه تسريحها بإحسان وتَخْلَع نفسها منه، ويذهب كل منهما إلى حال سبيله يجرب حظه مع شريك آخر، إذ لا يصلح أن تمضى سفينة الحياة الزوجية فى مثل هذا البحر المضطرب. قال تعالى: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يرِيدَا إِصْلاحًا يوَفِّقِ اللَّهُ بَينَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا"، "وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَنْ يصْلِحَا بَينَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا".

أما القول بأنه "Selon le Coran, les femmes doivent être frappées, battues ou corrigées, c'est au choix"، حسبما جاء فى عنوان مقال منشور على المِشْباك (الإنترنت)، فإنه غير صحيح، إذ إن صيغة الأمر فى الآية ليست للوجوب كما وضحنا، بل مجرد مقترحات يمكن أن يأخذ بها الزوج أو لا يأخذ، وتقبلها الزوجة أو ترفضها، حسب طبيعة كل حالة على حِدَة. كما أن قول كاتب المقال إن الإسلام ينظر إلى المرأة على أنها أدنى من الرجل بسبب "الخطيئة الأصلية" هو كلام عارٍ عن الصواب جملة وتفصيلا، إذ ليست فى الإسلام خطيئة أصلية أساسا على عكس الحال فى اليهودية والنصرانية، علاوة على أن الأكل من الشجرة المحرَّمة فى الجنة لا ينْسَب فى الإسلام إلى حواء دون آدم بل إلى الاثنين جميعا، وإن أضيف نسيان التحذير الإلهى من تذوّق الشجرة رغم ذلك إلى "آدم"، الذى

يمكن أن يكون المقصود به الجنس البشرى كله لا آدم وحده. ليس ذلك فقط، بل إن القرآن لَيَنُصّ على أن ذلك الخطأ قد تمت مغفرته وانتهى الأمر إثر توبة الاثنين مما فعلا. أما أن المرأة أدنى من الرجل فالاثنان متساويان فى الإنسانية، وإن كانت لكل منهما خصائص تميزه عن الآخر رغم اشتراكهما فى تلك الإنسانية. كما أن قِوَامة الأسرة، أى رئاستها، هى من حق الرجل، وإن لم يمنع أن تكون بعض النساء أقوى من الرجل شخصية، إلا أن القاعدة العامة لا ينقضها استثناء هنا أو هناك. وبمناسبة ما نحن فيه نجد د. نوال السعداوى، فى كتابها: "الأنثى هى الأصل"، تورد رأى فرويد وعدد كبير من علماء النفس الغربيين فى هذا الموضوع يرون أن المرأة مازوكية بطبيعتها، أى تحب الإيلام والإذلال. بل إن المرأة نفسها، كما تقول هى، قد تنخدع وتظن أنها تحب الإيلام والإذلال، وتقنع نفسها بذلك حتى تقتنع أو تكاد.

فهذا هو الإسلام من واقع نصوصه. أما ما عداه فهو ثقافة البيئة التى أتى منها الشخص وليست ثقافة الإسلام، الذى يسىء إليه أحيانا بعض المسلمين كما يسىء إليه غير المسلمين، وربما أشد منهم أحيانا، من خلال خلطهم عاداتهم وتقاليدهم به والزعم بأنها هى الإسلام رغم ما تتسم به من تخلف ولاإنسانية. فإذا عدنا من جولتنا إلى أكرم ندوى ومترجمته وما كتبته عنه وعن أسرته ألفينا زوجته سيدة غير متعلمة ولا تعرف الإنجليزية رغم أنها تعيش فى أكسفورد ورغم أن بناتها يتعلمن فى المدارس والجامعات البريطانية ويتحدثن لغة جون بُلْ بطلاقة. بل إن إحدى بناتها أخبرت كارلا باور خلال زيارتها الأولى لهم فى بيتهم بأكسفورد أن أمها لا تتابع ما يقوله الأب فى محاضراته ولا تفهم منها شيئا لأنها بالإنجليزية. وقد كنت أنتظر من الشيخ، وهذا موقفه من المرأة واجتهاده فى تجلية مكانتها المتقدمة فى الحضارة الإسلامية وإلقاؤه الضوء على مشاركتها الرجل فى التعلم والتعليم حتى إنه هو نفسه قد استطاع أن يترجم للنساء المحدِّثات فى التاريخ الإسلامى فى عشرات المجلدات كما قرأت، وإن كانت تلك المجلدات لا تزال كلها تقريبا مخطوطة، أن تكون أم أولاده أحسن ثقافة من هذا. لكن توقعى ضاع فى الهواء. ولا أدرى لماذا لم يأخذ الدكتور بيدها فيعلمها الإنجليزية ويرتقى بمستواها الثقافى حتى تكون على الأقل مرآة تعكس صورة المرأة المسلمة التى يلح عليها دائما، فيأخذ الغربيون ما يقوله فى هذا الصدد بمزيد من الثقة والتصديق والاطمئنان، ودعنا من أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. الواقع أننى لا أستطيع أن أفهم موقفه هذا. لقد قرأت أن زوجته تؤدى عملا تجاريا نافعا، لكن كان الأمر يكون أفضل كثيرا لو تعلمت بعد زواجهما بعض ما كان قد فاتها تعلمه فى صباها وشبابها قبل

الزواج، على الأقل: كى تكون قريبة من عقله وتشاركه اهتماماته وتتبادل معه الحديث فيها ولاتكون هناك فجوة ضخمة بينهما. لكنه، فيما يتعلق ببناته، قد علمهن كلهن تعليما جامعيا وترك لهن الحرية فى الزواج فلم يفرض عليهن من يريد.

وقد دار حوار بين بنت الشيخ الكبرى والمؤلفة حول بعض الأفكار التى رأتا أن الإسلام لا يتفق فيها والحضارة الغربية: فعلى سبيل المثال كانت كارلا باور ترى أن جسدها هو ملك لها، أما بنت الشيخ فقالت إنه ملك لله. والواقع أن كلا الرأيين صحيح، فمن جهة نجد أن الله هو الذى أعطاناه وبين لنا كيف نعامله فلا نزنى مثلا ولا نفرط فى الطعام والشراب أو نحرمه الحق فى الغذاء الكافى، ونُعْنَى به إذا ما أصابه مرض... إلخ. والمسلم مطالب بمراعاة أوامر الله ونواهيه بشأنه. لكن هذا لا ينفى أنه جسد الشخص وليس جسد أحد آخر. ولو كان الله لا يريد لنا الشعور بأن جسدنا ينتمى إلينا ويخصنا فلم خلقنا أصلا؟ لكنى لست مع الغربيين فى أن الجسد، ما دام يخصنا، فمن حقنا أن نصنع به ما نشاء. نعم، المسلم يستطيع من الناحية الواقعية أن يصنع بجسده ما يريد مثل الغربى سواء بسواء، لكنه من الناحية الأخلاقية لا ينبغى له أن يخرج على أوامر الدين ونواهيه. ومن ثم لا يصح أن يزنى الإنسان أو يلوط أو يشرب الخمر أو يرهق نفسه أكثر مما يطيق فيجيع نفسه أو لا يأخذ كفايته من النوم مثلا. أما الغربى فإنه لا يؤمن بالله ولا يضع أوامر الله ونواهيه فى اعتباره على الإطلاق، وأما المتدينون فى الغرب، وهم قليلون، فإن تدخل الدين فى حياتهم لا يبلغ الوضع الذى نعرفه فى الإسلام. كذلك فالغربى، كما تقول الكاتبة، يضع فى ذهنه أنه صاحب مصير نفسه. وهو ما اختلفت فيه السيدتان. وأنا لست مع الصحفية الأمريكية. لا أقصد ما أعتقده من الإيمان بأن الله هو المتحكم فى كل شىء وأنه ما من شىء فى الوجود إلا وهو سبحانه وتعالى خالقه، وما من شىء آتِيه أو أتركه إلا وقد شاءه المولى عز وجل، وإن لم يمنع هذا فى نفس الوقت أن تكون لى مشيئتى الصغيرة المحدودة داخل تلك المشيئة التى شاءت أن تكون لى أنا أيضا مشيئتى الخاصة منحةً منها وتفضلا وكرما. بل لا أرافئ المؤلفة على عقيدتها بناء على أن الإنسان، مهما أوتى من القوة واستقلال الإرادة والعلم والتخطيط والسلطان، لا يستطيع التحكم فى كل شىء يخصه أو يخص غيره. ومن جهة أخرى فإنى قريب جدا من الشيخ، الذى يرى الله فى كل شىء حتى فى كوب الشاى، إذ هو خالق الشمس والقمر والماء والهواء والتراب وغير ذلك مما لا يمكن أن ينمو الشاى بدونه، فضلا عن أنه عز وجل هو خالق نبات الشاى نفسه. وإنى لأشكره سبحانه على كل شىء أصنعه بما فى ذلك اغتسالى وارتدائى ملابسى وحلقى ذقنى ووضعى بعض قطرات الكولونيا تحت

إبطى وعلى خدىَّ وانتهائى من قضاء الحاجة وخروجى للتمشية ليلا وانتهائى من وضع أسئلة الامتحان وطبعها وفروغى من تصحيح إجابات الطلاب عليها، وإن كنت لا أردد دائما الأذكار المحفوظة بل أعبر عن مشاعرى بما يحضرنى من كلام بسيط أخاطب به الله مباشرة كأنى أكلم صديقا لصيقا.

نعم لست مع الصحفية الأمريكية فيما ترى، وأجد أن الواقع يوافقنى تماما فيما أقول. فمثلا فى الامتحان المدرسى هل التلميذ هو صاحب مصيره بالكلية؟ ألا يتوقف الأمر، إلى جانب إرادته الخاصة، على لوائح المدرسة، وعلى الوقت الذى كان متاحا له للاستذكار، وعلى البيئة التى تعلى من شأن العلم أو تحط من قدره فتستحثه إلى التعلم أو تنفّره منه، وعلى صحته أو مرضه، وعلى ظروفه العاطفية، وعلى ذكائه أو غبائه، وعلى أسرته ووضعها المادى والاجتماعى والعلمى، وعلى زملائه، وعلى أساتذته ومستوى معرفتهم ومهاراتهم فى التدريس، وعلى الدولة التى ينتمى إليها، وعلى الكتب التى قرأها، وعلى قدرته فى العكوف على العمل والتركيز فيه... إلخ مما ليس فى يده أو ليس فى يده تماما على الأقل؟ إن الإنسان ليس إلها، بل هو جُزَىْء ضئيل فى الكون، وهو يتعرض فى كل لحظة إلى تأثيرات الأشياء والقوانين والناس من حوله مثلما يتعرضون هم إلى تأثيرات آتية منه ومن الأشياء والقوانين إليهم. الله وحده هو صاحب كل مصير، أما نحن فبكل تأكيد لنا إرادة ورأى وموقف يختلف من شخص لآخر، لكنه ليس العامل الوحيد فى توجيه حياتنا. أنا أومن بحرية الإرادة، لكن ليس على نحو مطلق، إذ هناك إرادات الآخرين، والأشياء والقوانين المساعدة والمعوّقة فى ذات الوقت. ومن جماع هذا كله وتفاعل هذا كله بعضه مع بعض يتكون مصير الشخص. فهو إذن له دخل فى هذا المصير، لكنه دخل محدود. بل إن الإرادة الإنسانية التى تتفاعل مع تلك العوامل المذكورة تتأثر بدورها بتلك العوامل مثلما تؤثر هى فيها. فكيف يغفل الغربى عن هذه البديهية الواضحة وضوح الشمس سواء كان مؤمنا بوجود الله أو لا؟ ومع ذلك فهذا النصيب المحدود للإرادة البشرية، عن طريق التعاون بين إرادات البشر، يثمر من الإنجازات كل عجيبٍ شادهٍ مما نراه حولنا فى كل المجالات.

وهناك أيضا ما قالته كارلا باور عن التنافس الحاد والرغبة فى التفوق اللذين تقوم عليهما الثقافة الغربية والأمريكية بالذات مما لم يلق رضا أكرم ندوى. وأنا معها فيما قالته، وأرى أن هذا هو أحد أسس الحضارة. فبدون التنافس والرغبة فى التفوق لا أدرى كيف يمكن أن ترتقى البشرية. وفى القرآن الكريم: "فاستبِقوا الخيرات". وأى خيرات أفضل من خيرات الإبداع والاكتشاف والعمل على تسهيل الحياة

وإشاعة أسباب الرضا والسرور وتخفيف الويلات والآلام؟ إن الطبيب الذى يسهر لعلاج مريض أفضل عند الله ممن يقضى ليله يتنفل. ومثل الطبيب فى ذلك العالم فى معمله يجرى التجارب، والصانع أمام آلته ينتج ما يحتاجه الناس ويجوّده ويتقنه، وربة البيت فى مطبخها تعد الطعام اللذيذ لزوجها وأولادها، والمدرس فى الفصل ينور أدمغة تلاميذه، والشرطى فى الشارع يراقب استتباب الأمن ويخيف المجرمين واللصوص والقتلة والمشاغبين المدمرين ويمنعهم من ارتكاب جرائمهم، والبائع فى دكانه يوفر حاجات الخلق من طعام وشراب وملابس وأدوات منزلية، ومشرف المكتبة ينظم الكتب ويعاون القراء على العثور على ما يريدونه منها... إلخ. لقد أودع الله النفوس البشرية الرغبة فى التنافس والتفوق على الآخرين والسعادة بذلك، فمن غير المعقول أن يغضبه سبحانه ذلك الميل ويؤثر عليه الصمت والسكون. "سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ"، "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ". ومن حق المفلح الذى أنجز شيئا أن يفرح بإنجازه، على ألا ينسى شكر ربه على هذا التوفيق. أما القول بأن الثناء على الأبناء حين يتفوقون هو إفساد لهم كما يقول د. ندوى فإغراق فى الوسوسة لا أوافقه عليه. لقد كان الرسول يثنى على أى صحابى متميز فى مجاله ويطلق عليه لقبا يدخل على قلبه السرور: عَمِل هذا فى الميدان العسكرى مع خالد، وعمله فى ميدان الإبداع الشعرى مع حسان، وعمله فى ميدان الاعتقاد مع أبى بكر... وهكذا. بل ما من عمل طيب إلا صوره القرآن والحديث تصويرا يدخل البهجة على قلب فاعليه. فلم نتنكب هذا بحجة أنه يفسد الأبناء؟

يقول الرسول على سبيل المثال فى خديجة عليها رضوان الله: "صَدَّقَتْنى حين كذَّبنى الناس، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس، ورُزِقْتُ منها الولد"، ويقول فى أبى بكر: "لو كنتُ متخذا خليلا لاتخذتُ أبا بكر خليلا، وإن صاحبكم خليل الله"، ويقول فى عمر: "إنَّ الشيطانَ لَيفْرَقُ منك يا عمرُ"، ويقول لحسان بن ثابت يستحثه للرد على سباب شعراء المشركين: "اُهْجُهم ورُوح القدس معك"، ويقول للنابغة الجعدى إعجابا بشعره: "لا يفْضُضِ الله فاك"، ويقول فى عثمان: "إن الملائكة لتستحى من عثمان"، ويقول فى على يومَ خَيبَرَ: "لَأُعطينّ الرايةَ رجلًا يحبُّ اللهَ ورسولَه أو يحبُّه اللهُ ورسولُه... ادعُوا عليا"، ويقول فى بلال بن رباح لزوجته: "ما حدَّثَكِ بلالٌ عنى فقد صدقَكِ، بلالٌ لا يكذبُ، لا تُغضبى بلالًا فلا يقْبَلُ منكِ عملٌ ما غضب عليك بلالٌ". وفى السبطين الكريمين: "الحَسَنُ والحُسَينُ سَيدَا شَبابِ أهل الجنة"... إلخ. والإنسان ليس ملاكا قد مُلِئَ زمبركه ثم تُرِك يعمل الخير

ويتجنب الشر بهذه الطريقة إلى الأبد، بل هو لحم ودم وأعصاب، وملل وانتعاش، ويأس وأمل، وخوف واطمئنان، وهو يحتاج إذا ما ركبه الملل أو ضاقت كوة رجائه أن نشجعه ونحفزه على عمل الخير. وأكرم ندوى ذاته خير مثال، فلا شك أنه كان يعلم أن السيدة باور فى كتابها الحالى لا بد أن تثنى عليه فى بعض المواقف على الأقل، وهو ما فعلته. فلماذا لم يقل لها: إياك أن تثنى علىَّ. بل لقد أبرز هو نفسه من أمور حياته ما يبعث على الافتخار كحفظه أسانيد الحديث مثلا، وذكره مزية الصبر التى يتحلى بها وكيف اكتسبها بالمران حتى إنه، كما يقول، ليحتاج إلى بذل جهده كى يغضب.

وعلى نفس الشاكلة أجدنى أتفق مع الاحتفال بما يسمى بـ"أعياد الميلاد"، وأختلف مع من يحملون عليه. فأما أكرم ندوى فيقول إنه عبارة عن جرد حسابى بالأعوام التى مرت من عمر الإنسان، ولا معنى له. وقطاع كبير من المسلمين يراه مخالفة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه ليس للمسلمين سوى عيد الفطر وعيد الأضحى، فكيف نأتى نحن فى آخر الزمان ونخترع عيد الميلاد؟ والحق أن الاحتفال بأعياد الميلاد ليس مجرد جرد حسابى للأعوام التى مرت من عمرنا، بل هى فرصة لشكر الله على نعمة الحياة التى وهبها لنا سبحانه وتعالى وعلى مرور عام جديد من عمرنا، ولانتزاع فرصة من بين أنياب الزمن الضنين للاجتماع والسمر والاستمتاع بالأكل والشرب والهدايا وما إلى ذلك. والحياة صعبة على الناس جميعا، والعقلاء هم من يبحثون عن أسباب السعادة فيها ولو بملقاط. وهذه متع بريئة حلال زلال بلال ليس فيها ما يغضب الله ورسوله.

أما أن للمسلمين عيدين اثنين لا غير فهذا رد على من يحاولون أن يبعثوا الماضى الوثنى وأيامه النحسات من القبور، وإلا فقد كان النبى مثلا ينصح المسلمين ليلة الدخلة بالغناء للعروس. كما احتفل أهل المدينة به عليه السلام وهو داخلٌ يثرب مهاجرا إليهم وغَنَّوْا له، فلم ينكر عليهم. وبالمثل تقبل تقبلا كريما أن تحتفى بعودته من إحدى الغزوات امرأة نذرت أن تضرب له بالدف تعبيرا عن فرحتها برجوعه سالما. وفى الإسلام احتفال بشىء قريب من هذا، وهو احتفال العقيقة عند ولادة طفل جديد، إذ يفرَّق الطعام والمال على الفقراء والمساكين. وإذا كانت كلمة "عيد" تثير عند بعض المسلمين الحساسية فَلْنُسَمِّه: "يوم الميلاد" على طريقة كامل الشناوى حين ألف قصيدة جميلة خاطب فيها عيد ميلاده قائلا: "عُدْتَ يا يوم مولدى * عُدْتَ يا أيها الشقى" جريا على الترجمة الحرفية لاسم تلك المناسبة بالإنجليزية: "birthday". وكفى الله المسلمين شر النفور من أعياد الميلاد! إن الإسلام ليس دين النكد، بل دين الأفراح الحلال باعتدال! ومن هنا سَرَّنا أن يقيم د. ندوى احتفالا لابنتيه حينما أتمتا حفظ

القرآن، وإلا فبالمنطق الآخر يمكننا أن نثير اعتراضا من مثل "أليس الاحتفال بذلك مجرد جرد لإنجازات الشخص لا يفيد؟".

كذلك لا أرى مسوغا لاعتراض د. ندوى على أن تصبغ ابنته الكبرى شعرها. ذلك أنه لم يجد أى نكير فى أن تقص المسلمة شعرها كما تصنع الغربية، فلم الاعتراض على تلوين الشعر ابتغاءً للتجديد وطردًا للملل؟ وما دام زوجها يحب هذا وهى تحبه، وليس فيه ضرر ولا إساءة إلى أحد فلم الاعتراض؟ والمضحك فى الأمر أن ابنته، حين لم تعجبها فتواه، ذهبت إلى شيخ آخر أفتاها بالإباحة، فصبغت شعرها بناء على ذلك التحليل. ومبعث الضحك فى الأمر أنها كانت تبحث عن مبرر لصبغ شعرها، الذى اعتزمت تلوينه فى كل الأحوال، فلما لم تجده عند أبيها قصدت شيخا آخر أعطاها ما تريد، ولو كان الشيخ الجديد قد أفتاها بفتوى والدها لكانت بحثت عن شيخ ثالث... وهكذا. أى أنها كانت ستصبغ شعرها أيا كان الوضع، وتريد فقط تبريرا خارجيا رغم أن الأمر لا يستحق كل هذه الضجة. وهى فى كل حال سوف تغطى شعرها، ومن ثم فصبغ الشعر سيكون لها ولزوجها فقط، وهو شىء يسرها ولا يضرها ولا يضر أحدا آخر غيرها، فضلا عن أنه لا يوجد نص بتحريمه.

وبالعودة إلى أصل المسألة نقول إن بعض المسلمين يحبون التضييق والتنكيد على عباد الله، فيحرّمون كل شىء دون مسوغ سوى مزاجهم السوداوى. ولقد قال د. ندوى حسبما روت عنه الكاتبة الأمريكية: ما أسهل القول بأن هذا أو ذاك أو ذلك حرام! لكن العبرة بتسيهل الحياة لا بتعقيدها. فلم يا ترى نسى هذا المبدأ هنا؟ وقد وردت روايات بأن الرسول والصحابة كانوا يخضبون لحاهم، فلم لا تخضب المرأة شعرها؟ أم لا بد أن يكون لها لحية حتى تستطيع أن تمارس الخضاب؟ سهلة! نركّب لها لحية حتى لا يغضب المتنطعون! وبالمناسبة لقد أفتى بعض الفقهاء القدماء بأنه يحرم على المرأة التى تنبت لها لحية أن تزيلها. إى والله! أرأيتم إلى أى مدى بلغ تنطع المتنطعين؟ إن اللحية من علامات الذكورة، فلِمَ ينكر هؤلاء على المرأة أن تتخلص من هذه السمة الذكورية؟ ألا يرددون دائما بمناسبة وغير مناسبة حديث رسول الله القائل: لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال؟ أم تراهم يقولون بأن مشابهة النساء للرجال مَرْضِية بل حتمية متى جاءت على غير إرادة الشخص؟

"المحدِّثات" معجم كبير يقع فى بضع عشرات من المجلدات حول النساء المسلمات اللاتى اشتغلن بالحديث الشريف ألفه د. أكرم ندوى حسبما ذكرت كارلا باور مؤلفة الكتاب الذى نحن بصدده، وإن لم يصدر منه سوى المجلد الأول. وقد استوقفنى ما قاله د. ندوى عن ظروف تأليف ذلك الكتاب الضخم لما فيه من عبر، إذ ذكرت كارلا باور أنه كان يراجع بعض الكتب القديمة، فلفت نظره كثرة النساء المحدثات، فقام فى خاطره أن يكتب فى هذا الموضوع متوقعا أن تكون ثمرة ذلك كتيبا صغيرا لن يضم أكثر من بضعة عشر اسما. بيد أنه مع التقليب والتنقير ألفى الموضوع يتسع وينداح حتى بلغ كل تلك المجلدات بعد أن رجع إلى ما لا يحصى عددا من الكتب والمخطوطات باللغات التى يعرفها مستعينا فى الحصول على تلك الكتب والمخطوطات من مظانّها بالأصدقاء والعلماء فى عدد من بلاد العالم هنا وهناك. وأود أن أقف عند قوله إن كتابته فى ذلك الموضوع قد تمت بالمصادفة المحضة. فكم من الكتب والدراسات فى تاريخ التأليف لدى كل الأمم قد تمت بنفس الطريقة. بل قد يكون السبب كلمة طائرة ليست لها فى ذاتها قيمة كبيرة. ولو كان لى أن أستشهد بأمرى فإنى أتذكر مثلا كيف أن كتابى عن "معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين"، الذى تسبب فى إيذاء لى لم يقع من قبل ولا من بعد، بدأ حين سمعت بمؤتمر سينعقد فى طنطا عام ١٩٨٦م عن مصطفى صادق الرافعى. ولست أدرى الآن بالضبط سر اهتمامى آنذاك بقضية المعركة التى ثارت فى منتصف عشرينات القرن الماضى بين الرافعى وطه حسين بالذات. إلا أنى لم أتخيل أن أكتب أكثر من صفحات معدودات فى الموضوع، ومع هذا فقد انبسط الأمر فى يدى وأثمر كتابا كاملا مفصلا كان من نتيجته ما كان من أذى غليظ جلف وقع علىَّ سوف أشكو أصحابه إلى المولى يوم القيامة وأطلب منه أن يأخذ لى حقى كاملا منهم. والعجيب أننى لم أحضر المؤتمر أصلا رغم أنى كنت قد بعثت بالبحث إلى عميد كلية الآداب بطنطا، الذى كان يشرف على المؤتمر.

وقد كان هذا الكتاب باكورة أعمال أخرى لى عن الشعر الجاهلى وشعرائه، فأصدرت بعد ذلك مثلا كتابى عن النابغة الجعدى وكتابى عن عنترة بن شداد وترجمتى لبحث مرجليوث عن ذلك الشعر مع تعليقات غزيرة ودراسة موسعة لنظريته العجيبة التى بسطها فى ذلك البحث زاعما أن الجاهلية لم تكن تعرف شعرا البتة وأن كل ما ينسب إليها من أشعار وشعراء قد اخترع فى العصر العباسى اختراعا. ومما أصدرته فى هذا الصدد أيضا كتابى: "فصول من ثقافة العرب قبل الإسلام"، ذلك الكتاب الذى ألفته

ليكون مرجعا بين يدى طلاب السنة الأولى بالقسم، وحدث قبل إصدار طبعته الثانية أن طالبا من طلاب الدراسات العليا لدينا قابلنى وأنا داخل محاضرة الفرقة الأولى فى هذا الموضوع قد استسمحنى الحضور مع الطلاب لأن أستاذ المادة التى أتى إلى الكلية لحضورها فى السنة التمهيدية للماجستير اعتذر عن عدم الحضور فى ذلك اليوم، ويريد أن يستفيد شيئا بدلا من عودته بخفى حنين. وما إن شرعت أتحدث فى الموضوع حتى طلب الإذن بالكلام فأذنت له، فأشار فجأة إلى ما يقوله ابن سلام من أن شعر عاد وثمود هو شعر منحول لأن عادا وثمود قد استؤصلتا استئصالا كما ذكر القرآن المجيد، ومن ثم لم يكن هناك من يروى لنا أشعارهما. وأغلب الظن أنه إنما أراد أن يبرهن لى على اهتمامه العلمى وعلى أن لديه شيئا يستطيع أن يقوله فى ذلك الموضوع.

لكننى بمجرد أن سمعت كلامه سألته: هل تظن أن هودا وصالحا رسولَىْ عاد وثمود قد أُهْلِكا ضمن من أُهْلِك منهم؟ فقال: لا. فأتبعته بسؤال آخر: وهل تظن أن الله سبحانه قد أهلك من آمن بهما من عاد وثمود؟ قال: لا. فطلبت ممن معه مصحف من الطلاب أن يفتحه على سورة "هود" لاحتوائها على أكبر قدر من تفاصيل تلك القصة. وأخذت المصحف المفتوح على الآيات المذكورة، فألفيتها تشير إلى أن الله قد نجى كلا من النبيين مع من آمن به. فقلت للطلاب إن بعض هؤلاء المؤمنين يمكن أن يكونوا قد رَوَوْا أشعار تلك القبيلتين، وإنّ كلام ابن سلام فى ذلك لا حجة فيه، وإنْ لم تكن تلك الأشعار صحيحة بالضرورة. ثم مرت الأيام، ففكرت فى سياق آخر أن أراجع ما قاله ابن سلام فى مقدمة كتابه: "طبقات الشعراء" عن قضية الانتحال لأجد أن كثيرا جدا مما قال لا يثبت على محك البحث العلمى، فأثبتّ هذا فى دراسة مفصلة لى بينت فيها الأسباب الوجيهة التى حملتنى على مخالفة الرجل رغم تلقى الباحثين بوجه عام لما قاله بالقبول واعتباره مثالا على الاعتدال فى تناول تلك القضية. وهذه الدراسة موجودة فى الفصل الأول من كتابى: "الأدب العربى- نظرة عامة لبيير كاكيا: عرض ومناقشة"، وعنوانه: "ابن سلام والشك فى الشعر الجاهلى".

ومما ألفته من كتب لم يكن فى ذهنى أن أؤلفها كتابى عن بشار بن برد، وهو يزيد على ٤٠٠ صفحة، ويشتمل على مباحث لم تخطر لى من قبل على بال ولا تطرق، فى حدود علمى، أحد إليها رغم أن المصادفة وحدها هى التى بعثتنى على تأليفه. ذلك أنى، أثناء إعارتى إلى جامعة أم القرى بالطائف فى النصف الأول من آخر عقود القرن العشرين، كنت أحاضر الطلاب فى موضوع لا أذكره الآن، لكن من المؤكد ألا علاقة له بالشاعر العباسى، فاتهمه أحد الطلاب بالزندقة، فقلت: لا أظن أنه كان زنديقا،

إنما كان سفيها أو شيئا من هذا القبيل. ثم وجدت نفسى وقد أقبلت على ديوانه والمصادر والمراجع التى تناولته بالدراسة، ومنها بعض كتب المستشرقين، ووضعت كتابى الكبير عنه. وكان الطلاب فى المحاضرة المذكورة أيضا قد عرَّجوا على ابن المقفع ورمَوْه بذات التهمة جراء معارضته القرآن الكريم طبقا لما هو شائع، فبينت لهم أن كتب الرجل التى بين أيدينا تخلو، فيما أعرف، من تلك الزندقة. ثم شرعت أبحث عن كتاب الطباطبائى الذى حققه المستشرق جويدى وأصدره فى أواخر عشرينات القرن العشرين، والذى يتهمه فيه بأنه قد عارض القرآن، واستشهد ببعض ما كتبه فى تلك المعارضة حسب دعواه. إلا أننى لم أجد سوى كتاب د. عبد اللطيف حمزة عن ابن المقفع، وفيه بعض النصوص القليلة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع. وظللت كلما واتتنى فرصة أسأل عن الكتاب عند الأصدقاء وفى المكتبات العامة وعلى المشباك، إلى أن أمدنى به صديق لم ألتقه حتى اليوم لأنه يقيم منذ وقت طويل خارج البلاد، وكان أحد الأصدقاء المشتركين قد عرفنى به على البعد، فاستعنت به على توفير نسخة من الكتاب المومإ إليه، فأمَّن لى نسخة ضوئية بعث إلىَّ بها عن طريق البريد الألكترونى من سويسرا، بالإضافة إلى حصولى من مصر على طبعة جديدة بتحقيق جديد غير تحقيق المستشرق جويدى المذكورة، مما حفزنى على دراسة تلك التهمة، فصُلْتُ وجُلْتُ فى المصادر والمراجع القديمة والحديثة لأنتهى إلى أن تهمة الزندقة لا تثبت على الكاتب الكبير، ووضعت بحثا طويلا من عشرات الصفحات فى هذه المسألة نشرته على المشباك أولا ثم أعدت نشره فى كتابى: "دراسات فى اللغة والأدب والدين"، الذى صدر منذ نحو سنتين.

كذلك ما زلتُ أذكر تلك المحاضرة التى كنت ألقيها بين العصر والمغرب فى أحد الأيام من خريف سنة ١٩٨٩م على طلاب قسم اللغة العربية وآدابها فى كلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة حين قام طالبٌ ممن لا يكتفون بالسماع السلبى لما يقوله الأستاذ، فعلَّق على ما كنتُ كتبتُه عن الدكتور طه حسين فى كتابى: "معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين" قائلا: يبدو لى أنك قد ظلمتَ الدكتور طه فى اتهامك إياه بأنه أخذ نظريته التى تشكِّك فى الشعر الجاهلى وشعرائه من المستشرق البريطانى ديفيد صمويل مرجليوث. وكعادتى فى مثل تلك الظروف توقفت قليلا وأنا أبتسم للطالب قبل أن أرد عليه بما يشبه الإلهام: غريبة! كيف فاتنى أن أرجع لما كتبه الدكتور طه فى كتابه "قادة الفكر" عن الشاعر الإغريقى هوميروس صاحب الإلياذة قبل أن أضع كتابى هذا؟ ثم أردفت قائلا: أرجو منك أن تنزل فورا فتستعير ذلك الكتاب من مكتبة الكلية وتحضره لى حتى نستكمل النقاش فى مكتبى،

إذ يغلب على ظنى أن طه حسين قد تطرق إلى الحديث عن الشعر الجاهلى فى أول فصول ذلك الكتاب الذى كنت قرأته من زمن غير قريب، وأريد أن أرى ماذا قال فى ذلك الموضوع. ولم يكذّب الطالب خبرا، فما إن انتهت المحاضرة وعدت إلى مكتبى وبرفقتى بعض الطلاب المتحمسين لمتابعة النقاش حتى وجدته ينتظرنى وفى يده الكتاب المستعار. فشكرته وأخذته منه وشرعت أقلب صفحات الفصل المشار إليه، ولم يطل بنا الانتظار، فقد وقعتُ على نصٍّ مهمٍّ جدا للدكتور طه يقول فيه إنه ما كانت الحضارة الإسلامية، التى ظهر فيها مَنْ ظهر مِنَ الخلفاء والعلماء وأفذاذ الرجال، لِتُوجَد لو لم توجد البداوة العربية التى سيطر عليها امرؤ القيس والنابغة والأعشى وزهير وغيرهم من الشعراء الذين نبخسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم. هكذا بالنص. فأريتُ النصّ للطلاب ثم شفعتُ ذلك، وأنا أضحك، بسؤال الطالب الذى فجَّر المسألة قائلا: "أَوَما تزال عند اتهامك لى بأنى ظلمت طه حسين؟ إن هذا الكتاب، كما يتضح من مقدمته، قد صدر قبل ظهور البحث الذى وضعه مرجليوث عن الشعر الجاهلى بأسابيع قليلة جدا جدا مما يدل على أن الدكتور طه لم يكن، حتى ظهور دراسة مرجليوث، يشك أدنى شك فى صحة الشعر الجاهلى أو فى وجود شعرائه. ثم إنه لم يكتف بذلك، بل ها هو ذا يؤكد أنه لولا وجود ذلك الشعر ما وُجِدت الحضارة الإسلامية. وهو كلام كبير وخطير!".

وبعدها بقليل فوجئت بعبد الرشيد صادق محمودى، الذى كنت قد رددتُ عليه فى كتابى المذكور بأن الدكتور طه لا يمكن أن يكون قد استقى شكه فى الشعر الجاهلى من الكاتب الفرنسى إرنست رينان كما يدَّعِى هو، فوجئت به يكتب فى شهر سبتمبر بـ"الأهرام" ثلاث حلقات يتناول فيها ما قلته عنه معزِّزًا رأيه السابق فى الموضوع ببراهينَ ظنَّها مفحمة مما دفعنى إلى التعليق على ما كتب، مستشهدا فى تعليقى، ضمن ما استشهدتُ، بما قرأته مع طلابى من كلام الدكتور طه فى كتابه "قادة الفكر"، ثم أرسلتُ الجزءَ الأول من هذا التعليق للصحيفة مع أحد الأشخاص، لكن الرسول عاد وأخبرنى، والعهدة عليه، بأنه قد فهم من كلامهم أنهم لا ينوون أن ينشروا ما بعثتُ به إليهم. وكنت أستعد فى ذلك الحين للسفر إلى السعودية مُعَارًا إلى جامعة أم القرى بالطائف فانشغلت بتجهيز أوراق السفر وما إلى ذلك عن متابعة الأمر. وها هى ذى السنون تدور، وأسافر فى إعارة أخرى إلى جامعة قطر أول القرن الحالى، ويثير بعض الكتاب فى إحدى الصحف الضوئية هذه القضية فأعيد كتابة البحث كرة أخرى ثم نشرته على المشباك أولا ثم بعدها بعدة أعوام ضمنته كتابى السابق الذكر: "دراسات فى اللغة والأدب والدين" تحت عنوان "نظرية طه حسين فى الشعر الجاهلى سرقة أم ملكية صحيحة؟".

وفى العام الماضى فى مادة "أعمال السنة" سألتنى، خلال إحدى المحاضرات، طالبة ذكية يبدو أنها قرأت فى كتاب السباعى بيومى: "تاريخ الأدب العربى" عن غياب الأمثال فى صدر الإسلام والعصر الأموى، فقالت: هل اختفت الأمثال من الأدب العربى بعد العصر الجاهلى يا دكتور؟ فقلت لها ضاحكا: لقد تصادف أن فكرت فى هذا السؤال وأنا أحلق ذقنى صباح اليوم. ثم وعدتها بمتابعة البحث فى تلك القضية، وانتهيت بعدها بيومين إلى كتابة نحو سبع صفحات فى ذلك الموضوع استشهدت فيها بعدد كبير من الأمثال التى تعود إلى ذينك العصرين، ونشرتها أولا فى المشباك بعنوان "والأساتذة أيضا يستفيدون من طلابهم" ثم ضمنتها كتابى عن "تاريخ الأدب العربى منذ العصر الجاهلى إلى نهاية العصر الأموى"، وأعطيت الطالبة مكافأة تشجيعا لها ولزملائها على التفاعل الإيجابى مع المحاضرة وإخراجا لهم من حالة الصمت واللامبالاة التى يعتصم بها الأغلبية الساحقة من الطلاب والطالبات للأسف.

ومن هذا المثال والأمثلة الآنفة الذكر وغيرها مما لم أتطرق إليه هنا يتبين أن المصادفات والكلمات العابرة كثيرا ما تقودنا إلى كتابة الأبحاث والدراسات والكتب الهامة فى الموضوعات المختلفة. ودائما ما أقول لطلابى: "اسألوا واطرحوا ما لديكم من موضوعات ولا تخافوا. وحتى لو بدت لكم أسئلتكم أو تعليقاتكم غير ذات قيمة فهى أفضل من الصمت، لأننا كثيرا ما نستفيد منها إذ تحرك أذهاننا وتدفعنا إلى البحث والكتابة. فلا تحرمونا هذه النعمة". وها هو ذا د. أكرم ندوى يعترف بأن المصادفة وحدها كانت وراء وضعه للمعجم الهائل الضخامة عن النساء المحدِّثات فى الإسلام. وطبعا حين نقول: "مصادفة" إنما نجرى على ظاهر الأمر، أما فى الحقيقة فلا مصادفة ولا يحزنون، إذ كل شىء يسيرعلى قوانين الكون التى بثها الله فيه منذ خَلَقَه سبحانه وتعالى، فكل شىء بنظام دقيق، وإن بدا للعين العجلى أنه مصادفة. وقد استغربت ضاحكا أن يسمى د. ندوى هذا الأمر مصادفة، وهو الذى يرى الله فى كل شىء حتى فى كوب الشاى الذى يصنعه ويحتسيه، مما أثار استعجاب كارلا باور، التى تكتفى فى مثل هذه الحالة بشرب الشاى والاستمتاع به والاستغراق فيه دون أن تتطرق إلى ما وراء ذلك أبدا.

وأذكر فى هذا الصدد أنى، وأنا فى السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية بمدرسة الأحمدية بطنطا، كنت أتمنى الإحاطة بتاريخ الأدب العربى متصورا أن الأمر سهل ميسور تمام اليسر، إذ يتلخص فى أن أراجع جيدا الكتب التى درسناها خلال تلك المرحلة بسنواتها الثلاث، فهى تغطى عصور الأدب العربى كلها وترفد القارئ بشواهد من الشعر والنثر على ما تقول. وكنت أظن أن هذا هو كل شىء. ثم أهملت الأمر ودخلت الجامعة ودرست تاريخ الأدب العربى من جديد، ولكن بتوسع أنسانى أمنيتى

القديمة، إذ ألفيت أن تحقيق تلك الأمنية صعب جدا بعدما شاهدت ضخامة كتب د. شوقى ضيف التى يؤرخ بها لبعض عصور ذلك الأدب. ثم تخرجت وانشغلت برسالتيَّ العلميتين للحصول على الماجستير والدكتورية. ثم عدت من بريطانيا وحللت للطلاب عشرات القصائد القديمة والحديثة وبعض الروايات، ولكن دون أن أفكر بتاتا فى تحقيق أمنيتى البعيدة رغم ما كنت أقرؤه من كتب كثيرة فى التأريخ لأدبنا العربى ورغم ما ألفته من كتب حول الشاعر الفلانى والكاتب العلانى والموضوع الترتانى فى القديم والحديث. إلا أننى فى العام الماضى طُلِب منى أن أدرّس لبعض الطلاب الغانيين شيئا عن تاريخ ذلك الأدب، فكتبت عدة صفحات قليلة جدا عن العصر الجاهلى والإسلامى، لكنى وجدت أنه لا بد من اختصار تلك الصفحات القليلة جدا لأن معرفتهم بالعربية شديدة الضيق. بيد أنى ما إن انتهيت من الفصل الدراسى الأول حتى صح منى العزم على أن أتابع الكتابة فى الموضوع وفى نيتى أن أغطى عصور الأدب العربى كلها فى نحو ٣٠٠ص على أقصى تقدير. بيد أن الأمر اتسع علىَّ، فقلت فى نفسى: فلتمض فى الطريق حتى آخره رغم أنى لست ممن يصبرون على الإنجازات العلمية التى تستغرق وقتا طويلا وتصدر فى أجزاء.

ومع هذا نجحت فى إصدار الجزء الأول من ذلك التاريخ، وهو يغطى العصر الجاهلى وعصر الخضرمة والعصر الإسلامى والعصر الأموى. وكنت سعيدا به رغم ما فيه من عيوب شأن كل جهد إنسانى. إلا أنه لا يخلو من بعض الميزات التى يتفرد بها. ومنها مثلا النظرة المختلفة التى نظرت بها إلى بعض المسائل الهامة فيه كالقول مثلا بأن عبد الحميد الكاتب لا يدين بشىء يذْكَر إلى الأدب الفارسى، بل يكاد ينحصر دَينُه فى الأدب العربى، والتطرق كذلك إلى تفنيد الحماقة التى سولت للويس شيخو الزعم بأن هذا الشاعر أو ذاك أو هذاك أو ذلك أو هَذَلِك نصرانى مع أنه ليس له بالنصرانية صلة من قريب أو من بعيد بل مسلم من ساسه لراسه. كما اتبعت تقسيما يختلف إلى حد ما عن التقسيمات التى تجرى عليها كتب تاريخ أدبنا فى ترتيب مادتها... وهكذا. ثم أتبعته بإعداد الجزء الثانى من تاريخ الأدب العربى، وهو عن العصر العباسى كله من أوله حتى سقوط بغداد. وأرجو أن أتمكن من إخراجه قريبا بمشيئة الله.

ومن العبر التى يستنبطها المرء من كلام كارلا باور كذلك أن الدعاية الواسعة هى السبب فى انتشار العلم بكتاب د. ندوى رغم أنه لم يصدر منه سوى جزء واحد. لقد سارعت الصحفية المذكورة إلى كتابة مقال للتعريف بالكتاب فى إحدى كبريات الصحف الأمريكية، وكان هذا كافيا لإثارة الاهتمام

بذلك العمل. ولو لم تكتب عن الكتاب ما عرف الناس به على هذا النطاق الواسع، والواسع جدا. والغرب، حين يشغِّل آلته الإعلامية لتسويق شىء أو شخص، فقل: يا رحمن يا رحيم! إن كل شىء يتبدل، فإذا المجهول يصير شمسا ساطعة يراها حتى الأعمى. أما إذا كان لهم موقف سلبى منه فإنهم يتجاهلونه تماما ويصدرون أوامرهم لرجالهم فى كل مكان بالصمت التام نحوه، فلا كلمة ولا همسة ولا حتى إشارة. ولأمر ما أقبل الغرب على تشجيع العلم بهذا الكتاب، فكان ما كان. لا أقصد أن مثله ينبغى التعمية عليه، فلست من أنصار التجاهل لأى كتاب يصدر فى أى مكان بالعالم. وأنا دائما ما أقتحم الأبواب المغلقة وأقرأ كتب المستشرقين والمبشرين وأكتب عنها وأجدها تنشط ذهنى وتبعثنى على التعمق فى الموضوع الذى طرقته لأعلم وجه الحق فيه. وكم أفدت من تلك القراءات! وكم وضعت من كتب وبحوث جراء اطلاعى عليها ورغبتى فى أن تكون هناك وجهة نظر أخرى تعادلها! فما بالنا إذا ما كان مؤلف الكتاب المذكور عالما مسلما حتى لو اختلفنا معه، وهو ما لا أظننى أختلف معه فى هذه القضية فيما أتصور. لكن يبقى مجال العبرة واضحا، وهو أنهم فى الغرب قد تحمسوا لذلك الكتاب، وأرادوا الاستفادة منه لمصلحتهم بغض النظر عن غاية مؤلفه فى حد ذاتها. والرجل، على كل حال، إنما نقل ما وجده فى كتب التاريخ والتراجم والمعاجم الإسلامية ورتبه وصنفه ووضعه بين أيدينا غنيمة باردة لمن يريد العلم والدراسة والتحقيق باذلا فى ذلك جهدا كبيرا على مدى ثمانى سنوات فيما قرأت، فهو إذن جهد مشكور مقدور لا ريب فى ذلك، وإن لم نر من الكتاب حتى الآن، كما قلت، سوى المجلد الأول.

وحتى يتبين دور الدعاية فى التعريف بشىء أو شخص وتلميعه ووضعه فى بؤرة الضوء الساطع ألفت النظر إلى أن هناك كتبا أخرى سبقت كتاب أكرم ندوى، لكن الكثيرين لا يعلمون عنها شيئا حتى ليخيل لمن لا يعلم أن كتاب الرجل هو الأول والوحيد فى بابه. فقد تحدثت كتب تراجم أهل الحديث عن النساء المحدثات كـ"تهذيب الكمال" للمِزّى، و"تهذيبه" للحافظ ابن حجر، و"تقريب التهذيب" له أيضا، و"الضوء اللامع" للسخاوى، و"تراجم المحدثات من التابعيات ومروياتهن فى الكتب الستة" لعالية عبدالله محمد بالطو الأستاذة المساعدة بكلية إعداد المعلمات بمكة، و"جهود المرأة الدمشقية فى رواية الحديث الشريف" للدكتور محمد بن عزوز، و"دور المرأة فى خدمة الحديث فى القرون الثلاثة الأولى" لآمال قرداش بنت الحسين، و"جهود المرأة فى رواية الحديث (القرن الثامن الهجرى)" لصالح يوسف معتوق، و"عناية النِّساء بالحديث النبوى" لمشهور بن حسن آل سلمان، بالإضافة إلى كتب فى

التراجم النسائية بوجه عام يجد فيها الباحث كلاما عن نساء محدثات، مثل "تراجم النساء فى تاريخ دمشق لابن عساكر"، و"تراجم شهيرات النساء" لعلى بن محمد بن جميل المعافرى المالقى إمام قبة الصخرة فى القدس أيام الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى، و"جامع أخبار النِّساء من سير أعلام النبلاء للذهبى" لخالد بن حسين، و"أعلام النِّساء" لعمر رضا كحَّالة... إلخ. ومع هذا فلا بد من التنبيه إلى أن كتاب د. ندوى، حين يطبع، سوف يكون أكبر كتاب فى موضوعه فى نطاق علمى.

إلا أننى لست أفهم ما ذكرته الصحفية الأمريكية كارلا باور من أن د. أكرم ندوى كان نافرا من التعريف بنفسه وبكتابه. ذلك أن هذا يتعارض وما يهدف إليه أى كاتب من انتشار أفكاره وإقبال الناس عليها. فكيف يمكن أن يتم ذلك دون التعريف به وإلقاء الضوء عليه؟ ثم كيف اتفقا على أن تزور قريته بالهند وتكتب عنه وعن أهله ومرباه ومنشئه إذا كان ينفر من الكلام عنه؟ بل كيف رضى بأن تكتب عنه ذلك الكتاب المثير الجذاب؟ بل كيف أنشأ أو رضى بأن ينشأ له موقع ضوئى يتحدث عنه وعن محاضراته وكتبه ويعرف الناس به وبإنجازاته؟ الحق أن هذا لا يتسق وذاك. وما دمنا بصدد الحديث عن موقعه فقد دخلته مرة واستمتعت بالاستماع إليه والتعرف إلى صوته وطريقته فى المحاضرة وكيفية إشارته بيده كما نفعل جميعا حين نتكلم، وبخاصة فى وسائل الإعلام أو فى مواجهة الجمهور، فألفيته هادئا يجرى على وتيرة واحدة فى الإلقاء ويحتفظ صوته غالبا بنفس طبقته دون انفعال أو أداء مسرحى يلفت النظر ويشد المشاهدين، فذكّرنى هذا بما قاله عن نفسه من أنه قد عود نفسه الهدوء والصبر حتى إنه ليجد صعوبة فى أن يغضب.

وقد غبطته على طلابه وقد جلسوا أمامه وعلى قمطر كل منهم كُوَيتِيبَهُ يسجل عليه ما يريد من ملاحظات، وقد أتأروا البصر إليه على عكس طلابنا، الذى يمسكون بمحاميلهم لا يتركونها أبدا ولو تحت الطاولة وكأنهم أطفال صغار لا يطيقون مفارقة أمهاتهم، ويعبثون بها فى أمور السخف نفورا من العلم والإنصات إلى العلم وتجنبا للصداع وخوتة الدماغ التى تصيب كل من يفكر أو يقرأ أو يستمع إلى من يتحدث فى العلم، ذلك الجذام الذى يفرون منه كما يفرون من الأسد. وقبل أن أغادر هذه الفقرة أود أن أشرح كلمة "كويتيب"، التى قصدت بها اللاب توب، فصغَّرتُ كلمة "كاتوب"، التى أُطْلِقها على جهاز الكمبيوتر. وقد واتتنى هذه الكلمة اليوم لأول مرة وأنا ذاهب على قدمى بعد الظهر إلى الجامعة، وكنت أمشى فى شارع جانبى قبيل بلوغى ميدان القبة، وسماعتا المحمول فى أذنىَّ أستمع فى ذات الوقت إلى إحدى الأغانى تسلية للنفس وصرفا لها عن القبح المنتشر فى كل مكان، وكنت أدير فى نفسى عبارة

للتعبير عن غَبْطِى للرجل بسبب طلابه ولابْتُوبَاتهم، فقلت: عيب أن أعجز عن افتراع كلمة لترجمة اللاب توب، فوجدتنى أقول بعد ثوان من التجارب: "كويتيب" تصغيرا لكلمة "كاتوب" التى افترعتُها بدورها منذ سنوات بدلا من "حاسوب" مع أنى لم أستطع قبلا التوصل إلى تلك الكلمة بهذه السلاسة.

وسوف أسوق الآن بعض ما قيل فى تراثنا عن المحدِّثات والفقيهات مما استعان به أكرم ندوى فى معجمه الكبير الذى يضم ترجمة ٨٠٠٠ امرأة مسلمة عالمة فى الحديث وحده قابلات للزيادة حسبما قرأنا، مما يرد على الدعوى المنتشرة على نطاق واسع بين من لا يعرفون الإسلام على حقيقته، وهى أن دين محمد والنسوة العالمات نقيضان لا يجتمعان أبدا، بل إما الإسلام وإما النسوة العالمات. وستكون تلك التراجم مأخوذة من كتابَىِ "الجواهر المضية فى طبقات الحنفية"، و"سِير أعلام النبلاء": ففى كتاب "الجواهر المضية فى طبقات الحنفية" لعبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشى نقرأ ما يلى فى ترجمة بعض المحدثات والفقيهات اللاتى خصص لهن د. أكرم ندوى كتابه المذكور: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى أنشأ الخلق من آدم وحواء، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء. وصلى الله وسلم على النبى الأمى خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء. هذا كتاب أذكر فيه من وقع لى من العلماء النساء من أصحابنا، ولم يقع لى إلا القليل جدا. ولا شك أن مبنى حال النساء على الستر، ولذلك أُمِرَتْ بالقناع فى الصلاة وستر أعضائها وترفع يديها إلى منكبها لا أذنيها وتجلس فى الصلاة متوركة يخرج رجلها اليسرى من تحت وركها اليمنى ولا تجافى بطنها فى السجود بل تلصق بطنها إلى فخذيها ما استطاعت وتجمع يديها إلى بطنها، وليس عليها رَمَلٌ من الطواف ولا سعى بين الميلين الأخضرين ولا ترفع بالتلبية صوتها. فإن أَمَّتْ بنساء تقف وسطهن. وليس عليهن حضور الجماعات: الشابة بينهن والعجوز على الخلاف المعروف، ولا تسافر إلا مع زوج أو محرم. وهن ممنوعات أيضا من الخلوة بالأجنبى. وهذه الأشياء كلها مانعة لهن من التعليم والتعلم، اللّهم إلا أن يكون الواحدة منهن فى قعر بيتها مستغنية بعلماء بيتها كزوج وعم وأخ وخال وجد وأب إلى غير ذلك من الإلزام. وسيأتى فى ترجمة فاطمة السمرقندية بنت محمد بن أحمد بن أبى أحمد صاحب "التحفة" وزوج أبى بكر بن مسعود صاحب "البدائع" أن الفتوى كانت تخرج من بيتها، وعليها خطها وخط أبيها وزوجها. وقد بلغَنا عن بلاد ما وراء النهر وغيرها من البلاد أنه فى الغالب لا تخرج فتوى من بيت إلا وعليها خط صاحب البيت وابنته وامرأته أو أخته إلى غير ذلك من الإلزام.

وهذا وقت الشروع: خديجة بنت محمد بن أحمد أبو رجاء القاضى الجوزجانى. تفقهت على أبيها، وتقدم. قال الحاكم فى تاريخ نيسابور: عاشت أكثر من مائة سنة، وكانت تحسن العربية والكتابة. وسمعت من أبى يحيى البزار: ماتت سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة. رحمها الله تعالى.

ست الوزراء ابنة العلامة مفتى المسلمين عماد الدين محمد بن عبد الكريم بن عثمان. عُرِف بـ"ابن السماع". تقدم مولدها فى سنة تسع وخمسين وستمائة بعد وقعة عين جالوت. كتبت وقرأت القرآن وحفظت شيئا كثيرا من فقه أبى حنيفة وتفقهت على والدها، واعتنى بها أبوها وأسمعها من إسماعيل بن الروحى وغيره. وماتت فى شوال سنة ست وثلاثين وسبعمائة بأرض المرة.

طاهرة بنت أحمد بن يوسف الأزرق بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول بن حسان بن سنان التنوخية من بيت العلم والفضل والدين. وهذا النسب كله علماء فضلاء تقدم كل واحد فى بابه. تفقهت طاهرة على أبيها وروت عنه وحكت أن وفاة أبيها أحمد بن يوسف فى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة. ذكرها الخطيب. رحمها الله تعالى.

فاطمة بنت أحمد بن على الإمام مظفر الدين صاحب "البدائع" فى أصول الفقه و"مجمع البحرين" فى الفقه. تقدم. وفاطمة هذه تفقهت على أبيها وأخذت عنه "مجمع البحرين" فى الفقه. رأيته بخطها، وهو تعليق حسن. رحمها الله تعالى.

فاطمة بنت محمد بن أحمد بن أبى أحمد السمرقندى مؤلف "التحفة". تقدم. وهى زوجة الإمام علاء الدين أبى بكر بن مسعود الكاسانى صاحب "البدائع". تقدم فى الكُنَى. تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه: "التحفة". قال ابن العديم: حكى والدى أنها كانت تنقل المذهب نقلا جيدا، وكان زوجها الكاسانى ربما يهم فى الفتيا، فترده إلى الصواب وتعرّفه وجه الخطاء، فيرجع إلى قولها. قال: وكانت تفتى، وكان زوجها يحترمها ويكرمها. وكانت الفتوى أولا يخرج عليها خطها وخط أبيها السمرقندى، فلما تزوجت بالكاسانى صاحب "البدائع" كانت الفتوى تخرج بخط الثلاثة. قال داود بن على أحد فقهاء الحلاوية بحلب: هى التى سنت الفطر فى رمضان للفقهاء بالحلاوية. كان فى يديها سواران، فأخرجتهما وباعتهما وعملت بالثمن الفَطُور كل ليلة، واستمر على ذلك إلى اليوم. قال ابن العديم: أخبرنى الفقيه أحمد بن يوسف بن محمد الأنصارى الحنفى قال: كان الكاسانى عزم على العَوْد من حلب إلى بلاد زوجته حين حثته على ذلك. فلما علم الملك العادل نور الدين محمود استدعاه وسأله أن يقيم بحلب، فعرفه السبب وأنه لا يقدر أن يخالف زوجته ابنة شيخنا، فاجتمع رأى الملك وزوجها

الكاسانى على إرسال خادم بحيث لا تحتجب منه ويخطبها عن الملك فى ذلك. فلما وصل الخادم إلى بابها استأذن عليها، فلم تأذن له واحتجت وأرسلت إلى زوجها تقول له: بَعُدَ عهدك بالفقه إلى هذا الحد؟ أما تعلم أنه لا يحل أن ينظر إلىَّ هذا الخادم؟ وأى فرق بينه وبين غيره من الرجال فى جواز النظر؟ فعاد الخادم وذكر ذلك لزوجها بحضرة الملك، فأرسلوا إليها امرأة برسالة الملك نور الدين فى خطبتها، فأجابته إلى ذلك وأقامت بحلب إلى أن ماتت، ثم مات زوجها الكاسانى بعدها ودفن عندها على ما قدمناه فى ترجمته رحمه الله تعالى".

ومن "سير أعلام النبلاء" للذهبى نقتطف الترجمتين التاليتين عن اثنتين من أولئك المحدِّثات: "بنت سعد الخير الشيخة الجليلة المسندة أم عبد الكريم، فاطمة بنت المحدث التاجر أبى الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصارى البلنسى. مولدها بأصبهان فى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة. وسمعت حضورا فى الثالثة من فاطمة الجوزدانية جملة من "المعجم الكبير"، وحضرت ببغداد فى سنة خمس وعشرين على هبة الله بن الحصين، وزاهر بن طاهر، وأبى غالب بن البناء. وسمعت بعد من أبيها، ومن هبة الله بن الطبر والقاضى أبى بكر ويحيى بن حبيش الفارقى ويحيى بن البناء وأبى منصور القزاز وإسماعيل السمرقندى وعدة. وأجاز لها خلق. وحدَّثَتْ بدمشق وبمصر. تزوج بها الرئيس زين الدين بن نجية الواعظ، وسكن بها بدمشق ثم بمصر، ورأت عزا وجاها. حدث عنها أبو موسى بن الحافظ وعبد الرحمن بن مقرب ومحمد بن محمد بن الوزان الحنفى ومحمد بن الشيخ الشاطبى والحافظ الضياء وخطيب مردى وعبد الله بن علان وخلق سواهم .وروى عنها بالإجازة الحافظ زكى الدين عبد العظيم، وقال: توفيت فى ثامن ربيع الأول سنة ستمائة. قلت: عاشت ثمانيا وسبعين سنة، وأجازت لشيخنا أحمد بن أبى الخير سلامة.

كريمة أم الكرام بنت أحمد بن محمد المروزية: الشيخة العالمة الفاضلة المسندة أم الكرام كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزية المجاورة بحرم الله. سمعتْ من أبى الهيثم الكشميهنى "صحيح البخارى"، وسمعت من زاهر بن أحمد السرخسى وعبد الله بن يوسف بن باموية الأصبهانى. وكانت إذا روت قابلت بأصلها. ولها فهم ومعرفة مع الخير والتعبد. روت "الصحيح" مرات كثيرة، مرة بقراءة أبى بكر الخطيب فى أيام الموسم، وماتت بكرا لم تتزوج أبدا".

على أن هناك كتبا أخرى فى موضوعات مشابهة فى اتجاهها العام لكتاب الندوى منها على سبيل التمثيل كتاب "تحرير المرأة فى عصر الرسالة" لعبد الحليم أبو شقة، وهو دراسة عن المرأة جامعة

لنصوص القرآن الكريم وصحيحى البخارى ومسلم. وقد انقسم العلماء حوله كالعادة إلى مؤيد ومعارض. فأما المؤيدون فأمرهم معروف، إذ هم يوافقون المؤلف على ما وصل إليه ونفضه بين أيديهم. وأما المعارضون المنكرون فلعل من الممكن التمثيل لهم بما كتبه سليمان بن صالح الخراشى فى نقد ذلك الكتاب. ونبدأ أولا بنقل هذا النص من كتاب عبد الحليم أبو شقة، وهو خاص بحجاب المسلمة:

"أدلة خصوصية الحجاب بنساء النبى صلى الله عليه وسلم، وخصوصية حجاب نساء النبى فى ضوء أصول الفقه: الحجاب يعنى شيئا يحجز بين طرفين فلا يرى أحدهما الآخر، ولا يمكن أن يعنى لباسا يلبسه إنسان لأن اللباس، أيا كان قدره ونوعه ولو ستر جميع بدن المرأة حتى وجهها، فلن يمنع المرأة أن ترى الناس من حولها، ولن يمنع الناس أن يروا شخص المرأة. والحجاب الوارد فى قوله تعالى: "فاسألوهن من وراء حجاب" هو الساتر الذى يكون فى البيت ويرْخَى ليفصل بين مجلس الرجال ومجلس النساء. الاحتجاب هو منع نساء النبى صلى الله عليه وسلم من لقاء الرجال الأجانب دون حجاب والابتعاد بشخوصهن تماما عن أبصار الرجال. أما الستر الكامل للبدن مع الوجه عند الخروج للحاجة فإنه بديل مؤقّت عن الحجاب. وهو، أى تغطية البدن كاملا مع الوجه، من خصوصيات نساء النبى صلى الله عليه وسلم. وفى هذه الحالة نساء النبى صلى الله عليه وسلم يلبسن اللباس الشرعى، ولا يسمَّى: حجابا.

تاريخ نزول آية الحجاب: إن نزول آية الحجاب كان على الأرجح فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة كما أورد صاحب "الطبقات الكبرى". وقد اشترطنا فى النصوص التالية أن يكون مما وقع بعد تلك السنة، وذلك للدلالة على أن الحجاب، بمعناه الأصلى كما بينا، لم يفرض على غير نساء النبى صلى الله عليه وسلم من ناحية، وأن عامة الصحابيات لم يحتجبن ولو من قبيل الاقتداء حيث فقهن خصوصية الحجاب بنساء النبى صلى الله عليه وسلم وأنه لا مجال للاقتداء بهن رضى الله عنهن فى أمر خُصِصْن به.

الدليل الأول: قال تعالى: "يَأَيهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيوتَ ٱلنَّبِى إِلَّا أَن يؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يؤْذِى النَّبِى فَيسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يسْتَحْيِى مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيما * إِن تُبْدُوا شَيئا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمًا * لا جُنَاحَ عَلَيهِنَّ فِى

آبَآئِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىءٍ شَهِيدا" (سورة الأحزاب/ ٥٣- ٥٤). الآية تتحدث صراحة عن بيوت وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم وليس بيوت وأزواج عامة المسلمين...

وهكذا نلحظ أن الله تعالى استثنى نساء النبى صلى الله عليه وسلم من الاحتجاب، وذلك فى قوله تعالى: "لا جُنَاحَ عَلَيهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ..." بينما استثنى محارم نساء المسلمين من إخفاء الزينة فحسب، وذلك فى قوله تعالى: "وَلا يبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءابَائِهِنَّ أَوْ ءابَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ...."- ومما يؤكد أن هذه الآية، أى آية الحجاب، تثبت خصوصية الحجاب بأمهات المؤمنين عدم ذكرها "بعولتهن"، الذين ورد ذكرهم فى آية سورة "النور" حيث الخطاب فيها لعامة النساء، ولكل واحدة "بعل"، أما فى حالة أمهات المؤمنين، والحجاب خاص بهن، فلا مجال لذكر "بعولتهن" لأن لهن جميعا بعلا واحدا، وهو النبى صلى الله عليه وسلم. وإذا كان يفْهَم الخطاب الموجه لنساء النبى صلى الله عليه وسلم على أنه "لجميع النساء" فلِمَ جاء لفظ "ونساء المؤمنين" فى آية الجلاليب؟ فمجرد ذكر "نساء النبى" يكفى لأن "الحكم" عام...

الدليل الثانى: مقدمات فرض الحجاب. أولا: عمر يشير على رسول الله بحجب نسائه: عن عمر رضى الله عنه قال: ... قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرتَ أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب (رواه البخارى). الحديث ينص على أن عمر رضى الله عنه قال لرسول الله: "احجب نساءك"، ولم يقل: "مُرْ نساء المؤمنين بالحجاب". وذلك أن عمر وقع فى قلبه نفرة من اطلاع الرجال على الحريم النبوى، وذلك لأنه يدخل عليهن البر والفاجر. فرسول الله بيته مفتوح لكل الناس، أما بيوت المسلمين فإنما يدخلها عادة الأقارب والأصدقاء، ومن إليهم من الموثوق بهم. ثانيا: عمر، حرصا منه على الحجاب، يعلن تعرفه على سَوْدَة عند خروجها...

الدليل الثالث: معقّبات فرض الحجاب- عمر ينكر على سودة أم المؤمنين خروجها بعد فرض الحجاب. عن عائشة قالت: خرجت سودة، بعدما ضُرِب الحجاب، لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أما والله ما تَخْفَينَ علينا. فانظرى كيف تخرجين. قالت: فانكفأتُ راجعة، ورسول الله فى بيتى. فدخلت فقالت: يا رسول الله، إنى خرجت لبعض حاجتى، فقال لى عمر كذا وكذا... فقال: إنه أُذِن لكن أن تخرجن لحاجتكنّ (رواه البخارى

ومسلم)... إن عمر لم ينكر على نساء المسلمين أن يخرجن لحاجتهن بعد نزول آية الحجاب، وقد كن جميعا يخرجن للبِرَاز حيث لم يكن كُنُفٌ فى البيوت، وإنما أنكر على سودة أم المؤمنين فحسب، وذلك لعلمه أن الحجاب خاص بنساء النبى صلى الله عليه وسلم، حجاب شخوصهن وليس أبدانهن، ولأنه ظن أنه ينبغى أن يطَّرد فى كل الظروف، فنزل الوحى باستثناء الخروج للحاجة من وجوب حجب الأشخاص.

الدليل الرابع: اختصاص لفظ "الحجاب" فى "صحيحى البخارى ومسلم" بأمهات المؤمنين... الدليل السادس: رفض الإذن لنساء النبى صلى الله عليه وسلم بعد فرض الحجاب بالمشاركة فى الجهاد والإذن لعامة النساء... الدليل السابع: حج أمهات المؤمنين معتزلات الرجال بينما عامة النساء يخالطن الرجال... والأحاديث تفيد تميز حج نساء النبى صلى الله عليه وسلم بسبب اختصاصهن بالحجاب، فيحتجبن عن الرجال قدر الإمكان ويطفن بالليل متنكرات ومعتزلات عن الرجال بينما عامة النساء يطفن بالليل والنهار ويستلمن الحجر الأسود إذا تيسر لهن ذلك ويخالطن الرجال خلال مناسك الحج، مع العلم أن حجة النبى صلى الله عليه وسلم كانت سنة ٩هـ. الدليل الثامن: كرائم الصحابيات يلْقَينَ الرجال دون حجاب، أى دون ساتر يفصل بين الرجال والنساء...

من أقوال الفقهاء فى خصوصية الحجاب بنساء النبى صلى الله عليه وسلم: ١- قال أبو داود بعد إيراده قول رسول الله لزوجتيه أم سلمة وميمونة عند دخول بن أم مكتوم: "احتجبا منه. أفعمياوان أنتما؟": وهذه لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم خاصة. ألا ترى اعتداد فاطمة بنت قيس عند ابن أم مكتوم؟ وقد قال النبى لفاطمة: اعتدِّى عند بن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده. ٢- قال الأثرم: قلت لأبى عبد الله (يعنى الإمام أحمد بن حنبل): كأن حديث نبهان: "أفعمياوان أنتما؟" لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم خاصة، وحديث فاطمة بنت قيس: "اعتدِّى عند بن أم مكتوم" لسائر الناس؟ قال: نعم. ٣- قال ابن قتيبة: ونحن نقول إن الله عز وجل أمر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بالاحتجاب إذ أمرنا ألا نكلمهن إلا من وراء حجاب فقال: "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ"... وهذه خاصة لأزواج رسول الله كما خُصِصْن بتحريم النكاح على جميع المسلمين. ٤- أورد النووى فى شرحه لـ"صحيح مسلم" قول القاضى عياض: فَرْض الحجاب مما اختص به أزواج النبى صلى الله عليه وسلم. فهو فرض عليهن بلا خلاف فى الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشفٌ لشهادة ولاغيرها، ولا يجوز لهن إظهار أشخاصهن، وإن كن مستترات، إلا ما دعت إليه

الضرورة من الخروج للبراز. وقد كن إذا قعدن للناس جلسن من وراء حجاب، وإذا خرجن حجبن وسترن أشخاصهن. ولما توفيت زينب رضى الله عنها جعلوا لها قبة فوق نعشها تستر شخصها... ٥- المهلب: ... الحجاب إنما هو فى حق أزواج النبى صلى الله عليه وسلم خاصة. ٦- قال ابن بطال: ... إن نساء المؤمنين ليس عليهن من الحجاب ما يلزم أزواج النبى صلى الله عليه وسلم. ٧- قال القرطبى تعليقا على حديث "أفعمياوان أنتما؟": ... هذا الحديث لايصح عند أهل النقل لأن راويه عن أم سلمة نبهان مولاها، وهو ممن لا يحتج بحديثه. وعلى تقدير صحته فإن ذلك منه عليه السلام تغليظ على أزواجه لحرمتهن كما غلظ عليهن أمر الحجاب كما أشار اليه أبو داود وغيره من الأئمة. ٨- عَنْ مُجَاهِدٍ، رَضِى اللَّهُ عَنْهُ، فِى قَوْلِهِ: "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا" قَالَ: أَزْوَاجُ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عَلَيهِنَّ الْحِجَابُ. ٩- أخرج الطبرى عن قتادة فى قوله: "يأَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيوتَ النَّبِى" إلى قوله: "غَيرَ نَاظِرِينَ إِنَاه" قال: غير متحينين طعامه، ولكن اذا دُعِيتُم فادخلوا، فاذا طَعِمْتُم فانتشروا. قال: كان هذا فى بيت أم سلمة رضى الله عنها. أكلوا ثم أطالوا الحديث، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يخرج ويدخل ويستحى منهم، والله لا يستحى من الحق. "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ". قال: بلغنا أنهن أُمِرْن بالحجاب عند ذلك. "لا جُنَاحَ عَلَيهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ" قال: فرُخِّص لهن ألا يحتجبن من هؤلاء... ١٥- قال الطاهر بن عاشور: وهذه الآية هى شارعة حكم حجاب أمهات المؤمنين، وقد قيل: إنها نزلت فى ذى القعدة سنة خمس.

وبهذه الآية مع الآية التى تقدمتها من قوله: "يا نساء النبى، لستنَّ كأحدٍ من النساء" تحقق معنى الحجاب لأمهات المؤمنين المركَّب من ملازمتهن بيوتهن وعدم ظهور شىء من ذواتهن حتى الوجه والكفين. وهو حجاب خاص بهن لا يجب على غيرهن. وكان المسلمون يقتدون بأمهات المؤمنين وَرَعًا. وهم متفاوتون فى ذلك على حسب العادات...

ونضيف هنا أنه لو كان الاحتجاب الدائم فضيلة تميز مجتمع المسلمين لاتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الترتيبات التى تحقق هذه الفضيلة، مثل وضع ساتر بين صفوف الرجال وصفوف النساء فى المسجد. تخصيص مكان بعيد عن مجلس الرجال لاستفتاء النساء وعرض قضاياهن على رسول الله صلى الله عليه وسلم. تخصيص وقت لطواف الرجال وآخر لطواف النساء. وأخيرا لو كان الحجاب فضيلة ومكرمة لعامة النساء لما رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو لأم حرام أن تخرج مع المجاهدين فى البحر وتنال الشهادة فى سبيل الله.

والخلاصة أن المرأة المسلمة عندما تتحجب احتجابا دائما يكون ذلك محاولة منها لمشاركة نساء النبى صلى الله عليه وسلم فى ميزة لهن وتطاولا منها إلى مقام أمهات المؤمنين، والله تعالى يقول فى حقهن: "يا نساء النبى، لستن كأحد من النساء". ولا بد أن نفرق بين حكم التزام الحجاب والامتناع عن الزواج بعد وفاة الزوج بصفة دائمة اقتداءً بنساء النبى صلى الله عليه وسلم، وبين حكم الاحتجاب والترمل فى ظرف ما لمصلحة ما. ذلك لأن الأمر الأول فيه اعتداء على شرع الله حيث أوجبنا ما لم يوجَب وحرمنا ما لم يحَرَّم، أو حيث ندبنا أنفسنا لما لم يندبنا إليه وكرهنا ما لم يكره لنا. أما الأمر الثانى ففيه إعمال لشرع الله. وهو داخل فى دائرة المباح الذى وسع الله علينا فيه: نأخذ منه وندع دون حرج، ونختار حسب ما نرى من مصلحة فى كل ظرف من الظروف...".

وفى نقد الكتاب المذكور يقول الخراشى مثلا، وهو عالم سعودى: "يقول أبو شقة (١٦/٢): "إن لقاء النساء والرجال بآدابه الشرعية هو ما يمكن أن نطلق عليه حسب التعبير الشائع الآن: "الاختلاط المشروع"، وهو ظاهرة صحية"! ولا أدرى كيف تعامى أبو شقة عن الأدلة الكثيرة التى هى فى الكتاب وفى "الصحيحين" تحرم الاختلاط الذى يدعو إليه ومن يتابعه من المستنيرين. ومن ذلك قوله تعالى: "وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن". وإن زعم أن هذه الآية خاصة بزوجات النبى صلى الله عليه وسلم فقد أوقع نفسه فى زلة عظيمة، إذ كيف تكون زوجاته صلى الله عليه وسلم محتاجات لهذا الحجاب لطهارة قلوبهن، ولا يحتاجه غيرهن من النساء؟ وهل هذا إلا دليل على تفضيل النساء الأخريات على زوجاته صلى الله عليه وسلم؟ فهل يقول بهذا أبو شقة ومن معه؟ ثم إنه من المعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومن الأدلة الصريحة على تحريم الاختلاط الذى يدعو إليه أبو شقة وأحزابه حديث أبى أسيد مالك بن ربيعة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق: "استأخرن، فليس لكن أن تحققن الطريق. عليكن بحافات الطريق". أخرجه أبو داود بسند صحيح. ومعنى "تحققن" أى تتوسطن. وقد كان من سنته صلى الله عليه وسلم أنه يمكث قليلا عند انتهاء الصلاة هو وأصحابه حتى تذهب النساء. أخرجه البخارى. قال الحافظ ابن حجر فى "الفتح" (٣٣٦/٢): "وفى الحديث كراهة مخالطة الرجال للنساء فى الطرقات فضلا عن البيوت". والعاقل لو تأمل لعلم أنه ليس هناك شىء اسمه: "اختلاط مشروع، وآخر غير مشروع"

كما يتوهم أبو شقة ومن معه مهما جعل له من الضوابط الموهومة التى لا حقيقة لها على أرض الواقع، بل يدرك سذاجتها وسخفها عامة الناس قبل علمائهم.

٢-من انحرافاته فى كتابه أنه، كما سبق، يضخم ويهول من دلالة بعض الأحاديث ويلويها لتدل على أمور عظيمة لا يقول بها مسلم يعظم شرع الله. أ- ومن أمثلة ذلك ما ذكره فى كتابه (٢/٦٥) تعليقا على حديث أمره صلى الله عليه وسلم أن يحضر النساء والفتيات والحُيض صلاة العيد ليشهدن الخير ودعوة المسلمين، بعد أن ذكر هذا الحديث ضمن أحاديث "الترويح" قال: "نعم يخرجن لأن الأمر ليس أمر صلاة وحسب. إنما هو احتفال إسلامى كبير يقام فى مكان فسيح يتسع لأكبر عدد ممكن من أهل المدينة"! فالأمر عند أبى شقة ليس أمر صلاة كما هو عند المسلمين. إنما هو ترويح واحتفالات! بل لا تستغرب إن قال: حضور مباريات ومهرجانات رياضية وفنية! فكلامه تمهيد لمثل هذه الأمور. نعوذ بالله من مرض القلوب. ب-ومن أمثلة ذلك أيضا أنه جاء إلى حديث رؤية عائشة وهى فى بيتها، وبيتها يطل على المسجد، والنبى يسترها، إلى الحبشة وهم يلعبون بالحراب، جاء إلى هذا الحديث وطوَّعه لهواه قائلا (٢/٦٥): "نحسب أنه من الطبيعى أن يكون بعض فتيات ونساء المدينة قد شاهدن تلك الألعاب"! واستنبط بعقله وخياله الواسع: "هل يبعد، والأمر كذلك، أن يصل إلى سمع بعض نساء المؤمنين خبر هذا اللعب؟ وهل يبعد، وقد وصلهم الخبر، أن يسعين للنظر إلى لعب الأحباش ويشتركن فى هذا الاحتفال الكبير؟"! فانظر كيف أقام الخيالات والأحكام على نظر عائشة إلى الحبشة من نافذة بيتها المطل بالمسجد، والنبى مع ذلك يسترها! جـ- اختار أبو شقة للمرأة أن تكون عاملة نظافة! (٣٤٧/٢) محتجا بحديث المرأة السوداء التى كانت تنظف مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهى متسترة، تطوعا واحتسابا.

٣- اختار للنساء أن تستقبل إحداهن فى بيتها "العمال الذين يقدمون لإصلاح أو صيانة بعض أدوات المنزل" (٢/٧٠). ولا أدرى أين ذهبت أحاديث تحريم الخلوة بالأجنبية. ٤-اختار للرجل أن يصافح النساء (٢/٩٢-٩٣) رغم أنه قد ذكر حديث "لأن يطْعَن فى رأس أحدكم بمِخْيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له" وحديث "لا أمس أيدى النساء"! ولكنه تأولهما وألغى دلالتهما كشيخه القرضاوى. نعوذ بالله من مُشَاقّة رسوله صلى الله عليه وسلم.

٥- ومن أعجب اختيارات الرجل اختياره (٢/٢٥٨) جواز أن تفلى المرأة رأس الضيف! واسمع قوله متعجبا: "إن هذا المستوى من الرعاية الحانية وما يتخلله من قرب ولمس للبدن مشروع ما

دامت الفتنة مأمونة. ولا تؤمن الفتنة هنا عادة إلا فى حالات خاصة كما هو واضح من النصوص. وهذه الحالات تندرج تحت ظاهرة اجتماعية مشهودة تعين على أمن الفتنة وتشجع على قبول هذا المستوى من الرعاية الحانية. هذه الظاهرة تشير إلى أن طول العشرة بين المسلمين الصالحين تولد فى نفوس المتعاشرين مشاعر خاصة نبيلة تَضْمُرُ معها الشهوة. وما كان لهذه المشاعر أن تولد لولا طول العشرة... ومع هذه المشاعر تخف الشهوة الفطرية نحو الجنس الآخر حتى تكاد أن تنمحى"! قلت: فلا أدرى هل يقول بهذا من يتابع أبا شقة ويثنى على كتابه؟ قد يقال: إن الرجل احتج بحديث أم حرام التى كانت تفلى رأس النبى صلى الله عليه وسلم، وهو فى "البخارى"، فأقول: قال النووى فى "شرح مسلم" (١٣/٥٧): "اتفق العلماء على أنها كانت مَحْرَمًا له صلى الله عليه وسلم"! فهل غاب هذا الاتفاق عن أبى شقة حتى ذهب يتصيد من الأقوال الشاذة ما يحلل به ما حرم الله اتباعا لهواه وتساهله فى أمر النساء والغيرة؟ ويشهد لهذا الاتفاق ما سبق من النصوص الصريحة فى عدم جواز مس المرأة.

٦- اختار أبو شقة للنساء أن يعملن "مضيفات"! (٣٤٨/٢) متجاهلا أحاديث تحريم سفر المرأة إلا مع ذى محرم. وهى فى "الصحيحين"، أى على شرطه! ٧- أما فى أمور السياسة فقد توسع أبو شقة توسعا فاحشا كشيخه القرضاوى "ففرض" على المرأة حق الانتخاب (٤٤٢/٢)، و"فرض" عليها (٤٤٣/٢) الانضمام إلى الأحزاب والقوى السياسية! ولا أدرى إلى ماذا تدعو هذه الأحزاب والقوى؟ إن كانت تدعو إلى حكم الإسلام فما بالها أصبحت "أحزابا" ولم تصبح "حزبا" واحدا كما أراد الله؟ و"فرض" عليها أبو شقة (٤٤٥/٢) المشاركة فى التعبير عن الرأى فى القضايا العامة سواء بالكتابة أو التظاهر أو الإضراب! و"فرض" عليها (٤٤٦/٢) قبول الترشيح للمجالس النيابية! ثم نقل عن شيخه القرضاوى ما يؤيد به مفاسده السابقة ليبوء الاثنان بإثم من يتابعهما من النسوة المغرَّر بهن.

٨- لكى يهون أبو شقة معصية "الاختلاط"، ولكى يشجع المرأة ويغريها على ملاقاة الرجال قال، وبئس ما قال (٢١/٣): "نحب أيضا أن نلفت الانتباه إلى أهمية دور الإلف والعادة فى الصلات الاجتماعية، فإن الإلف يعين على تخفيف الحساسية عند رؤية الجنس الآخر. وذلك مما يجعل الأمر هينا نوعا عند الطرفين. فالمرأة إذا لم تتعود وتألف لقاء الرجال فلابد أنها تشعر بحساسية وحرج بالغ إذا دعت الحاجة إلى لقاء الرجال، وسيشعر بالحرج أيضا زوجها أو أبوها أو أخوها. وعندها يفضل الجميع، دفعا للحرج، التضحية بالحاجة وما وراءها من خير مهما كانت أهمية تلك الحاجة، ومهما كان قدر الخير الذى وراءها سواء للمرأة أو للمجتمع. وكذلك الحال مع الرجال. فالذى تعود منهم وألف

لقاء النساء والاجتماع بهن عند الحاجة بين حين وآخر لن يحس فى دخيلة نفسه ما يمكن أن يحسه رجل آخر لم يألف ذلك، ثم دعته الحاجة إلى لقاء النساء". قلت: صدق الله إذ يقول: "ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما".

٩- اعترف أبو شقة على استحياء بأن لقاء المرأة بالرجال قد يحدث ميلا للجنس الآخر لا مفك من ذلك. ولكنه هوّن من هذا الأمر وعده أمرا فطريا لا حرج منه! يقول أبو شقة (٥٤/٣): "إن قدرا من الميل والأنس والاستراحة للحديث والكلام يحدث عادة بصورة عفوية نتيجة لقاء الرجل المرأة. أى أنه يحدث دون قصد لأنه أمر فطرى ابتلى الله به بنى الإنسان. فإذا لم يسترسل كل منهما فى مشاعر الميل والأنس وشغلهما الأمر الجاد الذى التقيا من أجله، عندئذ فلا حرج على المؤمن والمؤمنة، ولكن عليهما ضبط مشاعرهما وتوجيه اهتمامهما إلى تحقيق الهدف من المشاركة واللقاء"! قلت: ولا أدرى ما هو هذا الأمر الجاد الذى التقيا عليه!

١٠- يسخر أبو شقة كثيرا فى كتابه من الحجاب الذى أمر الله به النساء، ويحاول كغيره من مثيرى الفتن أن ينفرهن منه. وكفى بهذه السخرية بأحكام الله وشرائعه إثما مبينا. يقول أبو شقة (٢٠٣/٣) بأن المسرفين "ألزموا المرأة بستر وجهها دائما، وفى ذلك تضييق على ما منحها الله من قوة الإبصار وتضييق حريتها فى تنفس الهواء"! قلت: تأمل قوله: "دائما"! والذى يعرفه كل مسلم أن المرأة لا تستر وجهها إلا عند الرجال الأجانب، وهذا الأمر لمن تأمله لا يمثل سوى جزءٍ يسير من حياتها، فكيف يكون "دائما"؟ ثم، وهذه هى الطامة، أنت تقر فى (٢٩٥/٤) بأن نساء النبى صلى الله عليه وسلم من الواجب عليهن تغطية وجوههن، وهو إجماع، فيلزمك أن تقول بأن الله قد "ضيق عليهن قوة الإبصار التى منحهن وتنفس الهواء"؟ ألا ما أعظمه من قول!

١١- هون أبو شقة كثيرا من أمر غيرة المؤمنين على محارمهم ولامهم على ذلك، وأحاله إلى "مزاجهم الشخصى"! يقول أبو شقة (٢٠٧/٣): "زاد طغيان الغيرة حتى وصل الأمر فى بعض المجتمعات المسلمة إلى أن يغار الرجل من مجرد رؤية الناس وجه أمه أو أخته أو زوجه"!

١٢- تابع أبو شقة الألبانى فى اختياره للمرأة أن تكشف وجهها أمام الأجانب. إلا أنه لم يرضه رأى الألبانى بل زاد عليه انحرافا وألغى بعض شروط الحجاب الشرعى التى ذكرها الألبانى بأدلتها لأنها لم توافق هواه. وتوضيح ذلك أن الألبانى جعل للحجاب الشرعى هذه الشروط: استيعاب جميع

البدن إلا ما استثنى. ألا يكون زينة فى نفسه. أن يكون صفيقا لا يشف. أن يكون فضفاضا غير ضيق. ألا يكون مبخرا مطيبا. ألا يشبه لباس الرجل. ألا يشبه لباس الكافرات. ألا يكون لباس شهرة.

أما أبو شقة (٣٠/٤) فاختزل هذه الشروط فى خمسة، وهى: "ستر جميع البدن عدا الوجه والكفين والقدمين. التزام الاعتدال فى زينة الثياب والوجه والكفين والقدمين. أن يكون اللباس والزينة مما تعارف عليه مجتمع المسلمين. أن يكون اللباس مخالفا فى مجموعه للباس الرجال. أن يكون اللباس مخالفا فى مجموعه لما تتميز به الكافرات". فليته إذ اختار كشف الوجه التزم بالشروط الأخرى للحجاب القائمة على الأدلة، ولم يخترع شروطا من عنده ليضل بها النساء ويفتن بها أبناء المجتمع. فمعنى قوله أن للمرأة أن تلبس الثياب الشفافة والثياب الضيقة والثياب المطيبة أمام الرجال لأنه حذف جميع هذه الشروط! وقد صرح ببعض هذا (٧٧/٤) بقوله: "لا حرج على المرأة أن تلبس ما يصف بعض أعضائها ذات العظام البارزة كالرأس والكتفين والقدمين والكعبين وما جاورهما من أسافل الساقين"!

١٣ - ليت أبا شقة، عندما اختار كشف وجه المرأة، اكتفى بأدلة الألبانى، ولم يتحفنا بخيالاته الواسعة واستنباطاته العجيبة! ومن ذلك قوله (١٠٣/٤) تعليقا على حديث فاطمة بنت قيس التى أمرها النبى صلى الله عليه وسلم أن تعتدَّ فى بيت ابن أم مكتوم: "وبالتأمل يبدو أن المرأة جاءت سافرة الوجه، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من جمالها ما جعله يعجل بترشيحها لتكون لِحِبِّه أسامة بن زيد"! فالرجل "تخيل" ثم "حكم"! ومثله قوله تعليقا على حديث المرأة التى مر عليها النبى صلى الله عليه وسلم وهى تبكى عند قبر ولدها (١١٧/٤): "والظاهر أنه إنما عرفها من سفور وجهها"! ومثله قوله تعليقا على حديث "من نذرت أن تحج صامتة" (١١٩/٤): "نحسب أن المرأة كانت سافرة الوجه، ورآها الصديق صامتة"! ومثله قوله تعليقا على استفتاء إحدى النساء لعمر رضى الله عنه (١١٩/٤): "نحسب أنه، أى الراوى، عرف ذلك، أى أنها شابة، بسبب سفور وجهها"! إلى غير هذا من الاستنباطات العجيبة القائمة على خيال واسع لم يحظ به أحدٌ من العلماء!

١٤ - يقول أبو شقة (١٥٢/٤) مروجا لكشف الوجه بين المسلمات: "كشف الوجه يعين على تعارف الأقارب وذوى الأرحام وتواصلهم: فيتعرف الشاب على بنات الأعمام والعمات والأخوال والخالات، وتتعرف الفتاة على أبناء أعمامها وعماتها وأخوالها وخالاتها. وأيضا يتعرف الشاب على زوجات الأعمام والأخوال، وتتعرف الفتاة على أزواج العمات والخالات، وكذلك يتعرف الرجل على أخوات زوجته وتتعرف المرأة على إخوة زوجها. أما إذا عم ستر الوجه وتبعه الاحتجاب من كل

الرجال غير المحارم فكيف يتواصل ويتوادّ الأقارب وذوو الأرحام؟ كيف يعُود بعضهم بعضا عند المرض؟ كيف يودع بعضهم بعضا أو يستقبل بعضهم بعضا عند السفر؟ هل يذهب الرجل ليصل ابنة عمه أو خاله المتزوجة فيلقى زوجها ويجالسه ويتبادل معه المشاعر النبيلة، ولا يلقى ابنة خاله، وهى المقصودة بالزيارة والصلة والمودة؟"! وكأن المقصود بصلة الرحم عند أبى شقة هو تأمل وجوه الأجنبيات ليتحقق ذلك! أما السلام والسؤال عن الحال فلا يكفى!

١٥- ويستمر أبو شقة فى ترويج "سفوره" بين نساء المسلمين، ولكنْ هذه المرة بكذبة كبرى لا تخفى على أحد. يقول (١٥٦/٤): "إنه مع كشف الوجه يظل الإنسان، سواء أكان قويا أو ضعيفا، مرتبطا من حيث الشهوة بالجنس الآخر. أى يظل الميل الفطرى الذى خلقه الله يجرى فى مجراه الطبيعى ولا ينحرف هذا الميل إلى الجنس نفسه. وإذا كان الأقوياء مع المجاهدة يكونون فى الحالين فى أمان من الزلل فهم قلة عادة، والكثرة هم الضعفاء. وهؤلاء فى حال كشف الوجه قد يقعون فى شىء من اللمم، وقد يصل الأمر إلى فعل الفاحشة فى أحيان قليلة، لكنهم يظلون مع الفطرة دائما. أما فى حال ستر الوجه حيث تسد كل السبل لرؤية الجنس الآخر فإنهم يتجهون غالبا إلى الجنس نفسه، إذ كل السبل مفتوحة دون قيود. وهذا أمر مشاهد معروف فى عصرنا وفى كل العصور. وقد أدركت ذلك بنفسى، فقد خالطت نوعين من المجتمعات: أولهما، حيث المرأة مكشوفة الوجه وتشارك بأقدار فى الحياة الاجتماعية، كان عدد الشباب المنحرف إلى الجنس نفسه قلة نادرة. وثانيهما، حيث المرأة ساترة الوجه منعزلة تماما عن مجتمع الرجال، كانت كثرة من الشباب منحرفة إلى الجنس نفسه"! قلت: تأمل هذه الفرية ما أعظمها! فلا أدرى كيف يستغفل أبو شقة قارئه ويدغدغ عواطفه بهذه الأكاذيب؟ وإلا فإنه يعلم، وأصبح الجميع يعلم ولله الحمد، أن المجتمعات الإباحية التى لا تكتفى بكشف الوجه فقط ينتشر بينها الشذوذ أكثر من غيرها حتى إنها اضطرت إلى أن تسن قوانين وشرائع لهذا الشذوذ. ومن أراد أن يعرف شيئا عن الأرقام والحقائق المروعة التى يعيشها الغرب فليرجع إلى كتب محمد رشيد العويد، وكتاب "عندما اعترفت أمريكا بالحقيقة" ترجمة الدكتور محمد البشر، وغيرها من الكتب والمجلات التى كشفت هذا الأمر. بل لو قيل بأن السفور والإباحية هما سبب الشذوذ لكان هذا القول أولى بالقبول لأن الرجال يكونون قد ملوا من النساء ورؤيتهن حتى ثملوا، فلجأوا إلى غيرهن. وما مجتمع قوم لوط عنا ببعيد. ولكنها الأكاذيب والأضحوكات لترويج السفور ونشر الفتنة. نسأل الله العافية.

تناقضات أبى شقة: من الأمور المستقرة عند العلماء أنه ما من إنسان يأتى بقول مخالف للكتاب والسنة إلا وتجد التناقضات فى قوله ذاك، فهذه سنة مطردة فى كل من خالف الحق... وهذا ما وجدته فى كتاب أبى شقة مصداقا لذلك الأمر المستقر والسنة المطردة. وإليك شيئا منه: التناقض الأول أنه، كما سبق، قرر بأن الاختلاط "المشروع!" وكثرة لقاء المرأة بالرجل يزيل الحرج عنهما ويجعل الأمر عاديا لا فتنة فيه... إلخ. ثم تجده (٣٣/٣) يعلق على حديث "خير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها"، الذى أحرجه به علماء الأمة ممن ينكر الاختلاط، يعلق بقوله: "ابتعاد النساء عن الرجال مما يعين على خلوص القلب للعبادة والذكر"! فنقول: كيف يكون الاختلاط فى خارج العبادة مرغَّبا فيه ولا يثير شيئا، وأما فى العبادة فإنه يشغل الإنسان بالوساوس والخطرات؟! كان العكس أولى، ولكنه التناقض. التناقض الثانى أنه فى (٦٦/٤-٧٠) ذكر نصوصا تفيد وجوب ستر ساقى المرأة، فاختار أن المرأة تستر سوقها لا أقدامها! ثم ذكر فى (٧١/٤) حديث أم سلمة المشهور: "من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة"، فقالت أم سلمة: فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال: "يرخينه شبرا". فقالت: إذن تنكشف أقدامهن؟ قال: "فيرخينه ذراعا لا يزدن عليه". فلما رأى أنه يخالف رأيه المنكوس قال: "هذه الأحاديث تشير إلى ستر القدمين. ولكن إذا تأملناها فى ضوء حديث هاجر وأسماء اللذين سبق ذكرهما تبينا أن المقصود ستر ما فوق القدمين من أسافل الساقين"! فتأمل هذا التناقض والفقه العجيب! الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجه أم سلمة من أفصح العرب، وهى تقول له "إذن تنكشف أقدامهن"، وأبو شقة يقول: بل ما فوق أقدامهن! والغريب أن ذراعا من الثياب يسْحَب على الأرض لا يستر أسفل الساقين عند أبى شقة! التناقض الثالث أنه يتبجح فى مقدمة كتابه بأنه سيعتمد على نصوص "الصحيحين" فقط، وأنه يدعو إلى "أن تكون الفتوى مصحوبة بالدليل من كتاب أو سنة" (٥٠/١)، ثم تجده فى (٧٧٢/٤) عند اختياره جواز أن تلبس المرأة ما يصف حجم بعض أعضائها كما سبق يقول مستدلا: "إن عامة الصالحات من نساء الأتراك فى عصرنا يبدو شيء من أسافل سوقهن مما يلى الكعبين، لكنه مغطى بجوارب سميكة، وذلك دون إنكار من العلماء"! فأين الدليل من الكتاب والسنة؟ التناقض الرابع أنه يقول فى (٢٩٥/٤): "نحن لا ننكر وقوع ستر الوجه بنقاب من بعض المؤمنات على عهد النبى صلى الله عليه وسلم"، ثم تراه، كما سبق، يسخر من الحجاب وستر الوجه وأنه يمنع المرأة من التنفس! فلا أدرى أأنت أرفق بالنساء من رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذى، بحسب اعترافك، قد أقر المؤمنات

على تغطية الوجه؟! لا مفر لك إلا أن تعترف بتناقضك أو أن تصرح بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد أقر المرأة على العنت والظلم لنفسها!".

خصصت الكاتبة الأمريكية فصلا كاملا للسيدة عائشة رضى الله عنها بعنوان " The Little Rosy One: الحُمَيرَاء" بدأته بإظهار الإعجاب الكبير بثقافتها وإحساسها بذاتها وتعمقها فى الدين وأستاذيتها لعدد من الصحابة والتابعين، ناقلة عنها اعتزازها بأنها الوحيدة بين نساء النبى التى نزل الوحى عليه وهو فى بيتها. كما أشارت إلى عصبية مزاجها قائلة إنها تسابَّتْ هى وصفية بنت حُيىّ أم المؤمنين، إذ سَبَّتْ أبا صفية، فرَدَّتْ صفية بسب أبى بكر بدورها. كما وصفتها صحفيتنا الأمريكية بأنها قد تزوجت النبى صغيرة فى التاسعة أو العاشرة من عمرها، وأنها كانت ضد التقليل من شأن المرأة. فهذه أربعة أمور أثارتها كارلا باور: فأما تزوج السيدة عائشة رضى الله عنها النبى عليه السلام وعندها تسع سنين، وهو ما أخبرتنا الكاتبة بشعورها بالاشمئزاز فى البداية حين قرأته، فقد اختلفت حول ذلك الآراء: فمن العلماء المسلمين من قَبِل هذا الكلام، ومنهم من ارتفع بعمرها عند دخول النبى بها إلى ١٤ عاما أو نحو ذلك كالعقاد فى كتابه: "الصديقة بنت الصديق"، ومنهم من تأخر بعمرها عند الدخول إلى حوالى العشرين كما هو الحال فيما كتبه د. شوقى ضيف فى "سيرة خاتم المرسلين". ولكلٍّ أدلته ووجهة نظره. وقد ارتأى عدد من الكتاب الغربيين أن زواج الفتيات فى سن صغيرة فى البيئة العربية فى ذلك الوقت كان أمرا اعتياديا ليس فيه أية مؤاخذة، وأن الفتاة الصغيرة آنذاك من الممكن جدا أن تكون زوجة صالحة ناضجة بما فيه الكفاية.

وأيا ما يكن الوضع فقد كانت أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، رضى الله عنها وأرضاها، مخطوبة قبل ذلك إلى جُبَير بن مطعِم بن عَدِىّ. أى أنها كانت على وشك الزواج منه. وهذا يدل على أن الرسول لم يأت أمرا جديدا، فضلا عن أن يكون غريبا على عائشة وأهلها أو على المجتمع العربى فى ذلك الحين. كما أن أبا بكر هو من استعجل النبى بالدخول بها. ثم إن من اقترحها على النبى امرأة لا رجل، ومعنى هذا أنها كانت ناضجة للزواج حتى إن المرأة التى اقترحتها لم تجد فى ذلك ما يمكن أن يكون محل استغراب بَلْهَ انتقاد، كما أننا لم نسمع أحدا آنذاك لا من المؤمنين ولا من المنافقين ولا من اليهود أو النصارى إنكارا للأمر ولا بلغنا من كلامها هى صاحبة الشأن ما يمكن أن يشير إلى أنها كانت تعيسة أو مستنكرة لما حدث على عكس ما تقول كذبا شيرى جونز صاحبة رواية "The Jewel of Medina" على لسان عائشة وبعض من حولها من النسوة كأمها وأختها مثلا. وفوق هذا كان زواج النبى بها زواجا سعيدا موفقا تمام التوفيق، إذ كان كلا الزوجين يحب رفيق حياته حبا جما، ولم تتخط عائشة حدودها يوما

مع النبى لفارق السن بينهما، بل كانت تجله وتهابه وتعمل له ألف حساب وحساب رغم معرفتها بغلاوتها عنده وشعورها بجمالها وتدللها عليه فى الأوقات التى يحسن فيها التدلل. كما كانت، من فرط حبها له وهيامها به، تغار عليه أشد الغيرة حتى إنها، لما شعرت ذات ليلة بمغادرة الرسول الفراش وهو عندها فى ليلتها بعد أن ناما، قامت تتبعه فى الظلام خشية أن يكون قد ترك فراشها وذهب لواحدة أخرى من ضرائرها، ولم تشعر بالراحة إلا حين تيقنت أنه إنما ذهب للدعاء لموتى المسلمين فى البقيع. بل لقد بلغت بها الغيرة عليه ذات مرة أن تمنت لو نهشت قدمها عقرب حتى تستريح من بُرَحاء الغيرة على الرسول: "عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القرعة لعائشة وحفصة، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث، فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيرى وأركب بعيرك، تنظرين وأنظر؟ فقالت: بلى. فركبت، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى جمل عائشة، وعليه حفصة، فسلم عليها، ثم سار حتى نزلوا، وافتقدته عائشة. فلما نزلوا جعلت رجليها بين الإذخر وتقول: "يا رب، سَلِّطْ على عقربا أو حية تلدغنى"، ولا أستطيع أن أقول له شيئا". ومن الأحاديث التى تتحدث عن غيرتها العنيفة عليه الحديث التالى: "قالت: رجع إلى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ذاتَ يومٍ من جنازةٍ من البَقِيعِ، فوجدنى وأنا أَجِدُ صُدَاعًا، وأنا أقول: وا رَأْساهُ! قال: بل أنا، يا عائشة، وا رَأْساهُ. قال: وما ضَرَّكِ لو مِتِّ قَبْلِى، فغَسَّلْتُكِ وكَفَّنْتُكِ وصَلَّيتُ عليكِ ودَفَنْتُكِ؟ قلتُ: لكأنى بكَ واللهِ لو فَعَلْتَ ذلك لَرَجَعْتَ إلى بيتى فعَرَّسْتَ فيه ببعضِ نسائِك!". وكان النبى صلى الله عليه وسلم عندها ذات ليلة، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت عائشة يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبى صلى الله عليه وسلم فِلَق الصفحة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذى كان فى الصحفة، ويقول: غارت أمكم. كما تعترف بغيرتها الشديدة من خديجة المتوفاة رضى الله عنهما: "ما غِرْتُ على امرأة لرسول الله كما غِرْتُ على خديجة لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها وثنائه عليها".

وكان صلى الله عليه وسلم يحبها بدوره ويعتز بها ويقدر جمالها وذكاءها ويستطيب دلالها، لكن هذا كله لم يجرّئها عليه ولم يجعله يتنازل لها فى شىء من أمور الدين أو العرف الكريم كما صنع سليمان مثلا حسب رواية الكتاب المقدس إذ تزوج امرأة وثنية على خلاف أوامر الرب لبنى إسرائيل وتركها تعبد الأوثان فى بيته بل لقد أمر بصنع تلك الأوثان. ومن ذلك أنها، حين أَلْفَتْه ذات مرة يكثر من ذكر خديجة بعد وفاتها بأعوام ويعتز بذكراها وبكل من له صلة بها، ردت بناء على مقتضيات الفطرة النسوية

قائلة: "والله لقد أبدلك الله خيرا منها"، فكان جوابه شديدا غاية الشدة حتى لقد تركت هذا الموضوع فلم تفتحه بعد ذلك قط، إذ قال لها: "والله ما أبدلنى الله خيرا منها. لقد آمنتْ بى حين كفر الناس، وصدّقَتْنى حين كذّبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء". على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل تقبلتْ بإيمان تام، دون نَبْسَة شفة بل دون خَلْجَة من خلجات الشعور، تحريم القرآن لزواجها هى أو أية من أمهات المؤمنين بأحد بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد عاشت بعده عشرات السنين دون أن تفتح فمها بكلمة فى هذا الموضوع على أى نحو من الأنحاء رغم أنه لم يكن لها منه ولد يمكن أن يشغلها عن الزواج بعده صلى الله عليه وسلم ولا كانت كبيرة السن حتى يقال إنها برمت بالحياة الزوجية فلم تشأ أن تكرر التجربة بعده ولا ترك لها من المال والقصور ما يعوضها عن ذلك.

وهذا دليل عظيم على شدة حبها له صلى الله عليه وسلم خلافا للسفهاء الذى يثيرون هذا الموضوع كل حين متهميه صلى الله عليه وسلم بالفظاظة لزواجه من فتاة صغيرة. بل إن هناك دليلا آخر على استمرار شدة تعلقها به صلى الله عليه وسلم بعدما جربت العيش معه، وهو أن الوحى نزل يوما يخير نساء النبى بين البقاء معه على ما كن يعشنه فى بيته من شظف العيش أو مفارقته إلى حياة أرفه، ففضلن كلهن، بما فيهن بل على رأسهن عائشة، أن يبْقَينَ زوجات له. بل لقد كان لعائشة موقف مميز فى هذا الصدد، إذ عرض عليها النبى أن تستشير أبويها قبل القطع برأى فى هذا الموضوع، فرفضت رفضا باتا أن تؤخر إعطاء رأيها وأعلنت فى الحال أنها تتمسك به تمسكا وثيقا. وأظن هذا كفيلا وحده بقطع ألسنة المتنطعين السخفاء الذين يطنطنون بالزراية عليه لزواجه منها، وكأنه قد أخذها عَنْوَةً من أبويها أو خدعها بالمال يسكتها عن اعتراضها أو كان زوجا فظا كرهت العيشة معه بعدما بَلَتْهُ وعرفت حقيقته وتبين لها أنه لا يصلح لها أو تصلح له!

وهناك أدلة أخرى تبرهن على حبها له وسعادتها به ومعه، إذ كانت تسابقه فيسبقها مرة، وتسبقه أخرى، فيتندران بهذا التفاوت فى الحظوظ. ولو كانت نافرة منه ترى أن زواجها به بلاء تعيس لما كانت استجابت لمثل تلك التسلية ولأعرضت عنه وأظهرت تبرمها به أو اعتلّت بأية علة تريحها من التظاهر بالسعادة فى غير سعادة. بل لقد أتيحت لها ولأهلها فرصة للتراجع عن هذا الزواج، الذى لم يثمر ولدا أو بنتا تملأ عليها حياتها وبيتها، حين وقعت حادثة الإفك، وظهرت على النبى علامات الحيرة وتركها تذهب لبيت أهلها يمرضونها من تعبٍ ألـمَّ بها أوانذاك، ولم يتخذ موقف المدافع عنها قبل أن ينزل

الوحى بتبرئتها، وهو ما آلمها أشد الألم. ومع هذا فقد عادت عائشة إلى بيت الزوجية السعيد بعد أن انقشعت الغيمة السوداء التى كدرت الجميع. ترى أَلَوْ كانت تزوجته على غير إرادتها أكانت ترجع إليه بعد الذى حدث؟

وقد أثارت الصحفية الأمريكية هذه المسألة مرارا وألحت عليها وذكرت أن مستمعى محاضرات الشيخ من الشبان والشابات ظلوا يسألونه: كيف نشرح لغير المسلمين زواج عائشة فى تلك السن الصغيرة؟ وقد رد الشيخ، حسب كلامها، بأن الثقافات تختلف فيما بينها، وعلى كل أصحاب ثقافة أن يتفهموا وضع أصحاب الثقافات الأخرى. وقد أومأ فى هذا السياق إلى الزواج المبكر جدا فى أوربا قبل عدة قرون حين كان المجتمع زراعيا ولم يكن هناك تعليم جامعى ولا وظائف ينتظر الشبان والشابات الحصول عليها قبل أن يفكروا فى الزواج، وهو ما وافقته عليه، ولكنها كانت تريد منه أن يدين زواج الأطفال مطلقا. إلا أنها ظلت وراءه هى وطالبتان طبيبتان من طلابه يكررن على مسامعه ألوان الأذى الجسدى والنفسى الذى يصيب الفتيات الصغيرات إذا تزوجن قبل نضوجهن حتى سلَّم برأيهن وغير ما كان يقوله من قبل من أنه يكفى أن تكون البنت التى يراد تزويجها قد بلغت المحيض وألا تُكْرَه على الزواج ممن لا تريد. وأضيف بدورى أن الغربيين قد قننوا اللواط والسحاق ويمارسون كل ألوان الشذوذ، ويظنون أنه ليس من حق أحد أن يعقب على أوضاعهم المائلة هذه. فكيف نشغل أنفسنا بهم إلى هذا الحد؟ ولقد تزوج يوسف النجار من مريم حسبما يقول تاريخهم المقدس وقد بلغ الثمانين، بينما هى قد تخطت العاشرة بقليل. فليشرحوا لنا هذه أولا. كما انشغلتُ منذ بضعة عشر عاما بهذا الموضوع فوجدت أن الأمريكيات فى بدايات القرن العشرين كن يتزوجن فى سن قريبة من السن التى يقال إن عائشة تزوجت فيها. كذلك فإن كثيرا من جداتنا قد تزوجن فى مثل تلك السن الصغيرة.

وأذكر فى هذا السياق، وإن لم يكن متصلا بموضوعنا الحالى تمام الاتصال، أن مدرستى الأمريكية التى كانت تعطينى دروسا خصوصية فى اللغة الإنجليزية أول مقدمى إلى أكسفورد قد فتحت موضوع تعدد الزوجات معى ذات مرة، فسألتها بإنجليزيتى المضعضعة: أليس ذلك أفضل مما يصنعه كثير من رجالكم إذ يمارسون التعدد، ولكن فى الخفاء وفى قذارة وانحطاط؟ فخيانتهم لزوجاتهم معناها أنهم يجمعون بين أكثر من امرأة فى وقت واحد. أما نحن فنمارس ذلك علنا وفى نظافة ونقاء. فوافقتنى فى الحال، لم تعد إلى فتح الموضوع ثانية طيلة استمرار الصلة بيننا أنا وزوجتى وبينها هى ودوجلاس ولدها الظريف الحيى الذى كان مبعث شد وجذب بينها وبين صديقة مشتركة لنا أسكتلندية اسمها ماريان،

وهى سيدة كبيرة نوعا فى السن كانت تعيب على دوجلاس وضعه قرطا فى إحدى أذنيه، فكان هذا يؤلم أمه، التى ترى فى ذلك تدخلا مزعجا فى شؤون ابنها الوحيد من زوج سابق. ويمكننى أن أضيف كذلك أن القانون فى الغرب يسمح للولد والبنت أن يمارسا الجنس بحرية دون أى تثريب بعد السادسة عشرة، وأن كثيرا من الأولاد والبنات لا ينتظرون هذه السن بل يفعلون ما يحلو لهم قبل ذلك متى أرادوا، وكثيرا ما يريدون لأن ضغط الشهوة الجنسية عنيف، والمجتمع لا يعرف شيئا اسمه الحرام والحلال، ومن ثم لا يبالى كثير من الصبيان والصبايا بالقانون وتحكماته. وقد أشار د. ندوى إلى هذا بدوره وفضل عليه ألف مرة الزواج المبكر، الذى يضمن للطفل المولود فى تلك الحالة أبا وأسرة على العكس مما يحدث فى الغرب حيث تُتْرَك الأمهات الصغيرات دون آباء لأطفالهن يرْعَوْنهم ويفيضون عليهم الحنان.

وفى منتدى "أتباع المرسلين" قرأت المقال التالى لمن تلقب بـ"مسلم وأفتخر". وهأنذا أسوقه هنا مع حذف بعض العبارات القليلة التى لا تقدم ولا تؤخر. والمقال عبارة عن إيراد شبهة لشخص غير مسلم مع الرد عليها: "يدعى المسلمون أن زواج رسول الإسلام من عائشة و هى بعمر تسع سنوات كان زواجا مباحا لكون الفتيات فى المناطق الحارة من العالم يبلغن سن البلوغ بسرعة بسبب العوامل المناخية و العرقية... إلخ. يمكننا أن نوافق على تلك النقطة حيث إن العلم قام بإثباتها، ولكن السؤال الخطير هنا هو: ما هو الدليل على أن عائشة بلغت سن الزواج؟ فكون الفتيات يبلغن بسرعة فى تلك المنطقة، هذا لا يعنى أن كل الفتيات تنطبق عليهن نفس القاعدة، فربما تبلغ فتاة ولا تبلغ أخرى. ولكن ما الدليل على أن عائشة نفسها قد وصلت سن البلوغ؟ لقد حاول المسلمون بكل طاقتهم أن يدافعوا عن زواج رسول الإسلام من فتاة تبلغ من العمر تسع سنين عن طريق تبرير ذلك ببلوغ الفتيات سن البلوغ بسرعة، ولكنهم لم يجلبوا دليلا واحدا حتى على بلوغ عائشة سن الزواج، مما يعنى أن الاتهام لا يزال قائما".

وصاحب هذه الشبهة يظن أنه قد أخرس المسلمين وعلماءهم بكلامه هذا، فهو يتفق مع المسلمين فى نقطة البلوغ المبكر للفتيات القاطنات بالمناطق الحارة أو بسبب العوامل العرقية لأن العلم أثبت ذلك، و لكنه يطلب من المسلمين أن يجلبوا دليلا على بلوغ السيدة عائشة فى حد ذاتها، رضى الله عنها و أرضاها. ونقول لصاحب هذه الشبهة العقيمة: الدليل على بلوغ السيدة عائشة رضى الله عنها سن الزواج: قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: إذا بَلَغَتْ الْجَارِيةُ تِسْعَ سِنِينَ فَهِى امْرَأَةٌ. إذن من

الشرح أعلاه يتضح لنا أن السيدة عائشة، رضى الله عنها، قد بلغت سن النضج، وقد أدركت أنها تمر بتحولات البلوغ فى هذه المرحلة من العمر، فهى إذا امرأة بالغة مناسبة للزواج...

والآن بعد أن عرفنا بالأدلة العلمية ننتقل الى الأدلة العقلية. أولا: أن فكرة زواج النبى من عائشة لم تكن فكرته هو شخصيا، وإنما جاء الاقتراح عن طريق امرأة اسمها خولة بنت حكيم لتوكيد وتقوية الصلة مع أحب الناس الى النبى وأقربهم اليه، وهو سيدنا أبو بكر الصديق والد عائشة. فقيام امرأة باقتراح فكرة هذا الزواج دليل كافٍ على أن مثل ذلك الزواج كان مجاريا للعرف والعادات فى ذلك المجتمع وأن المرأة فى ذلك الزمن لم تكن ترى فيه انتهاكا لحقوقها أو سلبا لإرادتها كما تروج لذلك بعض الأقلام السامة. ثانيا: اذا كان هذا الزواج غريبا فلماذا لم يتخذه كفار قريش ذريعة ضد النبى لإثبات كذب نبوته؟ طبعا لأنه كان شيئا عاديا جدا ومتعارفا عليه فى ذلك الوقت. ثالثا: العباقرة والجهابذة الذين ينتقدون زواج النبى محمد بعائشة لماذا لا ينتقدون حالات كثيرة مماثلة فى عصره من زواج مبكر من كفار تزوجوا بفتيات فى سن مبكرة بل وسبقوا نبى الإسلام إلى ذلك؟ فاذا كان قصدهم نقد العلاقة بين رجل كهل وفتاة صغيرة فقد كان من الواجب عليهم أيضا الحديث عن حالات مماثلة حدثت فى عهد سيدنا محمد. و لكن الاسلام ونبيه هما المستهدَفان بالتشويه. رابعا: لا يمكن الحكم على زيجة مبكرة تمت منذ ١٤٠٠ سنة بقوانين القرن الحادى و العشرين لأنهم لم يعرفوا جزيرة العرب فى ذلك الزمان. والحكم على عادة مارسها مجتمع شرقى قبل أربعة عشر قرنا لن يكون دقيقا ومنصفا إذا صدر من الثقافة الغربية العلمانية فى القرن الحادى والعشرين لأنهم يصعب عليهم فهم وإدراك العقلية والمبادىء الشرقية والعربية فى القرن السادس بصورة كاملة ودقيقة، وذلك بسبب الفارق الزمنى الشاسع بين الحضارتين والفارق الفكرى والثقافى والجغرافى الكبير بينهما. خامسا: المستشرق الانجليزى بُودْلِى، بعدما زار الجزيرة العربية، عاد من زيارته يقول: "كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذى تنموه نساء العرب. ومثل هذا الزواج ما زال عادة آسيوية وشرق أوروبية، وكذلك كان طبيعيا فى إسبانيا والبرتغال حتى سنين قليلة".

الأدلة التاريخية: الزواج فى سن مبكرة كان موجودا فى أوروبا نفسها، ولا يوجد دليل أفضل على ذلك من زواج الملوك والحكام فى القرن الثانى عشر فى سن صغيرة من أجل إنشاء تحالفات تضمن استمرار السلام. وهكذا كانت الإمبراطورة الطفلة أنياس فى فرنسا زوجة لاثنين من الأباطرة البيزنطيين: الإمبراطور ألكسيوس كمننوس الثانى والإمبراطور أندرونيكوس كمننوس الأول على

التوالى. وحسب ويليام صور (William of Tyre) فإن أنياس كانت فى الثامنة من عمرها عند وصولها إلى القسطنطينية فى حين أن ألكسيوس كان قد بلغ ثلاثة عشر عاما. وبالإضافة إلى هذا فإن زوجة ألكسيوس كمننوس الأول كانت ابنة اثنتى عشر ربيعا عند زواجها وأصبحت إمبراطورة قبل أن تبلغ الخامسة عشرة، وأما أميرة بيزنطا ثيودورا زوجة مانويل فقد كانت فى الثالثة عشرة من عمرها عندما تزوجت بأمير القدس بلدوين الثالث، وتزوجت مارغريت ماريا هنجاريا من إيزاك أنجلوس الثانى فى عمر التاسعة.

لم يكن عمر أنياس فى ذلك العصر أمرا غير مألوف خاصة أنه كان من المتعارف عليه آنذاك أن يجتمع العريسان الجديدان فى القسطنطينية فى بيت الشريك ذى المكانة الاجتماعية العالية. ومع ذلك فقبل أن يكمل ألكسيوس عامه الثالث كإمبراطور نصب ابن عم أبيه أندرونيكوس نفسه إمبراطورا مشاركا (ولد سنة ١١١٨. أى أنه كان فى الخامسة والستين من العمر) وانتزع منصب ألكسيوس بالقوة ثم تزوج أنياس رغم الخمسين سنة التى كانت تفصل بينهما. وهذا يظْهِر بوضوح أن زواج الفتيات فى سن مبكرة برجال تجاوزوا الستين من العمر كانت عادة سائدة فى أوروبا بين الطبقات الحاكمة نفسها. فما بالك بعامة الشعب؟ لا شك إذن أنها كانت سائدة لدى عموم الناس فى أوروبا نفسها، وذلك بعد أكثر من خمسة قرون من زواج النبى محمد بعائشة.

الأدلة من كتب و رجال دين يهود و نصارى: الديانة اليهودية تسمح بزواج الطفلة عندما تتجاوز الثالثة بيوم واحد. يخبرنا التلمود بأن البنت تكون مهيأة للزواج وجاهزة للوطء فى سن ثلاث سنوات. وهو مباح لليهودى بشكل عام. فعلى سبيل المثال لا الحصر نقرأ فى التلمود، سانهدرين الصحيفة ٥٥ العمود ب، فى سياق يتكلم عن حد الزنى مع النساء والحيوانات وعن اللواط: "تعال اسمع! بنت ثلاث سنوات ويوم واحد، تُزَوَّج وتُجامَع". ٢- سفر "الملوك الأول"، الإصحاح الأول الفقرات ١-٣: "و شاخ الملك داود وتقدم فى الأيام، وكانوا يدثرونه بالثياب، فلم يدفأ، فقال له عبيده: ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء. فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع فى حضنك فيدفأ سيدنا الملك. ففتَّشوا على فتاة جميلة فى جميع تخوم إسرائيل فوجدوا أبيشج الشونمية فجاءوا بها إلى الملك". وكم يسهل الاستنتاج من هذا الاقتباس أن النبى داود فى عمر متقدمة جدا، بل هو شيخ هرم أصابه البرد، ولكن مع ذلك بحثوا له عن فتاة عذراء تصغره بعشرات السنين لتدفئه! والواضح أن هذه الآيات تحمل معانى جنسية، فهى تتحدث عن تدفئة النبى داوود بواسطة فتاة جميلة تحضنه وتضطجع فى حضنه ليدفأ حسب

تعبير الآيات! فلماذا لا ينظر المحرضون ضد الإسلام إلى هذا السلوك، ويعتبرونه اغتصابا وهوسا جنسيا؟ العذراء مريم تزوجت فى سن الثانية عشرة. والأدلة كثيرة جدا من كتب رجال الدين النصارى. استثنى الحاخامات لأنفسهم الوطء للبنات من الأمم دون سن الثلاث سنوات. فقد أتى لنا التلمود على لسان الحاخامات بأن الكتاب قد أحل للكهنة الوطء لمن هى دون الثلاث سنوات، واستشهدوا بنصوص سفر "العدد"/ ٣١ : ١٧ – ١٨، وفسروها كذلك. وعلى الرغم من أن نص سفر "العدد" يتكلم عن البنات المسبيات فإن الحاخامات أباحوا لأنفسهم بنات الأمم المتحولات لليهودية بشكل عام حتى وإن لم يكنَّ من سبايا الحروب. فنقرأ فى التلمود يڤاموت/ الصحيفة ٦٠ العمود ب: "قال الراباى شمعون بن يوحاى: المهتدية دون سن الثلاث سنوات ويوم واحد حلال للهكنوت (للكاهن) كما قيل: "وكل طفلة من النساء اللاتى لم يعرفن مضاجعة رجل ، أبقوهن حيات لكم". وبالتأكيد كان فنحاس معهم".

كما توجد مادة فى النسخة الإنجليزية من "ويكيبيديا" عنوانها: " List of youngest birth mothers" تذكر حالات من أرجاء العالم المختلفة كإنجلترا وروسيا وأوكرانيا وبلجيكا وأسبانيا وسويسرا والولايات المتحدة والهند والصين وماليزيا والفلبين وإيران والسنغال وناميبيا وجنوب أفريقيا وكولومبيا والأرجنتين والمكسيك والبرازيل وشيلى لبنات أنجبن فى الخامسة من أعمارهن فصاعدا. ويقول محمد كرد على فى آخر فقرة من الفصل المسمى: "غاياتى من سياحاتى" بالجزء الأول من "مذكراته" عن مشاهداته الأوربية فى العقود المبكرة من القرن الماضى: "للحرارة والبرودة والبعد من سمت الشمال والغرب من الجنوب دخل كبير فى تكوين الرجال والنساء. فالشابة فى بلاد الإنجليز لا تبلغ الحُلُم قبل الثامنة عشرة على حين ترى فى جنوبى إيطاليا جَدَّةً لا تتجاوز سنها الخامسة والعشرين". وقرأت فى باب "بلوغ الصبيان وشهادتهم" من "كتاب الشهادات" فى "صحيح البخارى": "قال الحسن بن صالح: أدركت جارةً لنا جدةً بنتَ إحدى وعشرين سنة".

أما استباب السيدة عائشة والسيدة صفية فقد ظننتُ فى البداية للوهلة الأولى أن صاحبة الكتاب تقصد ما كان يقوله بعض أمهات المؤمنين لصفية حين تدب الغيرة بينهن وبينها، إذ ينادينها قائلات: يا يهودية بنت يهوديين! لكنى وجدت العبارة الإنجليزية لا تعنى هذا بل تعنى بصريح القول أن عائشة سبت أبا صفية، فسبت صفية أباها ردا على ذلك. وقد استغربت هذا الخبر أشد الاستغراب، وبخاصة أنى لا أذكر أنى قابلته من قبل. ومع هذا فقد رحت أبحث عنه فى المظانّ المتخلفة، فلم أعثر عليه ولا

حتى بين الأحاديث الضعيفة فى موقع "الدرر السنية"، الذى يكاد يضم جميع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم وجدته أخيرا فى مقال بأحد المواقع الإسلامية استشهد به كاتبه ضمن ما استشهد به من أحاديث وروايات، مع وجود التعليق التالى عليه بالهامش: "هذا الحديث لم نجد له تخريجا فى الكتب التسعة". وهذا نصه: "عن ابن أَبِى عَوْن قال: قالت عائشة: كنت أستبّ أنا وصفية، فسببت أباها، فسبّت أبى، وسمعه رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، فقال: "يا صفية، تسبّين أبا بكر؟ يا صفية، تسبّين أبا بكر؟". وقد أكد هذا التعليق شعورى قبل ذلك تجاه هذه الحادثة، إذ إنى فى الواقع لا أستطيع أن أتقبل وقوع الاستباب بين الضَّرَّتَين الكريمتين على هذا النحو. فصفية لم تكن لتنسى إسلامها فتسب أبا بكر انتصارا لأبيها، الذى تركت دينه ولم ترافئه على عداوة رسول الله، بل أفشت له عليه السلام ما كان يكنه الأب والعم له ولدينه من عداوة وبغضاء ويدبران من مؤامراتٍ ضده عليه الصلاة والسلام. ومع ذلك لست أتصور أن الرسول، بافتراض حدوث التسابّ، يمكن أن ينحاز لعائشة ضد خصمتها، وهى البادئة بالسب، مهما يكن إعزازه للصِّدِّيق. فهذا ليس طبع النبى عليه السلام. كما أن صفية، حين تتحرش بها إحدى ضراتها جراء ما نعرفه من غيرة النساء، كانت تذهب فتشكو ذلك للنبى متألمة ولا ترد عليها بشىء. وأخيرا فإنى أستغرب سكوت د. أكرم ندوى على هذا الحديث الغريب.

ومع هذا كله فلا مناص من التنبيه إلى الفرق بين ما علقت به كارلا باور على الحادثة وما قالته مريم جميلة، وهى يهودية أمريكية مثلها، وكانت على صلة قوية بأبى الأعلى المودودى العالم الباكستانى المسلم مثلما أن كارلا باور على صلة قوية بأكرم ندوى العالم الهندى المسلم، وإن كانت مريم جميلة قد أسلمت بينما باور لم تسلم. ذلك أن جميلة، التى أسلمت قد نالت من السيدة حفصة حين قالت للسيدة صفية رضى الله عنهما: "يا يهودية بنت يهوديين"، إذ وصفتها بحدة الطبع وسلاطة اللسان، بينما اكتفت كارلا باور بإيراد رواية الاستباب دون أن تنال من عائشة أو حتى تنحاز إلى صفية. وقد قرأتُ ما قالته مريم جميلة فى كتابها: "Islam versus Ahlul-Kitab" حين كنت أقطن بلندن فى عامى الأخير فى بريطانيا (٨١- ١٩٨٢م) كنوع من التغيير بعد خمس سنوات قضيتها مقيما بأكسفورد حيث تقع جامعتى. وكنت استعرت الكتاب من أحد المساجد بشرق العاصمة البريطانية قريبا من مسكنى، وقد علقتُ تعليقات كثيرة عليه بقلم الرصاص مخالفا مؤلفته، وبخاصة فى تطالّها إلى الدخول بين اثنتين من زوجات النبى الذى خلَّفت ديانتها وراءها وآمنت به كما صنعت السيدة صفية رضوان الله عليها. لقد كان ينبغى أن تبقى على الحياد بين أُمَّيِ المؤمنين لا تنحاز لأية منهما، فضلا عن أن تتطاول عليها. إننى

أكبر السيدة صفية غاية الإكبار رضى الله عنها، بيد أنى أعرف عقارب الغيرة بين الضرائر وما يمكن أن تؤدى إليه. وقد انتصف النبى لها، فكان يجب على جميلة أن تبتعد. وهذا نص ما خطته فى كتابها المذكور:

"In the Mishkat-ul-Masabih there is a Hadith· where Anas reported that Hafsah (another of the Prophet's wives, the daughter of Hazrat Umar and noted for quick temper and sharp tongue), taunted Safi.ya because of her Jewish origin. When Safiya came to the Prophet weeping, he comforted her by saying, "You are certainly the daughter of a Prophet and now you are the wife of a Prophet so what has she toboast over you?" The Prophet then rebuked Hafsah and reminded her to fear Allah. (Tirmidhi, Nisai)".

وأما قول عائشة إنها زوجة الرسول الوحيدة التى نزل الوحى عليه فى فراشها ففى تصورى أنها تقصد به الزوجات اللاتى كانت تشاركهن الرسول ولا تدخل فيهن خديجة، وبخاصة أنها هى نفسها قد روت عنها هذا الحديث: "كانَ أَوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ منَ الوحى الرُّؤيا الصَّادقةَ فى النَّومِ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فلقِ الصُّبحِ، ثمَّ حُبِّبَ إليهِ الخلاءُ، فَكانَ يخلو بغارِ حراءٍ يتحنَّثُ فيهِ، وَهوَ التَّعبُّدُ، الليالى أُلَاتِ العددِ قبل أن يرجعَ إلى أهلِهِ، ويتزوَّدُ لذلِكَ ثمَّ يرجعُ إلى خديجةَ فيتزوَّدُ لمثلِها حتَّى فَجأَهُ الحقُّ وَهوَ فى غارِ حراءٍ... ". ففى هذا النص، على الأقل، نقرأ أنه كان يأتيه الوحى وهو نائم. وذلك بطبيعة الحال فى غرفة فراشه هو وخديجة.

كما أن قوله تعالى: "يا أيها المزمل" و"يا أيها المدثر" قد نزل عليه وهو نائم فى غرفة فراشهما أيضا كما هو واضح من النص، إذ كان مزملا ومدثرا فى الفراش فَرَقًا من أثر اللقاء الأول له مع الوحى فى غار حراء كما يقول الحديث التالى عن جابر بن عبد الله: "سأَلتُ أبا سلَمةَ: أى القرآنِ أُنْزِلَ قبلُ؟ قالَ: يا أيها المدَّثِّرُ. فقُلتُ: أَوِ "اقْرَأْ"؟ فقالَ: سألتُ جابرَ بنَ عبدِ اللَّهِ: أى القُرآنِ أُنْزِلَ قبلُ؟ قال: يا أيها المدَّثِّرُ. فقُلتُ: أو "اقرأ"؟ قالَ جابرٌ: أحدِّثُكُم ما حدَّثَنا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ، قالَ: "جاوَرتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا، فلمَّا قَضيتُ جِوارى نزَلتُ فاستَبطنتُ بطنَ الوادى، فَنُودِيتُ، فنظرتُ أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شِمالى، فلَمْ أرَ أحدًا، ثمَّ نوديتُ، فنظرتُ فلم أرَ أحدًا، ثمَّ نوديتُ، فرَفَعْتُ رأسى، فإذا هو عَلى العَرْشِ فى الهواءِ (يعنى جبريلَ علَيهِ السَّلامُ)، فأخَذَتنى رَجْفةٌ شَديدةٌ، فأتَيتُ خديجةَ فقُلتُ: "دثِّرونى"، فدثَّرونى، فَصَبُّوا على ماءً، فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ ".

ويبقى التقليل من شأن المرأة، الذى وقفت عائشة ضده بقوة. وقد استشهدت الكاتبة بموقف أم المؤمنين رضى الله عنها من القول بفساد الصلاة فى الحديث التالى: "يقْطَعُ الصَّلاةَ الكلبُ والحمارُ

والمرأةُ"، إذ إنها، طبقا لحديث آخر، قد ذُكِرَ عندها أن الصلاة يقطعها الكلبُ والحمارُ والمرأةُ، "فقالت: شبهتمونا بالحُمُرِ والكلابِ؟ واللهِ لقد رأيتُ النبى صلى الله عليه وسلم يصلى، وإنى على السريرِ بينه وبين القبلةِ مُضْطَجِعةً، فتبدو لى الحاجةُ، فأكرَه أن أجلسَ فأُوذِى النبى صلى الله عليه وسلم، فأَنْسَلُّ من عندِ رِجْلَيه". وهناك رواية أخرى لهذا الحديث: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يصَلِّى صَلاتَهُ مِنَ اللَّيلِ وَأَنَا مُعْتَرِضَةٌ بَينَهُ وَبَينَ الْقِبْلَةِ، وَأَنَا مُضْطَجِعَةٌ عَلَى فِرَاشِهِ الَّذِى يرْقُدُ عَلَيهِ هُوَ وَأَهْلُه".

وبالمناسبة فقد رُوِىَ عن ابن عباس حديث آخر يدل على أن مرور الحمار بين يدى المصلى لا يفسد عليه صلاته: "كنَّا عندَ ابنِ عبَّاسٍ فذكَرْنا ما كان يقطَعُ الصَّلاةَ، فقالوا: الحِمارُ والمرأةُ. فقال ابنُ عبَّاسٍ: لقد جِئْتُ أنا وغلامٌ مِن بنى عبدِ المطَّلبِ مُرْتدِفَينِ على حمارٍ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يصلِّى بالنَّاسِ فى أرضٍ خَلاءٍ، فترَكْنا الحمارَ بينَ أيديهم ثمَّ جِئْنا حتَّى دخَلْنا بينهم، فما بالى بذلك". وبالمثل روى ابن عباس ما يؤكد أنه ما من شىء من هذه الأشياء الثلاثة تقطع الصلاة أصلا: ذُكِرَ عندَ ابنِ عبَّاسٍ "يقْطَعُ الصَّلاةَ الكَلبُ والحمارُ والمرأةُ". قالَ: بئسَما عَدَلْتُمْ بامرأةٍ مُسْلِمَةٍ كلبًا وحمارًا. لقد رأيتُنى أقبَلتُ على حمار، ورسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يصلِّى بالنَّاسِ، حتَّى إذا كُنتُ قريبًا منهُ مُستَقْبِلَهُ نزلتُ عنهُ وخلَّيتُ عنهُ ودخلتُ معَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فى صلاتِهِ، فما أعادَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ صلاتَهُ ولا نَهانى عما صنعتُ. ولقد كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يصلِّى بالنَّاسِ، فَجاءت وليدةٌ تخلَّلُ الصُّفوفَ حتَّى عاذَت برسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فَما أعادَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ صلاتَهُ ولا نهاها عما صنَعَت. ولقد كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يصلِّى فى مسجِدٍ، فخرجَ جَدْى من بَعضِ حجراتِ النَّبى صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فذَهَبَ يجتازُ بينَ يديهِ، فمنعَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم. قالَ ابنُ عبَّاسٍ: أفلا تَقولونَ: الجَدْى يقطعُ الصَّلاةَ؟"، وإن قال الشيخ أحمد شاكر إن "إسناده ضعيف". وفى حديث آخر إسناده صحيح: "ذُكِرَ عندَ ابنِ عبَّاسٍ: ما يقطعُ الصَّلاةَ؟ فقالوا: الكَلبُ والحِمارُ. فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: إِلَيهِ يصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ. وما يقطعُ هذا، ولَكِنَّهُ يكْرَهُ". وهناك هذا الحديث أيضا: "قيلَ لابنِ عمرَ: إنَّ عبدَ اللَّهِ بنَ عياشِ بنِ أبى ربيعةَ يقولُ: يقطعُ الصَّلاةَ الكلبُ والحمارُ. فقالَ ابنُ عمرَ: لا يقطعُ صلاةَ المسلِمِ شىءٌ". وأنا مع ابن عمر رضى الله عنه. وربما كان المقصود مثلا، ولا أجزم بهذا، أن الحديث الذى يتكلم عن قطع الكلب والحمار والمرأة للصلاة يضرب بعض الأمثلة لما يشتت ذهن المصلى لا لما يفسدها فعلا فلا تُقْبَل أصلا.

على أنْ ليس هذا هو الحديث الوحيد الذى صححته عائشة رضى الله عنها، فقد رُوِىَ أيضا: "لمَّا ماتَت أمُّ أبانَ بنتُ عُثمانَ بنِ عفَّانَ حضرتُ معَ النَّاسِ فجلَستُ بينَ يدى عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو وعبدِ اللَّهِ بنِ عبَّاسٍ رضى اللَّهُ عنهم، فبَكَى النِّساءُ، فقالَ ابنُ عمرَ: ألا تنهى هؤلاءِ عنِ البُكاءِ؟ إنِّى سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: إنَّ الميتَ ليعَذَّبُ ببَعْضِ بُكاءِ أَهْلِهِ عليهِ. فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: قد كانَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضِى اللَّهُ عنه يقولُ ذلِكَ، فخرجتُ معَ عمرَ، حتَّى إذا كنَّا بالبيداءِ إذا رَكْبٌ، فقالَ: يا ابنَ عبَّاسٍ، منِ الرَّكبُ؟ فذَهَبتُ، فإذا هوَ صُهَيبٌ وأَهْلُهُ، فرجَعتُ فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، هذا صُهَيبٌ وأَهْلُهُ. فلمَّا دخَلْنا المدينةَ، وأُصِيبَ عمرُ رضى اللَّهُ عنه، جَلسَ صُهَيبٌ يبكى علَيهِ ويقولُ: وا حِبَّاهُ! وا صاحِباهُ! فقالَ عمرُ رضى اللَّهُ عنهُ: لا تبكِ، فإنِّى سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: إنَّ الميتَ ليعَذَّبُ ببعضِ بُكاءِ أَهْلِهِ عليهِ. قالَ: فذُكِرَ ذلِكَ لعائشةَ رضى اللَّهُ عنها، فقالَت: أما واللَّهِ ما تحدِّثونَ هذا الحديثَ عنِ الكاذبينَ، ولكِنَّ السَّمعَ يخطِئُ، وإنَّ لكُم فى القُرآنِ لَمَا يشْفِيكُم: "أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى". ولكِنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ: إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ لَيزيدُ الكافرَ عذابًا ببُكاءِ بَعضِ أَهْلِهِ عليهِ". وأنا مع القول بأن بكاء أهل الميت المسلم لا يؤدى إلى تعذيبه أو يزيده عذابا. كيف، والله سبحانه عادل رحيم لا يمكن أن يؤاخذ بريئا بذنب غيره؟ اللّهم إلا إذا كان قد أوصاهم بأن يعملوا مناحة من أجله ينشرون بها ذكره بها ويفاخرون به مثلا.

وقد رجعت إلى مسند عائشة عند أبى داود، فعثرت أيضا على الأحاديث التالية التى تصلح للاستشهاد بها بنحو أو آخر على ما تقوله كارلا باور من وقوف عائشة رضى الله عنها ضد تحقير شأن المرأة: "كَانَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يقَبِّلُ بَعْضَ نِسَائِهِ وَهُوَ صَائِمٌ. وَتَبَسَّمَتْ"، "لَعِبَ السُّودَانُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَانِى، فَكُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيهِمْ مِنْ فَوْقِ عُنُقِهِ، فَلَمْ أَزَلْ أَنْظُرُ إِلَيهِمْ حَتَّى كُنْتُ أَنَا الَّتِى انْصَرَفْتُ"، "كُنْتُ أَنَا وَالنَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ نَغْتَسِلُ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ كِلانَا مِنْه"، "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ شَيئًا قَطُّ إلا أَنْ يجَاهِدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ، وَلا ضَرَبَ خَادِمًا وَلا امْرَأَةً"، "كَانَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يجَاوِرُ فِى الْمَسْجِدِ فَيخْرِجُ إِلَى رَأْسَهُ، فَأَغْسِلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ"، "كَانَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَعَائِشَةُ يغْتَسِلانِ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ كِلاهُمَا يغْتَرِفُ مِنْهُ"، "كُنْتُ أَلْعَبُ فِى بَيتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بِالْبَنَاتِ، فَيجِئْنَ صَوَاحِبِى فَينْقَمِعْنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فَيخْرُجُ، فَيدْخُلْنَ عَلَى".

وفى ذلك الفصل أيضا تعرضت الكاتبة لحادثة الإفك. وهى معروفة للجميع، فلا لزوم لتفصيل القول فيها. ولكنى أحب أن أتناول النقطة التالية: هل اجترحت عائشة فى هذه الواقعة ما لا يليق بامرأة كريمة كما يقول بعض من لا يؤمنون بنبوة محمد من ملاحدة ومستشرقين ومبشرين؟ وقبل أن أعرض لهذا الموضوع أحب أن أعلق على ما جاء فى كلام د. ندوى متصلا بموقف عائشة حين نزلت تبرئتها من السماء فى بيت أبيها، وطلبت منها الأم أن تقوم فتشكر زوجها على ما انتهت إليه الأمور، إذ كان رد عائشة أنها سوف تشكر الله وحده. لقد فهم د. ندوى أن نظرتها إلى الأمر كانت أكبر من أن تحصر الأمر فى الزوج، فارتقت إلى أفق أعلى هو الأفق الإلهى. ولست أريد أن أجادل فى هذا، فعائشة سيدة مؤمنة ذكية تقية حرية بأن تتطلع هذا التطلع. لكن لا ينبغى أن ننسى حزنها وغضبها جَرّاء ما تركته الشائعات من أثر فى نفسية الرسول حتى لقد تحير وصار يسأل من حوله عن رأيه فيها، بل سألها هى أيضا عما إذا كان قد فرط منها شىء فتستغفر الله عليه، على حين كانت هى بطبيعة الحال تريده أن يسارع إلى تبرئتها للوهلة الأولى دون أن يلتفت إلى ما يقال. فلمّا لم يفعل، وترك الأمور تمضى فى طريقها شهرا، كان رد فعلها على النحو الذى رأينا. هكذا أقرأ الواقعة، ولامانع أن نضيف إليها ما قاله أكرم ندوى. ومن الناحية الأخرى لقد كان تصرفه صلى الله عليه وسلم فى غاية الحكمة والنبل رغم كل شىء. ولو كان غيره مكانه لاختل توازنه تماما وأقدم من التصرفات على كل شنيع ولطلق زوجته أو لقتلها أو فى أقل تقدير: ضربها ضربا مبرحا وفضحها فى العالمين. وهنا أحب أن أقول كلمة شغلتنى طويلا قبل ذلك، وهى: أين يبدأ الوحى؟ وأين ينتهى التفكير المحمدى فى أمور حياته صلى الله عليه وسلم؟ أتصور الأمر كما يلى: لقد اختاره الله على عينه سبحانه، فكان ذكيا أريبا حكيما عميقا منظم التفكير بارع التخطيط، لكنه فى نهاية المطاف بشر له حدوده رغم عبقريته وتفوقه على كل البشر بما فيهم الأنبياء والمرسلون. وهنا، أى عند انتهاء حدود طاقته وقدراته لا قبل ذلك، تبدأ معونة السماء له فتتدخل تدخلا استثنائيا. هذا هو تصورى فى خطوطه العامة. لكن الأمر لدى عائشة قد اتخذ منحى مختلفا. لقد رأت أن كرامتها وحبها للرسول وإعزازه لها كان ينبغى أن يحسم المسألة لصالحها منذ الوهلة الأولى غير دارية فى عز محنتها أنه هو أيضا قد عاش محنة لا تقل بل تزيد هَوْلًا عن محنتها وأنه، رغم نبوته ورسالته، بشر يتعرض لما يتعرض له البشر من قلق وحزن وحيرة وترقب. والمهم أنه لم يقدم على أى تصرف لا يليق بالرجل النبيل رغم كل هذا.

كذلك قال أكرم ندوى ما يفهم منه أن على الزوج غسل الأطباق والطبخ وما إلى ذلك، أما الزوجة فمهمتها تربية الأولاد. وأرى أن هذا إبعاد فى النُّجْعة ومغالاة سخيفة. ذلك أن النزعة النسوية هذه الأيام تنظر إلى قيام المرأة بمثل تلك الأعمال بوصفها إساءة لها وحطا من قدراتها ومواهبها، فيأتى الندوى ليقول العكس حتى يثبت أنه مسلم عصرى. لا شك أن الرجل الكريم لا يجد حرجا فى مساعدة زوجته فى عملها. ولقد كان الرسول، كما نعرف جميعا، يحلب شاته ويرتق نعله ويكون فى خدمة أهله وما إلى هذا. لكن لا أظن أنه عليه السلام كان يعمل هذا دائما وبانتظام بينما تكتفى عائشة مثلا أو حفصة بالجلوس والنظر إليه وهو يؤدى هذا العمل. لقد وزع الندوى الاختصاصات، وجعل اختصاص المرأة تربية الأولاد، وكأن الأب لا يستطيع التربية، أو على الأقل: لا يستطيع أن يقوم بنصيب فيها. ثم إنه إذا كانت المرأة تربى الأطفال ولا يبذل الأب جهدا فى هذا السبيل، وهو غير صحيح، فإن الأب من ناحية أخرى يعمل خارج البيت ويجرى ويطفح الدم من أجل توفير رزقه ورزق أسرته. ومن هنا نرى وجه المغالاة فى كلام د. ندوى، الذى لو كان صحيحا لرأينا الصحابة أول من يطبقونه، ولكان الله ورسوله قد أمراهم بهذا. لكنهم لم يطبقوا شيئا من ذلك ولا أمرهم القرآن والحديث بمراعاته. إن كلام الدكتور ندوى يعود بنا على نحو ما إلى ما كان يقوله بعض الفقهاء القدماء من أن دور المرأة ينحصر فى إمتاع الرجل جنسيا، أما أعمال البيت فليست بواجبة عليها. وقد أشارت كارلا باور نفسها إلى هذا فيما بعد، وهذا نص كلامها: " One jurist went so far as to write that marriage "is a contract whose object is... dominion over the vagina"". وهنا يهيج النسويون قائلين: "كيف لا تَرَوْن فى المرأة سوى متعة الجسد؟". حيرتمونا، حيركم الله! بل إن الأحاديث لتتكلم عن قيام زوجات النبى والصحابة بالطبخ والغسل والعجن والتمريض وما إلى هذا بسبيل.

تعالَوْا نقرأ هذه الأحاديث مثلا: فقد دخل النبى صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم على ابنة عمه أم هانئ بنت أبى طالب فسألها الطعام، فأجابته أن ليس لديها سوى كسرة يابسة وخل، فقال: "قَرِّبيه". فهو إنما طلب الطعام من أم هانئ لا من أحد رجال البيت. ومثله أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "هلمى أم سليم. ما عندك؟ فأتت بالخبز، فأمر رسول الله فَفُتَّ، وعصرت عليه أم سليم عكة لها فآدمته". "عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قربت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جنبا مشويا، فأكل منه". "أتى جابر بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليه. قال جابر: فرأيت فى وجه

رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيرا، وما أحسبه تغير إلا من الجوع، فقلت لامرأتى: هل عندك من شيء؟ قالت: والله ما لنا إلا هذا الداجن وفضلة من زاد نعلل بها الصبيان. فقلت لها: هل لك أن نذبح هذا الداجن، وتضعين ما كان عندك، ثم نحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: أفعل ما أحببت من ذلك. قال: فذبحتِ الداجن، وصنعتْ ما كان عندها، وطحنتْ وطبختْ، ثم ثَرَدْنا فى جَفْنَة لنا، فوضعت الداجن ثم حملتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم". وفى حادثة الإفك سأل النبى عليه السلام بُرَيرَة جارية عائشة عن أمرها فأجابته قائلة: "ما رأيتُ أمرًا أكثرَ مِنْ أنها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ تنامُ عن عجينِ أهلِها، فتأتى الدَّاجِنُ فتَأْكُلُه". "كان النبى صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التى النبى صلى الله عليه وسلم فى بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبى صلى الله عليه وسلم فِلَق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذى كان فى الصحفة، ويقول: غارت أمكم. ثم حبس الخادمَ حتى أُتِى بصحفة من عند التى هو فى بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التى كُسِرَتْ صحفتها، وأمسك المكسورة فى بيت التى كَسَرَتْ". وعن عبد الله بن بسر: "قال أبى لأمِّى: لو صنَعْتِ طعامًا لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فصنَعتْ ثريدةً، وقال بيدِه هكذا يقلِّلُها، فانطلَق أبى فدعا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فوضَع النَّبِى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدَه على ذروتِها ثمَّ قال: خُذوا باسمِ اللهِ. فأخَذوا مِن نواحيها. فلمَّا طعِموا دعا لهم. قال النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللَّهم اغفِرْ لهم وارحَمْهم وبارِكْ لهم فى رزقِهم". وقالت امرأة من بنى أسد: "كنتُ عند زينبَ أم المؤمنين، ونحن نَصْبغُ ثيابًا لَها بمَغرةٍ، إذ طلعَ النبى صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ. فلمَّا رأى المَغَرةَ رجع، فلمَّا رأتْ ذلِكَ زينبُ غسَلَتْ ثيابَها، ووارَتْ كلَّ حُمْرةٍ، فجاء فدَخلَ". وعن أسماء بنت عميس: "لما أُصيبَ جعفرٌ وأصحابُه دخل عَلَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد دبغتُ أربعينَ ميتةً وعجنتُ عجنى وغسلت بَنِى ودهنتُهم ونظفتُهم، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ائْتِينِى ببنِى جعفرٍ. قال: فأتيته بهم، فشمَّهم وذرفت عيناه، فقلت يا رسولَ اللهِ: بأبى أنتَ وأمِّى! ما يبْكِيك؟ أبلغك عن جعفرٍ وأصحابِه شيءٌ؟ قال: نعم أصيبوا هذا اليومَ. قالت: فقمت أصيحُ، واجتمع إلَى النساءُ، وخرج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أهلِه فقال: لا تغفلوا آلَ جعفرٍ من أن تصنَعوا لهم طعامًا، فإنهم قد شُغِلوا بأمرِ صاحبِهم". وعن سلمة الهذلى "أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فى غزوةِ تبوكَ دعا بماءٍ من عندِ امرأةٍ، فقالت: ما عندى إلا فى قِربةٍ لى ميتة. قال: أليس قد دبَغْتِيها؟ قالت: بلى. قال: فإنَّ دباغَها ذكاتُها". "دخلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المدينةَ، وأنا ابْنُ ثَمانِ سِنِينَ، وكان أبى تُوُفِّى،

وتَزَوَّجَتْ أمِّى بِأبى طلحةَ، وكان أبو طلحةَ إِذْ ذَاكَ لمْ يكنْ لهُ شىءٌ، ورُبَّما بِتْنا الليلةَ واللَّيلَتَينِ بغيرِ عَشَاءٍ، فَوَجَدْنا كَفًّا من شَعِيرٍ، فَطَحَنَتْهُ وعَجَنَتْهُ، وخَبَزَتْ مِنْهُ قُرْصَينِ، وطلبَتْ شيئًا مِنَ اللَّبَنِ من جارَةٍ لها أنْصارِيةٍ، فَصَبَّتْ على القُرْصَينِ، وقالتْ: اذْهَبْ فَادْعُ بِأَبى طلحةَ تَأْكُلانِ جَمِيعًا. فَخرجْتُ أَشْتَدُّ فَرَحًا لِما أُرِيدُ أنْ آكُلَ، فإذا أنا بِرَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قاعِدًا وأَصَحابِه، فَدَنَوْتُ مِنَ النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فقُلْتُ: إنَّ أمِّى تَدْعُوكَ. فقامَ النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقال لِأصحابِهِ: قُومُوا". "خطَب أبو طَلحةَ أمَّ سُلَيمٍ فقالت له: ما مِثْلُكَ يا أبا طَلحةَ يرَدُّ، ولكنِّى امرأةٌ مُسلِمةٌ، وأنتَ رجُلٌ كافرٌ، ولا يحِلُّ لى أنْ أتزوَّجَكَ. فإنْ تُسلِمْ فذلكَ مَهْرى لا أسأَلُكَ غيرَه. فأسلَم، فكانت له، فدخَل بها، فحمَلَتْ فولَدَتْ غلامًا صبيحًا. وكان أبو طَلْحةَ يحِبُّه حبًّا شديدًا، فعاش حتَّى تحرَّك فمَرِض، فحزِن عليه أبو طلحةَ حُزنًا شديدًا حتَّى تَضَعْضَع. قال: وأبو طَلحةَ يغدو على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ويروح، فراح رَوْحةً، ومات الصَّبى، فعمَدَتْ إليه أمُّ سُلَيمٍ فطيبَتْه ونظَّفَتْه وجعَلَتْه فى مُخْدَعِنا، فأتى أبو طَلحةَ فقال: كيف أمسى بُنَى؟ قالت: بخيرٍ! ما كان منذُ اشتكى أسكَنَ منه اللَّيلةَ. قال: فحمِد اللهَ وسُرَّ بذلكَ. فقرَّبَتْ له عَشاءَه، فتعشَّى، ثمَّ مسَّتْ شيئًا مِن طِيبٍ فتعرَّضَتْ له حتَّى واقَع بها. فلمَّا تعشَّى وأصاب مِن أهلِه قالت: يا أبا طلحة، رأَيتَ لو أنَّ جارًا لكَ أعاركَ عاريةً فاستمتَعْتَ بها ثمَّ أراد أَخْذَها منك أكُنْتَ رادَّها عليه؟ فقال: إى واللهِ إنِّى كُنْتُ لَرَادّها عليه. قالت: طيبةً بها نفسُكَ؟ قال: طيبةً بها نفسى. قالت: فإنَّ اللهَ قد أعارك بُنَى ومتَّعكَ به ما شاء ثمَّ قُبِض إليه، فاصبِرْ واحتسِبْ. قال: فاسترجَع أبو طَلحةَ وصبَر". "جاءت النِّساءُ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قُلنَ: يا رسولَ اللَّهِ، ذَهبَ الرِّجالُ بالفضلِ بالجِهادِ فى سبيلِ اللَّهِ. أفما لنا عملٌ ندرِك بِهِ عملَ المجاهدينَ فى سبيلِ اللَّهِ؟ قال: قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: مِهْنةُ إحداكنَّ فى بيتِها تدرِك عملَ المجاهدينَ فى سبيلِ اللَّهِ"... إلخ.

ولو تركت نفسى للرغبة فى الضحك والتهكم لقلت: لم يبق إلا أن ينادى د. ندوى بأن يحمل الرجل عن كاهل زوجته بل عن بطنها ورحمها عبء الحبل والولادة والإرضاع، وتقوم هى بالغزو والزراعة والتجارة مع بقائه هو فى المنزل يطبخ ويغسل ويكوى ويرتق فتوق الجوارب، وبالمرة: يزجج حاجبيه، ويضع الكحل فى عينيه، ويتكسر فى صوته ومشيته، وينتف خديه! ولا يستغرب أحد من هذا الاقتراح التهكمى، فقد رأينا من بنات حواء من تستغرب استخدام ضمير المذكر لله سبحانه وتعالى وتدعو إلى نسبة الأبناء فى الأوراق الرسمية إلى أمهاتهم، ومن تغضب لأنها ليس لها عضو كعضو

الرجل، ومن تنادى بإلغاء الزواج بين الرجال والنساء اكتفاء بالزواج المثلى مع الاستعاضة بالتناسخ عن الحمل والولادة الطبيعيين.

أما كلام د. ندوى الذى يقرر فيه أن أحدا لا ينبغى أن يسيطر على أحد فى البيت فتجاهُلٌ لما ينبغى أن تقوم عليه الأسرة من وجود من يرأسها شأنها شأن أية مؤسسة اجتماعية أخرى. وهذا ما يسمى بـ"قوامة الرجل"، وهى مذكورة فى القرآن. صحيح أن الرئاسة ليس معناها الاستبداد والاستعباد والقسوة والتعسف، لكن ليس معناها أيضا أن يركب كل من فى البيت دماغه ولا يستمع إلى ما يقوله الأب تحت هذه الحجة. والواقع أن د. ندوى، فيما أحس، قد وقع تحت ضغط النزعة النسوية فى الغرب، فأراد واعيا أو غير واعٍ أن يقول إنه هو أيضا بل الإسلام كله نسوى النزعة. الحق أن الإسلام ينصف المرأة ويحترمها ويبغض وقوع الظلم عليها وأكل حقها والخشونة معها وعدم الالتفات لما فيها من رقة وضعف. لكنه فى ذات الوقت لا يرضى أبدا الإجحاف السخيف بالرجل والجَنَف عليه.

ومن هنا لا أستطيع أن أرافئ د. ندوى على ما يقول فى هذا الصدد رغم حبى للمرأة أُمًّا وجدةً وعمةً وخالةً وأختًا وبنتًا وحبيبةً وزوجةً وزميلةً وجارةً وتلميذةً، ورغم أنى لا أستطيع تخيل الدنيا طرفة عين بدونها، إذ الحياة تصير صحراء محرقة لو خلت منها، فهى الورد والعطر والأحلام والرقة والعذوبة والجمال. الواقع أن هذا التخاضع لها بدون وجه حق ليس سوى تخذلق ماسخ. ذلك أن أى شىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده. نعم إن للشعراء الحق فى تصييرها ملاكا مرفرف الجناح، لكن هذا إنما يليق بدولة الشعر والفن، أما فى دنيا الواقع فنحن بحاجة ماسة إلى الحكمة والاعتدال والانضباط، وإلا تميعت الأمور، والعياذ بالله!

وقد انتبهت الصحفية الأمريكية شيرى جونز فى روايتها المنحطة: "The Jewel of Medina" إلى أن الخَبْز كان من اختصاص المرأة المسلمة كما فى كل بلاد العالم، إذ وصفت يدَىْ أم رُومان زوجة أبى بكر على لسان عائشة ابنتها بأنهما قويتان بسبب السنين التى قضتها فى عمل الخبز. كما تتحدث عن الاستقاء من البئر بوصفه عملا نسائيا. وهناك الطبخ أيضا. وذكرت على لسان عائشة أنها كانت تعجن الخبز وتغزل الصوف وتنسج الملابس. فكيف فات هذا د. ندوى؟ وقد انتبهتْ إلى هذا انطلاقا من شعورها الفطرى، إذ هى امرأة، والمطبخ هو مملكة المرأة فى كل الأمم والحضارات على مر التاريخ. أما صلة الرجل به فأمر ثانوى، اللّهم إلا إذا كان هناك احتراف للطبخ وما إلى ذلك فى الفنادق والمؤسسات الكبرى، إذ الرجل هو الذى يتولى أمر هذه المهمة حينئذ. وهى من المفارقات الطريفة. وفى أوربا الحالية

نرى السيدات هن اللاتى يتَوَلَّين الشؤون المنزلية من طبخ وغسل وتنظيف للبيت وما إلى هذا، مع مساعدة الرجال لهن فى بعض الأحيان، إلا أنها مساعدة على الهامش فى العادة. وكاتب هذه السطور قد يغسل الأطباق أحيانا، أو يعد الأطباق الخفيفة كالسلطة مثلا والبيض المسلوق. لكن ذلك كله يتم على سبيل الاستثناء كما قلنا. والزوجة لا ترحب بذلك إلا فى النادر، وتضيق عادة ضيقا كبيرا إذا ما أردتُ الاستغناء عنها فى تجهيز طعامى، وترفضه بشدة، وترى فيه مساسا بها. وهى متعلمة تعليما عاليا وحاصلة على الماجستير، وكانت توشك أن تحصل على الدكتوراه لولا بعض الظروف التى صرفتها عن إتمامها. كما أنها تحب القراءة، وكانت تنسخ لى كتبى إلى وقت قريب، وتبدى رأيها فيما تقرؤه عند تبييضه. وأحيانا ما أنزل على رأيها فأغير فيما كتبت بناء على ملاحظاتها.

وهنا نصل إلى واقعة الإفك ذاتها. ومن أعداء محمد صلى الله عليه وسلم من يزعمون أن عائشة قد زلت فى تلك الحادثة. بل إن بعض الملاحدة الوضعاء الخبثاء من ذوى الخلفيات الإسلامية ليتظاهرون بالثناء عليه صلى الله عليه وسلم لسعة صدره ومرونته التى تبدت فى إعادته عائشة بعد الذى اجترحته. ألاخيبة الله على كل عديم الرجولة. أوَمحمد يفعل كما يفعلون هم؟ إن عائشة من بيت كريم، وأبوها هو من هو؟ وزوجها نبى عظيم أو على الأقل عند من لا يؤمنون بنبوته: زعيم كبير، فكيف ترضى لها مكانتها الاجتماعية أن تنزل إلى هذا الدرك الأسفل من الأخلاق فى بلاد تقدس العرض كل هذا التقديس، فتجلب على نفسها وزوجها وأبيها وقومها العار والخسران وتمرغ أنوف الجميع فى الرغام إلى الأبد؟

وقرأت لأحد الملاحدة السافلين وصفا لما تخيل المجرم أنه قد حدث بين صفوان وعائشة بالتفصيل وكأن ذلك الديوث كان حاضرا هناك وسجل المشهد البورنوجرافى. ونقول لهؤلاء وأمثالهم من كل دنِس لئيم: إننا هنا، أيها السفهاء الأدنياء، مع عائشة لا مع نسوتكم اللاتى لا يعرفن الشرف والنبل والوفاء مَثَلُهن فى ذلك مَثَلُ أزواجهن. وأخيرا نحن هنا فى بلاد العرب فى القرن الخامس الميلادى، وفى مجتمع مسلم، لا فى أوربا العصرية المنفلتة العيار فى دنيا الجنس والشهوات. كذلك نحن هنا أمام عائشة لا الأميرة ديانا، التى ظهرت فى التلفاز تحكى خيانتها بالتفصيل لزوجها مع بعض ضباط القصر الملكى فى بريطانيا دون أن تحس بِذَرَّة من الحياء، ورغم هذا تعاطف كثير من الشعب البريطانى معها أشد التعاطف. وهو ما صنعه أيضا زوجها، فظهر فى التلفاز يتحدث عن خيانته لها، وباء مثلها بالتعاطف من شعبه. ولا ننس أيضا أن عائشة لم يسبق أن بدا منها قبل ذلك ما يومئ إلى استعداد

لمغامسة مثل ذلك الصنيع ولا عشر معشاره ولا واحد على الألف ولا على المليون منه. فكيف يتهاوى البناء الشامخ المشمخرّ دفعة واحدة على غير انتظار، وبغير مقدمات؟

وهناك زوج عائشة. فإذا كانت تؤمن به نبيا كما هو الواقع فكيف أقدمت على هذا التصرف المجنون بل الانتحارى، وهى تدرك بلا شك أن السماء لن تسكت على هذه الخيانة فترضى للرسول الكريم أن يحتفظ بها زوجة بعد الذى حدث؟ أما إن قلنا إنها لم تكن تؤمن به وزلت فعلا كما يدعى المتخرصون فلماذا استمرت معه باقى عمرها بل وقبلت تحريم القرآن زواجها هى وسائر أمهات المؤمنين بعده عليه السلام تمام القبول والرضا، وكان باستطاعاتها الهرب إلى أرض الروم مثلا والاستمتاع بحياتها هناك بعيدا عن الإسلام وزوجها النبى المزيف، أستغفر الله، وبخاصة أنها، كما يزعم الكذابون أعداء الإسلام، قد تزوجته غصبًا زواجًا انتهك طفولتها وبراءتها؟ لقد كانت علائم النزق والتهور حرية أن تظهر فى سلوكها بعدما رأت زوجها لا يبالى بما صنعت ويعيدها إلى بيته وكأنها لم تجترح شيئا. بل أكان صفوان بن المعطل يبقى يوما واحدا مؤمنا بمحمد حتى لو جشمه هذا الأمر الفرار من بلاد العرب كلها بعد أن تبين له أنه نبى مزيف يختلق الوحى يبرئ به زوجته الخاطئة، ويقول فى حقه: "ماعلمتُ عنه إلا خيرا"، "والله إن علمتُ عنه سوءا قط"؟ لقد استمر صفوان على إيمانه بمحمد واشترك فى الغزوات كلها فى حياته وفى الفتوح الكبرى بعد مماته حتى وافته منيته فى سميساط على شاطئ الفرات فى عهد معاوية بعد أن اندقت رجله فى الحرب، فظل يقاتل حتى مات. ترى أهذا تصرف رجل فعل هذا الذى يتقوله عليه المتقولون الخراصون؟ ثم إن صفوان لم تعلق به من قبل الإفك ولا من بعده ذرة ريبة. فكيف يمكن أن يجترح مثل ذلك الفعل مع زوجة نبيه؟

أما محمد فإن كان نبيا حقيقيا فيترتب على هذا أن ما جاء به عن براءتها من الإثم هو الحق الذى لا مِرْية فيه. وأما إن كان نبيا زائفا فكيف يقدم على تبرئتها وهو يعلم أنها قد خانته، مما يترتب عليه أن تنظر هى إليه بعين الاحتقار؟ بل كيف يمكن أن يزول عنه القلق والتحير دفعة واحدة بعد نزول نص التبرئة فلا يعتريه الشك فى زوجته مرة أخرى بعد هذا ولايفتح معها هذا الموضوع ولو فى عبارة عابرة؟ نحن نعرف أن الشك فى مثل تلك الحالة لا يزول مرة واحدة إلى الأبد، بل يذهب ويعود، ويذهب ويعود كما هو الملاحظ فى سيكولوجية الشك والشاكِّين، اللّهم إلا إذا تيقن صلى ا لله عليه وسلم تيقنا تاما ونهائيا ببراءة زوجته، وهو ما لا يمكن أن يكون إلا بكلمة من عند الله.

وآخرُ ما قيل فى مسألة الإفك على نطاق واسع مِنْ قِبَل أعداء محمد ودينه ما كتبته الصحافية الأمريكية شيرى جونز فى روايتها: "The Jewel of Medina"، التى قرأتُها بأُخَرَة فألفيتها تتدهدى إلى مستوى من الانحطاط لا يليق إلا بكاتبتها المفضوحة التى تظن أن عائشة يمكن أن تسير سيرة أمثالها وتمشى على حل شعرها مثل معظم الأمريكيات والأوربيات اللاتى لا يحكمهن عرف كريم ولا دين قويم ولايبالين إلا بأجسادهن وشهواتهن ولا يعرفن شيئا اسمه العفة والحرص على العِرْض والسمعة. ويكفى أن تقرأ السطورالأولى من الرواية السفيهة السافلة حتى تعرف طبيعتها دون أن تكملها. لقد صورت الكاتبة السيدة عائشة عند وصولها إلى يثرب وقد ركبت خلف صفوان ولفت ذراعيها حول خصره وأسندت خدها إلى كتفه وسقط خمارها عن رأسها فبدا شعرها مهفهفا فوق وجهها، ووقف أهل المدينة كلهم على بكرة أبيهم رجالا ونساء وأطفالا ينظرون إليها مسددين كلهم نحوها إصبع الاتهام حقيقة لا مجازا، بل لقد بصق بعضهم فى الأرض غضبا واحتقارا، بينما رسول الله واقف عاجز لا يقول شيئا، والصديق ترتعد شفتاه كأنما يوشك أن يبكى.

وهذا كله كذب: فلا صفوان كان راكبا معها بل كان يمشى أمام الركوبة يشدها من خطامها، ولا كانت الدابة التى تركبها حصانا كما زعمت بل جملا، ولا أهل المدينةكلهم اتهموها بل أفراد قليلون منهم، ولا تم الاتهام علنا بل كان المرجفون ينشرونه فى الخفاء شأن كل متخرص كذاب، ولا جرؤ أحد منهم أن يقول شيئا فى عائشة أمام النبى عليه السلام، ولا انزاح خمار عائشة حتى بدا شعرها مهفهفا وكأننا أمام فلم من أفلام الإغراء، ولا وصلت عائشة وصفوان إلى المدينة بل لحقا بالجيش أثناء توقفه فى الطريق، ولا علمت عائشة بشىء من الإفك إلا بعد حدوثه بزمن على عكس ما تدعى كاتبة الرواية على طريقة الفضائح الأمريكية، إذ أجرت الحكاية على لسان أم المؤمنين ذاتها بدءا بالمنظر الرهيب فى بداية الأمر، وهو المنظر الذى فرغنا منه لتونا.

وهذه مجرد عينة صغيرة جدا من الأخطاء الفاحشة التى تعج بها الرواية: فمن ذلك مثلا زَعْم كاتبة الرواية على لسان عائشة أن زوجة أبيها القديمة كان تنادى أمها: "دُرَّة"، أى الببغاء، ثم تشرح ذلك بأنها هى اللفظة التى تطلَق على الزوجة المنافسة. وهذا يذكرنا بقولهم: "سمك، لبن، تمر هندى!"، إذ ما علاقة "الدُّرَّة"، أى الببغاء، بالـ"ضَرَّة"، وهى الزوجة حين تشترك مع نساء أخريات فى زوج واحد؟ واضح أنها خلطت فى أمرين: الأول خلطها بين الدال والضاد من جهة، ثم خلطها بين "الضُّرَّة" الكلمة العامية و"الضَّرَّة" النطق الفصيح لها. ومن تلك الأخطاء المضحكة خلطها بين العرب والترك، إذ نراها

تتكلم عن "الحريم"، أى المكان المخصص للنساء فى البيت بعيدا عن الضيوف. وهذه لفظة لم تكن عرفت بعد فى ذلك العصر ولا بعده بقرون. كما تستخدم للزوجة الكبرى فى بيت أبى بكر اسم "خاتون"، وهى لفظة أخرى لم تعرف إلا بعد قرون أيضا. وبالمثل لم يكن يوجد فى مكة فى ذلك الحين اسم "فايزة"، التى كانت تتسمى به إحدى النساء المكيات فى الرواية، فضلا عن أن تقلب الروائية الاسم إلى "فائِزة" فى كل مرة. كذلك فامرأة أبى بكر التاجر المكى الثرى لا يمكن أن تذهب بنفسها لاستقاء الماء من زمزم عند الكعبة فى حين زوجُها قادر على إحضار خادمة لها تقوم بمثل تلك الأشغال الشاقة التى لا تليق بسيدة تنتمى إلى بيت عز كبيت الصديق.

وهذه هى قصة الإفك كما رواها البخارى فى "صحيحه" لا الذى يهرف به التعساء السفهاء الحقراء: "كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا أرادَ سفرًا أَقْرَعَ بينَ أزواجِه، فأيتُهُنَّ خرَجَ سهمُها خرَجَ بها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم معه. قالت عائشةُ: فأقرَعَ بينَنا فى غزوةٍ غزاها، فخرَجَ فيها سهمى، فخرَجْتُ مع رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بعدَ ما أُنْزِلَ الحجابُ، فكُنْتُ أُحْمَلُ فى هَوْدَجِى وأُنْزَلُ فيه، فسِرْنا حتى إذا فَرَغَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من غزوتِه تلك وقَفَلَ، ودَنَوْنا مِن المدينةِ قافلين، آذَنَ ليلةً بالرحيلِ، فقُمْتُ حينَ آذَنُوا بالرَّحيلِ فمَشَيتُ حتى جاوزْتُ الجيشَ. فلما قَضَيتُ شأنى أقبَلْتُ إلى رَحْلى، فلَمَسْتُ صدرى، فإذا عِقْدٌ لى مِن جَزْعِ ظَفَار قد انقطَع! فرَجَعْتُ فالتَمَسْتُ عِقْدى، فحَبَسَنى ابتغاؤُه. قالت: وأقبلَ الرَّهْطُ الذين كانوا يرْحَلُون لى، فاحتملوا هودَجى فرَحَلوه على بعيرى الذى كنتُ أركَبُ عليه، وهم يحْسِبون أنى فيه. وكان النساءُ إذ ذاكَ خِفَافًا لم يهْبُلْنَ، ولم يغْشَهُنَّ اللحمُ، إنما يأكُلْنَ العَلَقَةَ مِن الطعامِ، فلم يسْتَنْكِرِ القومُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حينَ رفعوه وحملوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السنِّ، فبعثوا الجملَ فساروا. ووَجَدْتُ عِقْدى بعدما استمَرَّ الجيشُ، فجِئْتُ منازلَهم، وليس بها منهم داعٍ ولا مجيبٌ، فتيَمَّمْتُ منزلى الذى كنتُ فيه، وظَنَنْتُ أنهم سيفْقِدونى فيرجِعون إلى. فبينا أنا جالسةٌ فى منزلى غلَبَتْنى عينى فنِمْتُ، وكان صفوانُ بنُ المُعطِّلِ السُّلَمِى ثم الذَّكْوَانِى مِن وراءِ الجيشِ، فأصبحَ عندَ منزلى، فرأى سَوادَ إنسانٍ نائمٍ، فعرفَنى حين رآنى، وكان رآنى قبلَ الحجابِ. فاستيقَظْتُ باسترجاعِه حينَ عرَفَنى، فخَمَّرْتُ وجهى بجِلْبابى. والله ما تكلَّمْنا بكلمةٍ ولا سَمِعْتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعِه، وهوى حتى أناخَ راحلتَه فوَطِئَ على يدِها، فقُمْتُ إليها فركِبْتُها، فانطلَقَ يقُودُ بى الراحلةَ حتى أَتَينا الجيشَ مُوغِرِين فى نَحْرِ الظَّهيرةِ وهم نُزُولٌ. قالت: فهلَكَ مَن هلَكَ. وكان الذى تَولَّى كِبْرَ الإفكِ عبدُ اللهِ بن أُبَى بن سَلُولٍ. قال عروةُ: أُخْبِرْتُ أنه كان يشَاعُ ويتَحَدَّثُ به عندَه، فيقِرُّه ويسْتَمِعُه ويسْتَوْشِيه.

وقال عروةُ أيضا: لم يسَمَّ مِن أهلِ الإفكِ أيضًا إلا حسانُ بنُ ثابتٍ ومِسْطَحُ بنُ أَثَاثَةَ وحَمْنَةُ بنتُ جَحْشٍ فى ناسٍ آخرين لا علمَ لى بهم، غيرَ أنهم عُصْبَةٌ كما قال الله تعالى. وإنّ مُتَوَلِّىَ كِبْرِ ذلك يقالُ له: عبدُ اللهِ بن أُبَى بن سلولٍ. قال عروةُ: كانت عائشةُ تَكْرَهُ أن يسَبَّ عندَها حسانٌ وتقولُ: إنه الذى قال:

فإنَّ أَبِى ووالدَه وعِرْضِى لعِرْضِ محمدٍ منكم وِقَاءُ

قالت عائشةُ: فقَدِمْنا المدينةَ، فاشتكَيتُ حين قَدِمْتُ شهرًا، والناسُ يفِيضون فى قولِ أصحابِ الإفْكِ، لا أشعرُ بشىءٍ مِن ذلك. وهو يرِيبُنى فى وجعى أنى لا أَعْرِفُ مِن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم اللُّطْفَ الذى كنتُ أرى منه حين أَشْتكى. إنما يدْخُلُ على رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فيسَلِّمُ ثم يقول: كيف تِيكُمْ؟ ثم ينْصَرِفُ. فذلك يرِيبُنى ولا أَشْعُرُ بالشرِّ حتى خَرَجْتُ حينَ نَقَهْتُ، فخَرَجْتُ مع أمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَناصِعَ، وكان مُتَبَرَّزَنا، وكنا لا نَخْرُجُ إلا ليلًا إلى ليلٍ، وذلك قبلَ أن نتّخِذَ الكُنُفَ قريبًا مِن بيوتِنا. قالت: وأَمْرُنا أَمْرُ العربِ الأُوَلِ فى البَرِّيةِ قِبَلَ الغائطَ، وكنا نَتَأَذَّى بالكُنُفِ أن نتّخِذَها عند بيوتِنا. قالت: فانطلَقْتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ، وهى ابنةُ أبى رَهْمِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عبدِ مَنافٍ، وأمُّها بنتُ صخرِ بنِ عامرٍ خالةُ أبى بكرٍ الصديقِ، وابنُها مِسْطَحُ بنُ أَثَاثَةَ بن عبَّادِ بنِ المطلبِ، فأَقبَلْتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بيتى حينَ فَرَغْنا مِن شأنِنا، فعثَرَتْ أمُّ مِسْطَحٍ فى مرطِها فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فقلت لها: بِئْسَ ما قلتِ! أَتَسُبِّين رجلًا شَهِدَ بدرًا؟ فقالت: أَى هَنْتَاه، أَوَلَمْ تسمعى ما قال؟ قالت: وقلتُ: وما قال؟ فأخبرتْنى بقولِ أهلِ الإِفْكِ. قالت: فازدَدْتُ مرضًا على مرضى. فلما رَجَعْتُ إلى بيتى دخَلَ على رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: كيف تِيكُم؟ فقلتُ له: أَتَأْذَنُ لى أن آتى أبوى؟ قالت: وأُرِيدُ أن أَسْتيقِنَ الخبرَ مِن قِبَلِهما. قالت: فأَذِنَ لى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فقلتُ لأمى: يا أُمَّتاه، ماذا يتَحَدَّثُ الناسُ؟ قالت: يا بُنَيَّةُ، هَوِّنى عليك. فواللهِ لقلَّما كانت امرأةٌ قطُّ وَضِيئَةً عندَ رجلٍ يحِبُّها لها ضرائرُ إلا أكثرْنَ عليها. قالت: فقُلْتُ: سبحان الله! أَوَقَدْ تحدَّثَ الناسُ بهذا؟ قالت: فبكيتُ تلك الليلةَ حتى أَصْبَحْتُ لا يرْقَأُ لى دمعٌ ولا أَكْتحِلُ بنومٍ، ثم أَصْبَحْتُ أَبْكِى. قالت: ودعا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على بنَ أبى طالبٍ وأسامةَ بنَ زيدٍ، حين اسْتَلْبَثَ الوحى، يسألُهما ويسْتَشِيرُهما فى فِراقِ أهلِه. قالت: فأما أسامةُ فأشارَ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالذى يعْلَمُ مِن بَراءَةِ أهلِه، وبالذى يعلم لهم فى نفسِه، فقال أسامة: أَهْلُك، ولا نعلمُ إلا خيرًا. وأما على فقال: يا رسولَ اللهِ، لم يضَيقِ اللهُ عليك، والنساءُ سِواها كثيرٌ. وسَلِ الجاريةَ تَصْدُقْك. قالت: فدعا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بريرةَ، فقال: أَى بريرةُ، هل رأيتِ شيئا يرِيبُك؟ قالت له بريرةُ: والذى بعثَك بالحقِّ ما رأيتُ

عليها أمرًا قطُّ أغمصُه أكثرَ مِنْ أنها جاريةٌ حديثةُ السنِّ تنامُ عن عجينِ أهلِها، فتأتى الداجنُ فتأكلُه. قالت: فقام رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ يومِه فاستَعَذَرَ مِن عبدِ اللهِ بنِ أُبَى، وهو على المنبرِ، فقال: يا معشرَ المسلمين، مَن يعْذُرُنى مِن رجلٍ قد بلَغَنى عنه أذاه فى أهلى؟ واللهِ ما علمتُ على أهلى إلا خيرًا. ولقد ذكروا رجلًا ما علمتُ عليه إلا خيرًا، وما يدْخُلُ على أهلى إلا معى. قالت: فقام سعدُ بنُ معاذٍ أخو بنى عبدِ الأَشْهَلِ فقال: أنا يا رسولَ اللهِ أَعْذُرُكَ: فإن كان مِن الأَوْسِ ضَرَبْتُ عنقَه، وإن كان مِن إخوانِنا مِن الخَزْرَجِ أَمَرْتَنا ففَعَلْنا أمرَك. قالت: فقام رجلٌ مِن الخَزْرَجِ، وكانت أمُّ حسانٍ بنتَ عمِّه مِن فَخِذِه، وهو سعدُ بنُ عُبَادَةَ، وهو سيدُ الخَزْرَجِ. قالت: وكان قبلَ ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتَمَلَتْه الحَمِيةُ، فقال لسعدٍ: كذَبْتَ! لَعَمْرُ اللهِ لا تَقْتُلُه ولا تَقْدِرُ على قتلِه. ولو كان مِن رَهْطِك ما أَحْبَبْتُ أن يقْتَلَ. فقام أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ، وهو ابنُ عمِّ سعدٍ، فقال لسعدِ بنِ عبادةَ: كذَبْتَ! لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّه، فإنك منافقٌ تُجادِلُ عن المنافقين. قالت: فثار الحيان: الأَوْسُ والخَزْرَجُ حتى هموا أن يقْتَتِلوا، ورسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قائمٌ على المنبرِ، قالت: فلم يزَلْ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكتَ، فبَكَيتُ يومى ذلك كلَّه لا يرْقَأُ لى دمعٌ ولا أكتَحِلُ بنومٍ. قالت: وأصبح أبواى عندى، قد بكَيتُ ليلتين ويومًا، ولا يرْقَأُ لى دمعٌ ولا أكْتَحِلُ بنومٍ حتى إنى لأظنُّ أن البكاءَ فالقٌ كبدى. فبينا أبواى جالسان عندى وأنا أبكى، فاستأذَنَتْ على امرأةٌ مِن الأنصارِ، فأَذِنْتُ لها، فجلَسَتْ تبكى معى. قالت: فبينا نحن على ذلك دخَلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم علينا فسلَّمَ ثم جَلَسَ. قالت: لم يجْلِسْ عندى منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لَبِثَ شهرًا لا يوحَى إليه فى شأنى بشىءٍ. قالت: فتَشَهَّدَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حين جَلَسَ ثم قال: أما بعدُ، ياعائشةُ، إنه بلَغَنى عنك كذا وكذا: فإن كنتِ بريئةً فسَيبَرِّئُك اللهُ، وإن كنتِ أَلْمَمْتِ بذنبٍ فاستغفرى اللهَ وتوبى إليه، فإن العبدَ إذا اعترَفَ ثم تابَ تابَ اللهُ عليه. قالت عائشة: فلما قضى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مقالتَه قَلَصَ دمعى حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً، فقلتُ لأبى: أَجِبْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عنى فيما قال. فقال أبى: والله ما أدرى ما أقولُ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فقلت لأمى: أجيبى رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فيما قال. قالت أمى: واللهِ ما أدرى ما أقولُ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فقلت وأنا جاريةٌ حديثةُ السنِّ لا أقرأُ مِن القرآنِ كثيرًا: إنى واللهِ لقد علمتُ: لقد سمعتم هذا الحديثَ حتى استقرَّ فى أنفسِكم وصدَّقتم به. فلئِن قلتُ لكم: "إنى بريئةٌ" لا تصدقونى، ولئن اعترَفْتُ لكم بأمرٍ، والله يعلمُ أنى منه بريئةٌ، لتُصَدِّقُنِّى. فواللهِ لا أَجِدُ لى ولكم مثلًا إلا أبا يوسفَ حين قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. ثم

تحوَّلْتُ واضطَجَعْتُ على فراشى، واللهُ يعلمُ أنى حينئذٍ بريئةٌ، وأن اللهَ مُبَرِّئى ببراءتى. ولكن واللهِ ما كنتُ أظنُّ أن اللهَ مُنْزِلٌ فى شأنى وحْيا يتْلَى. لَشَأْنى فى نفسى كان أحقر مِن أن يتكَلَّمَ اللهُ فى بأمرٍ. ولكنى كنتُ أرجو أن يرى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فى النومِ رؤيا يبَرِّئُنى اللهُ بها. فواللهِ ما رامَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مجلسَه ولا خرَجَ أحدٌ مِن أهلِ البيتِ حتى أُنْزِلَ عليه، فأَخَذَه ما كان يأْخُذُه مِن البُرَحَاءِ حتى إنه لَيَتَحَدَّرُ منه العرقُ مثلَ الجُمانِ، وهو فى يومٍ شاتٍ، مِن ثِقَلِ القولِ الذى أُنْزِلَ عليه. قالت: فسُرِّىَ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وهو يضْحَكُ، فكانت أول كلمةٌ تَكَلَّمَ بها أن قال: يا عائشةُ، أَمَا والله فقد برَّأَكِ. فقالت لى أمى: قومى إليه. فقلت: واللهِ لا أقومُ إليه، فإنى لا أحمدُ إلا اللهَ عز وجل. قالت: وأنزل اللهُ تعالى: "إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم"... العشر الآيات. ثم أنزل الله هذا فى براءتى. قال أبو بكر الصديق، وكان ينْفِقُ على مِسْطَحِ بنِ أثَاثَةَ لِقَرابتِه منه وفقرِه: واللهِ لا أُنْفِقُ على مِسْطَحٍ شيئًا أبدًا بعد أن قال لعائشةَ ما قال. فأنزل اللهُ: "ولا يأْتَلِ أُلُوا الفضل منكم"... إلى قوله: "غفور رحيم". قال أبو بكر الصديق: بلى واللهِ إنى لَأُحِبُّ أن يغْفِرَ اللهُ لى. فرجَعَ إلى مِسْطَحٍ النفقةَ التى ينْفِقُ عليه، وقال: واللهِ لا أَنْزِعُها منه أبدًا. قالت عائشةُ: وكان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سألَ زينبَ بنتَ جَحْشٍ عن أمرى، فقال لزينبَ: ماذا عَلِمْتِ أو رأيتِ؟ فقالت: يا رسولَ اللهِ، أحمى سمعى وبصرى. واللهِ ما علمتُ إلا خيرًا. قالت عائشةُ: وهى التى كانت تُساميني مِن أزواجِ النبى صلى الله عليه وسلم، فعَصَمَها اللهُ بالورعِ. قالت: وطَفِقَتْ أختُها تُحَارِبُ لها، فهلَكَتْ فيمَنْ هَلَكَ. قال ابنُ شهابٍ: فهذا الذى بَلَغَنى مِن حديثِ هؤلاء الرَّهْطِ. ثم قال عروةُ: قالت عائشةُ: واللهِ إن الرجلَ الذى قيل له ما قيل لَيَقُولُ: سبحانَ اللهِ! فوالذى نفسى بيدِه ما كَشَفْتُ مِن كَنَفِ أنثى قطُّ. قالت: ثم قُتِلَ بعدَ ذلك فى سبيلِ اللهِ".

هذا، وللشيعة موقف من عائشة غير كريم، بل لهم عندها ثأر لا يمكن أن ينْسَى أو يتَنَاسَى منذ وقفت ضد على فى معركة الجمل. وهم لا يفلتون أية فرصة تسنح دون أن يسيئوا إليها إساءة شديدة. وعلى رأس تلك الفرص حادثة الإفك، التى سنتجول معا بشأنها فى بعض تفاسير القوم. وفى آيات الإفك، التى يعرف القاصى والدانى أنها نزلت تبرئةً للسيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها مما بُهِتَتْ به فى قصة ضياع العِقْد الذى فقدته فى الصحراء مَرْجِعَها هى والنبى والمسلمين من غزوة بنى المصطلق، نرى القمى مثلا يصرف القصة عن حقيقتها حتى لا يضْطَرّ هو وأمثاله إلى الإقرار بأى فضل لها. وأى فضل أعظم من الفضل الذى ظلت أم المؤمنين تباهى به نظيراتها، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل

تبرئتها من فوق سبع سماوات؟ ولا ننس أن لعلىٍّ صلة بالقصة، إذ لما استطلع النبى رأيه حين دارت الشائعات فى أرجاء المدينة كان رده حسبما تحكى لنا الروايات أن النساء كثير. صحيح أنه رضى الله عنه لم يلوث لسانه بقالة سوء فى سيدة كريمة لم يلحظ عليها أية ريبة، إلا أنه لم يراع مدى وقع الكلمة على نفسها، إذ كان كل همه إراحة الرسول من القلق الذى كان يعانيه، فظن أن الرسول إن نفض يده منها واقترن بغيرها فقد أراح نفسه. فبعض علماء الشيعة يحولون قصة الإفك من فضل يزين عرضها وكرامتها إلى منقصة تنال منها، إذ زعموا أن الآيات المذكورة إنما نزلت لإدانة عائشة بسبب اتهامها لمارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله فى سمعتها وسلوكها.

ولْنقرأ ما كتبه القمى فى تفسير قوله تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِّنْهُمْ مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ". قال: "أما قوله: "إن الذين جاؤا بالإفك عصبةٌ منكم لا تحسبوه شرًّا لكم بل هو خير لكم" فإن العامة رَوَوْا أنها نزلت فى عائشة وما رُمِيتْ به فى غزوة بنى المصطلق من خزاعة. وأما الخاصة فإنهم رَوَوْا أنها نزلت فى مارية القبطية وما رمتها به عائشة والمنافقات. حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن عيسى عن الحسن بن على بن فضال قال: حدثنا عبد الله بن بكير عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر عليهما السلام يقول: لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله حزن عليه حزنا شديدا، فقالت عائشة: ما الذى يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جُرَيج. فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليا وأمره بقتله، فذهب على عليه السلام إليه ومعه السيف. وكان جريج القبطى فى حائط، وضرب على عليه السلام باب البستان، فأقبل إليه جريج ليفتح له الباب. فلما رأى عليا عليه السلام عرف فى وجهه الغضب فأدبر راجعا ولم يفتح الباب. فوثب على عليه السلام على الحائط ونزل إلى البستان واتبعه وولى جريج مدبرا. فلما خشى أن يرهقه صعد فى نخلة، وصعد على عليه السلام فى أثره. فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا ما للنساء. فانصرف على عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إذا بعثتنى فى الأمر أكون فيه كالمسمار المحمى فى الوبر أم أتثبت؟ قال: فقال: لا بل تثبت. فقال: والذى بعثك بالحق ما له ما للرجال ولا ما للنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحمد لله الذى يصرف عنا السوء أهل البيت".

وبادئ ذى بدء نلفت النظر إلى كلمتى "العامة" و"الخاصة" فى النص السابق: فالعامة هم أهل السنة، والخاصة هم المتشيعون. ومغزى إطلاقهما واضح لا يحتاج منى إلى أى شرح، فهما تتكلمان من

تلقاء نفسيهما. كذلك نلفت النظر إلى وضع الكاتب لعائشة مع المنافقات فى خانة واحدة واتهامهن جميعا بنفس الجرم، ألا وهو قذف مارية فى عرضها. وثالثا لا أتصور أبدا النبى يخرج على مبدإ التثبت قبل إيقاع العقوبة بالمتهم فلعله برىء، إذ تقول الرواية إنه عليه السلام ما إن سمع التهمة من ضَرّة فى ضَرّتها حتى بادر بإرسال علىّ لقتل جريج دون أن يكلف نفسه أن يسألها ولو عن مصدر الخبر. ورابعا كيف يأمر بقتل جريج ويترك شريكته فى الإثم ما دام قد صدّق أن الأمر وقع كما قالت عائشة فيما نُسِب لها زورا وبهتانا؟ ولقد كان النبى يتريث أشد التريث فى مسائل الزنا وعقوبته حتى إنه إذا أتاه شخص وأقرّ من تلقاء نفسه بمواقعة تلك الفاحشة كان يراجعه مرارا ويفتح له الباب بعد الباب لعله يرجع ويتوب ولا يعود لذلك أبدا. بل إنه كان يستحب الستر فى تلك الأمور ولا يرتاح لمن يأتيه شاهدا على أحد بالزنا قائلا له: لو سترتها بثوبك لكان أفضل. فكيف يسارع هنا إذن إلى الأمر بتوقيع العقوبة على متهم دون أن يتثبت من التهمة المنسوبة له، بل دون أن يعطيه الفرصة للدفاع عن نفسه؟ والعجيب أنه، حسب تلك الرواية، قد غير موقفه بعد هذا حين استفسر منه علىٌّ عما ينبغى أن يصنعه فى مثل تلك الحالة، إذ قال له: عليك أن تتثبت. وكأنه ليس هو الذى بعثه ليقتل جريجا قتلا! ثم إن موقفه من اتهام عائشة فى عِرْضها قد اختلف عن ذلك اختلافا تاما، فلم يسارع بعقابها رغم أن الشائعات التى تلوك سيرتها كانت تتطاير فى أرجاء المدينة. كذلك كيف نسى ملفقو القصة أن عائشة وأباها متَّهمان عند رسول الله حسبما يفترون عليهما، لعن الله كل كذاب أشر؟ ترى كيف صدّق الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه البساطة امرأة يزعم الشيعة أنها منافقة بنت منافق؟ أعوذ بالله، وأستلعنه على من يتقول على أم المؤمنين الأقاويل. كذلك كيف يرمى جريج نفسه من فوق النخلة دون أن تنكسر أضلاعه؟ بل كيف يفكر فى الرمى بنفسه من فوقها أصلا ويقدم على ذلك الخطر الفظيع؟ وأغرب من هذا أن تمر الرواية على حادثة السقوط من فوق النخلة دون أن تعلق بكلمة واحدة على ما حدث له من جرائه!

وقبل ذلك كله كيف يريدنا هؤلاء أن نتجاهل قصة الإفك الحقيقية التى تورط فيها حسان ومِسْطَح بن أثَاثة وحَمْنَة بنت جحش وابن أبى سلول وغيرهم وما يتصل بذلك من قصص معروفة فى كتب الحديث والسيرة والتاريخ؟ ليس أمامنا إلا أحد أمرين: إما أن عائشة لم تُتَّهَم أصلا، ومن ثم فالسؤال هو: من يا ترى صاحب قصة الإفك الأخرى التى اتُّهِمَتْ فيها عائشة؟ ليس أمامنا فى هذه الحالة إلا أن نقول إنه فريق يبجّل عائشة ويريد أن يقول إن الله برأها من فوق سبع سماوات كى يكون ذلك شرفا لها. لكن هل يعقل أن يقدم من يبجّلون عائشة على رميها أولا فى عرضها حتى يتسنى لهم

الزعم بأن السماء قد برأتها؟ ذلك أمر لا يدخل العقل. وإما أن عائشة قد اتُّهِمَتْ فعلا فى عرضها. فهل يعقل، والأمر هذا، أن يتجاهل القرآن المسألة وكأنها لم تقع فلا يتكلم عنها؟ ذلك أيضا أمر لا يمكن أن يتقبله العقل. كما أننا حين ننظر فى آيات سورة "النور" الخاصة بقضية الإفك نرى أن الكلام من أوله إلى آخره إنما يستخدم ضمير جماعة الذكور بما يدل على أن المتهمين هم رجال أو خليط من رجال ونساء على الأقل، لا جماعة من النساء فقط هن عائشة والمنافقات كما تزعم الرواية الآثمة. وفوق ذلك فالقرآن يشير إلى "زعيمٍ" رجلٍ لا إلى "زعيمةٍ" امرأةٍ لتلك الفرية: "والذى تَوَلَّى كِبْرَه منهم له عذابٌ أليم". ثم لقد أرسى القرآن الحكم الشرعى فى تلك الظروف، وهو الإتيان بأربعة شهداء، فكيف تجاهل النبى هذا كله وبعث عليا فى الحال ومعه السيف كى يقتل جريجا دون توافر أربعة شهود؟

لهذا نجد رواية أخرى لتلك القصة عند القمى فى تفسير قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين" (الحجرات/ ٦)، إذ أضاف الكلام التالى: "فأتى به رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقال له: ما شأنك يا جريج؟ فقال: يا رسول الله، إنّ القبط يجُبّون حشمهم ومن يدخل إلى أهاليهم، والقبطيون لا يأنسون الاّ بالقبطّيين. فبعثنى أبوها لأدخل اليها وأخدمها وأُونِسها". وهو كلام يدابر العقل، إذ معناه أن الرسول لم يكن يعرف كل تلك المدة لم جاء جريج مع مارية من مصر، وأن جريجا كان يخدم مارية طوال الوقت ويدخل عليها ويخرج ويقضى لها مطالبها دون علم الرسول. ومعناه قبل ذلك أن القرآن يتهم رسول الله بأنه قد أقدم بجهالة على معاقبة جريج وكاد أن يصبح نادما على ما فعل لولا لطف الله الذى أراد أن يكشف حقيقة أمره وبراءته بوقوعه الدِّرَامِىّ من فوق النخلة. ثم إن الرواية تذكر أن أباها هو الذى أرسل جريجا هذا فى رفقة ابنته، مع أننا نعرف أنها لم تكن فتاة حرة، بل جارية أرسلها المقوقس لا أبوها. فهذه ثغرة خطيرة فى الرواية تحطمها تحطيما. كما أن المقوقس لم يرسل مارية وحدها، بل أرسل سيرين أيضا، وهى التى أهداها الرسول لحسان بن ثابت، فلماذا لم نسمع أن سيرين كان يصاحبها رجل مجبوب كجريج يقوم على شؤونها؟ كذلك هناك صعود جريج النخلة، وهو ليس حَلًا لأنه لا يستطيع أن يبقى فوقها إلى الأبد، وإن كان صعود علىٍّ كرم الله وجهه النخلة وراءه أبعث على الاستغراب والتعجب، إذ ما الداعى له، وجريج لا يمكن أن يطول مكثه هناك، بل لا بد أن ينزل، وبسرعة. على الأقل حين يقرص بطنه الجوع، أو يحتاج إلى النوم أو قضاء الحاجة. كما أن صعوده النخلة يذكّرنا بما يفعله الشرير عادةً فى الأفلام، إذ يتسلق برجا أو سطح حجرة فوق أعلى المنزل أو صارية سفينة مثلا، مع أن أقل تفكير من جانبه كفيل

بأن يباعد بينه وبين اللجوء إلى هذا الحل المضحك لأنه لا يمكنه البقاء هناك إلى آخر العمر. وعادة ما تكون نهايته فوق الموضع المرتفع الذى التجأ إليه نهاية مأساوية كما يعرف مشاهدو الأفلام والمسلسلات.

ومع هذا كله فإن إصرار القمى على تلويث صحيفة عائشة يدفعه إلى المضى فى غَيه والقول بأن الله إنما أراد أن يظهر براءة جريج على يد علىّ. أى أنه سبحانه قد دبّر اندفاع علىّ بالسيف يريد الإجهاز على جريج فى هوج ودون تبصر أو محاكمة بناء على تكليف رسول الله له بذلك لا لشىء إلا لكى يثبت براءة المصرى المسكين! وهو ما يعنى أن الأقدار قد جهزت عليا لتصحيح الخطإ الذى كاد أن يقع فيه النبى عليه السلام، أستغفر الله، وإن قال بعضهم إن الرسول كان يعرف براءة مارية منذ البداية وإنه إنما أمر عليا بقتله تظاهرا بذلك ليس إلا كى يوقظ ضمير عائشة حين ترى رجلا بريئا يوشك أن يقْتَل ظلمًا وافتراءً. أى أنهم يريدوننا أن نصدق هذا التوجيه السخيف الذى يقول إن النبى قد أقدم على ترويع جريج المسكين على هذا النحو الشنيع الذى كان يمكن أن ينتهى نهاية مأساوية فتَزْهَق روح الرجل جَرّاء سقوطه من فوق النخلة لا لشىء سوى إيقاظ ضمير عائشة، وهو ما يذكرنا بالمثل الشعبى القائل: جاء يكحّلها فأعماها! وهكذا يتخبط بعض علماء الشيعة لمجرد الرغبة الأثيمة لتشويه أخلاق عائشة ورميها بالفسق، أستغفر الله. كذلك فالآيات تتحدث عن شائعات تجوب أنحاء المدينة من لسان إلى لسان، على حين أن روايتنا هذه لا تتحدث إلا عن عائشة وحدها، وإن ذُكِرَتِ "المنافقات" على سبيل "بَرْو العتب" كما نقول فى مصر لا غير، وإلا فلماذا لم تظهر فى الصورة أولئك المنافقات اللائى لا أحسب القمى وأضرابه إلا يقصدون بهن بعض زوجات رسول الله الأخريات، وبالذات حفصة كراهيةً منهم للفاروق رضى الله عنه؟

ثم ما موقع الآية التالية من السياق هنا: "وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيعْفُوا وَلْيصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"؟ إنها، فيما نعرف جميعا، إنما نزلت لتحضّ أبا بكر على الاستمرار فى معاونة بعض أقربائه الفقراء الذين اشتركوا فى نشر الإشاعات ضد ابنته الكريمة الطاهرة العفيفة والذين أقسم فى حُمُوّ غضبه أن يتوقف عن الإنفاق عليهم. أما على رواية "الخاصّة" فكيف نفهمها؟ لقد أورد القمى فى تفسيره لها ما يلى: "فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله: "ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى"، وهى قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله، "والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله

وليعفوا وليصفحوا"، يقول: يعفو بعضكم عن بعض ويصفح، فإذا فعلتم كانت رحمة من الله لكم. يقول الله: "ألا تحبون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم؟". وهو تكلف بل تنطع، فإن القرآن لا ينزل بتحنين القلوب على قرابة رسول الله، وكأنهم جماعة من الشحاذين مع أنهم لا تجوز عليهم ولا لهم الصدقات أصلا. كما أن أمر القرآن بالعفو والصفح عن آل رسول الله ليس له من معنى إلا أنهم مشاغبون مستفزون للآخرين وأن على المسلمين الإغضاء والتجاوز عن هذا الشغب والاستفزاز. ترى هل يصح مثل هذا التفسير؟ لكن المفسر الشيعى يمزق الآية كما نرى كى يسْلَم له ما يريد، وهيهات! وأخيرا وليس آخرا فإن الآية الأخيرة فى آيات الإفك تقول بصريح العبارة: "الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ"، وهو ما لم يلتفت المدلسون المفترون إلى أنه ثناء على عائشة وكل زوجات الرسول، إذ تنفى الآية الكريمة أن تكون أى من أمهات المؤمنين خبيثة من الخبيثات، وتؤكد على العكس من ذلك أنهن طيبات طاهرات لأنهن زوجات الرسول الطيب الطاهر.

هذا، ولم يورد الطوسى فى تفسير الآية إلا أنها فى تبرئة عائشة، وإن أورد الكلام مختصرا، ومن بين ما قاله أن "الآية دالة على كذب من قذف عائشة وأفك عليها. فأما فى غيرها إذا رماها الانسان فإنا لا نقطع على كذبه عند الله، وإن أقمنا عليه الحد، وقلنا: هو كاذب فى الظاهر، لأنه يجوز أن يكون صادقًا عند الله. وهو قول الجبائى". أما الطبرسى، وهو مِثْلَ الطوسى لم يورد إلا الرواية التى نعرفها، فقد فصّل القول فيها تفصيلا وأتى بالقصة كلها كما هى فى كتب السيرة والأحاديث، ولم يتطرق إلى ذكر سبب النزول الشيعى المزعوم الذى يحول هذه المكرمة إلى مذمة فى حق السيدة عائشة فيتهمها بالنفاق ويعيبها بالعمل على تمزيق الأعراض الطاهرة النظيفة! وأما الجنابذى فقد ذكر أولا سبب النزول المعروف لنا باختصار قائلا: "قد نُقِل فى تفاسير الخاصّة والعامّة أنّ الآيات نزلت فى عائشة"، إلا أنه قد أورد عقب ذلك أيضا قصة اتهام مارية القبطية رضى الله عنها مع قوله إن هذا ما ترويه الخاصة. وواضح من كلامه مدى الارتباك عندهم فى هذه الآيات واضطرابهم ما بين قول الحقيقة ورغبة بعض مفسريهم فى عدم ترك الفرصة دون الإساءة إلى الصِّدّيقة بنت الصِّدّيق! وينقل الكاشانى الروايتين جميعا سائرا على خطا القمى مع التركيز على كل ما يسىء إلى بنت الصديق! ويبقى الطباطبائى، الذى يورد الروايتين جميعا ويناقشهما بالتفصيل موازنا بينهما مستشكلا على ما يراه باعثا على الاستشكال فى كل منهما، وإنْ فُهِم من كلامه فى النهاية أنه مع رواية عائشة للقصة، تلك الرواية التى تقول إن بعض

المنافقين وبعض المسلمين الذين انخدعوا بهم قد ولغوا فى عرضها رضى الله عنها، إلا أنه لم يكن حاسم الوضوح تماما فى موقفه.

النساء فى الإسلام

هذا الفصل يدور حول بعض الموضوعات التى تتعلق بالنساء: الحجاب والميراث والضرب وما أشبه. فأما فيما يتعلق بالحجاب فيقول د. أكرم ندوى إن ارتداء الحجاب ينبغى أن يتْرَك للمرأة نفسها: إن شاءت ارتدته، وإن لم تشأ فهى حرة. وقد ذكر النبى أنه لا يجوز، متى بلغت المرأة المحيض، أن يظهر منها سوى وجهها وكفيها. وذلك حينما شاهد أسماء بنت أبى بكر تلبس ثيابا شفافة، فبان عليه الغضب،إذ "إن أسماءَ بنتَ أبى بكرٍ ... دَخَلَتْ على النبى فى لِباسٍ رقيقٍ يشِفُّ عن جسمِها، فأعرض النبى عنها وقال: "يا أسماءُ، إن المرأةَ إذا بلغتِ المَحِيضَ لم يصْلُحْ أن يرَى منها إلا هذا وهذا". وأشار إلى وجهِه وكَفَّيهِ". فهل المقصود مما يقوله الرسول عما يجب على المسلم فعله أو الانتهاء عنه أن يسمع المسلم ما قاله نبيه فقط ثم هو بالخيار بعد ذلك، وكأن الرسول لم يقل شيئا؟ إذن ما فائدة مجيئه بالإسلام إذن؟ أتراه جاء تسديدا للخانات فحسب، ثم لا حرج على المسلمين إذا لم يفعلوا ما أمرهم به أو ينتهوا عما نهاهم عنه؟ أيقف الأب مثلا موقفا سلبيا من ملابس زوجته وبناته فلا ينطق بكلمة سواء تحجبن أو لم يتحجبن؟ وأين ذهب إذن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بدرجاته الثلاث بدءا من التغيير بالأيدى، ومرورا بالتغيير باللسان، وانتهاء بالتغيير بالقلب؟ أنهمل هذا كله ويلوذ الآباء والأزواج والعلماء والسلطات بالصمت تاركين الأمر لهوى البنت أو الزوجة أو الأم مثلا، وكان الله يحب المحسنين؟ هل أتت نصوص القرآن والحديث لسماعها فقط دون العمل بها بحيث إذا ألفينا من حولنا خرجوا على تعاليم الإسلام سكتنا فلم نقل أو نفعل شيئا؟

وسر تعجبى هنا هو أن ملابس المرأة لا تخصها وحدها بل تترك أثرها فيمن يراها. فإذا كانت متبرجة أثارت الفتن والشهوات، وهذا يؤدى إلى معاناة الرجال، والشباب منهم بوجه خاص. صحيح أن الرجل عليه الاعتصام بالعفة والتهذيب والخلق الكريم، بيد أنه بحاجة فى ذات الوقت إلى ما يساعده على ذلك لا إلى ما يدمر له أعصابه ويستثيرها بشكل خطر. أنا أعرف أن هذا الأمر ليس من أركان الإسلام كالإيمان بالله وبالرسول والصلاة والصيام والزكاة والحج، لكن أثره وخطره رغم ذلك كبير. إن نصوص الشريعة بالنسبة إلى المسلم هى كالقوانين بالنسبة إلى غير المسلم، فهل يجوز أن ينص القانون على شىء ثم لا تحاسب الدولة من يكسر ذلك النص؟ هل يمكن أن يقول القانون مثلا إن استعمال زمارة السيارة ممنوع، ثم يسمع الشرطى زمامير السيارات فى كل مكان فلا يهتم ولايلتفت بحجة أنه لا ينبغى أن يجبر الناس على شىء؟ إن الضمير الإنسانى، بل والضمير الحيوانى أيضا إن صح التعبير، إنما

يتكون من تلك الضغوط والإلحاحات والخوف من ألـم العقاب، فإذا تركنا الحبل على الغارب انتهينا بألا يهتم أحد بأداء واجب أو ترك حرام. والله قد خلق جنة ونارا، فهل نقول له: لم خلقت يا ألله الجنة والنار، ولِمَ تترك الناس تتصرف بمزاجها؟

أما قول ندوى إن مظاهر التقوى لا تجعل من الإنسان شخصا تقيا فأنا معه قلبا وقالبا فى هذا، لكننا هنا لا نتحدث عن التقوى بل عن أخطار التبرج. وهل يمكن أن يجادل الخارج على القانون قاضيه فى المحكمة بأن مراعاة القانون لا تجعل من الشخص مبجِّلا حقا للقانون، ومن ثم فلا حرج عليه إذا كسره؟ إن معظم الناس يراعون القانون دون أى شعور بالاحترام أو التبجيل بحيث لو أتيحت لهم فرصة الخروج عليه فى أمان لما تلكأوا هنيهة واحدة. فليكن! المهم مراعاة القانون حتى تصبح حياة الناس أيسر وأكثر راحة. وقد قيل: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. والقانون، متى طُبِّق، كفيل بتأديب من لم تؤدبه أمه وأبوه. والناس تنصاع للقانون خشية العقاب المالى والبدنى. ومن هنا أرانى لا أهتم كثيرا بقول د. ندوى: " Governments couldn't legislate their citizens into submission"، إذ المهم أن ينصاع الناس للقانون، ثم سواء بعد هذا كرهوه أو أحبوه. وبطبيعة الحال أنا أفضل الانصياع عن اقتناع، لكنى فى نفس الوقت أعى أن انتظار هذا اللون من الانصياع من كل الناس أو حتى من معظمهم هو تضييع للوقت فى غير طائل.

ولكى أضع حدا للجدال أقول إن الرسول الذى قال: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا (ويشير إلى صدره)" هو نفسه الرسول الذى قال أيضا إن المرأة متى بلغت المحيض لم يحلّ لها أن تبدى شيئا من جسدها أمام الرجال سوى الوجه والكفين. فهل كان الرسول لا يعرف أن التقوى ليست فى الملبس بالضرورة؟ ومع هذا فإذا التزمت المسلمة عن طيب خاطر بالوصايا الخاصة بملابس النساء ورأت ذلك من مقتضيات الإيمان فإن الملابس فى هذه الحالة تكون دليلا على التقوى. وإلا فهل المتقية هى التى تكشف عن جمالها وفتنتها؟ إن من تكشف عن جمالها وفتنتها لا تتحلى بالتقوى لأنها عاصية لله ورسوله ومحادّة لتشريع الأمة التى تنتمى إليها أو على الأقل: غير مبالية به.

إن التقوى هى أمر خاص بين الله وصاحبها، أما الالتزام بالشريعة فهذا هو ما نستطيع التعامل معه. فمثلا فى بريطانيا تسمع كل واحد يقول للآخرين فى أى تعامل بين اثنين: "شكرا". وهذا ما يهمنا، ثم سواء بعد ذلك أقالها من قلبه مخلصا أم قالها من طرف اللسان. المهم أنه قالها، وأن قولها يضفى على

التعامل اليومى نعومة وسلاسة يفتقر إليها التعامل فى بلاد أخرى لا تعرف كيف تقول: شكرا. كذلك هناك فى بلاد الغرب من يتبرعون بالثروات الهائلة للمؤسسات العامة والخيرية، وقد يكون هذا لونا من الاستعراض. فليكن! المهم أن المجتمع قد استفاد، أما فيما بينه وبين الله فلنتركه لله سبحانه لأنه ليس من اختصاصنا. ومن هنا ترانى كلما هاجم بعض الناس الراقصات اللاتى يقمن فى رمضان مأدبة الرحمن قائلين إنهن يبغين الشهرة، وإن فلوسهن مكتسبة من الحرام، كان جوابى: فأما النية من وراء مآدب الرحمن فلنتركها لله. المهم أن يجد الفقراء طعاما شهيا مخدوما طيلة هذا الشهر. وإلا فأين التقيات؟ ما بالهن لا يقمن مآدب رحمن كهذه تدخل البهجة على قلوب المسحوقين؟ ربما لم تكن التقيات بهذا القدر من الغنى الذى يمكّنهن من صنع مثل تلك المآدب. وإذن فلندع المستطيع يطعم من لا يستطيع توفير الطعام. ويوم القيامة يجازى الله كل إنسان بما يرى سبحانه. ثم إن هذه الفلوس الحرام هى من حق الفقراء العاجزين ذهبت بطريق الخطإ إلى هازّات أوساطهن.

كذلك أنا مع كارلا باور فى تعجبها من النساء اللاتى يرتدين مثلا طرحة يغطين بها شعرهن، وفى ذات الوقت يلبسن سراويل محزقة. وسر تعجُّبها هو هذا التناقض بين مراعاة الحجاب بالنسبة لغطاء الرأس واللامبالاة به بالنسبة للسراويل. لكننى رغم هذا أرى أن "قضاءً أخفُّ من قضاء" كما يقول العامة. فقد كانت أجساد الشباب ملتهبة على الدوام فى ستينات القرن الماضى، ونفسياتهم مضطربة، وضمائرهم تلذعهم دائما حين كانت الفتيات يلبسن الميكروجيب والمينى جيب ويكشفن عن أذرعهن وصدورهن وشعورهن ويتفنن فى تجميل أنفسهن وتسعير الفتنة عند الرجال والشبان، وما من مغيث. فلا شك أن ما تفعله بعض البنات والنساء اليوم من الالتزام بالحجاب فى بعض النواحى وإهماله فى بعض النواحى الأخرى أخف وطأة، والله العظيم، مما كان منتشرا آنذاك ويمزق أعصاب الشباب تمزيقا. ومع هذا فأنا دائم الانتقاد للمتحجبات والمتنقبات اللاتى لا أجدهن أنشط من غيرهن فى طلب العلم ولا يترددن على المكتبة ولا يكْبِبْن على القراءة ولا يستعملن عقولهن فى التفكير فيما يدرسن ولا يشاركن فى المحاضرة بسؤال أو جواب ولا يناقشننى، متسائلا فى مرارة وغيظ: أىّ تدين هذا الذى يدفعكن إلى التزام الحجاب والنقاب ولا يدفعكن إلى تثقيف عقولكن وأذواقكن؟ ثم أقول للطلاب والطالبات فى حب لهم وغضب منهم فى ذات الوقت: أتظنون أن الجنة سهل دخولها لمن لا يقرأون ولا يفكرون ولا يهتمون بتحصيل العلم ولايحضرون الدروس ولا يمتنعون عن إلقاء القمامة وتشويه كل ما تناله أيديهم وإشاعة الفوضى والإزعاج فى كل مكان؟ إن الجنة إنما يدخلها الراقون المتحضرون. أقصد

الرقى والتحضر الإسلامى الملتزم بالصلاة والصوم والزكاة والقراءة ورهافة الذوق والعطف على الفقراء والمسحوقين...

أما الجلف الغبى الذى يرفس النعمة فلا ينتهز وجوده فى المدرسة أو الجامعة ليقرأ ويتعلم ويصقل ذهنه ويصفى ذوقه فلا أدرى كيف يمكن أن يدخل الجنة. ثم أضاحكهم قائلا: إنكم لو دخلتم الجنة لقلبتموها ضجيجا وأكوام زبالة وخناقات على التفاهات وكسلا وتبلدا. فهل هذه هى الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين؟ لكنهم يستمرون فى سرحانهم عنى ولامبالاتهم بما أقول حتى إنى لأستغرب جدا إذا ما كتب أحدهم على صفحتى فى الفيس بوك مثلا إنه يحبنى ويحب محاضراتى وإنه قد استفاد منها وإنه أحب القراءة من كثرة إلحاحى عليها ونخسى إياهم من أجل تحبيبهم فيها، وأعدّ ذلك مجرد مجاملة لأن الثمرة التى أجنيها آخر العام فى أوراق الإجابة ثمرة هزيلة معطوبة لا تصلح فى الواقع لشىء ذى قيمة. لكنى، رغم هذا كله وأكثر من هذا كله، أعود فأقول: إن هذا لا يعنى أن نهمل أمر ملابس المرأة مثلا، ففَشَلُنا فى جانب من جوانب التدين لا يعنى أن نعممه على كل الجوانب.

أما النقاب فلا أحبذه، وإن كنت لا أتدخل فى شأن من ترتديه، فالمسألة مسألة حرية شخصية. إلا أننى فى ذات الوقت لا أفهم ولا أقبل إهمال المنتقبة لقيم دينها الأساسية كالقراءة وتغذية العقل وتعهد الذوق بالترقية ومراعاة اللياقة العالية فى التعامل مع الآخرين والاهتمام بالمظهر والملبس بحيث تكون نظيفة ومهندمة بقدر الإمكان. نعم على المنتقبة أن تعرف أن الانتقاب فى ذاته لا يعنى شيئا، إذ المهم مبادئ الإسلام العظيمة التى من شأنها نقل صاحبها من الهمجية والتوحش، أو على أقل تقدير: من التخلف والتقهقر، إلى أعلى درجات الرقى والتحضر. إن أمةً تبرقش شوارعَ كثير من البلاد التى تنتمى إليها أكوامُ القاذورات والفضلات، وتعطر أجواءها النتاناتُ والروائحُ الكريهات، وتُطْرِب الآذانَ فى أرجائها أبواقُ السيارات المزعجات وتسابُّ المخلوقات، وتتسم مواعيد أهلها بالخلف والخداع، ومعاملاتهم بالفَهْلَوة والبكش، يجب أن تخجل من نفسها حين تظن أنها أمة متدينة لمجرد أن نساءها منتقبات ورجالها ملتحون، وهواتفها المحمولة تردد النغمات الدينية كلما طُلِبَتْ أرقام أصحابها، وأن الناس متى تكلموا عن وقوع شىء فى الماضى قالوا وهم يسبّلون أعينهم: وقع هذا الأمر الأسبوع الماضى إن شاء الله. فإذا أبديت استغرابك من هذا التنطع أجابك المتحدث بوقار زائف بأنه يجب أن يقدم المشيئة. ثم يتلو عليك قوله تعالى: "ولاتقولنَّ لشىء: "إنى فاعلٌ ذلك غدًا" إلا أن يشاء الله". فإذا ما قلت له: إن الآية تقول: "غدا"، أى أن الكلام فى الآية عن المستقبل لا الماضى ولا حتى الحاضر، رد

عليك بمزيد من السخف: لكن هل هناك شك فى أن كل شىء يتوقف على المشيئة. ترى ماذا يمكن أن تقول لمثل هذا الخفيف العقل؟ ألا خيبة الله على الغباء وأهله!

وقد لفت نظرى مع هذا ما قرأته من أن د. أكرم، حين رأى ابنته ذات يوم منتقبة، كان كل همه أن يتأكد من أنها قد ارتدته من تلقاء نفسها لا انصياعا لأحد آخر. وكنت أحب لو أنه أفهمها حكم النقاب ومدى أهميته أو عدم أهميته فى الإسلام، على الأقل: أسوة بما يقوله فى دروسه من أن هناك فرقا بين الإسلام وتشريعاته من جهة وبين العادات المحلية من جهة أخرى، إذ لا يعقل أن يهتم بتوضيح ذلك للآخرين ويترك ابنته دون توضيح. كما يفهم من كلامه أيضا أنه فوجئ بها منتقبة وهو ينتظرها بالسيارة لينقلها إلى حيث هى ذاهبة. فهل يعقل أن تتخذ الابنة قرارا كهذا بغتة حتى ليفاجَأ أبوها بذلك وهو ينتظر فى السيارة خروجها من البيت؟ إن مثل تلك الأمور تسبقها مناقشات وحوارات ولا تبنت فى رؤوسنا فجأة على هذا النحو. كما أن قول كارلا باور إن الابنة كانت ترتدى النقاب أو تهمله حسب المنطقة التى تكون فيها من لندن: فإن كان سكان تلك المنطقة من المتسامحين مع النقاب انتقبت، وإلا طرحته. ذلك أن الأمر لا يستأهل كل هذا الاضطراب والحيرة. أما قولها إنها كانت تجد فيه راحة نفسية وشعورا بالخصوصية لأن أحدا لا يراها فهل يستحق فى تلك الحالة كل ذلك الاهتمام؟

وبالنسبة لميراث المرأة فقد سارعت كارلا باور إلى القول بأن المرأة ترث دائما نصف ما يرثه الرجل، وإن كانت قد ذكرت أيضا التوضيح الذى يساق عادة لتعليل هذا التفاوت بين الميراثين، وهو أن الرجل ينفق ماله على متطلبات الأسرة فى حين تحتفظ المرأة بمالها كاملا دون أن تتجشم شيئا منه تجاه أفراد أسرتها. وهو ما أكده لها د. أكرم وزاد فأخبرها أنه هو الذى ينفق على أسرته دون أن يمد يده لشىء مما تكسبه زوجته من أعمال الخياطة بل دون أن يسألها عن أى شىء يتصل به، وإن كان يعلم أنها أحيانا ما تبعث به إلى أسرتها فى الهند. وذلك احتراما منه لتعاليم الإسلام فى هذا الصدد. لكن لا بد أن نبين أن ميراث المرأة ليس دائما نصف ميراث الرجل كما تظن كارلا باور وكثير من الناس، إذ كل ما يعرفونه هو قوله تعالى: "يوصِيكم الله فى أولادكم: للذكر مثلُ حظ الأُنْثَيين"، غافلين عن أن هذا النص إنما يتعلق بتوزيع ميراث الأبناء من آبائهم وأمهاتهم لا غير، وأن هناك نصوصا أخرى فى القرآن والحديث تبين أن تقسيم الميراث يتفاوت باختلاف وضع كل حالة من حالاته. فما يظنه إذن بعض الناس من أن المرأة ترث دائما نصف ميراث الرجل هو ظن غير صحيح إلا فى أربع حالات فقط فى مقابل حالات كثيرة ترث فيها المرأة أكثر مما يرث الرجل، وحالات أخرى يعطى الإسلام المرأة فيها مثل الرجل، إلى جانب

حالات خمس تأخذ فيها أكثر مما يعطى الرجل، وحالات خمس أخرى ترث فيها، ولا يرث الرجل شيئا، وهو ما يجده القارئ مفصلا فى كتب المواريث. وعلى هذا فما يتردد على ألسنة الناس من أن الإسلام يعطى المرأة من الميراث دائما نصف ما يعطيه الرجل هو كلام غير دقيق. وعلى الناحية الأخرى نجد أن المرأة فى كثير من الحضارات تُحْرَم من الميراث تمام الحرمان.

هذا فى الميراث، أما فى القوامة فيقول د. ندوى إن المرأة يمكن فى الإسلام أن تكون عالمة ومفتية أو تعمل فى أى عمل آخر، أما فى البيت فللرجل القوامة، بمعنى أنه هو الذى يتكفل بمصاريف الأسرة وتحقيق متطلباتها. إلا أنه يسارع إلى القول بان القوامة لا تعنى أن الرجال أفضل من النساء، إذ الإسلام يسوى بين الطرفين يوم القيامة. والحق أن بعض ما قاله الندوى صحيح، فالحساب سيكون واحدا للجميع دون محاباة للرجل ضد المرأة بتاتا. وهو ما يترتب عليه أن الرجل يمكن جدا أن يقْذَف به فى النار وتذهب زوجته إلى الجنة مثلما يكون العكس. كما يؤكد الإسلام أن الذكر والأنثى قد خُلِقا من نفس واحدة لا أن الرجل خُلِق أولا ثم خُلِقت المرأة من أحد ضلوعه.

أما قوله إن الإسلام لا يفضل الرجل على المرأة فمن الواضح أنه يتجاهل قوله تعالى: "الرجال قَوّامون على النساء بما فضَّل اللهُ بعضَهم على بعض... ". إن كثيرا من النسويات والنسويين يعللون تأخر المرأة عن الرجل بأن الرجل قد قمعها بقوته العضلية. ورغم أننا لا نسلم لهم بهذه الحجة، لأن كثيرا من الناس رجالا ونساء يسودون جماعاتهم التى ينتمون إليها رغم وجود من هم أقوى منهم عضليا، فلا جدال مع ذلك فى أن التفوق العضلى ميزة ينفرد بها الرجل ويتفوق بها على المرأة. فلو افترضنا أن النوعين متساويان فى سائر صفاتهما تمام التساوى كان معنى ذلك أن فى الرجل شيئا يزيد به على المرأة ويعطيه من ثم حق الصدارة. ثم هناك سؤال غاية فى الأهمية هو: متى يا ترى تم اختطاف الرجل سيادة المرأة على الأسرة؟ ولأى سبب؟ هل كانت المرأة قبل ذلك أقوى من الرجل عضليا، ومن ثم استطاعت أن تقهره آنذاك، إلى أن جاء وقت ضعفت فيه عضليا وقوى هو فانتزع منها الزعامة؟ فهل كانت المرأة كذلك فعلا فى يوم من الأيام؟ فما الدليل؟ وكيف تم هذا؟ ومتى؟ ثم إذا كانت المرأة الآن قد نالت حقوقها التى كانت محرومة منها قبلا فهل صارت عضليا أقوى من الرجل بحيث أكرهته على تسليمها حقوقها دون مشاكسة؟

إن د. نوال السعداوى، فى كتابها: "الأنثى هى الأصل"، تنقل عن أحد العلماء أن المرأة البدائية كانت أقوى من الرجل جسدا. لكن هذا رجم بالغيب ليس عليه دليل، وهذا العالم نفسه يقول إننا لا

نملك شيئا عن تلك المرحلة، فكيف عرف إذن ما يزعمه عن التفوق الأنثوى على الرجل آنذاك جسديا؟ ثم كيف يا ترى تغلَّب الرجل على المرأة، وقد كانت أقوى منه؟ هل عبث أحد بالتركيب البيولوجى للرجل والمرأة؟ لكن هل كان العلم فى تلك المراحل البدائية السحيقة من تاريخ البشرية متقدما إلى هذا الحد؟ بل هل كان هناك علم أصلا فى ذلك الزمان؟ ولنفترض أنه كان هناك علم متقدم يستطيع أن يتلاعب فى بيولوجيا النوعين، فكيف استطاع الرجال أن يفعلوا ما فعلوا بحيث يتخلصون من ضعفهم ويصيرون هم الأقوياء بدلا من النسوة؟

وإذا كان جون ستيوارت مِلْ مثلا، فى كتابه: "The Subjection of Women"، ينكر أن يكون للتفوق العضلى أية قيمة فى هذا السبيل بحجة أن الفيل أقوى عضليا من الإنسان، ومع هذا فليست قوة عضلاته ميزة يمتاز بها عليه، فالرد سهل جدا لمن يريد. فنحن لا نقول إن الرجل لا يملك مثل الفيل سوى القوة العضلية، ثم تتفوق المرأة عليه بعد ذلك بعقلها كما يتفوق الإنسان على الفيل بعقله، نحن لا نقول هذا، وإلا لكانت المرأة تلقائيا هى صاحبة القوامة مثلما أن الإنسان هو الذى يقود الفيل حسبما يريد ويستخدمه فى أعماله لا العكس رغم تفوق الأخير على الأول فى الحجم والقوة الجسدية. ذلك أن العبرة فى تلك الحالة بالفكر والذكاء والدهاء والتخطيط، بخلاف الأمر فى المقارنة بين الرجل والمرأة، اللذين لو قلنا فَرْضًا بتساويهما التام فى العقل والذكاء والاختراع والإبداع وسائر الصفات المعنوية لبقى أن الرجل يمتاز عليها بالقوة العضلية، وهذا عاملٌ مرجِّحٌ شديد الأهمية، إذ هو فى نظر النسويين والنسويات السبب فى تسيده عليها منذ فجر التاريخ حتى عصرنا هذا، وليس ذلك بالشىء القليل. ومن النسويين والنسويات من يؤكدون أنه ليس هناك أى دليل علمى على أن المرأة أقل من الرجل عقليا ولا فسيولوجيا.

ونبدأ بالتفوق العضلى، فهل تفوُّق الرجل على المرأة فى هذه الناحية أمر تمكن السفسطة فيه؟ هل تستطيع المرأة أن تحمل من الأثقال ما يحمله الرجل؟ هل تستطيع أن تسوق الحافلة والقطار والطائرة والغواصة والرافعة ووابور الزلط، أو على الأقل: هل تستطيع أن تسوقها بنفس الكفاءة التى يسوقها بها الرجل؟ ترى هل يمكنها أن تحارب كما يحارب هو، وتخوض المعارك الطاحنة كما يخوض هو، وتطلق المدافع والصواريخ وتلقى بالقنابل كما يفعل هو؟ ترى هل يمكنها تكسير حجارة الجبال كما يكسّر هو؟ وهل يمكنها أن تشتغل بإنقاذ الغرقى والمدفونين تحت الأنقاض كما يشتغل هو؟ ثم هل لها من الإنتاج الفكرى والأدبى مثل ما له هو؟ بل هل اشتهرت بالطباخة وتصميم الأزياء على مستوى العالم كما اشتهر

هو؟ وهل تؤدى كل العمليات الجراحية كما يؤدى هو؟ فلماذا إذن المناطحة والمعاندة، وكأننا فى حربٍ عَوَانٍ بين الرجال والنساء، ولسنا فى مجال تعاون وتناصح واحترام متبادل؟ وعلى هذا فلست أرى وجاهة فى الاعتراض على أن يكون للرجل حق القوامة بل ينبغى أن تشاركه المرأة فى هذا أيضا. ذلك أن كل مؤسسة لا بد لها من رئيس ترجع إليه الأمور فى نهاية المطاف. وليست الأسرة بدعا فى هذا، وكما أنه لايصح أن يقول المرؤوسون فى أية مؤسسة إنهم ينبغى أن يشتركوا جميعا فى رئاستها لأنهم لا يقبلون أن يكون هناك رئيس عليهم فكذلك لا يصح أن يقال هذا عن قوامة الأسرة. ويشير د. ندوى فى هذا الصدد إلى أن تقسيم القوامة بين الرجل والمرأة يشبه أن يكون هناك حاكمان للبلد الواحد، مما لا يقول به أحد لأنه يفسد ولا يصلح. ولكن لا بد للرجل أن يستشير زوجته ويستأنس برأيها مع هذا.

وعن تفضيل الرجل فى القرآن على المرأة درجة تؤكد د. أمينة ودود فى كتابها: " Qur'an and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman's Perspective" أن هذه الدرجة ليست حقا مطلقا لكل الرجال فى كل العصور وفى كل الظروف، بل هى فى الطلاق فقط، بمعنى أن الرجل من حقه تطليق زوجته دون حَكَم أو مساعدة، على حين لا يحق للمرأة الحصول على الطلاق إلا من خلال قاض. ولكن فاتها أن الرجل لا يطلق امرأته إلا بعد أن يعظها ويهجرها فى المضجع ويوسط حكما من أهله وحكما من أهلها. علاوة على أن من حق المرأة أن تخلع نفسها، وهو ما يساوى الطلاق، دون شرط الرجوع إلى القاضى. ثم إن الكلام فى الآية مطلق وغير مقيد بالطلاق لا لفظا ولا سياقا. ثم ماذا نصنع بقوله تعالى: "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم"؟ كذلك هناك الأحاديث التى تتحدث عن فضل الرجل على المرأة والتشديد على طاعتها له وما إلى ذلك مما أوردنا بعضه فى هذا الفصل.

وتضيف ودود أن هناك تفضيلات مختلفة فى القرآن منها تفضيل البشر على جميع المخلوقات، وبعض الجماعات على بعض، وبعض الأفراد على بعض، ومنها أيضا تفضيل بعض الرسل على بعض. وهى ترى أن هناك شرطين لتفضيل الرجال على النساء: أن يكون الرجل فعلا أفضل من المرأة فى الواقع، وأن ينفق عليها. فإذا انخرم أحد الشرطين أو كلاهما لم تعد هناك أفضلية. كما تشرح التفضيل بأن الله قد أعطى الذكر فى الميراث ضعف ميراث الأنثى فى الأسرة الواحدة، وهو تفضيل مادى، وإن لم يكن كل الرجال يحصلون على ضعف النساء. ومعنى هذا أن ذلك التفضيل المادى ليس مطلقا. وعندها أن الرجل إنما يحصل على ميراث مضاعف لينفق على الزوجة. فإذا لم ينفق فلا فضل ولا تفضيل. وبالمثل

تنفى أن يكون الرجل مفضلا بالفطرة على المرأة من ناحية القوة أو العقل لأنه ليس فى النص ما يدل على تفوقه جسديا أو ذهنيا. لكن ألا يكفى التاريخ والواقع المشاهد الذى يقول بأجلى بيان وأفصح لسان إن الرجال أقوى جسديا من النساء؟ أتُرَى فى هذا شك أو جدال؟ ألا يكفى التاريخ والواقع الحى شاهدا على أن الرجل متفوق عقليا على المرأة؟ وإلا فأين عدد المفكرات أو الفيلسوفات أو الشاعرات أو المخترعات المساوى لعدد نظرائهن من الرجال؟ بل أين عدد مصممات الأزياء والطباخات المشهورات وشاعرات المراثى المساوى لعدد نظرائهن من الرجال؟ ثم تمضى الكاتبة قائلة إن الآية لا تقول بأفضلية الرجال على النساء بل بأفضلية بعض الرجال على بعض النساء. تقصد أن القرآن يقول: "بما فضَّل الله بعضهم على بعض"، وهو تفسير غريب يدل على جهلها باللغة العربية بل باللغة عموما أو على تدليسها وانحيازها، إذ إن هذا التركيب يدل على أفضلية الرجال على النساء، وإلا فلماذا جعل الله القوامة للرجال على النساء بإطلاق ما دام الفضل منحصرا فى بعضهم فقط بما يدل على أن بعض النساء بالتالى أفضل من بعض الرجال، مما كان يستلزم أن يقول القرآن مثلا: "والنساء أيضا قوامات على الرجال بما فضل الله به بعضهن على بعض"؟ ولقد ترجمتِ الآية بناء على هذا الفهم الجاهل أو العابث للقرآن. ثم لماذا خاطب الله الرجال محددا لهم الخطوات التى ينبغى لهم اتباعها عند نشوز المرأة وقبل اللجوء إلى الطلاق بما فيها الضرب، ولم يصنع ذلك مع الجنس اللطيف، إلا أن يكون السبب هو أن الرجال قوامون على النساء وأن الله قد فضلهم عليهن؟

وهى ترفض أن يكون معنى قوله عز شأنه: "الرجال قوامون على النساء" هو أنهم مكلفون بهن، إذ المرأة، كما تقول، لا تفقد حريتها وتصرّفها فى نفسها إلا فى حالة الجنون فقط. كما تؤكد عدم دلالة الآية على تفوق الرجل المطلق على المرأة، بل على أن دوره هو الإرشاد والرعاية الأخلاقية. لكن إذا كان الأمر كذلك أليس معناه أن الرجل متفوق على المرأة بحيث يوكل له هذا الإشراف وتلك الرعاية؟ ثم تتساءل: هل كل الرجال قوامون على كل النساء؟ وجوابها أن الرجل قوام على زوجته فقط، وترفض أن يكون الرجال فى المجتمع كله قوامين على النساء جميعا بعكس ما يقوله بعض العلماء حسب كلامها. ثم تمضى فتقول إن إنفاق الرجل على زوجته هو للتخفيف عنها كى تنهض بمهمة الحمل والولادة والرضاعة والرعاية، تلك المسؤولية العظيمة التى تحتاج إلى ذكاء وقدرة على التحمل. فإنفاق الرجل على المرأة مسؤولية فى مقابل مسؤولية أخرى شديدة الأهمية، مسؤولية لا يستطيع أحد أن يقوم بها سوى المرأة. وعلى هذا فهل، إذا كانت المرأة عاقرا، تستحق أن يظل الرجل قواما عليها؟ وماذا لو كان

دخل الرجل وحده لا يكفى للقيام بحاجات الأسرة كما فى كثير من المجتمعات المعاصرة؟ وماذا لو كان الرجل عاجزا عن إعالة الأسرة كما فى أمريكا فى عصر العبودية حينما كانت المرأةُ الأَمَةُ هى التى تعمل وتعول سائر الأسرة؟ كل هذه المشاكل غير قابلة للحل كما تقول إذا نظرنا إلى آية "النساء" من زاوية ضيقة. ومن هنا تؤكد أنه لا بد من مراجعة فهمنا للقرآن فى ضوء المتغيرات المستجدة. لكن فات ودود أنه كان هناك نساء يعملن فى عصر الرسول، فضلا عن أن كل امرأة كانت تقوم بأعمال البيت، وقد تشترك فى تمريض جرحى الحروب وسقى الجنود، ومع ذلك لم يقل الرسول ولا أحد منهن بما تقول به ودود.

وبالنسبة إلى النشوز تؤكد كاتبتنا أن آية سورة "النساء" التى نحن بصددها: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيا كَبِيرًا" لا تطلب من المرأة أن تطيع زوجها، إذ إن كلمة "قانتات" لا تدل على ذلك، بل تستعمل للذكر والأنثى على السواء، وتشير إلى سمة من سمات المسلم والمسلمة فيما يخص علاقتهما بالله، ومنها أن يتعاونا معا وأن يخضعا لله سبحانه، أما الطاعة بين البشر فلها كلمة أخرى. وعلى هذا فما دام النشوز يقع من الطرفين فلا معنى أن نفسره بأنه عصيان الزوجة كما تقول. وهى ترى أن الحل الأول حسب اقتراحها، أى التفاهم بين الزوجين وحدهما أو بمساعدة حكمين، هو الأفضل لأن النشوز مذكور فى الحالين: حالة الرجل وحالة المرأة. لكن قد فاتها أنه لا يوجد وعظ من المرأة للرجل فى آية "النساء" التى تتحدث عن خوف المرأة من نشوز زوجها عليها أو هجرانها له فى المضجع. بل إن الرسول ليدين المرأة التى تستعصى على رجلها.

وعودة إلى كارلا باور وكتابها عن د. أكرم ندوى نراها تقول إنه قد بقى أمامهما مناقشة أشد النقاط إثارة للجدل فيما يتصل بحقوق النساء. وإنى لأستغرب أشد الاستغراب فيم كل هذا الاهتمام بجدال تلك الصحفية للدكتور أكرم ندوى. إنها لن تُسْلِم ولا تنوى أن تسلم أبدا، فموقفها من هذا الأمر واضح لا يحتمل لبسا. إذن فماذا تريد؟ والجواب هو أنها تريد تغيير موقف الندوى كى يتلاءم مع وجهة النظر الغربية، وهى تسلك إلى هذه الغاية كل السبل الممكنة. وإلا فكيف فاتها، وهى الواسعة الأفق التى تحترم التعددية كما تلح دائما على القول، أن الأمم تختلف فى أديانها وأنظمتها الفكرية والتشريعية؟ وكيف تتصور أن الغرب هو المقياس الصحيح المطلق الصحة فى كل شىء؟ ولماذا هذا

الإلحاح على تغيير التشريع الإسلامى فى الوقت الذى لا تحاول أبدا الاقتراب من مخازى الغرب فى تعامله معنا ومع غيرنا حتى فى مجال حقوق الإنسان وحقوق النساء بالذات؟ من يا ترى يغتصب نساء المسلمين فى العراق مثلا؟ أليسوا هم الأمريكان؟ ومن مكَّن لإسرائيل اغتصاب فلسطين والاعتداء على حرائرها فيمن اعتدى اليهود عليهم سجنا وقتلا واغتصابا وبقرا للبطون وتعذيبا للذرية؟ أليس الأمريكان فى طليعة من يعضد اليهود ويحميهم حتى من صدور أية إدانة فى المؤسسات الدولية رغم ما نعرفه من أن أمثال هذه الإدانات لا قيمة لها ولا يترتب عليها شىء؟ ومن يعتدى على المسلمات فى شوارع أمريكا؟ أليسوا هم المواطنين الأمريكان؟ وهذه مجرد أمثلة قليلة تافهة، وإلا فسِجِلُّ مخازى أمريكا فى تعاملها مع المسلمين محشوٌّ بكل ما هو مجرمٌ وحشىٌّ. فلماذا تصمت المؤلفة عن هذا الجانب من أمورهم معنا ومع نسائنا، وتروح تجادل فى كل شىء وتشكك فى كل شىء يختص بالإسلام، والشيخ مُسْلِمٌ نفسَه لمجادلاتها وتشكيكاتها وكأنها تملك مقياس الصواب والخطإ المطلق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ وليس لهذا كله سوى مغزى واحد، وهو أننا ضعفاء، ونمثل الحائط المائل فى ساحة العلاقات الدولية، ومن ثم تجرؤ كاتبتنا على التعامل معنا بهذه الطريقة.

أما الموضوع الذى ترى الكاتبة أنه أشد الموضوعات إثارة للجدل فهو الآية التى تتعرض لضرب النساء. ومن المعروف أن الرجال فى كل حضارات العالم منذ أقدم العصور حتى الآن بما فيها الدول المتقدمة ثقافيا وصناعيا واقتصاديا كأمريكا وفرنسا وبريطانيا قد يضربون زوجاتهم رغم إيقاف العمل بالقانون الذى كان يبيح للرجل فى أمريكا وبريطانيا مثلا أن يضرب زوجته لتأديبها، إلى جانب أن هناك بطبيعة الحال زوجات يضربن أزواجهن. وقد قرأت منذ عدة أيام عن زوج أمريكى ظلت زوجته تضربه وتهينه حتى تحطم قوس صبره، فقتلها. فما موقف الإسلام من قضية ضرب الرجل لزوجته؟ بوجه عام لا يحب الإسلام أن يضرب الرجل زوجته أو يهينها. وقد شدد الرسول فى ذلك إذ يقول: "لا يَجْلِدْ أحدُكم امرأته جَلْدَ العبد ثم يجامعها فى آخر اليوم". ولم يحدث قط أن ضرب صلى الله عليه وسلم أيا من زوجاته. بل إنه لم يضرب أية خادمة عنده. وأقصى ما قاله لإحدى الخادمات حين أخرجته عن حِلْمه إنه لولا خوفه من الله وسؤاله له يوم القيامة لأوجعها بالسواك الذى فى يده. فعن أم سلمة زوجته رضى الله عنها: "دعا النبى صلى الله عليه وسلم وصيفة له، فأبطأت عليه، فقال: لولا مخافة اللوم يوم القيامة لأوجعتُكِ بهذا السواك".

وفى القرآن آية يخطئ بعض الناس فيظنون أنها إيجاب لضرب النساء لأنها تستخدم فعل الأمر، جاهلين أن الأمر كثيرا ما ينصرف إلى أغراض بلاغية أخرى غير الأمر، فيكون للإباحة أو تقرير الواقع مثلا كما فى قول أحدنا لصديقه وهو يقدم له بعض التفاح: "كل تفاحا"، إذ ليس معنى هذا أنه يأمره أمرا لا محيص عنه بأن يأكل التفاح الذى يقدمه له، بل المقصود أن هذا تفاح، وأن بمستطاعه الأكل منه، وأن الأكل منه يدخل على قلبه البهجة. وقد يكون الصديق مع هذا صائما أو ممنوعا من أكله بأمر الطبيب أو ممن ينفرون منه، ومن ثم لا يمكنه أن يطعمه. ولا تثريب على أى منهما فى شىء: لا العارض الذى أمر ولا المعروض عليه الذى اعتذر. وعلى أية حال هناك طائفة من النساء طُبِعْن على الشَّكَاسَة والتمرد والمعصية، فماذا يفعل الرجل مع الواحدة من هؤلاء؟ يبين القرآن أنه ينبغى أن يبدأ بوعظها، فإذا لم تستجب فيمكنه أن يهملها فى الفِرَاش، فإذا استمرت فى الشَّكَاسة والعصيان فهل هناك ما يضمن ألا تفلت منه أعصابه فيضربها، وهو المسؤول عن البيت؟

وفى كتابها: "الأنثى هى الأصل" تورد د. نوال السعداوى رأى فرويد وعدد كبير من علماء النفس الغربيين الذين يرون أن المرأة مازوكية بطبيعتها، أى تحب الإيلام والإذلال. وأقترح ترجمة هذا المصطلح بـ"الاستئلامية"، أى الرغبة فى الألم والبحث عنه والتلذذ به. بل إن المرأة نفسها، كما تقول السعداوى، قد تنخدع وتظن أنها تحب الإيلام والإذلال، وتقنع نفسها بذلك حتى تقتنع أو تكاد. وأنا لست ممن يعتقدون بهذه الدعوى، وإن لم يمنع ذلك من وجود طائفة من الجنس اللطيف تستعذب هذا الشعور. على أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة المتعمقة والمتجردة من أى رأى مسبق. وهناك خلاف بين العلماء حول هذا الموضوع: فبينما يرى البعض أن المرأة مازوكية بطبعها وتحب تعذيب نفسها فى سبيل مرضاة الآخرين كأعضاء الأسرة مثلا يرى بعض آخر أن الأمر فى حقيقته لون من التضحية والتفانى فى تأدية الواجب. ويمكن القارئ الرجوع مثلا إلى مقال فى "النيويورك تايمز" بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٨٥م لجلين كولينز Glenn Collins عنوانه: "Women and Masochism: Debate Continues".

إن نوال السعداوى تزعم أن الرجال يكرهون المرأة. والحق أنهم لا يكرهونها ولا يكرهون إعطاءها حقها من الاحترام، بل كل ما هنالك أنهم يكرهون المناطحةَ من بعض النساء وجنوحَهن إلى التمرد والعصيان فى كل صغيرة وكبيرة. ومعروف أن معظم الرجال يشاورون نساءهم، إن لم يكن عن مبدإ فعلى الأقل نزولا على الطبيعة البشرية التى تحب أن تحس بأنها ليست وحيدة فى مواجهة الظروف

الصعبة والمربكة، وترغب فى الاستئناس بها عند الآخرين القريبين منهم من رأى. إلا أن بعض النساء يردن المناكفة، وهذا مما لا يساعد سفينة الزواج على الإبحار الهادئ. وإلا فكيف عاشت المرأة مع الرجل منذ الخليقة؟ أَوَكانت حياتها كلها تعاسة وشقاء وكربا أسود؟ لا نكران أنه كان هناك، وسوف يظل دوما هناك، مشاكل بين الطرفين سواء عملت المرأة خارج البيت أو بداخله. ترى أتخلو المجتمعات الغربية من المشاكل بين الرجل وزوجته؟ ألم يتفش الطلاق فى تلك المجتمعات؟ ألم تكثر الأمراض النفسية؟ ألم يظهر الاغتصاب وينتشر؟ ألا يضرب كثير من الرجال الغربيين زوجاتهم؟ ترى لماذا فشل مثلا برتراند رسل عدة مرات فى الزواج وعرف العلاقات الغرامية حتى مع المتزوجات رغم كل التقدمية فى فكره وفكر زوجاته وعشيقاته فى مجال الجنس؟ ولماذا كان هربرت جورج ويلز يخون زوجته مع سكرتيرته كلما خلا عليهما البيت؟ ولماذا خان كل من الأمير تشارلز والأميرة ديانا الآخر، واعترفا بذلك فى التلفاز على الملإ فى جميع أرجاء العالم دون أدنى إحساس بالخجل ولا مراعاة لوضعهما السياسى والاجتماعى ولا مبالاة بمشاعر أطفالهما؟ ولماذا هذه الفضائح الجنسية فى كل مكان بالمجتمعات الغربية؟ ولماذا هذا التفكك الأسرى الواسع النطاق؟ ولماذا كل هذا القلق؟ ولماذا ارتفاع نسبة الانتحار؟

لكنْ من الممكن جدا مع هذا كله أن ترفض الزوجة ضرب زوجها لها، وهذا حقها. وفى هذه الحالة إما أن تطيعه وتنبذ أسلوب العصيان والتمرد ويعود الصفاء إلى الحياة الزوجية، وإما أن تطلب منه تسريحها بإحسان وتَخْلَع نفسها منه، ويذهب كل منهما إلى حال سبيله يجرب حظه مع شريك آخر، إذ لا يصلح أن تمضى سفينة الحياة الزوجية فى مثل هذا البحر المضطرب. قال تعالى: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا "، "وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ". أما القول بأن القرآن يوجب ضرب المرأة لإصلاحها فإنه غير صحيح، إذ إن صيغة الأمر فى الآية ليست للوجوب، بل هى مجرد مقترحات يمكن أن يأخذ بها الزوج أو لا يأخذ، وتقبلها الزوجة أو ترفضها، حسب طبيعة كل حالة على حِدَة. إن قِوَامة الأسرة، أى

رئاستها، هى من حق الرجل، وإن لم يمنع أن تكون بعض النساء أقوى من الرجل شخصية، إلا أن القاعدة العامة لا ينقضها استثناء هنا أو هناك.

وهنا تذكر كارلا باور ما قاله د. ندوى من أن الضرب فى الآية المذكورة هو الضرب كما نعرفه، فكان ردها: إذن فلا يمكن أن يمكن أن يكون معناها النصح والوعظ ولا ترك البيت والذهاب بعيدا عنها؟ وقد جاءها رده الحاسم بأن الضرب يعنى الضرب، وإن لم يكن هو الحل المثالى، إلا أن للضرورة أحكاما. وهو ما سبق أن قلته آنفا. كما أشار إلى أن التأديب ينبغى ألا يتم حين يكون المؤدِّب غاضبا، وإلا فهو لا يؤدب بل ينفس عن غضبه، كما أن الضرب لا يصح أن يؤلم ولا أن يؤذى، إذ هو مجرد رمز على رفض السلوك المعوج، ومن ثم اقترح بعض الفقهاء، كما يقول، استعمال السواك مثلا فى الضرب كما هدد الرسول إحدى خادماته يوما حين أخطأت فى بعض تصرفاتها وظهر منها نوع من اللامبالاة، وإن لم يفعل ما هددها به رغم ذلك. أما بالنسبة لزوجاته فلم يحدث أن لجأ إلى ضرب أية منهن، منبها المسلمين أنه خيرهم، وفى ذات الوقت هو خيرهم مع زوجاته بما يعنى أن عليهم احتذاء سلوكه فى هذا السبيل. ثم يمضى أكرم ندوى قائلا إن ما نسمع عنه من ضرب بعض الرجال المسلمين لزوجاتهم ضربا مبرحا وإيلامهن وإيذائهن جسديا ونفسيا ليس من الإسلام فى شىء، بل هو مجرد تنفيس عن غضب الزوج أو تعبير عن غطرسته أو انتقام لكبريائه. وقد أكد الشيخ ندوى للصحفية الأمريكية أنه لم يحدث قط أن ضرب امرأته أو أحدا من أولاده.

أما تساؤل كارلا باور: "ألا يمكن أن يمكن أن يكون معنى الضرب فى الآية المذكورة هو النصح والوعظ أو ترك الزوج للبيت والذهاب بعيدا عن زوجته المتمردة؟" فلا بد له من إيضاح. ذلك أن بعض المنتسبين إلى الإسلام فى الغرب، وبخاصة فى أمريكا، قد فسروا تحت ضغط من الجو العام هناك الضرب بأنه تَرْك البيت والمضىّ بعيدا عن الزوجة. وممن قالوا بذلك لالة باختيار الإيرانية التى قامت بترجمة القرآن إلى الإنجليزية بتكليف من بعض جهات النشر هناك رغم ضعفها الشائن المزرى فى لغة الضاد. كما رددته د. أمينة ودود أيضا فى كتابها السالف الذكر، وقد أشارت كاتبتنا إلى هذه الأخيرة بإعجاب لدورها فى تفسير القرآن تفسيرا جديدا يتلاءم وأوضاع القرن الحالى كما ذكرتْ. إن د. ودود تميع معنى الضرب فتقول إنه قد يعنى ضَرْب المَثَل أو الضرب فى الأرض. وهى تفسره بهذه الطريقة كى تصل إلى القول بأنه لا يجوز للرجل أن يضرب زوجته مهما كانت الأحوال بينهما. وهذه الطريقة لا تصل بنا فى أية كلمة إلى شىء صحيح لأنه ما من كلمة إلا ولها عدة معان يحدد السياقُ المعنى المراد منها فى كل

حالة. ولا يمكن أن يكون معنى الكلمة فى سياق الآية التى نحن بصددها هو ضرب المثل أو الضرب فى الأرض. وتقفز أمينة ودود بعد ذلك إلى القول بأن الآية لا تجيز الضرب بل تضع قيودا عنيفة على تلك العادة المنتشرة آنذاك.

بيد أن الأمر يحتاج إلى مزيد توضيح، إذ لا ينبغى أن يفهم القارئ من كلامنا هنا أننا نحب إهانة النساء. لقد شرع الله تأديب الرجل لزوجته، ولكن أية زوجة تلك التى نزل من أجلها هذا التشريع؟ لا أظن أن ودود ولا غير ودود تستطيع أن تنكر أن هناك زوجات عنيدات ينزعن نحو التمرد والمخالفة لما يقوله أزواجهن دون أن يكون قد وقع منهم ما يدفعهن إلى هذا. فماذا يفعل الزوج فى هذه الحالة؟ إن الأمر أولا بيد الزوجة: فإما أن تقلع عن هذا العناد والتمرد وإما أن تطلب من زوجها أن يسرّحها بإحسان. أما أن تظل ترهقه بالعصيان والتشامخ ثم لا تريد هى ولا تريد سيداتنا النسويات أن يقوّمها زوجها فهو أمر لا يمكن فهمه ولا بلعه. كما أن التأديب يمثل الخطوة الثالثة السابقة على الأخيرة فى سلسلة العلاجات التى يستطيع اللجوء إليها قبل الطلاق لا قدر الله، لا الخطوة الأولى على ما يظن الناس، وبخاصة غير المسلمين، الذين يضربون زوجاتهم، إلا أن أحدا لا يتناول هذا الموضوع إلا للتشنيع على الإسلام فقط.

وفوق هذا فقد حذر النبى أتباعه من المسارعة إلى ضرب الزوجات أو تجاوز الحد فى ذلك، موضحا أن هذا بوجه عام أمر لا يليق، بمعنى أنه علاج لا ينبغى اللجوء إليه إلا عند الضرورة القصوى حين تنسد كل الأبواب، ولا يعود هناك مفر من ولوجه. وهو فى هذا يجرى على سنة الإسلام فى كل أمر، ألا وهى أنه لا يعطى أحدا صكا على بياض، بل لا بد لكل شىء من ضوابط تحكمه وتنظمه وتُعَادَل فيه الحقوق بالواجبات، والقانونيات بالإنسانيات... وهكذا. وقد شدد الرسول فى ذلك فقال: "لا يجْلِدْ أحدُكم امرأته جَلْدَ العبد، ثم يجامعها فى آخر اليوم". وقال: "استوصوا بالنساء خيرا، فإنما هن عَوَانٍ عندكم ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا"، "أيها الناس، إن النساء عندكم عَوَانٍ أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله"، وأوصى بالصبر عليهن وتحمل نزقهن بقدر الإمكان: "إن المرأة خُلِقَتْ من ضلع. فإن ذهبتَ تقوّمها كسرتَها، وإن تَدَعْها ففيها أود وبلغة"، "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى. ما أكرم النساءَ إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم"، "اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم. اتقوا الله فى الضعيفين: المرأة الأرملة، والصبى اليتيم". ولم يحدث أنْ ضرب صلى الله عليه

وسلم أيا من زوجاته. والملاحظ أن د. أمينة ودود تكثر من الحديث عن عنف الأزواج المسلمين تجاه زوجاتهم، ولا تذكر أبدا ما هو منتشر فى المجتمعات الأوربية من عنف عنيف تجاه النساء، وكأن الضرب سمة إسلامية لا يعرفها الغربيون أبدا.

أما لالة بختيار، التى تصدت أو بالأحرى: طُلِبَ إليها أن تتصدى لتفسير القرآن، فقد اعترض عليها بعض من حاوروها بأنها لا تحسن اللغة العربية، فكان جوابها أنها تتقن العربية القديمة، وأنها من ثم تستطيع أن تفسر القرآن. فتعالوا إلى ما قالته عن منهجها فى التفسير لنرى هل هى تقول الحق أو لا. لقد ذكرت أن منهجها فى ترجمة القرآن الكريم يتلخص فى الاستعانة بمعجم "مَدّ القاموس" للمستشرق البريطانى إدوارد وليم لين بحثا عن معانى الآيات فى ذلك المعجم كلمة بعد كلمة بغية تقريب النص القرآنى إلى القارئ الإنجليزى المعاصر. فهل هذا يكفى أوّلًا؟ وهل هذا هو السبيل لدَرْك تلك الغاية ثانيا؟ وللجواب عن السؤال الأول أقول بملء فمى إن ما ذكرت السيدة بختيار أنه هو المنهج الذى اعتمدته فى ترجمتها للقرآن المجيد لا يكفى بتاتا. ذلك أن الترجمة ليست نقل ألفاظ سائبة من لغة إلى لغة، بل الترجمة نقل النص كله متماسكا. والنص ليس كلمات مفردة فقط، بل هو أيضا عبارات وتراكيب وصور وظلال وشيات وإيقاعات وتناغمات وفقرات. إنه كلٌّ متكامل شديد التعقيد... فكيف بالله يكفى أن تضع أمامها معجم لين، مهما كانت عبقرية مؤلفه، وتنظر فيه معانى الكلمات القرآنية كلمة كلمة على انفراد، ثم تقول إنها قد قامت بترجمة النص القرآنى؟

ثم إن لين ذو أسلوب قديم، ولا يمثل ما يكتبه إغراء للقارئ المعاصر لكى يمضى فى القراءة. وفوق هذا فما من معجم إلا وهو يعِجّ بالعيوب ونواحى النقص التى لا بد من الاستعانة عليها بأكبر قدر من المعاجم الأخرى. وأنا مثلا، رغم أنى لا أتصدى لمهمةٍ مثل تلك التى تصدت لها بختيار أو أريدَ منها أن تتصدى لها لغرض فى نفس يعقوب، لأكدّس عندى مئات المعاجم الورقية والضوئية لهذا السبب، إذ كثيرا ما لا أجد طلبتى فى أحد القواميس فأبحث عنه فى قاموس آخر أو أكثر حتى أجد شفاء نفسى. فكيف تظن بختيار أن معجما واحدا يكفى لمهمتها تلك الثقيلة؟ على أن هذا لا يزال غير كافٍ، إذ يجب على المفسر أن يرجع إلى كتب اللغة من نحو وصرف، وإلى الأشعار الجاهلية والإسلامية، وإلى كتب الحديث والتفسير والبلاغة، وإلى كتب أسباب النزول... ولا ينبغى أن ننسى الاستعانة بالتراجم القرآنية السابقة حتى نعرف ماذا قال الآخرون فى هذه الآية أو تلك، وإلا أفتظن بختيار أنها بنت بَجْدَتها أو أنها أول من ترجم القرآن الكريم إلى غير العربية؟

ولنأخذ واحدا مما ضَرَبَتْه من أمثلة على طريقتها فى الترجمة، وهو كلمة "اضربوهن" فى قوله تعالى: "وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ"، التى تقول تعليقا عليها إنها لا تتصور أن الله، الذى تحبه كما تقول، يمكن أن يوافق على ضرب الزوجات، وإنها لهذا أخذت تبحث وتتقصى معانى تلك الكلمة حتى استطاعت، من خلال معجم لين، أن تضع يدها أخيرا على المعنى الصحيح الذى فات جميع المفسرين واللغويين على مدار الأربعة عشر قرنا الماضية، وهو "الذهاب بعيدا"، بمعنى أنه إذا لم يفلح الوعظ ولا الهجر فى المضجع مع الزوجة الناشز فليذهب الزوج بعيدا عنها، وإن لم تحدد بختيار للأسف مدى ذلك البعد، وهو ما من شأنه أن يربكنا نحن الأزواج المؤذين الذين نريد أن نضرب زوجاتنا: أهو يا ترى ترك الزوج للمنزل والبحث عن فندق يقيم فيه أم البيات على الرصيف المجاور أم الذهاب إلى ألاسكا والعيش هناك مع الإسكيمو حتى يضمن أنه سيكون بمنجاة من النكد الذى تسوّد به زوجته عليه حياته والذى لا يستطيع أن يعمل لزوجته شيئا حياله غير أن يأكل بعضه بعضا قهرا وغما وغيظا؟

إننا نقول: ضرب فلان فلانا، ونقصد أنه انهال عليه بالكف أو بالعصا مثلا. ونقول: ضرب فلان النقود، أى سَكَّها. ونقول: ضرب أخماسا لأسداس، والمعنى: تحير واضطرب. ونقول: ضرب فلان لفلان موعدا، يعنى: حدد وقتا للقائه. ونقول: ضرب الله على أذنيه، فيكون المقصود أنه أنامه نوما عميقا فلم يحس بشىء. ونقول: ضرب له طريقا، بمعنى شقه له. ونقول: ضُرِب فلان على الكَرَم، ومعناه أن الكرم طبيعة فيه وليس شيئا مكتسبا. وضُرِبَتْ على فلان الذلة، والمعنى: أحاطت الذلة به من كل جانب فلا يقدر على التخلص منها. ونقول: ضُرِبَتْ عليه الجزية، أى فُرِضَتْ. ونقول: ضرب الفحل الناقة: لقّحها. ونقول: ضرب فلان الخيمة، بمعنى: نصبها. ونقول: ضرب فلان عن فلان صَفْحًا، والمعنى: انصرف عنه أو أهمله. ونقول: ضرب فلان لفلان سهما فى ثروته، أى خصص له نصيبا منها. ونقول: ضرب فلان فى سبيل الله: جاهد. ونقول: ضرب الدهر بين فلان وفلان: فرَّقهما. وكذلك نقول: ضَرَب فلان فى الأرض، والمقصود ارتحل وذهب بعيدا... إلخ. وهذا هو المعنى الذى أخذت به بختيار من بين كل تلك المعانى وغيرها لترجمة قوله تعالى: "واضربوهن".فهل هذه ترجمة صحيحة؟ هل قولنا: "اضرب فلانا يا فلان" معناه: اتركه واذهب بعيدا عنه؟ الحق أن هذا هو الهزل بل الدجل بعينه، إذ إن ذلك المعنى لا يأتى من كلمة "ضرب" وحدها، بل من عبارة "ضرب فى الأرض" كلها. أما "ضرب فلان فلانا" فلا يمكن أن يكون له معنى غير أنه قرعه بيده أو بعصا مثلا. وقد ترجم لين فى معجمه

المذكور هذا الفعل مجردا بـ"strike, beat, smite, hit"، وهو نفس ما قلناه. ولو كانت اللغات تؤخذ بتلك الطريقة التى تمشى عليها السيدة بختيار فقُلْ على الترجمة السلام.

ثم كيف يدل قوله: "اضربوهن" على الذهاب بعيدا؟ إن لدينا فى الآية الكريمة فعلا متعديا ومفعولا هو الضمير "هُنَّ" العائد على الزوجات. ومعنى هذا أن الضرب يقع على الزوجات. فكيف يكون المعنى: اذهبوا بعيدا؟ لو كان قد قيل مثلا: "اضربوا عنهن" لأمكن التمحل والقول بأن أصل الكلام: "اضربوا فى الأرض بعيدا عنهن" بعدما حُذِف منه شبه جملة "فى الأرض"، أو أنه "اضربوا عنهن صفحا" بمعنى: لا تبالوا بما يفعلنه واصفحوا عنهن. أمّا وهناك مفعول به مباشر فالمعنى: اضربوهن الضرب المعروف وآلموهن عقابا لهن على نشوزهن وعدم رجوعهن عن أسلوب العناد والتنكيد دون داع بعدما نصحتم وهجرتم فى المضجع وصبرتم وصابرتم، ولم يبق أمامكم إلا أن تطقّوا من أجنابكم أو تشعلوا النار فى أنفسكم. أما لالة بختيار أو من كتب لها الترجمة فيخلط بين عَيوشة وأم الخير، وهو ما لا يصح ولا يصلح. وإلا فَلْتُرِنا هى أو هو أو هم شاهدا من لغة العرب على أن "ضرب فلان فلانا" معناها: "ذهب بعيدا".

كذلك فسبب نزول الآية يدل على أن المعنى الذى رفضته لالة بختيار هو المعنى الصحيح. جاء فى "أسباب النزول" للواحدى: "وَقَدْ رُوِى عَنْ مُقَاتِلٍ فِى سَبَبِ نُزُولِ الآيَةِ فِى سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ عَمْرٍو، وَكَانَ مِنَ النُّقَبَاءِ، وَفِى امْرَأَتِهِ حَبِيبَةَ بِنْتِ زَيدِ بْنِ أَبِى زُهَيرٍ. وَذَلِكَ أَنَّهَا نَشَزَتْ عَلَيهِ، فَلَطَمَهَا، فَانْطَلَقَ أَبُوهَا مَعَهَا إِلَى النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم فَقَالَ: أَفْرَشْتُهُ كَرِيمَتِى، فَلَطَمَهَا. فَقَالَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: لِتَقْتَصَّ مِنْ زَوْجِهَا. فَانْصَرَفَتْ مَعَ أَبِيهَا لِتَقْتَصَّ مِنْهُ، فَقَالَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: ارْجِعُوا. هَذَا جِبْرَائِيلُ أَتَانِى، وَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ. فَتَلاهَا النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: أَرَدْنَا أَمْرًا، وَأَرَادَ اللهُ أَمْرًا. وَالَّذِى أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى خَيرٌ". وفى "أسباب النزول" للسيوطى: "أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: جاءت المرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم تستعدى على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: القِصَاص. فأنزل الله "الرجال قوامون على النساء... الآية". وأخرج ابن جرير من طريق عن الحسن، وفى بعضها أن رجلا من الأنصار لطم امرأته فجاءت تلتمس القِصَاص، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم بينهما القصاص، فنزلت "ولا تَعْجَلْ بالقرآن من قبل أن يقْضَى إليك وَحْيه"، ونزلت "الرجال قوّامون على النساء". وأخرج نحوه عن ابن جريج و السُّدِّى. وأخرج ابن مردويه عن على قال: أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجلٌ من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله، إنه ضربنى فأثر

فى وجهى. فقال رسول الله: ليس له ذلك. فأنزل الله "الرجال قوامون على النساء... الآية". فهذه شواهد يقوّى بعضها بعضا".

كذلك من الأدلة على صحة هذا المعنى بل على أنه هو وحده التفسير الصحيح ما ورد عن النبى فى هذا الموضوع، إذ نصح المسلمين بقوله: "ألا عسى أحدكم أن يضرب امرأته ضرب الأَمَة؟ ألا خَيرُكم خَيرُكم لأهله"، "أَمَا يسْتَحِى أَحَدُكُمْ أَنْ يضْرِبَ امْرَأَتَهُ كَمَا يضْرِبُ الْعَبْدَ: يضْرِبُهَا أَوَّلَ النَّهَارِ ثُمَّ يجَامِعُهَا آخِرَهُ؟". وليس هناك تناقض بين القرآن والحديث: فالقرآن إنما جوّز الضرب ولم يوجبه. وفرقٌ بين تجويز الشىء وجعله واجبا مفروضا: هذا أولا. وثانيا إن القرآن حين شرع الضرب إنما شرعه بعد استنفاد كل الأساليب الأخرى من وعظ ومخاصمة وما إلى ذلك. فماذا يفعل الرجل بعد هذا كله؟ أما إذا كانت المرأة لا تريد أن تعامَل بهذه الطريقة فهذا حقها، ولكن عليها ألا تنشز على زوجها أو أن تخلع نفسها منه. ومن ناحيته هو فإما أن يقبل التعايش معها على نشوزها وعدم رجوعها عن العصيان الذى لا مسوغ له، وإما أن يطلقها. وإذا آثرت هى الخلع أو الطلاق على أن يؤدبها زوجها فى حالة نشوزها فهى وما اختارت. أما الحديث فيوضح للمسلمين أن تجويز الضرب ليس معناه أنه هو الحل الأمثل، بل عليهم أن يعرفوا أنه لا يلْجَأ إليه إلا عند الضرورة القصوى وأنه كالطلاق: بغيض رغم مشروعيته.

وأخيرا فقد اختتمت كارلا باور كلامها مؤكدة أن د. أمينة ودود هى أول صوت نسائى يقتحم ميدان التفسير القرآنى. نعم تؤكد ذلك رغم أن ودود لم تكتب تفسيرا للقرآن بل وضعت بعض الدراسات التى تلم ببعض الموضوعات القرآنية. ولأهمية هذا الموضوع أود أن أنقل المقال التالى الذى يتعرض لموضوع المرأة المفسرة. يقول الباحث الموريتانى محمد السالك محمد فال فى مقال له بعنوان "المرأة والتفسير: الحاضر الغائب" نشره فى "ملتقى أهل التفسير": "تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور الهام الذى لعبته المرأة المسلمة فى إثراء المعرفة الإسلامية بشكل عام، وتفسير القرآن الكريم بشكل خاص. ولن نوغل فى التعريف بالإضافة المشهودة التى قدمتها المرأة المسلمة فيما يخص العلوم الإسلامية الأخرى من فقه وعلم منطق ورواية حديث وحفظ للمتون وإفتاء وتدريس بأكبر منارات المعرفة فى البلدان الإسلامية حتى لا نقع فى التفريع المخلّ والتكرار المملّ. ولكننا سنحاول سبر أغوار الإضافة النسائية لعلم التفسير، ليس فقط لشرف هذا الأخير وأهميته ومكانته الرائدة ضمن المعارف الإسلامية، ولكن أيضا للإجابة على تساؤلات ملحة وجوهرية حول ذكوريته المطلقة والتى أفضت فى كثير من الأحيان بالعديد من المغالين من دعاة التحرر إلى اعتباره علما باطرياركيا بامتياز.

ولمجانفة التبريرات اللامنهجية التى دأب عليها العديد من الباحثين فى هذا المجال والتى لا تعدو كونها أحيانا مجرد اعتراضات عمياء تفتقد إلى التأصيل المنهجى والقراءة الجادة للمعطيات العلمية والتاريخية فى الموروث التفسيرى فإننا فى هذا العمل المتواضع سنحاول رصد وتقييم المشاركة النسائية فى هذا الحقل والأسباب التى أدت إلى وصفه بالذكورى. هذا بالإضافة إلى تقديم نماذج معاصرة لمفسرات مسلمات يفند وجودهن الدعاوى والاعتراضات التى لطالما وجهت لهذا الثغر المعرفى الهام .

يشكل علم التفسير الحجر الأساس للمعرفة الإسلامية نظرا لارتباطه الوثيق بالقرآن العظيم، الذى هو مَعِين هذه الأمة المصون ورافدها المغداق ومعجزتها الأزلية. "وعلم التفسير يعتبر بحقٍّ أرفع العلوم الإسلامية قدرا وأعلاها شأنا. دونه كل علم من العلوم الإسلامية على اختلاف أنواعها وتنوع مقاصدها. وتلك حقيقة برهانها قائم لاينكره إلا من ينكر ضوء الشمس". وكلمة "التفسير"، كما أورد ذلك الزركشى ونقله عنه صاحب "الإتقان"، تطلق فى اصطلاح المعنيين به على "العلم الذى يفْهَم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه وإستخراج أحكامه وحكمه". وهو علم يحوى جوانب عويصة تتطلب العلم بالرواية المأثورة عن النبى والاستنباط بالدراية والفهم القويم للخطاب الشرعى. فكلام الله سبحانه وتعالى، كما ورد عن ابن عباس، جاء على أربعة أوجه: "وجه تعرفه العرب فى كلامها، وتفسير لا يعْذَر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لايعلمه إلا الله". ولما كانت هذه هى حال التفسير فلقد كان الرسول الكريم هو المفسِّر والمبين الأول للقرآن الكريم وأحكامه. كما كان الصحابة رضوان الله عليهم جميعا تلاميذ مدرسة النبوة، يحفظون ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم، ويتباينون فى ذلك الحفظ والفهم للآيات القرآنية فى أحكامها، وناسخها ومنسوخها، محكمها ومتشابهها، مطلقها ومقيدها... إلخ. فعن مسروق قال: "جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذ، يعنى الغدير. فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم". وكان من أغزر رجالات التفسير من الصحابة علما وفضلا عبد الله بن عباس حبر الأمة وعبد الله بن مسعود وأُبَى بن كعب وعلى بن أبى طالب وغيرهم من صحابة النبى.

واتسعت رقعة التفسير لتضم فى عصر التابعين مدارس عدة فى كل من مكة والمدينة والعراق. ومن أشهر رجالها سعيد بن جبير ومجاهد بن جبر وعِكْرِمة مولى ابن عباس وزيد بن أسلم وأبو العالية وعلقمة بن قيس ومسروق والأسود بن يزيد والحسن البصرى... إلخ. ونصل عصر التدوين حيث

تترى وتكثر التصانيف فى التفسير، فنجد أنفسنا أمام رجالاتٍ جُدُدٍ كالطبرى والنيسابورى والحاكم وابن مردويه، وغيرهم كثير .

ولعل القارئ يقف الآن متسائلا عن العلاقة التى تربط إسهابنا فى ذكر رجالات التفسير من الصحابة والتابعين وغيرهم بموضوع الدراسة الذى يتمحور حول دور المرأة المسلمة فى هذا الميدان المعرفى الهام. لكننا نرد عليه منبهين إلى الدور الخطير الذى لطالما لعبه السرد التاريخى الإقصائى فى طمس معالم المشاركة الهامة التى قامت بها المرأة المسلمة فى هذا المجال. فمعظم المصادر التاريخية التى تتعرض لهذا الموضوع تغض الطرف عن الإسهامات النسائية الهامة. وتنعكس هذه النظرة الإقصائية التى تستبعد الإضافات النسائية من خلال عناوين بعض المؤلفات حول هذا العلم من كتب وتراجم ومعاجم وقواميس تُعْنَى بالتفسير والمفسرين. فدائما ما يجد الباحث عناوين من قبيل "التفسير ورجاله"، "التفسير والمفسرون"، "معجم المفسرين". وهى عناوين، وإن كانت تحتمل لغويا أن تكون النساء داخلات ضمن ماتشمله من تتبع لأقطاب هذا العلم ونتاجهم الوافر، إلا أنها تعكس الصورة النمطية السائدة عن عدم أهلية المرأة للولوج إلى هذا الحقل المعرفى الهام واعتباره مجالا ذكوريا بامتياز.

ومن هذا المنطلق تفرض علينا الدقة العلمية والإنصاف أن نرجع إلى الوراء قليلا لنؤكد على أن مدرسة التفسير الأولى والتى احتنضنها بيت النبوة كانت قد خرَّجت أيضا نساء كان لهن قسط وافر من العلم، وإشراقات هامة فى مجال تفسير القرآن الكريم. فلا أحد يمكن أن ينكر ما لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها من مرويات فى التفسير، فهى تعد بحق "أفقه نساء الأمة". بلغت مروياتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٢١٠ حديثا منها ١٧٤ حديثا متفقا عليها عند الشيخين، وانفرد البخارى بـ٥٤ حديثا، ومسلم بـ٦٩ حديثا. وكان من تلامذتها عدد كبير من الصحابة أخذوا عنها العلم كعبد الله بن عباس وابن عمر، وعبد الله وأخوه عروة بن الزبير... إلخ .

كما كان لأم المؤمنين أُمّ سَلَمَة مرويات فى التفسير ومواقف مع التنزيل تعكس روح النضج الفكرى وعناية المرأة المسلمة بالنص القرآنى فى علاقته بالمتلقين من الجنسين. لقد كانت رجاحة عقل أم سلمة واهتمامها بالواقع التطبيقى للتنزيل سببا مباشرا لنزول بعض الآيات القرآنية. "فعن عمرو بن دينار عن سلمة، رجل من آل أم سلمة، قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء! فأنزل الله تعالى: "فاستجاب لهم ربهم أنى لا أُضِيع عَمَلَ عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى... إلى آخر الآية". وهذا البعد التنزيلى الذى ينطوى على جانب هام، وهو الإجابة المباشرة على تساؤلات أم

سلمة الوجيهة، يلفت انتباهنا ليس فقط إلى الدور المعرفى الهام والفاعل الذى كانت تلعبه المرأة المسلمة فى مدرسة النبوة، بل وأيضا إلى تأييد الوحى القرآنى لهذا الطرح الفكرى السليم و الناضج والذى ينم عن روح أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها روح تساؤلية نقدية لا تستسيغ الابتلاع أو التقليد الأعمى.

وكان لأخريات من أمهات المؤمنين وغيرهن من الصحابيات والتابعيات أدوار هامة فى رواية التفسير وحفظ ما أُثِر عن النبى صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال. ولعل الأجواء السياسية المشحونة التى عَقَبَتْ مقتلَ ثالث الخلفاء الراشدين، وتحديدا الدور الذى لعبته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى موقعة الجمل، كانت من ضمن الأسباب التى أدت إلى عزوف المرأة المسلمة عن الاهتمام بالشأن العام خصوصا فيما يتعلق بالسياسى فى علاقته بالدينى. هذا عدا عن الأولويات الاجتماعية والثقافية للمرأة المسلمة كزوجة وأم. وهى أولويات لطالما جعلت اهتمامها ينصب على الشأن الداخلى أو البيتى من تنشئة وتربية وتعليم.

لقد صار علم التفسير بدءا من عصر التدوين حكرا على الرجال بشكلٍ جَلِى. ولا شىء أدل على ذلك من مجموع التفاسير التى بين أيدينا اليوم. فبالرغم من تعدد التفسير وألوانه ومذاهبه ومناهجه واختلافه باختلاف الفرق الإسلامية التى عُرِفَتْ منذ بدايات القرنين الثانى والثالث الهجريين ظل هذا الميدان مجالا ذكوريا بامتياز. فرواد مدرستَى التفسير الشهيرتين: مدرسة التفسير بالمأثور ومدرسة التفسير بالرأى كانوا جميعهم رجالا. فكان من أشهر رجالات الأولى ابن جرير الطبرى والسمرقندى والثعلبى والحافظ بن كثير والسيوطى والثعالبى وغيرهم، بينما انفردت الأخيرة بأسماء لامعة من أمثال فخر الدين الرازى والبيضاوى والنسفى وأبى حيان والنيسابورى وغيرهم. ولم يتوقف الأمر على جملة التفسير المأثور والتفسير بالرأى الجائز بل تعداه إلى تفاسير المعتزلة والمتصوفة والفلاسفة وغيرهم، فسطعت أسماء لرجالات كالزمخشرى والقاضى عبد الجبار وابن سينا وابن عربى وآخرين ممن لاحصر لهم من المفسرين الذين نَحَوْا مناحى عدةً فى هذا المجال المعرفى الهام. والملفت للانتباه هنا هو الغياب التام لأية تفاسير مكتوبة تعود إلى نساء مسلمات.

وزادت حدة هذا العزوف من طرف المرأة المسلمة عن حقل التفسير فى القرون المتعاقبة الأخرى ليس فقط نتيجة لما سبق ذكره من أولويات عائلية جعلت جل اهتمامها ينصب على تكوين الأسرة ورعايتها بل وأيضا لعوامل اجتماعية وثقافية أخرى منعتها من الحصول على التعليم والتأطير اللازم للانخراط فى العلوم الدينية بشكل عام، والعناية بالنصوص الشرعية بشكل خاص. وظل التفسير إلى

فترات قريبة ذلك الميدان الذكورى المغلق. وهو أمر شمل العديد من الأقطار الإسلامية، فذاعت فى مصر تفاسير لجهابذة وعلماء من أمثال الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وسيد قطب والغزالى والشعراوى، وغيرهم كثير، ناهيك عما أُلِّف فى أقطار أخرى من العالم الإسلامى كالسعودية وإندونيسيا وباكستان والهند والمغرب والسودان وموريتانيا... إلخ.

لكن السؤال الذى دائما ما يطرح نفسه على المتتبع لهذا التراث الضخم والموروث العظيم هو: أين هى مشاركة المرأة المسلمة ضمن هذا النتاج العلمى الزاخر؟ لقد كان هذا التساؤل الأخير الدافع الأول وراء بحثٍ استطلاعى وجَرْدٍ جادٍّ لكتب التفسير وتراجم المفسرين ركزتْ عليه هذه الدراسة فى سبيل الوصول إلى مساهمة نسائية مكتوبة فى هذا المجال. وتنكشف التجربة التفسيرية النسائية الأولى فى العالم الإسلامى، وهذا باعتبار ما هو مدون ومنشور، مع عالمة من الهند تسمى: زيب النساء عالمكير. ولقد أتى ذكر هذه الأخيرة فى معجم قيم للدكتور عادل نويهض تطرق فيه بشكل مقتضب لإضافتها الهامة حيث يقول: "زيب النساء بنت الشاه محى الدين أورنك زيب عالمكير سادس أباطرة المغل فى الهند (١٦٨٥ - ١٧٠٧م) أديبة شاعرة من آثارها "زيب التفاسير" فى تفسير القرآن". وبعد تتبعى لهذا التفسير الذى يعْزَى لهذه العالمة الجليلة وجدتُ أنه فى حقيقة الأمر لا يعدو كونه ترجمة لتفسير فخر الدين الرازى: "مفاتيح الغيب"، ولكنها تظل محاولة محمودة وهامة تعكس اهتمام المرأة بهذا الجانب من العلوم الشرعية.

وكان من أوائل التفاسير النسائية الجادة أيضا ما أُثِر عن عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، فلها تفسير رائع ذو طابع أدبى يسمى بـ"التفسير البيانى للقرآن الكريم". وبالرغم من كون بنت الشاطئ قد ألفت كتبا عدة تُعْنَى بالقرآن: "القرآن وقضايا الإنسان"، "الإعجاز البيانى للقرآن الكريم" إلا أن التفسير البيانى للقرآن الكريم يعتبر بحق أول تفسير نسوى للقرآن الكريم. ولعل ما يشوب هذا الإنجاز العظيم لبنت الشاطئ هو كونه ليس تفسيرا شاملا حيث يركز فقط على أربع عشرة سورة من جزء "عَمَّ" متناولا إياها بالشرح والتفصيل والتطبيق الدقيق لمنهج أستاذ المفسرة وزوجها الشيخ المجدد أمين الخولى .

وجاءت التجربة التفسيرية النسائية المتكاملة مع الداعية الإسلامية والمجاهدة زينب الغزالى الجبيلى حيث صدر لهذه الأخيرة سنة ١٩٩٤ تفسير بعنوان "نظرات فى كتاب الله". وهو تفسير جميل جليل تنتهج فيه الداعية النهج الدعوى الإصلاحى الذى يجعل من القرآن دستورا للأمة وطريقا إلى

تقدمها وسط ما تعانيه من تقهقر وركود. وصدر هذا التفسير فى مجلدين فسرت خلالهما الداعية القرآن كاملا. وتتابعت الإضافات النسائية فى مجال التفسير فوافق الأزهر الشريف على صدور تفسير للداعية فوقية إبراهيم الشربينى بعنوان "تيسير التفسير"، وهو أيضا تفسير كامل للقرآن الكريم صدر سنة ٢٠٠٨، وجاء فى أربعة مجلدات. وأكثر ما يميز تفسير الأستاذة فوقية الشربينى هى طريقته التبسيطية الراقية التى تصل إلى المسلم العامى دون أن يؤثر ذلك على رصانته وحصافته من الناحية اللغوية وموسوعيته وثرائه من الناحية العلمية.

وفى العام ٢٠١٠ أيضا وافق مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشريف على طبع وتوزيع تفسير يعود لصاحبته الداعية والوجه الإعلامى المعروف كريمان حمزة. وتفسير السيدة كريمان حمزة، الذى يحمل اسم "اللؤلؤ والمرجان فى تفسير القرآن"، يعتبر أيضا إضافة نسائية هامة إلى هذا الحقل المعرفى. وجاء تفسير الداعية فى ثلاثة مجلدات فسرت خلالها الداعية القرآن كاملا. ويتميز تفسير "اللؤلؤ والمرجان" بسمات هامة أبرزها تركيزه على تبسيط معانى القرآن وتقديمها بأسلوب سلس ومشوق يتجنب التعقيدات والمحاججات التى قد تدخل القارئ متاهات هو فى غنى عنها. كما ينحو هذا التفسير منحى اجتماعيا تحاول الداعية عن طريقه تقديم رؤية إصلاحية شمولية للنهوض بالمجتمعات الإسلامية من خلال التمسك بروح القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

كما يوجد تفسير آخر عثرتُ عليه حديثا بعنوان "المبصر لنور القرآن" للداعية الفلسطينية السيدة نائلة هاشم صبرى صدر عام ٢٠٠٣. وهو تفسير هام وعميق رجعت فيه المفسرة إلى العديد من كتب التفسير القديمة كـ"جامع البيان" للطبرى و"الدر المنثور" للسيوطى و"البحر المحيط" لأبى حيان و"مفاتيح الغيب" للرازى، وأيضا إلى تفاسير حديثة مثل "فتح القدير" للشوكانى و"روح المعانى" للألوسى. وكما هو ملاحظ فلقد اعتمدت المفسرة منهجا يمزج بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى المحمود، فكانت تفسر القرآن بالقرآن والسنة وأقوال الصحابة والسلف. كما يلاحظ أن المفسرة "كانت تبدى اهتماما بقضايا المرأة فى ثنايا الآيات الخاصة بها كالزواج والطلاق والإيلاء والحيض وغير ذلك".

وفى ختام هذه الدراسة المتواضعة حول الإسهام النسوى الهام فى مجال تفسير القرآن الكريم تجدر بنا الإشارة إلى أن هذه التفاسير النسائية لم تُتَنَاوَل بعدُ بالبحث الجاد والتمحيص من طرف الدارسين والأكاديميين من أصحاب التخصص نظرا لأسباب عدة بعضها قد يعود إلى جدتها وظهورها الخجول فى الساحة العلمية، وبعضها الآخر ربما يرجع إلى النظرة المجتمعية الدونية للنتاج المعرفى النسوى

بالمقارنة مع ما هو متوفر ومطروق لجهابذة رجالات التفسير. ومن هنا نرجع لنؤكد على أهمية هذه الإضافة النسائية القيمة وعلى الدور المنوط بالباحثين فى استكشاف هذه التفاسير وتتبعها بالتحليل والتنقيب خصوصا فى ظل ما يطْرَح حديثا من نظريات وفرضيات حول أنثوية التفسير".

وبمناسبة الكلام عن أنثوية التفسير أحب أن أذكر أنى وضعت كتابا منذ عدة سنوات رددت فيه على ما كانت د. أسما بارلس قد كتبته فى دراستها المسماة: " Believing Women in Islam: Unreading Patriarchal Interpretations of the Qur'an" من أن التفاسير القرآنية كلها تعكس وجهة النظر الرجالية وتنحاز لهم وتظلم النساء ظلما شديدا، وأنها قد كتبت كتابها هذا لتصحيح ذلك الخطإ. وقد بدا لى أن أبعث بنسخة ضوئية من كتابى المذكور للدكتور بارلس كنوع من التواصل بين أهل العلم ولتعريفها بكتاب يعرّف الناس بها ويناقش آراءها، فجاءتنى منها رسالة تسألنى تلخيص ما جاء فى كتابى المذكور، فكان هذا دليلا آخر على أنها لا تعرف العربية غير ما كنت قد لاحظته قبلا من أنه لا يوجد بين مراجع كتابها أىّ شىء مكتوب بلغة الضاد. فلخصت لها فى عدة جمل بالإنجليزية الفكرة العامة لكتابى، شافعا التلخيص بأنها، فيما هو واضح، لم تدرس اللغة العربية. فما كان منها إلا أن قالت ما معناه أننى لا أحسن فهم الإنجليزية. وانتهى التراسل بيننا عند هذا الحد بعدما لمستُ ضيق صدرها من ملاحظة بسيطة كهذه لا تسىء إليها بحال. أما خلاصة كتابى التى أرسلت بها إليها حسب طلبها منى فهى أنه إذا صح ما تقوله من أن التفاسير القرآنية جميعا إنما تعكس وجهة النظر الرجالية نظرا إلى أن أصحابها رجال فمن السهل تماما على الرجال أن يردوا عليها بأن تفسيرها هى أيضا لبعض النصوص القرآنية فى كتابها المشار إليه لا بد أن يعكس شخصيتها النسائية. فكان هذا سببا آخر لغضبها الذى منعنى من المضى فى مراسلتها ما دامت شديدة الحساسية إلى هذا الحد.

ومما قلته فى مقدمة كتابى السطور التالية: "وفى الكتاب الذى فى أيدينا الآن وجهة نظر فى تفسير القرآن جديدة وغريبة، إذ ترى المؤلفة أن التفاسير القرآنية تعكس منذ نشأتها حتى الآن فكر الرجال، ولا تهتم بالنساء ولا بحقوقهن أو وجهة نظرهن، مما أدى إلى القول بأشياء فيها ظلم للمرأة، ثم نسبتها للإسلام رغم أنها ليست من الإسلام فى شىء. ولهذا نراها قد سمت كتابها: "نَسْخ التفسير البطرياركى للقرآن"، أى نسخ التفسير الأبوى. والمقصود به التفسير الذكورى أو الرجولى، على اعتبار أن التفسير يعكس، فيما يعكس، النوع الذى ينتمى إليه صاحبه من ذكورة أو أنوثة، وهو ما يهمنا هنا فى المقام الأول. وقد أقبلتُ بعقل مفتوح على الكتاب، الذى أرادت فيه صاحبته أن تعالج التفسير القرآنى من

وجهة نظرٍ نسويةٍ فأتت بآراء لم يسبق للمفسرين ببعضها عهد، متصورة أنها بذلك تحق الحق وتبطل الباطل، باطل الرجال بطبيعة الحال، فقرأتُه ثم ناقشتُ أهم ما فيه، فوجدتُنى أوافق المؤلفة فى أمور، وأختلف معها فى أمور: اختلافا هادئا أو شديدا حسب الأحوال... وأرجو ألا أكون قد أخطأتُ كثيرا، وإن كان عذرى فى كل حال أننى بذلت كل ما عندى من جهد فى القراءة والفهم والدرس، وهو ما أرجو أن يكون شافعا لى عند الله وعند القراء الأعزاء. وأنا، بعد هذا وقبل هذا، بَشَرٌ لا أَدَّعِى لنفسى شيئا سوى أننى أجتهد ولا آلو".

ذكّرنى كلام باور فى الفصل السابع من كتابها، وعنوانه "A Pilgrim's Progress"، عن قلق الأمهات الذاهبات لتأدية العمرة على أطفالهن الرضَّع الذين يصطحبونهم معهن، ذكرنى بخوفى على سلوى الصغيرة حين كنا نستعد لأداء الحجة الثانية، فقد خشينا أن تمرض هناك، فضلا عن الحر. لكننا توكلنا على الله بعد أن طعَّمناها. ثم مر الحج دون حدوث أية مشاكل سوى أن ابنى قد دخلت فى أَخْمَص قدمه قطعة من زجاجة مكسورة اضطرتنى إلى ترك زوجتى والبنتين وأخذه فى سيارتى إلى مستشفى الملك عبد العزيز حيث عُنِىَ به الأطباء وخاطوا له الجرح، وكتب الله له السلامة. وقد ذكرت الكاتبة أن ابنة الشيخ قد أخذت معها واقيات من حرارة الشمس المكية. وهذا يذكرنى أيضا بما فعلته فى الحجة الثانية والثالثة، إذ جهزت بعض البخاخات البلاستيكية التى كنت أملؤها بالماء وأرش منها بين الحين والحين على وجه الصغيرة ورأسها وعلى زوجتى وابنتى وابنى وعلىَّ أنا أيضا ومَنْ حولنا من راكبى السيارة فى الطريق من المزدلفة إلى مكة، وربما أيضا أثناء الطواف حول الكعبة، الذى كنا نقوم به فى الدور العلوى حيث المسافة أطول منها فى الدور الأرضى، فكنا نجرى أحيانا حتى لا نستغرق وقتا طويلا فى تلك الشعيرة. وأعجبنى، من ابنة الشيخ التى وضعت كتيبا إرشاديا لرفقاء العمرة، نُصْحُها لهم أن يضعوا ثقتهم فى الله سبحانه ويتأسَّوْا بهاجر أم إسماعيل حين كان عليها أن تترك صغيرها فى حر الصحراء اللافح بحثا عن ماء تطفئ به عطشه جاعلة كل ثقتها فى ربها وسائرة على الرمال الملتهبة أثناء ذلك. ونحن البشر محتاجون إلى التطلع إلى الله عز وجل والثقة فيه حتى تهدأ مخاوفنا ويخف قلقنا وينزاح عنا الهم والغم والضيق، وإن كانت النفس البشرية رغم كل ذلك ضعيفة بطبيعتها أمام الخوف والقلق. كما أعجبنى فى الشيخ تنبيهه على المشاركين فى العمرة، التى كان يقودها ويرشد أفرادها، بالصبر الجميل وطول البال وعدم الاستسلام للانفعال والجُؤَار بالشكوى لغير الله. أقول هذا لأنى أنا نفسى أحتاج إلى مثل تلك النصيحة.

لكنى لا أتفق مع ابنة الشيخ تماما فيما قالته عن تصرفات الناس فى المسجد الحرام والمسجد النبوى وفى الدكاكين. صحيح أن بين المعتمرين والحجاج من لا يراعون اللياقة أحيانا ولا النظام ولا النظافة، لكن ليس إلى الحد الذى صورته. أما فى المحلات فالبائعون يتسمون بصبر طويل، فهم عادة من غير السعوديين، وهؤلاء حرصاء على ألا يأتوا من الأمر ما يمكن أن يكون سببا فى طردهم من العمل. ونادرا ما خرجتُ من أحد المحلات هناك وأنا غاضب أو ساخط. ولعل هذا هو وجه الشبه الوحيد

القوى بين السعودية وبريطانيا. كذلك لم يعجبنى إلحاح ابنة الشيخ فى كتيبها الإرشادى على وجوب التجرد التام من كل ما ليس له صلة مباشرة بالعمرة: فلا ينبغى التطلع مثلا إلى زخارف المسجد الحرام أو المسجد النبوى ولا إلى الساعة المكية الكبيرة التى ليس كمثلها ساعة فى العالم ارتفاعا، ولا ينبغى فتح التلفاز ولا الالتفات إلى المولات التجارية... إلخ. ذلك أن الإنسان محتاج إلى ما ييسر عليه العبادة. والنفس الإنسانية ذات مطالب شتى. وليس على صاحبها من بأس إذا أَجَمَّها بشىء من التسلية ينْشُدها فى التلفاز، وبخاصة أن التلفاز السعودى هو آخر شىء فى الدنيا يمكن أن يلهى المشاهد حقا عن العبادة، فهو جافٌّ إلى حد كبير، وليس فيه على أية حال برامج خارجة مما يمكن أن تجده فى تلفازات البلاد الأخرى.

وإذا كان الله سبحانه يمنّ على عباده بأنه كتب عليهم الحج "ليشهدوا منافع لهم" من تجارة أو رحلة أو ممارسة وظيفة، "ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام"، فضلا عن تقديمه المنافع على ذكر اسمه تعالى، فكيف يصح أن يصل بنا التحرج إلى الحد الذى نمنع فيه المعتمرين من الاهتمام بالزخارف التى فى مسجدَىْ مكة والمدينة وبرج الساعة المكية ومشاهدة التلفاز؟ الواقع أننى لا أفهم أن يقضى الإنسان عامة ليله ونهاره فى العبادة بمعناها المباشر لا يفكر ولا ينظر فى شىء آخر. إن هذا الذى تحذر منه ابنة الشيخ هو فى أسوإ حالاته من الأمور الحلال، مثله مثل الأكل والشرب. فالحمد لله أنها لم تنصحهم بترك التفكير فى الأكل والشرب والنوم والتنفس أيضا. أقول هذا على سبيل المداعبة لا التهكم. وما كتبته ابنة الشيخ هو مغالاة فى تصور مفهوم العبادة. وماذا فى أن ينظر المعتمر إلى الساعة المكية مثلا ويعجب بها ويتلذذ بمنظرها؟ هل هى امرأة سوف تفتنه وتعدل به عن سواء الصراط؟ هل الزخارف الخطية والتلوينات الجميلة فى المسجد الحرام والمسجد النبوى سوف تخرجه عن الملة؟ إن الدينى والدنيوى ليتجاوران ويتكاملان فى ديننا العظيم، فلا ينبغى إفساد أمور المسلمين بهذه الطريقة من فضلكم. وأتصور أن طراءة العمر وقلة الخبرة وضعف الإلمام بالدين والإتيان من بلد غير إسلامى وراء هذا التشدد الذى لا لزوم له. ولكن كان ينبغى أن ينبهها والدها إلى ذلك.

إن مثل تلك الأشياء من شأنها أن تساعد المعتمر على راحة الأعصاب، وإلا فما شعوره لو لم يكن المسجد بهذا الجمال المعمارى؟ وقد قيل بحق: "رَوِّحُوا عن القلوب ساعةً بعد ساعة، فإن القلوب إذا كَلَّتْ عَمِيتْ". ثم إن التفكر فيما حولنا والعمل على ترقية أذواقنا هو لون من ألوان العبادة فى الإسلام:

العبادة بمعناها الواسع. وعلى أية حال ليس فى المسجد الحرام ولا مسجد النبى صور ولا تماثيل ولا عزف على الأرغن ولا غناء كما فى الكنائس الغربية، التى تحولت الآن إلى مجرد تحف معمارية وصار الناس هناك بوجه عام لا يقصدونها إلا للمتعة الفنية. بل لقد وصل الأمر إلى حد أَنْ صُوِّر الشيطان مجسَّما على واجهة كنيسة كانتربرى فى بريطانيا عاريا كما ولدته أمه (ترى هل وُلِدَ الشيطان حقا؟ وهل كانت له أم؟)، وله مثل ما للإنسان. ولما أبديت لمورين مدرِّستنا فى فيرذر إيديوكيشن كوليدج بأكسفورد، وكانت ترافقنا فى الرحلة إلى الكنيسة المذكورة فى أواسط سبعينات القرن الماضى، امتعاضى من تصوير الشيطان على هذا النحو الذى لا يتناسب أبدا مع المكان كان ردها علىَّ أن هذه هى طبيعة الفن الحديث، الذى لا ينبغى أن يصدنا عنه مثل تلك الاعتبارات. الله أكبر! ثم كانت الطامة الكبرى حين صار القساوسة يمارسون اللواط، ولا ينكر عليهم أحد. بل صار اللواط مقننا كلون من ألوان الزواج. وطبعا هذا أيضا من متطلبات الفن الحديث!

وقد لفت نظرى أن ابنة الشيخ قد أوردت فى كتيبها الإرشادى الحديث الشريف الذى يقول: "أحبُّ البقاعِ إلى اللَّهِ المساجدُ، وأبغضُها إلى اللَّهِ الأسواقُ" على سبيل تحذير رفقائها المعتمرين من الانشغال بالأسواق. وهذا لون من الاستشهاد بالحديث فى غير محله، وإلا لقد كان النبى يرتاد الأسواق، وهو ما أخذه المشركون عليه فى مكة: "وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؟". فهل ينبغى أن نصطنع وجهة نظر المشركين؟ ثم ماذا فى الأسواق من شرور لا يمكن مواجهتها وتستلزم البعد عن تلك الأماكن؟ إنها أماكن للبيع والشراء، فهل يجب على المسلم ألا يبيع أو يشترى؟ فكيف يحصل على طعامه وشرابه وملابسه وأثاثه وكتبه إذا كان عليه تجنب الأسواق؟ ومن أين كان النبى والصحابة يحصلون على حاجات معيشتهم؟ من الفضاء الخارجى؟ إن الحياة لتقف تماما بدون الأسواق. فهل يرضى أحد بهذا؟ إن الحديث إنما ينبه المسلم إلى عدم الاستغراق فى الجدال والمساومة والضيق، وإلى حرمة ما يمارسه بعض التجار من تطفيف الكيل والميزان والغش مثلا، وإن كان هناك من رواد السوق من لا يقلون عن التجار الغشاشين بل يفوقونهم، إذ يطوفون بأرجاء السوق يشحتون أو يسرقون. ومن هنا وجدناه صلى الله عليه وسلم يدعو بالرحمة للشارى والبائع السَّمْحَين. ولو كانت الأسواق شرا كما فهمت السيدة من الحديث لما دعا لهما الرسول، مما يدل على أن العبرة بالنية والسلوك. ولو كانت الأسواق شرا لكان اقتصاد البلاد جميعا على وجه الأرض شرا فى شر. ألا يقال: تسعة أعشار الرزق فى التجارة؟ فهل يعقل هذا؟

ثم إن الأسواق ليست كلها بيعا وشراء، فهناك من ينتهزها ليدعو إلى فكرة أو نحلة، وهناك ألعاب وتَسَالٍ للأطفال. وقد كنت أنا وزوجتى وطفلانا نشعر بسعادة بالغة ونحن ذاهبون إلى السوق معا يوم الأربعاء على حدود أكسفورد من وراء النهر على الأقدام من شمال المدينة لعدة كيلومترات إذا كان الجو غير مطير أو بارد. وكثيرا ما اشتريت كتبا رخيصة من هناك، ومنها نسخة ضخمة مذهبة من الكتاب المقدس مفعمة بالصور والخرائط والتعليقات. وما زالت عندى حتى الآن، وأنا فخور بها، وقد حصلت عليها من بائع فى ذلك السوق ظللت أساومه على ثمنها وأنا أضحك أسابيعَ عددًا حتى أعطانيها ضاحكا فى آخر المطاف برخص التراب، فقلت له وأنا مستغرق فى الضحك: "منك لله. كان من الأول!". طبعا لم أقل له هذا بالضبط بل بمعناه العام. وكان النبى عليه السلام يدعو أحيانا إلى دينه هناك. ليس فى سوق أكسفورد طبعا بل فى أسواق مكة كما لا أحتاج إلى أن أقول. وكان بعض الحنفاء من قبله يفعلون هذا، وهو ما ذكره عليه السلام فى بعض أحاديثه. ثم إن هذا الأمر الذى حذّر منه الرسول عليه السلام ليس خاصا بالأسواق وحدها، بل يمكن أن يشرْكَها فيه المسجد ذاته لو كانت النية سيئة. ألا تذكرون مسجد الضرار، الذى بناه المنافقون فى المدينة، وكيف حرم الله على الرسول الصلاة فيه لأنه لم يبْنَ بنية العبادة بل لحَوْك المؤامرات ضد الإسلام؟ ألا يضيع على المسلم صلاته وصيامه إن كان يريد بهما النفاق؟ بل إن الهجرة نفسها قد تذهب هدرا إذا كان الدافع لها شيئا من أمور الدنيا أو امرأة يبغى المهاجر نكاحها كما نَبَّهَنا الرسول عليه السلام.

ولا ننس أيضا أنه عليه الصلاة والسلام كان تاجرا فترة طويلة من حياته ويغشى الأسواق لا مشتريا فقط بل بائعا أيضا. ومثله كثير جدا من الصحابة، وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عوف، الذى صار فى فترة قصيرة من أغنى أهل المدينة لبراعته فى التجارة حتى لقد رفض أن يأخذ شيئا من أخيه اليثربى طبقا لمبدإ المؤاخاة الذى اعتمده النبى بين الأنصار والمهاجرين غِبَّ الهجرة، مفضلا أن يذهب إلى السوق ويتاجر، فبارك الله له فى نشاطه وصار من عداد كبار الأغنياء بجِدّه وكَدّه. فماذا نقول فى ذلك؟ ثم من أين اشترت ابنة الشيخ ورفقاء رحلتها أغراضهم التى يحتاجونها فى رحلتهم العبادية ذاتها من حقائب وملابس وأدوية؟ أليس من الأسواق؟ أم إن الأسواق البريطانية خير، وأسواق السعودية شر؟ بالمناسبة فإن البيع والشراء فى بريطانيا من أمتع وأسلس ما يكون، وقلما يفقد البائع أو الشارى أعصابه. وكما قلت فالسعودية لا تختلف كثيرا عن بريطانيا فى ذلك. وأخيرا كيف تنتعش الحياة الاقتصادية فى السعودية إذا أخذ الحجاج والمعتمرون بكلام السيدة الكريمة؟ هل تريدين يا سيدتى أن

تخربى بيوت الناس هناك ويتحول السعوديون إلى متسولين؟ ثم من أين يحصل الحجاج على الأضاحى؟ أليس من الأسواق؟ وماذا سيقول أقارب المعتمرين والحجاج إذا رَأَوْهم قد عادوا من السعودية: يدًا قُدَّام، ويدًا وراء، دون أن يحضروا لهم سبحة أو طاقية على سبيل التذكار؟ لسوف يتقاطع الناس ولايكلم بعضهم بعضا فى هذه الحالة لأنه ليس كل الناس متقشفين مثلك يا سيدتى. بارك الله فيك! أكتب هذا وأنا أغالب الضحك لأن المسلمين موعودون بمن ينكد عليهم حياتهم ويضيق ما وسعه الله لهم ويحول الحلال "حراما" أو فى أحسن الأحوال: "مكروها". لا أراكم الله "مكروها" فى "سوق" لديكم!

أما بالنسبة للحرارة التى قاستها جماعة المعتمرين هناك فأذكر أننى وأسرتى، بعد أن عملنا عمرة ذات مرة فى تسعينات القرن البائد من رمضان وركبنا السيارة متجهين إلى الطائف حيث كنت أعمل فى كلية التربية هناك، كان الجو لا يطاق حرارةً، فعرَّجت على دكان اشتريت منه مياها وطلبت من زوجتى وابنتى وابنى أن يفطروا لأن معاناتهم قد وصلت إلى الذروة وخشيت أن يغْشَى عليهم، وبقيت أنا أقاسى الحر والعطش وحدى وأتصبر. وهو ما ذكَّرنى بدوره بأيام المراهقة حين كنت فى المرحلة الإعدادية، ويكون الجو فائق الحرارة، والعطش يلهب حلقى فى عز الظهيرة، والشيطان "ابن اللذينه" يوسوس لى، وأنا وحدى لا يرانى إنسان، أن أشرب ماء بحجة أننى ما زلت صغيرا، والصيام ليس فرضا على من هو فى سنى. لكنى بطريقة أو أخرى استطعت التماسك رغم المعاناة الشديدة. هل كان هذا إيمانا قويا من جانبى؟ لا أظن. لقد حدث الأمر هكذا، والسلام. أنا طبعا كنت وما زلت أخاف الله وأضعه دائما فى خاطرى، ولكن فى تلك الأيام لم يكن تدينى متوهجا، ولا حتى الآن "بينى وبينكم". ومرة أخرى كنا فى مكة، وكان اليوم جمعة، ونزلنا فى حديقة قريبة من أحد المساجد، وكانت سخونة الهواء رهيبة تلفح وجوهنا كأنها من فَيح جهنم، فقلت لأولادى: هذه، فيما أتصور، ريح السَّمُوم، التى قرأنا عنها ولم نَخْبُرها من قبل. ولا حتى من بعد. فتركنا مكة وعدنا أدراجنا إلى الطائف بعد صلاة الجمعة هربا من هذا الحر اللاهب الذى يكاد يشوى الوجوه. وكنت أقول لزملائى السعوديين ضاحكا: لقد كنا فى جهنم! فعلق بعضهم بقوله: أستغفر الله. أتقول عن مكة ذلك؟ قلت وما زلت أضحك: لم أقل عن مكة شيئا، بل الكلام عن الجو. الله يهديك منك له. لا تُوقِعونا فى الغلط!

ولا بأس أن أعرِّج هنا على ما قالته بنت الشيخ الندوى من أن الصيام فى السعودية أثناء العمرة كان شديد الصعوبة، فعقبت كارلا باور بأن الصيام فى كمبردج أيام اعتكفتْ مع الشيخ وزملائه فى

المسجد هناك كان لا يقل صعوبة لا بسبب الحر بل لأنه يستغرق ١٨ ساعة، وهو ما ذكرنى كذلك بصيامنا فى أكسفورد، إذ كنا فى الصيف، وكان الامتناع عن الطعام والشراب يمتد ما بين الثانية والنصف بعد منتصف الليل تقريبا إلى نحو التاسعة والنصف من ليل اليوم التالى. ولا أذكر أننا شعرنا هناك بالعطش قط رغم أننا كنا نقضى ساعات طويلة بعد الظهر سائرين بين الحقول ومخترقين القرى حول أكسفورد، وفى يدى كتاب ومذياع فتحته على الموجة القصيرة لألتقط إذاعة القاهرة وصوت العرب وأستمع إلى ما تبثانه من أغانٍ وأخبار وأنا أطالع الكتاب أو أدفع طفلينا على أية أرجوحة تقابلنا فى القرى التى نمر بها.

شىء آخر أرانى أختلف فيه مع بنت أخرى من بنات الشيخ، إذ قالت إنها لم تبك أمام قبر الرسول على عكس كثير من الحجاج الآخرين، خوفا منها أن تقع فى الشِّرْك، الذى هو فى الإسلام ظلم عظيم. وأنا لا أستطيع أن أفهم ولا أقبل هذا المنطق رغم أنى مثلها لم أبك عند قبره صلى الله عليه وسلم حين زرته، وقد زرته ثلاث مرات. فأين الشرك فى هذا البكاء؟ هل البكاء عبادة حتى يقال إن الذى يبكى من الفرحة لدن قبره عليه السلام إنما يعبده؟ هذه مغالاة غير مفهومة ولا مقبولة. كما أننى، وإن كنت لا أزور قبور من يسمون بـ"الأولياء"، لا أفسِّق أو أبدِّع من يزور القبور لمجرد الزيارة، اللّهم إلا إذا كان يعتقد فى أن الميت المَزُور يتوسط له عند الله. فما الموتى إلا بشر انتهى أمرهم على الأرض، ولم يعودوا يستطيعون شيئا لأنفسهم، فما بالنا بغيرهم؟ أما زيارة قبر النبى، حتى لو كانت هى السبب الوحيد فى رحلة الشخص إلى المدينة، فما الذى فيها من خطإ حتى يقيم بعض الناس، ومنهم د. أكرم ندوى، الدنيا جراءها؟ إن مثل تلك الزيارة هى تعبير عن الحب له صلى الله عليه وسلم. وبالمناسبة فإنى لا أفكر أبدا فى القيام بزيارة كهذه باعتبارها الغاية الوحيدة لى من السفر إلى هناك، فالنبى عليه السلام ساكن على الدوام عقلى وقلبى وضميرى، فلست محتاجا إلى شد الرحال إلى قبره. إننى أحبه حبا جما، ومعجب به غاية الإعجاب لما كان يتمتع به من عبقرية وعظمة وجلال وقدرة هائلة على التخطيط والتنظيم ومخاطبة الناس وكسبهم إلى صفه وبراعته فى تغيير معتقداتهم وتصرفاتهم وتحويلهم من حال إلى حال وذوقه الراقى وسلوكه السامى التهذيب، ونجاحه العظيم فى تحويل مجرى الحضارة البشرية وتاريخ العالم بأقل التكاليف وأسرع الوتائر، كل ذلك بالحب والثقة والأمل المتوهج دائما، وبالرحمة والمغفرة واللطف الجميل، وبالحزم والنفس الطويل والتخطيط الواعى المحسوب، مع رعاية السماء له طوال الوقت وفى كل المواضع. وهذا وحده يكفينى. لكنى مع هذا لا أدين من ينحو فى هذه المسألة

نحوا يختلف عن نحوى. وقد كان الرسول يزور المقابر ويدعو لأهلها، وقد يقوم من رقاده ويرتدى ملابسه ويقصد مضاجعهم ويطلب لهم من ربه الرحمة. وحين أكون فى القرية قد أعرِّج على الجبان وأقصد قبر أبى وأمى وأقف عليهما وأدعو لهما فى حنان غامر وعطف كبير، فقد تركانا ونحن صغارٌ زُغْب الحواصل. وقد بهرنى ما كتبه أستاذى د. شوقى ضيف فى كتابه: "معى" من كلام رائع بديع عن زيارته قبر والديه وقراءته الفاتحة لهما كلما ذهب إلى قريته قريبا من دمياط.

ومن أقواله صلى الله عليه فى قضية القبور ما قاله عليه السلام فى الحديث التالى: "كنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فى سفرٍ، فنزَل بنا ونحنُ قريبٌ مِن ألفِ راكبٍ فصلَّى بنا ركعتينِ ثمَّ أقبَل علينا بوجهِه، وعيناه تذرِفانِ، فقام إليه عمرُ ففدَّاه بالأبِ والأمِّ وقال: ما لكَ يا رسولَ اللهِ؟ فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّى استأذَنْتُ فى الاستغفارِ لأمِّى، فلم يأذَنْ لى، فدمعتْ عينى رحمةً لها مِن النَّارِ. وإنِّى كُنْتُ نهَيتُكم عن ثلاثٍ: عن زيارةِ القبورِ. فَزُوروها، ولْتَزِدْكم زيارتُها خيرًا. وإنِّى كُنْتُ نهَيتُكم عن لحومِ الأضاحى بعدَ ثلاثٍ. فكُلوا وأمسِكوا ما شِئْتُم. وإنِّى كُنْتُ نهَيتُكم عن الأشربةِ فى الأوعيةِ. فاشرَبوا فى أى وعاءٍ شِئْتُم، ولا تشرَبوا مُسْكِرًا"، وإن لم يمنعنى الحديث الشريف من التساؤل عن السبب فى عقاب السيدة آمنة، وهى من أهل الفترة. وعلى أية حال فالعبرة، بالنسبة لزيارة القبور، فيما يسكن القلب من عقيدة ومشاعر. فهل يذهب الإنسان إلى القبر وهو يعتقد فى ضر صاحب القبر ونفعه له؟ فهذا مرفوض تماما ولا سبيل إلى قبوله، أما إن كان الحب والرغبة فى الدعاء واستدرار العظة هو دافع الزيارة فأهلا وسهلا ومرحبا. ترى لماذا نضيق على عباد الله واسعا، والدنيا بطبيعتها مزعجة؟ فهل نزيدها إزعاجا؟ ثم إن أوامر الدين ونواهيه ليست لوائح عسكرية تطبق دون فهم وكأن الإنسان آلة لا تعى ما تفعل ولا تفهم له مغزى أو مرمى ولا تربطه بغيره من اللوائح والقوانين ولا تنظر إليه فى ضوء السياق والظروف. إن الإسلام دين عظيم، وهذا التطبيق الآلى له يفسده إفسادا شنيعا. وبمناسبة ما نحن فيه فقد صرت آخذ بمبدإ التيسير فى الدين، وبخاصة فى العبادات. فالدين يسر لا عسر، وما جعل الله عليكم فى الدين من حرج، ويسِّروا ولا تُعَسِّروا، وما يفعلُ اللهُ بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟ وإن المنبتَّ لا أرضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أَبْقَى. لقد أتى الدين لتيسير الحياة لا لتعقيدها، ولوضع الإصر عن أكتافنا وكواهلنا لا لتحميلنا المزيد من الإصر. والرسول محمد إنما أتى رحمة لا نقمة للعالمين.

وفى هذا الفصل أيضا تشير الكاتبة إلى ما صنعه الشيخ أكرم ندوى حين سافر لأداء الحج قبل ذلك وحان وقت رمى الجمرات، وكان معه أبواه، فقرر أن يؤجل رمى الجمار إلى ما بعد الظهر تحاشيا

للزحام الشديد الذى يمكن أن ينتج عنه وَفَيات. وهو ما حدث ذلك العامَ حيث كانت حصيلة الموت بين رماة الجمار تسعة عشر حاجا. وقد قابلتنى هذه المشكلة فى أول حج لنا، إذ أصرت زوجتى أن تخوض التجربة بنفسها ردا على اقتراحى أن أقوم أنا برمى إبليس اللعين نيابة عنها وعن البنت والولد خوفا عليهم من التدافع الخطر. ثم جاءتنى بعد الانتهاء من رمى اليوم الأول وأخبرتنى أنها سقطت جراء التدافع، ولولا أن أحد رفقائنا فى الرحلة مد يده فى اللحظة المناسبة وانتشلها من سقطتها لكانت قد ضاعت تحت الأقدام. ثم أعلنتْ أنها ستنزل على اقتراحى فى اليومين التاليين. الحمد لله. ولكن ألم يكن الأفضل الانصياع إلى الاقتراح منذ البداية بدلا من تعريض أنفسنا للهلاك؟ ألم يقل سبحانه وتعالى: "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلُكَة"؟ وهى حتى الآن تتهمنى بالتسهيل الشديد لأمور الدين حين أخبرها مثلا وهى مريضة أنها يمكنها أن تصلى فى أى اتجاه حتى لا تفسد العمليةَ التى أجرتها فى العمود الفقرى بكثرة الالتفات والتحرك يمينا وشمالا وهى راقدة أو جالسة، قائلا لها: "ولله المشرق والمغرب. فأينما تُوَلُّوا فثَمَّ وجهُ الله". إن مراعاة القبلة واجب مطلوب ليس هناك معدًى عنه، لكنه لا ينبغى أن يتم على حساب سلامة الإنسان. ثم أذكّرها بحادثة رمى الجمار ضاحكا، فتسكت.

وفى الحج الثانى كنا أكثر ميلا إلى التيسير، فأحضرْنا أنا وزميل مصرى اتفقنا على أن تحج أسرتانا معا كتاب "فقه السنة" للسيد سابق وراجعنا اختلاف أحكام الفقهاء فيما يتعلق بشعائر الحج لنأخذ بالأيسر تجنبا لتحميل أنفسنا وزوجتينا وأولادنا مزيدا من الإرهاق فى الحج. ومن بين ما أخذنا به من تيسير عدم وجوب المبيت بمنى. وهذا نص ما وجدناه فى الكتاب المذكور متعلقا بحكم هذه الشعيرة، وقد جاء تحت عنوان "المبيت بمنى": "البيات بمنى واجب فى الليالى الثلاث أو ليلتى الحادى عشر والثانى عشر عند الأئمة الثلاثة. ويرى الاحناف أن البيات سنة. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إذا رميت الجمار فبِتْ حيث شئت. رواه ابن أبى شيبة. وعن مجاهد: لا بأس بأن يكون أول الليل بمكة، وآخره بمنى، أو أول الليل بمنى، وآخره بمكة. وقال ابن حزم: ومن لم يبت ليالى منى بمنى فقد أساء، ولا شئ عليه. واتفقوا على أنه يسقط عن ذوى الاعذار كالسقاة ورعاة الابل، فلا يلزمهم بتركه شئ. وقد استأذن العباس النبى صلى الله عليه وسلم أن يبيت بمكة ليالى منى من أجل سقايته، فأذن له. رواه البخارى وغيره. وعن عاصم بن عدى أنه صلى الله عليه وسلم رَخَّص للرِّعَاء أن يتركوا المبيت بمنى. رواه أصحاب السنن، وصححه الترمذى".

ولم نلتزم هذه المرة بما يقوله فقهاء السعودية من أن رمى الجمار يجب أن يتم قبل الزوال، وذلك هربا من الزحام والتدافع وما يمكن أن ينتج عنه من سقوط البعض تحت الأقدام فتُرَضّ ضلوعه أو يهلك تماما. فكنا نذهب قبيل الغروب لنرمى الحصيات فى دقائق معدودات ثم نعود دون أية معاناة أو زحام أو بطء. بل إننى ذهبت مرة لرميها ليلا. وكنت أنوب عن أسرتى فى رجم إبليس اللعين. وكنا نردد ما قاله الرسول عليه السلام لكل من سأله عن كيفية تأدية هذه الشعيرة أو تلك من شعائر الحج ووقت أدائها، إذ كان يردّ عليه قائلا: افعل، ولا حرج. ثم أتذكر قوله تعالى: "ماجعل عليكم فى الدين من حرج"، "يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر". وأستغرب أشد الاستغراب كيف عَقَّد بعض الفقهاء أمور الدين وضيقوا على عباد الله وعملوا على سد كل ثغرة يمكن أن تهب منها نسمةٌ ملطِّفةٌ. وتراهم حين يظهرون فى التلفاز مرددين كلاما محفوظا باردا دون أى انفعال، فيخيل إليك أنهم آلات مسيرة لا إرادة لها فيما تقول ولا تمييز عندها لما تسوقه من أحكام، ظنا منهم أن الدين هو مجرد نصوص عليهم حفظها ليدخلوا بها الامتحان ويبرهنوا للممتحنين أنهم يحفظونها جيدا.

وعن رمى الجمار ووقته يقول السيد سابق: "أصل مشروعيته: روى البيهقى عن سالم بن أبى الجعد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "لما أتى إبراهيم عليه السلام المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الارض. ثم عرض له عند الجمرة الثانية، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الارض. ثم عرض له عند الجمرة الثالثة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الارض". قال ابن عباس رضى الله عنهما: الشيطانَ ترجمون، وملةَ أبيكم تتبعون. قاله المنذرى. ورواه ابن خزيمة فى "صحيحه" والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

حكمته: قال أبو حامد الغزالى رحمه الله فى "الإحياء": وأما رمى الجمار فليقصد الرامى به الانقياد للامر، وإظهارا للرق والعبودية، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للنفس والعقل فى ذلك. ثم ليقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس، لعنه الله تعالى، فى ذلك الموضع ليدْخِل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية. فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طردا له، وقطعا لأمله. والجمار التى تُرْمَى ثلاث كلها بمنى، وهى: ١- جمرة العقبة على يسار الداخل إلى منى. ٢- الوسطى بعدها، وبينهما ٧٧ و١١٦ مترا. ٣- والصغرى، وهى التى تلى مسجد الخيف. وبين الصغرى والوسطى ٤ و١٥٦ مترا. فإن خطر لك أن "الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه، وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان"، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان، وأنه هو الذى ألقاه فى قلبك ليفتِّر عزمك فى الرمى،

ويخيل إليك أنه لا فائدة فيه وأنه يضاهى اللعب، فلِمَ تشتغل به؟ فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير والرمى، فبذلك تُرْغِم أنف الشيطان. واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى فى العقبة، وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان وتقصم به ظهره، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما له بمجرد الامر من غير حظ للنفس فيه.

حكمه: ذهب جمهور العلماء إلى أن رمى الجمار واجب وليس بركن، وأن تركه يُجْبَر بدم لما رواه أحمد ومسلم والنسائى عن جابر رضى الله عنه قال: رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يرمى الجمرة على راحلته يوم النحر ويقول: "لتأخذوا عنى مناسككم، فإنى لا أدرى لعلى لا أحج بعد حجتى هذه". وعن عبد الرحمن التيمى قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نرمى الجمار بمثل حصى الحذف فى حجة الوداع. رواه الطبرانى فى الكبير بسند، ورجاله رجال الصحيح.

قدر كم تكون الحصاة؟ وما جنسها؟ فى الحديث المتقدم أن الحصى الذى يرمى به مثل حصى الحذف. ولهذا ذهب أهل العلم إلى استحباب ذلك. فإنْ تجاوزه ورمى بحجر كبير فقد قال الجمهور: يجزئه ويكْرَه. وقال أحمد: لا يجزئه حتى يأتى بالحصى على ما فعل النبى صلى الله عليه وسلم، ولنهيه صلى الله عليه وسلم عن ذلك. فعن سليمان بن عمرو بن الأحوص الأزدى عن أمه قالت: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم، وهو فى بطن الوادى، وهو يقول: "يا أيها الناس، لا يقتل بعضكم بعضا. إذا رميتم الجمرة فارموا بمثل حصى الحذف". رواه أبو داود. وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هات، الْقُطْ لى". فلقطْت له حصيات هى حصى الحذف. فلما وضعتهن فى يده قال: "بأمثال هؤلاء. وإياكم والغُلُوّ فى الدين. فإنما أهلك الذين من قبلكم الغلو فى الدين". رواه أحمد والنسائى، وسنده حسن. وحمل الجمهور هذه الأحاديث على الأولوية والندب. واتفقوا على أنه لا يجوز الرمى إلا بالحجر، وأنه لا يجوز بالحديد أو الرصاص ونحوهما. وخالف فى ذلك الأحناف، فجوزوا الرمى بكل ما كان من جنس الارض حجرا أو طينا أو آجُرًّا أو ترابا أو خزفا، لأن الأحاديث الواردة فى الرمى مطلقة. وفِعْل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته محمول على الأفضلية لا على التخصيص. ورجح الأول بأن النبى صلى الله عليه وسلم رمى الحصى، وأمر بالرمى بمثل حصى الحذف، فلا يتناول غير الحصى، ويتناول جميع أنواعه.

من أين يؤخذ الحصى؟: كان ابن عمر رضى الله عنهما يأخذ الحصى من المزدلفة، وفعله سعيد بن جبير وقال: "كانوا يتزودون الحصى منها"، واستحبه الشافعى. وقال أحمد: خذ الحصى من حيث شئت.

وهو قول عطاء وابن المنذر لحديث ابن عباس المتقدم وفيه: "الْقُطْ لى"، ولم يعين مكان الالتقاط. ويجوز الرمى بحصى أُخِذ من المرمى مع الكراهة عند الحنفية والشافعى وأحمد. وذهب ابن حزم إلى الجواز بدون كراهة فقال: ورمى الجمار بحصى قد رُمِى به قبل ذلك جائز، وكذلك رميها راكبا. أما رميها بحصى قد رُمِى به فلأنه لم ينْهَ عن ذلك قرآن ولا سنة. ثم قال: فإن قيل: "قد رُوِى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن حصى الجمار: ما تُقُبِّل منه رُفِع، وما لم يتَقَبَّل منه تُرِك. ولولا ذلك لكان هضابا تسد الطريق" قلنا: نعم، فكان ماذا؟ وإن لم يتقبل رمى هذه الحصاة من عمرو فسيتقبل من زيد. وقد يتصدق المرء بصدقة فلا يتقبلها الله منه، ثم يملك تلك العين آخر فيتصدق بها فتقبل منه. وأما رميها راكبا فلحديث قدامة بن عبد الله قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى جمرة العقبة يوم النحر على ناقة له صهباء، لا ضرب ولا طرد ولا "إليك، إليك".

عدد الحصى: عدد الحصى الذى يرمى به سبعون حصاة، أو تسع وأربعون. سبع يرمى بها يوم النحر عند جمرة العقبة، وإحدى وعشرون فى اليوم الحادى عشر موزعة على الجمرات الثلاث، تُرْمَى كل جمرة منها بسبع. وإحدى وعشرون يرْمَى بها كذلك فى اليوم الثانى عشر والثالث عشر. فيكون عدد الحصى سبعين حصاة. فإن اقتصر على الرمى فى الأيام الثلاثة، ولم يرم فى اليوم الثالث عشر جاز. ويكون الحصى الذى يرميه الحاج تسعا وأربعين. ومذهب أحمد: إن رمى الحاج بخمس حصيات أجزأه. وقال عطاء: إن رمى بخمس أجزأه. وقال مجاهد إن رمى بست فلا شئ عليه. وعن سعيد بن مالك قال: رجعنا فى الحجة مع النبى صلى الله عليه وسلم، وبعضنا يقول: رميت ست حصيات، وبعضنا يقول: رميت سبع حصيات، فلم يعب بعضنا على بعض.

أيام الرمى: أيام الرمى ثلاثة أو أربعة: يوم النحر، ويومان أو ثلاثة من أيام التشريق. قال الله تعالى: "واذكروا الله فى أيام معدودات: فمن تعجَّل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى".

الرمى يوم النحر: الوقت المختار للرمى يوم النحر وقت الضحى بعد طلوع الشمس، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما رماها ضحى ذلك اليوم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدَّم النبى صلى الله عليه وسلم ضَعَفَة أهله، وقال "لا ترموا جمرة العقبة حتى تطلع الشمس". رواه الترمذى وصححه. فإن أخَّره إلى آخر النهار جاز. قال ابن عبد البر: أجمع أهل العلم أن من رماها يوم النحر قبل المغيب فقد رماها فى وقت لها، وإن لم يكن ذلك مستحبا لها. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كان النبى

صلى الله عليه وسلم يسأل يوم النحر بمنى فقال رجل: رميتُ بعد ما أمسيت. فقال: "لا حرج". رواه البخارى.

هل يجوز تأخير الرمى إلى الليل؟: إذا كان فيه عذر بمنع الرمى نهارا جاز تأخير الرمى إلى الليل لما رواه مالك عن نافع: أن ابنة لصفية امرأة ابن عمر نفست بالمزدلفة، فتخلفت هى وصفية حتى أتتا منى بعد أن غربت الشمس من يوم النحر، فأمرهما ابن عمر أن ترميا الجمرة حين قدمتا، ولم ير عليهما شيئا. أما إذا لم يكن فيه عذر فإنه يكره التأخير، ويرمى بالليل، ولا دم عليه عند الأحناف والشافعية وروايةً عن مالك لحديث ابن عباس المتقدم. وعند أحمد: إنْ أخّر الرمى حتى انتهى يوما النحر فلا يرمى ليلا، وإنما يرميها فى الغد بعد زوال الشمس.

الترخيص للضعفة وذوى الاعذار بالرمى بعد منتصف ليلة النحر: لا يجوز لأحد أن يرمى قبل نصف الليل الأخير بالإجماع. ويرخَّص للنساء والصبيان والضعفة وذوى الاعذار ورعاة الابل أن يرموا جمرة العقبة من نصف ليلة النحر. فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل أم سلمة ليلة النحر، فرمت قبل الفجر ثم أفاضت. رواه أبو داود والبيهقى، وقال: إسناده صحيح لا غبار عليه. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن النبى صلى الله عليه وسلم رَخَّص لرعاة الابل أن يرموا بالليل. رواه البزار، وفيه مسلم بن خالد الزنجى، وهو ضعيف. وعن عروة قال: دار النبى صلى الله عليه وسلم إلى أم سلمة يوم النحر، فأمرها أن تعجل الإفاضة من جمع حتى تأتى مكة، فتصلى بها الصبح، وكان يومها، فأحب أن ترافقه. رواه الشافعى والبيهقى. وعن عطاء قال: أخبرنى مخبر عن أسماء أنها رمت الجمرة. قلت: إنا رمينا الجمرة بليل. قالت: إنا كنا نصنع هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. رواه أبو داود. قال الطبرى: استدل الشافعى بحديث أم سلمة وحديث أسماء على ما ذهب إليه من جواز الإفاضة بعد نصف الليل. وذكر ابن حزم أن الإذن فى الرمى بالليل مخصوص بالنساء دون الرجال: ضعفاؤهم وأقوياؤهم فى عدم الإذن سواء. والذى دل عليه الحديث أن من كان ذا عذر جاز أن يتقدم ليلا ويرمى ليلا. وقال ابن المنذر: السنة ألا يرمى إلا بعد طلوع الشمس كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز الرمى قبل طلوع الفجر لان فاعله مخالف للسنة. ومن رماها حينئذ فلا إعادة عليه إذ لا أعلم أحدا قال: لا يجزئه. رمى الجمرة من فوقها: عن الأسود قال: رأيت عمر رضى الله عنه رمى جمرة العقبة من فوقها. وسئل عطاء عن الرمى من فوقها، فقال: لا بأس. رواهما سعيد ابن منصور.

الرمى فى الأيام الثلاثة: الوقت المختار للرمى فى الأيام الثلاثة يبتدئ من الزوال إلى الغروب. فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم رمى الجمار عند زوال الشمس أو بعد زوال الشمس. رواه أحمد وابن ماجه والترمذى، وحَسَّنه. وروى البيهقى عن نافع أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يقول: لا نرمى فى الأيام الثلاثة حتى تزول الشمس. فإنْ أخّر الرمى إلى الليل كُرِه له ذلك، ورمى فى الليل إلى طلوع شمس الغد. وهذا متفق عليه بين أئمة المذاهب سوى أبى حنيفة، فإنه أجاز الرمى فى اليوم الثالث قبل الزوال لحديث ضعيف عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: إذا انتفخ النهار من يوم النَّفْر الآخر حَلَّ الرمى والصَّدَر".

وما دمنا فى تيسير العبادات خطر على بالى الآن نقاش جرى بينى وبين زميل سورى كان معنا بتربية الطائف آنذاك، وما زالت تربط بيننا صداقة قوية حتى إنه حين يزور مصر لا بد أن نتقابل. وكنا واقفين أمام الكلية بعد صلاة المغرب، ويبدو أننا كنا فى الفصل الصيفى، ولا أدرى الآن لماذا عرّج بنا الحديث إلى صلاة المسافر والمقيم معا. فكان من رأيى أنه يصح أن يؤم أى منهما الآخر فى الصلاة. أما هو فخالفنى قائلا: بل لا بد أن يكون المسافر هو الإمام، وعند تسليمه بعد الركعة الثانية قَصْرًا يكمل المقيم صلاته أربع ركعات. وكان دليله قول الرسول: إنما جُعِل الإمام ليؤْتَمّ به. فقلت له: ولكن هذا الحديث يخدمنى أنا أيضا. فقال: كيف؟ قلت له: لأنه طبقا لهذا الحديث على المأموم الذى يصلى خلف المسافر أن يسلم هو أيضا مع تسليم الإمام ما دام الإمام إنما جُعِل ليؤتم به. لكنه لم يقتنع، وأنا أيضا تمسكت برأيى، ليأتينى فى اليوم التالى قائلا إن هناك فعلا فقهاء يرون صحة إمامة المقيم فى هذه الحالة. فقلت له: "الحمد لله". وقد قلت ما قلت لأن المسافر والمقيم كليهما يتجهان لربهما، فأيهما كان الإمام فهو جائز، مثلما درست وأنا ولد صغير أنه يجوز مثلا صلاة الظهر خلف إمام يصلى العصر...

وقبل هذا بوقت طويل حين كنت بالمرحلة الجامعية فأسهر إلى وقت متأخر، وأصحو لصلاة الصبح حاضرا لأفاجأ أن الشروق قد أزف، ولم يعد متبقيا عليه سوى دقائق قليلة لا تسمح بالذهاب إلى حمام المدينة الجامعية والتوضأ والصلاة قبل خروج الوقت، فكنت أكتفى بالتيمم وأصلى حامدا لله أَنْ وفقنى لأداء الصبح حاضرا فلا يلذعنى ضميرى سائر الأسبوع وربما الشهر لضياع الصلاة منى. وعندما عرف بعض الأصدقاء بذلك أَبْدَوُا استغرابهم بل إنكارهم. وحجتهم أن الماء متوافر، فلماذا التيمم، وهو إنما شُرِع لعدم وجود الماء؟ فأجيبهم: بل شُرِع تفاديا لضياع وقت الصلاة حاضرا. فيصرون على رأيهم، فأقول لهم: لو كان الأمر كما تقولون لكان ينبغى أن يؤجِّل عادم الماء الصلاة لحين

توافره. فيقولون فى دوران داخل حلقة مفرغة: لكنه بهذا ستفوته الصلاة أداء. فأقول لهم: وهذا ما أقوله لكم من الصبح، لكنكم ترفضون. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد كان ضميرى يلذعنى عندما تفوتنى الصبح أداء فى قطار رحلة السد العالى فى آخر سنة لنا بالمرحلة الثانوية، إذ كنت أستيقظ من نومى فأجد الماء بالقطار قد نَفِدَ، فأنظر إلى قرص الشمس وهو يرتفع من الأفق الشرقى وأنا لم أُصَلِّ الصبح، إذ كنت أقيس القطار على المنزل، وأرى أنه لا تيمم بل وضوء. ولو كنت قد اتسع أفقى آنذاك لتيممت لسببين: عدم وجود الماء حتى لو كنت مقيما وموجودا فى منزلى. ثم السفر لأن السفر فى حد ذاته مبيح للتيمم مطلقا عند بعض الفقهاء المحدثين، وهو ما أراه التفسير الصحيح لآية سورة "النساء" الخاصة بذلك الموضوع، إذ أفهمها على النحو التالى تبعا لطريقة الترقيم التى أتبعها فى كتابة الآية: "وإن كنتم ١ - مرضى أو ٢ - على سفر أو ٣- جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا". ذلك أن عدم الماء يجيز التيمم حتى فى الحَضَر، فمن باب الأولى فى السفر، ولا معنى من ثم للنص مرة أخرى على عدم وجود الماء فى السفر. كذلك أصيب جلد يدى بالتشقق والخشونة فى تلك الرحلة جراء توضُّئى وتعرُّضى للهواء داخل القطار وفى أماكن المبيت التى كنا ننام فيها فى سوهاج وأسوان. وعندما وصلت طنطا عائدا من تلك الرحلة كان جلدى يؤلمنى جدا ألما جسديا ونفسيا، فلم أشأ أن أتوضأ فى الهواء الطلق حتى لا يزداد الطين بِلَّةً، وأجلت المغرب لحين الوصول إلى البيت حيث المكان مغلق وأستطيع أن أجفف يدىَّ فى الحال. ولو كنت متسع الأفق لتيممت، فهذا الذى كنت فيه هو المرض بعينه. ولكن على من ترتل مزاميرك يا داود؟ لقد كنت صبيا غِرًّا آنذاك!

كذلك كنت، قبل تلك السنة، كثيرا ما أجمع بين أكثر من صلاة، مع الشعور الخفيف فى نفس الوقت بالذنب طبقا لما قرأناه فى كتب الفقه عن وجوب تأدية كل صلاة فى ميعادها حسب ترتيب أوقات الوجوب والفضيلة والكراهة... أما فى إجازة آخر العام للسنة الثانية الثانوية فقد تحولت أمورى تحولا كبيرا بحيث لم أعد أُقْدِم قَطُّ على تأخير الصلاة إلى ميعاد الصلاة التالية، وبخاصة صلاة الصبح، التى كنت حريصا على الاستيقاظ من أحلى نومة لتأديتها، اللّهم إلا إذا راحت علىَّ نومة وقمت بعد شروق الشمس رغم ما اتخذته من احتياطات للقيام قبله. وظللت هكذا أنظر إلى الأمر إلى أن وجدت عالما فاضلا كبيرا من علماء الدين يؤجل الظهر ذات مرة إلى ما بعد عودته إلى بيته ودخول وقت العصر لانشغاله فى إلقاء حديث له بالإذاعة رافقتُه فيه فى بداية سبعينات القرن الماضى، مما أثار استغرابى بل

وإنكارى أيضا. ثم قرأت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبْرِد بالصلاة، وهو ما فهمت وقتذاك خطًا أن المقصود به تأدية صلاة الظهر فى آخر وقتها وتأدية صلاة العصر فى أولها. ثم ذهبت إلى السعودية للعمل بتربية الطائف أول تسعينات القرن المنصرم، ودارت ذات مرة مناقشة بيننا فى القسم ذكر فيه بعضنا أنه لا بأس إذا ما جمع أحدهم فى الحضر إذا كان هناك ما يشغله. وأضاف آخر أن هذا ممكن حتى لو لم يكن هناك ما يشغله بشرط ألا يتخذ ذلك عادة له، ليضيف ثالث أن ذلك جائز حتى لو صار عادة. ورغم أننى حتى الآن لم أفعل ذلك قصدا سوى مرتين أو ثلاث فإنى لم أعد أشعر بالفزع إذا ما ألفيت غيرى يفعله، بل أراه رخصة من الله لعباده حتى لا يعنتهم، إذ قد خلقهم ضعفاء ووضَعَهم فى كَبَدٍ، فهو أعلم بحقيقة أمرهم، ويعاملهم برحمته وفضله. ويدخل فى هذا أننى، لو حدث على ندرةٍ أنْ تأخرت الآن فى النوم إلى ما بعد الشروق لحبى للسهر والقراءة والكتابة ليلا ونومى متأخرا جدا من ثم، لم أعد أشعر بالإثم العنيف الذى كان يسمم يومى بل أسبوعى بل شهرى كله وأنا شاب صغير، بل أصلى الصبح وأستغفر الله، وينتهى الأمر، وبخاصة أننى لا أتعمد ذلك أبدا، بل أستعين دائما بالمنبه أضعه بجوار السرير. وهو نادرا ما يخذلنى، بل هو لا يخذلنى البتة. إنما يأتى الخذلان من جانب ضعفى وإرهاقى كما شرحت. ويدخل فى هذا أيضا أننى أقصر الصلاة وأجمع بين الرباعيتين فى أى سفر دون النظر إلى مسافته على عكس ما تعلمناه فى الفقه الشافعى من أنه لا بد ألا يقل السفر فى هذه الحالة عن ثمانين كيلومترا تقريبا.

وهذا ما قرأته فى "تفسير المنار" لمحمد رشيد رضا بخصوص هذه المسألة: "الأستاذ الإمام: المعنى أن حكم المريض والمسافر إذا أرادا الصلاة كحكم المُحْدَث حدثًا أصغر أو مُلامِس النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط. هذا ما يفهمه القارئ من الآية نفسها إذا لم يكلف نفسه حملها على مذهب من وراء القرآن بجعلها بالتكلف حجة له منطبقة عليه. وقد طالعت فى تفسيرها خمسة وعشرين تفسيرًا فلم أجد فيها غناء ولا رأيت قولًا فيها يسلم من التكلف، ثم رجعت إلى المصحف وحده فوجدت المعنى واضحًا جليا. فالقرآن أفصح الكلام وأبلغه وأظهره، وهو لا يحتاج عند من يعرف العربية: مفرداتها وأساليبها إلى تكلفات فنون النحو وغيره من فنون اللغة عند حافظى أحكامها من الكتب مع عدم تحصيل ملكة البلاغة... إلى آخر ما أطال به فى الإنكار على المفسرين الذين عدوا الآية مشكلة لأنها لم تنطبق على مذاهبهم انطباقًا ظاهرًا سالمًا من الركاكة وضعف التأليف والتكرار التى يتنزه عنها أعلى الكلام وأبلغه.

وإذا كان رحمه الله قد راجع خمسة وعشرين تفسيرًا رجاء أن يجد فيها قولًا لا تكلف فيه فأنا لم أراجع عند كتابة تفسيرها إلا "روح المعانى"، وهو آخر التفاسير المتداولة تأليفًا، وصاحبه واسع الاطلاع، فإذا به يقول: "الآية من معضلات القرآن". ووالله إن الآية ليست معضلة ولا مشكلة، وليس فى القرآن معضلات إلا عند المفتونين بالروايات والاصطلاحات، وعند من اتخذوا المذاهب المحدثة بعد القرآن أصولًا للدين يعرضون القرآن عليها عرضًا: فإذا وافقها بغير تكلف أو بتكلف قليل فرحوا، وإلا عَدُّوها من المشكلات والمعضلات. على أن القاعدة القطعية المعروفة عمن أُنْزِل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم وعن خلفائه الراشدين رضى الله عنهم أن القرآن هو الأصل الأول لهذا الدين وأن حكم الله يلْتَمَس فيه أولًا: فإن وُجِد فيه يؤْخَذ، وعليه يعَوَّل ولا يحْتَاج معه إلى مأخذ آخر، وإن لم يوجد التُمِس من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. على هذا أقر النبى صلى الله عليه وسلم معاذًا حين أرسله إلى اليمن، وبهذا كان يتواصى الخلفاء والأئمة من الصحابة والتابعين. وقد رأى القارئ أن معنى الآية واضح فى نفسه لا تكلف فيه ولا إشكال ولله الحمد.

سيقول أدعياء العلم من المقلدين: نعم إن الآية واضحة المعنى كاملة البلاغة على الوجه الذى قررتم، ولكنها تقتضى عليه أن التيمم فى السفر جائز ولو مع وجود الماء. وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا. فكيف يعقل أن يخفى معناها هذا على أولئك الفقهاء المحققين، ويعقل أن يخالفوها من غير معارض لظاهرها أرجعوها إليه؟ ولنا أن نقول لمثل هؤلاء، وإن كان المقلد لا يحاجّ لأنه لا علم له: وكيف عُقِل أن يكون أبلغ الكلام وأسلمه من التكلف والضعف مُعْضِلًا مُشْكِلًا؟ الخطأ على الفقهاء لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف، وهو الموافق الملتئم مع غيره من رخص السفر التى منها قصر الصلاة وجمعها وإباحة الفطر فى رمضان. فهل يستنكر مع هذا أن يرخَّص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء، وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين؟ أليس من المجرب أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواجد للماء فى هذا الزمان الذى سهلت فيه أسباب السفر فى قطارات السكك الحديدية والبواخر؟ أفلا يتصور المنصف أن المشقة فيها أشد على المسافرين على ظهور الإبل فى مفاوز الحجاز وجبالها؟ هل يقول منصف إن صلاة الظهر أو العصر أربعًا فى السفر أصعب من الغسل أو الوضوء فيه؟ السفر مظنة المشقة يشق فيه غالبًا كل ما يؤتى فى الحضر بسهولة، وأشق ما يشق فيه الغسل والوضوء وإن كان الماء حاضرًا مستغنًى عنه.

وأضرب لهم مثلًا هذه الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام. فإن الماء فيها كثير دائمًا، وفى كل باخرة منها حمامات، أى بيوت مخصوصة للاغتسال بالماء السخن والماء البارد، ولكنها خاصة بالأغنياء الذين يسافرون فى الدرجة الأولى أو الثانية. وهؤلاء الأغنياء منهم من يصيبه دوار شديد يتعذر عليه معه الاغتسال أو خفيف يشق معه الاغتسال ولا يتعذر. فإذا كانت هذه السفن التى يوجد فيها من الماء المعد للاستحمام ما لم يكن يوجد مثله فى بيت أحد من أهل المدينة زمن التنزيل يشق فيها الاغتسال أو يتعذر فما قولك فى الاغتسال فى قطارات سكك الحديد أو قوافل الجمال والبغال؟ ألا إن من أعجب العجب غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرخصة الصريحة فى عبارة القرآن، التى هى أظهر وأولى من قصر الصلاة وترك الصيام، وأظهر فى رفع الحرج والعسر الثابت بالنصِّ وعليه مدار الأحكام، واحتمال ربط قوله تعالى: "فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً" بقوله: "وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ" بعيد بل ممنوع البتة كما تقدم. على أنهم لا يقولون به فى المرضى لأن اشتراط فقد الماء فى حقهم لا فائدة له لأن الأصحاء مثلهم فيه، فيكون ذكرهم لَغْوًا يتنزه عنه القرآن. ونقول إن ذكر المسافرين كذلك فإن المقيم إذا لم يجد الماء يتيمم بالإجماع. فلولا أن السفر سبب للرخصة كالمرض لم يكن لذكره فائدة. ولذلك عللوه بما هو ضعيف متكلف: أنها نزلت فى بعض أسفار النبى صلى الله عليه وسلم، وقد انقطع فيها عِقْدٌ لعائشة، فأقام النبى صلى الله عليه وسلم على التماسه والناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأغلظ أبو بكر على عائشة وقال: حَبَسْتِ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم والناسَ، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء! فنزلت الآية. فلما صَلَّوْا بالتيمم جاء أسيد بن الحضير إلى مضرب عائشة فجعل يقول: ما أكثر بركتكم يا آل أبى بكر! رواه الستة. وفى رواية: يرحمك الله تعالى يا عائشة! ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله تعالى فيه للمسلمين فرجًا.

فهذه الرواية، وهى من وقائع الأحوال، لا حكم لها فى تغيير مدلول الآية ولا تنافى جعل الرخصة أوسع من الحال التى كانت سببًا لها. ألا ترى أنها شملت المرضى، ولم يذكر فى هذه الواقعة أنه كان فيها مرضى شق عليهم استعمال الماء على تقدير وجوده، وليس فيها دليل على أن كل الجيش كان فاقدًا للماء ولا أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل التيمم فيها خاصا بفاقدى الماء دون غيرهم؟ ومثلها سائر الروايات المصرِّحة بالتيمم فى السفر لفقد الماء التى هى عمدة الفقهاء. على أنها منقولة بالمعنى، وهى وقائع أحوال مجملة لا تنهض دليلًا، ومفهومها مفهوم مخالفة، وهو غير معتبر عند الجمهور، ولا سيما فى معارضة منطوق الآية. وإننا نرى رخصة قصر الصلاة قد قُيِدَتْ بالخوف من فتنة الكافرين كما سيأتى فى

هذه السورة، ونرى هؤلاء الفقهاء كلهم لم يعملوا فيها بمفهوم هذا الشرط المنصوص الذى كان سبب الرخصة. أفلا يكون ما هنا أولى بألا يشْتَرَط فيه شرطٌ ليس فى كتاب الله؟ ورُوِى فى سبب النزول أيضًا أن الصحابة نالتهم جراحة وابْتُلُوا بالجنابة، فشَكَوْا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم، فنزلت. ورُوِى أيضًا أنها نزلت فيمن اغتسل فى السفر بمشقة، وسيأتى. وإذا ثبت أن التيمم رخصة للمسافر بلا شرط ولا قيد بطلت كل تلك التشديدات التى توسعوا فى بنائها على اشتراط فقد الماء. ومنها ما قالوه من وجوب طلبه فى السفر وما وضعوه لذلك من الحدود كحد القُرْب وحد الغَوْث. وأذكر أننى، عندما كنت أدرّس "شرح المنهاج" فى فقه الشافعية، قرأت باب التيمم فى شهرين كاملين لم أترك الدرس فيهما ليلة واحدة. فهل ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم أو أحد الصحابة تكلم فى التيمم يومين أو ساعتين؟ وهل كان هذا التوسع فى استنباط الأحكام والشروط والحدود سعة ورحمة على المؤمنين أم عسرًا وحرجًا عليهم، وهو ما رفعه الله عنهم؟".

ومما له اتصال بموضوعنا أن أهل الريف لم يكن لديهم حتى وقت قصير مضى حمامات يغتسلون فيها، بل كان على الرجال والشبان إذا أرادوا الاستحمام لأى غرض من الأغراض، وبخاصة الاغتسال للصلاة، أن يذهبوا إلى حمام المسجد القريب، وليس فيه سوى الماء البارد بطبيعة الحال، كما أن نافذته مفتوحة يندفع منها الهواء. وكان كثير ممن يستخدمون المسجد لهذا الغرض عند صلاة الفجر يصاب بنزلة برد عقب ذلك. وما أدراكم ما نزلة البرد وما تسببه من معاناة وآلام، وبخاصة فى تلك الأيام التى لم يكن كثير جدا من الناس يستطيعون شراء الدواء؟ أليس من الفقه السليم اكتفاء الشخص فى مثل تلك الحالة بالتيمم كيلا يصاب بالبرد ويتعذب؟ يقول الله سبحانه وتعالى: "ما يفعلُ الله بعذابِكم إنْ شكرتم وآمَنْتم؟ وكان الله شاكرا عليما". وهناك فى هذا الصدد حديث يعرض لحالة تجرى فى نفس الاتجاه، وهو "أنَّ رجلًا أَجْنَبَ فى شتاءٍ فسألَ، فأُمِرَ بالغُسْلِ، فاغتسلَ فماتَ، فذُكِرَ ذلِكَ للنَّبى صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ، فقالَ: مالهم؟ قتلوهُ! قتلَهُمُ اللَّهُ (ثلاثًا). قد جعلَ اللَّهُ الصَّعِيدَ (أو التَّيمُّمَ) طَهُورًا". فالإسلام لا يعرف التشدد لغير معنى، ولا يرضى أبدا بالأذى ينزل على إنسان بسبب الوضوء أو الغُسْل. فقد شُرِع التيمم، ضمن ما شُرِع، لهذا الغرض.

ولْنَتَوَسَّعْ بعض الشىء فى الكلام عن التيسير فى أمور الدين، وليكن كلامنا هذه المرة فى موضوع الطلاق، وهو من الأمور التى تشغل بال الناس كثيرا، وعلى وجه الخصوص عوامّ الناس، الذين يكثر بينهم التلفظ بالطلاق عَمَّالًا على بَطَّال، ويرجعون إلى من يتصورون أن من حقه إرجاع الزوجة إليهم فى

مقابل مال يأخذه المفتى الجاهل: فمثلا نقرأ فى كتاب "فقه السنة"، ضمن ما نقرأ، كلاما عن طلاق الهازل يختلف عما يردده الناس من أن الزواج والطلاق يقعان ولو كان المتلفظ بهما هازلا غير جاد. وهذا هو: "طلاق الهازل: يرى جمهور الفقهاء أن طلاق الهازل يقع، كما أن نكاحه يصح، لما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحَسَّنَه، والحاكم وصححه، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثٌ جِدُّهن جِدّ، وهَزْلهن جِدّ: النكاح والطلاق والرجعة". وهذا الحديث، وإن كان فى إسناده عبد الله بن حبيب، وهو مختلَف فيه، فإنه قد تقوَّى بأحاديث أخرى. وذهب بعض أهل العلم إلى عدم وقوع طلاق الهازل منهم الباقر والصادق والناصر. وهو قول فى مذهب أحمد ومالك، إذ إن هؤلاء يشترطون لوقوع الطلاق الرضا بالنطق اللسانى، والعلم بمعناه، وإرادة مقتضاه. فإذا انتفت النية والقصد اعْتُبِر اليمين لَغْوًا لقول الله تعالى: "وإنْ عَزَمُوا الطلاقَ فإن الله سميع عليم". وإنما العزم ما عزم العازم على فعله، ويقتضى ذلك إرادة جازمة بفعل المعزوم عليه أو تركه. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما الاعمال بالنيات". والطلاق عمل مفتقر إلى النية، والهازل لا عزم له ولا نية. وروى البخارى عن ابن عباس: إنما الطلاق عن وَطَر".

وهناك لون آخر من التطليق يظن كثير من الناس أنه يقع لا محالة، وفاتهم أن ثم رأيا بعدم وقوعه لأنه يخالف حكمة الشرع. وهو ما يتضح لنا من مطالعة النص التالى الذى يتناول الطلاق السُّنِّىّ والطلاق البِدْعِىّ. وما زلنا مع "فقه السنة": "طلاق السنة: هو الواقع على الوجه الذى ندب إليه الشرع، وهو أن يطلق الزوج المدخول بها طلقة واحدة فى طهر لم يمسسها فيه، لقول الله تعالى: "الطلاق مرتان: فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان". أى أن الطلاق المشروع يكون مرة يعقبها رجعة، ثم مرة ثانية يعقبها رجعة كذلك، ثم إن المطلق بعد ذلك له الخيار بين أن يمسكها بمعروف أو يفارقها بإحسان. ويقول الله تعالى: "يا أيها النبى، إذا طلقتم النساء فطلِّقوهن لِعِدَّتهن". أى إذا أردتم تطليق النساء فطلقوهن مستقبلاتٍ العدة. وإنما تستقبِل المطلقة العِدّة إذا طلقها بعد أن تطهر من حيض أو نِفَاس، وقبل أن يَمَسَّها. وحكمة ذلك أن المرأة إذا طُلِّقَت وهى حائض لم تكن فى هذا الوقت مستقبلة العدة، فتطول عليها العدة لأن بقية الحيض لا يحسب منها، وفيه إضرار بها. وإن طلقت فى طهر مسها فيه فإنها لا تعرف هل حملت أو لم تحمل، فلا تدرى بم تعتدّ: أتعتدّ بالأقراء أم بوضع الحمل؟ وعن نافع بن عبد الله بن عمر رضى الله عنه "أنه طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: "مُرْهُ فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر. ثم إن شاء أمسك بعد ذلك، وإن شاء طلق قبل أن يمس. فتلك العدة التى أمر الله سبحانه أن تطلَّق لها النساء". وفى رواية أن ابن عمر رضى الله عنه طلق امرأة له، وهى حائض، تطليقة، فذكر ذلك عمر للنبى صلى الله عليه وسلم. فقال: "مُرْهُ فليراجعْها، ثم ليطَلِّقْها إذا طَهُرَتْ، أو وهى حامل". أخرجه النسائى ومسلم وابن ماجه وأبو داود. وظاهر هذه الرواية أن الطلاق فى الطهر الذى يعقب الحيضة التى وقع فيها الطلاق يكون طلاق سُنَّة لا بِدْعَة. وهذا مذهب أبى حنيفة، وإحدى الروايتين عن أحمد، وأحد الوجهين عن الشافعى. واستدلوا بظاهر الحديث وبأن المنع إنما كان لأجل الحيض. فإذا طهرت زال موجب التحريم. فجاز الطلاق فى ذلك الطهر كما يجوز فى غيره من الأطهار. ولكن الرواية الاولى التى فيها "ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر" متضمنة لزيادة يجب العمل بها. قال صاحب "الروضة الندية": "وهى أيضا فى الصحيحين". فكانت أرجح من وجهين. وهذا مذهب أحمد فى إحدى الروايتين عنه، والشافعى فى الوجه الاخر، وأبى يوسف ومحمد.

أما الطلاق البِدْعِى فهو الطلاق المخالف للمشروع: كأن يطلقها ثلاثا بكلمة واحدة، أو يطلقها ثلاثا متفرقات فى مجلس واحد كأن يقول: "أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق"، أو يطلقها فى حيض أو نفاس، أو فى طهر جامعها فيه. وأجمع العلماء على أن الطلاق البدعى حرام، وأن فاعله آثم. وذهب جمهور العلماء إلى أنه يقع، واستدلوا بالأدلة الاتية: ١ - أن الطلاق البدعى مندرج تحت الآيات العامة. ٢ - تصريح ابن عمر رضى الله عنه، لما طلق امرأته وهى حائض وأمر الرسول الله صلى الله عليه وسلم بمراجعتها، بأنها حُسِبَت تلك الطلقة. وذهب بعض العلماء إلى أن الطلاق البدعى لا يقع، ومنعوا اندراجه تحت العمومات لانه ليس من الطلاق الذى أذن الله به، بل هو من الطلاق الذى أمر الله بخلافه. فقال: "فطلِّقوهن لعِدَّتهن". وقال صلى الله عليه وسلم لابن عمر رضى الله عنه: "مُرْهُ، فليراجعْها". وصح أنه غضب عندما بلغه ذلك، وهو لا يغضب مما أحله الله. وأما قول ابن عمر: "إنها حُسِبَتْ" فلم يبين من الحاسب لها، بل أُخْرِج عند أحمد وأبى داود والنسائى "أنه طلق امرأته وهى حائض، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يرها شيئا". وإسناد هذه الرواية صحيح، ولم يأت من تكلم عليها بطائل. وهى مصرِّحة بأن الذى لم يرها شيئا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يعارضها قول ابن عمر رضى الله عنه لأن الحجة فى روايته لا فى رأيه. وأما الرواية بلفظ "مُرْهُ، فلْيراجعها" ويعتدّ بتطليقة فهذه لو صحت لكانت حجة ظاهرة. ولكنها لم تصح كما جزم به ابن القيم فى

"الهدى". وقد روى فى ذلك روايات فى أسانيدها مجاهيل وكذابون لا تثبت الحجة بشئ منها. والحاصل أن الاتفاق كائن على أن الطلاق المخالف لطلاق السنة يقال له: طلاق بدعة. وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن كل بدعة ضلالة".

ولا خلاف أيضا أن هذا الطلاق مخالف لما شرعه الله فى كتابه وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر. وما خالف ما شرعه الله ورسوله فهو ردٌّ لحديث عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد"، وهو حديث متفق عليه. فمن زعم أن هذه البدعة يلزم حكمها، وأن هذا الامر الذى ليس من أمره صلى الله عليه وسلم يقع من فاعله ومقيد به، لا يقبل منه ذلك إلا بدليل. وذهب إلى هذا: ١- عبد الله بن معمر. ٢- سعيد بن المسيب. ٣- طاووس من أصحاب ابن عباس. وبه قال خلاس بن عمرو وأبو قلابة من التابعين. وهو اختيار الامام ابن عقيل من أئمة الحنابلة وأئمة آل البيت والظاهرية، وأحد الوجهين فى مذهب الامام أحمد. واختاره ابن تيمية".

ومما يربك الناس أيضا الطلاق ثلاث مرات بلفظة واحدة. يقول السيد سابق تحت عنوان "عدد الطلقات": "وإذا دخل الزوج بزوجته ملك عليها ثلاث طلقات. واتفق العلماء على أنه على الزوج ألا يطلقها ثلاثا بلفظ واحد أو بألفاظ متتابعة فى طهر واحد. وعللوا ذلك بأنه إذا أوقع الطلقات الثلاث فقد سد باب التلافى والتدارك عند الندم وعارض الشارع، لانه جعل الطلاق متعددا لمعنى التدارك عند الندم. وفضلا عن ذلك فإن المطلق ثلاثا قد أضر بالمرأة من حيث أبطل حليتها بطلاقه هذا. وقد روى النسائى من حديث محمود بن لبيد قال: "أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته بثلاث تطليقات جميعا، فقام غضبان فقال: أيلْعَب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟ حتى قام رجل فقال: يا رسول الله: أفلا أقتله؟". قال ابن القيم فى إغاثة اللهفان: "فجعله لاعبا بكتاب الله" لكونه خالف وجه الطلاق وأراد به غير ما أراد الله به، فإنه تعالى أراد أن يطلق طلاقا يملك فيه رد المرأة إذا شاء، فطلق طلاقا يريد به ألا يملك فيه ردها. وأيضا فإن إيقاع الثلاث دفعة مخالف لقول الله تعالى: "الطلاق مرتان". والمرتان والمرات فى لغة القرآن والسنة، بل ولغة العرب، بل ولغة سائر الامم، لِمَا كان مرة بعد مرة. فإذا جمع المرتين والمرات فى مرة واحدة فقد تعدى حدود الله تعالى وما دل عليه كتابه. فكيف إذا أراد باللفظ الذى رتب عليه الشارع حكما ضد ما قصده الشارع". وإذا كانوا قد اتفقوا على الحرمة فإنهم اختلفوا فيما إذا طلقها ثلاثا بلفظ واحد: هل يقع أم لا؟ وإذا كان يقع فهل يقع واحدة أم ثلاثا؟ فذهب

جمهور العلماء إلى أنه يقع. ويرى بعضهم عدم وقوعه. والذين رأوا وقوعه اختلفوا: فقال بعضهم إنه يقع ثلاثا. وقال بعضهم: يقع واحدة فقط. وفرق بعضهم فقال: إن كانت المطلقة مدخولا بها وقع الثلاث، وإن لم تكن مدخولا بها فواحدة.

استدل القائلون بأنه يقع ثلاثا بالادلة الاتية: ١ – قول الله تعالى: "فإنْ طَلَّقها فلا تحلُّ له مِنْ بَعْدُ حتى تَنْكِح زوجا غيره". ٢ – قول الله تعالى: "وإن طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن وقد فرضتم لهن فريضة". ٣ – وقول الله تعالى: "لا جُنَاح عليكم إنْ طلقتم النساء". فظواهر هذه الآيات تبين صحة إيقاع الواحدة والثنتين والثلاث لأنها لم تفرق بين إيقاعه واحدة أو ثنتين أو ثلاثا. ٤ – وقول الله تعالى: "الطلاق مرتان: فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان". فظاهر هذه الاية جواز إطلاق الثلاث أو الثنتين دفعة أو مفرقة، ووقوعه. ٥ – حديث سهل بن سعد، قال: "لما لاعن أخو بنى عجلان امرأته قال: يا رسول الله، ظلمتُها إن أمسكتها. هى الطلاق، هى الطلاق، هى الطلاق". رواه أحمد. ٦ – وعن الحسن قال: حدثنا عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته تطليقة، وهى حائض، ثم أراد أن يتبعها بتطليقتين أخريين عند القُرْأَين، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا ابن عمر، ما هكذا أمرك الله تعالى! إنك قد أخطأت السنة. والسنة أن تستقبل الطهر فتطلّق لكل قُرْء. وقال: فأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فراجعتها. ثم قال: إذا هى طهرت فطلق عند ذلك أو أمسك. فقلت يا رسول الله: أرأيت لو طلقتُها ثلاثا أكان يحل لى أن أراجعها؟ قال: لا. كانت تبين منك. رواه الدارقطنى. ٧ – وأخرج عبد الرزاق فى "مصنفه" عن عبادة بن الصامت قال: طلق جدى امرأة له ألف تطليقة، فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك، فقال له النبى: "ما اتقى اللهَ جَدُّك. أما ثلاث فله، وأما تسعمائة وسبع وتسعون فعدوان وظلم. إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له". وفى رواية: "إن أباك لم يتق الله فيجعل له مخرجا. بانت منه بثلاث على غير السنة. وتسعمائة وسبع وتسعون إثمٌ فى عنقه". ٨ – وفى حديث ركانة أن النبى صلى الله عليه وسلم استحلفه أنه ما أراد إلا واحدة. وذلك يدل على أنه لو أراد الثلاث لوقع. وهذا مذهب جمهور التابعين وكثير من الصحابة وأئمة المذاهب الاربعة. أما الذين قالوا بأنه يقع واحدة فقد استدلوا بالأدلة الاتية: أولا ما رواه مسلم أن أبا الصهباء قال لابن عباس: ألم تعلم أن الثلاث كانت تُجْعَل واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وصدرا من خلافة عمر؟ قال: نعم . وروى عنه أيضا قال: كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة. فقال عمر بن الخطاب: إن الناس

قد استعجلوا فى أمر قد كانت لهم فيه أناة. فلو أمضيناه عليهم؟ فأمضاه عليهم. أى أنهم كانوا يوقعون طلقة بدل إيقاع الناس الآن ثلاث تطليقات. ثانيا عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: طلق ركانةُ امرأتَه ثلاثا فى مجلس واحد، فحزن عليها حزنا شديدا. فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف طلقتها؟ قال: ثلاثا. فقال: فى مجلس واحد؟ قال: نعم. قال: فإنما تلك واحدة. فأَرْجِعْها إن شئت. فراجعها . رواه أحمد وأبو داود.

وقال ابن تيمية (جـ٣ ص ٢٢ "فتاوى"): وليس فى الأدلة الشرعية: الكتاب والسنة والاجماع والقياس ما يوجب لزوم الثلاثة له. ونكاحه ثابت بيقين، وامرأته محرمة على الغير بيقين، وفى إلزامه بالثلاث إباحتها للغير مع تحريمها عليه، وذريعة إلى نكاح التحليل الذى حرمه الله ورسوله. ونكاح التحليل لم يكن ظاهرا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه، ولم ينقل قط أن امرأة أعيدت بعد الطلقة الثالثة على عهدهم إلى زوجها بنكاح تحليل. بل لعن النبى صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له... إلى أن قال: وبالجملة فما شرعه النبى صلى الله عليه وسلم لأمته شرعا لازم لا يمكن تغييره، فإنه لا يمكن نسخٌ بعد رسول الله. وقال تلميذه ابن القيم: قد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن الثلاث كانت واحدة فى عهده وعهد أبى بكر رضى الله عنه وصدرا من خلافة عمر رضى الله عنه، وغاية ما يقدر مع بعده أن الصحابة كانوا على ذلك، ولم يبلغه. وهذا، وإن كان كالمستحيل، فإنه يدل على أنهم كانوا يفتون فى حياته وحياة الصديق بذلك. وقد أفتى هو صلى الله عليه وسلم. فهذه فتواه وعمل أصحابه كأنه أخذ باليد، ولا معارض لذلك. ورأى عمر رضى الله تعالى عنه أن يحمل الناس على إنفاذ الثلاث عقوبة وزجرا لهم لئلا يرسلوها جملة. وهذا اجتهاد منه رضى الله عنه غايته أن يكون سائغا لمصلحة رآها. ولا يجوز ترك ما أفتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عليه أصحابه فى عهده وعهد خليفته. فإذا ظهرت الحقائق فليقل امرؤ ما شاء. وبالله التوفيق. وقال الشوكانى: وقد حكى ذلك صاحب "البحر" عن أبى موسى، ورواية عن على عليه السلام وابن عباس وطاووس وعطاء وجابر وابن زيد والهادى والقاسم والباقر وأحمد بن عيسى وعبد الله بن موسى بن عبد الله، ورواية عن زيد بن على. وإليه ذهب جماعة من المتأخرين منهم ابن تيمية وابن القيم وجماعة من المحققين، وقد نقله ابن مغيث فى كتاب "الوثائق" عن محمد بن وضاح، ونقل الفتوى بذلك عن جماعة من مشايخ قرطبة كمحمد بن بقى ومحمد بن عبد السلام وغيرهما. ونقله ابن المنذر عن أصحاب ابن عيسى كعطاء

وطاووس وعمر وابن دينار، وحكاه ابن مغيث أيضا فى ذلك الكتاب عن على رضى الله عنه وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف والزبير.

وهذا هو المذهب الذى جرى عليه العمل أخيرا فى المحاكم. فقد جاء فى المادة ٣ من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ما يلى: "الطلاق المقترن بعددٍ لفظا أو إشارة يقع واحدة . أما حجة القائلين بعدم وقوع الطلاق مطلقا فأنه طلاق بدعى، والطلاق البدعى لا يقع عند هؤلاء، ويعتبر لغوا. وهذا المذهب يُحْكَى عن بعض التابعين. وهو مروى عن ابن علية وهشام بن الحكم، وبه قال أبو عبيدة وبعض أهل الظاهر. وهو مذهب الباقر والصادق والناصر وسائر من يقول بأن الطلاق البدعى لا يقع لأن الثلاث بلفظ واحد أو ألفاظ متتابعة من جملته. وأما الذين فرقوا بين المطلقة المدخول بها وغير المدخول بها فهم جماعة من أصحاب ابن عباس وإسحاق بن راهويه".

والذى دفعنى إلى هذا الاستطراد هو ما لاحظته على كلام ابنتَىِ الشيخ من التشدد فى غير مستوجب للتشدد، فأردت أن أعدل هذا الميل وأرسخ فى عقل القارئ ووجدانه أن الإسلام دين الاعتدال والتوازن والرحمة والعقل والمنطق وأنه، فى الوقت الذى يتغيا فيه المثالية، لا يتنكر للواقعية ولا يتجهم للفطرة البشرية، فضلا عن أنه لا يحبذ أبدا إعنات الناس بل التيسير عليهم فى معيشتهم بكل ما يمكن ما دام هذا التيسير لا يحِلّ حراما ولا يحَرِّم حلالا. وهو ما لاحظت أن د. ندوى نفسه يسير عليه فى محاضراته حسبما ذكرت الكاتبة الأمريكية مؤلفة الكتاب، وإن كنت وجدته يغلو فى ذلك بعض الشىء. إن ديننا دين عبقرى عظيم ليس له مثيل بين الأديان، لكن أتباعه قَصَّروا به فى القرون الأخيرة تقصيرا بشيعا وأساؤوا إليه وجلبوا عليه التشنيعات والزِّرَايات بتساخفهم وقَلْبهم أوضاع الأولويات، فتراهم يتشددون ويتنطعون فى غير موجب للتشدد، بل فيما قد يكون مناقضا للدين الصحيح، فى الوقت الذى يهملون جوهر الدين وأساسياته إهمالا بشعا، مما أدى وما زال يؤدى إلى تخلفهم وجهلهم وضعفهم وذلتهم وقذارة بلادهم إلا فيما ندر ووحشية أحوالهم وقبح كل شىء تقريبا من حولهم، بينما هم راضون تمام الرضا عن أنفسهم أو على الأقل: غير واعين بما هم فيه من تشويه وفوضى وقبح واختلال حال، على حين يظن بقية العالم أن هذا هو ما يأمرهم به الدين، مع أن الدين منه ومنهم براء.

وأخيرا فإن عنوان الفصل الحالى هو نفسه عنوان رواية "The Pilgrim's Progress" لجون بانيان، وهو واعظ بريطانى حر عاش فى القرن السابع عشر ووضع روايته وهو فى السجن عقابا له على ممارسة الخدمة الكنسية من دون رخصة والقيام بها خارج الكنيسة. وقد ترجمت الرواية إلى أكثر من

٢٠٠ لغة، ولم يحدث أن نَفِدَت قط منذ صدرت لأول مرة. وتدورالرواية حول رحلة يقوم بها شخص اسمه: "نصرانى" تهدف إلى تخلصه من آثامه بغية دخول الفردوس. وأسماء الشخصيات والمواضع أسماء رمزية: فهذا الشخص اسمه نصرانى، وذاك إنجيلى، وذلك معرفة، وذا عنيد، وذَياك مرن، وهذه عينا الخفاش، وتلك لامبالية. وهذا الموضع مدينة الدمار، وذلك وادى الهوان... إلخ.

أهل الكتاب

نحن الآن فى الفصل الثانى عشر من كتاب كارلا باور، وهو عن "عيسى ومريم والقرآن". وهذا الفصل يحتوى على طائفة من القضايا الهامة، لكنى لن أقف إلا عند القضايا التى أرى أنها بحاجة إلى التعليق عليها. ومن هذه الأشياء التى تستحق الوقوف إزاءها قول أكرم ندوى للصحفية المذكورة: " When it comes to Jews and Christians, we respect them, because of their scriptures"، ومعناه أننا نحن المسلمين نحترمهم بسبب كتابهم المقدس. وهى عبارة تحتاج إلى تدخل لفض ما يمكن أن يكون فيها من اشتباك. فلا ريب أن المسلم يحترم اختيار كل إنسان، إذ ليست مشكلتنا مع عقيدته بل مع موقفه منا ومن عقيدتنا: فإذا اكتفى بممارسة دينه ومراعاة عقيدته والالتزام بشعائره فأهلا وسهلا. والقرآن يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرارا وتكرارا إنه لا سلطة له على المشركين، ولا ينبغى أن يفكر فى السيطرة عليهم، وإنه ليس عليهم بحفيظ ولا وكيل. فما بالنا باليهود والنصارى؟ ونحن نعلم أن الرسول عليه السلام، عقب هجرته إلى المدينة، كتب صحيفة دستورية تنظم العلاقة بين طوائفها المختلفة من مسلمين ويهود وغيرهم، ولم يقل لليهود: "عليكم أن تدخلوا الإسلام، وإلا فلا موضع لكم بيننا"، بل تقبلهم واحترم وجودهم ولم يتدخل بينهم وبين دينهم فى قليل أو كثير. كما سماهم الإسلام: "أهل الكتاب" لأن لهم كتابا "سماوى الأصل"، مفرِّقا، كما يشير د. ندوى، بينهم وبين الوثنيين، وإن عاد الدكتور بعد قليل مؤكدا أن القرآن لا يمكن أن يقبل ببنوة عيسى لله سبحانه لأن هذا شرك، والله يمكن أن يغفر أى خطيئة ما عدا خطيئة الشرك: " No, Akram continued, Jesus could not be the son of God, because God could never have partners. “The Quran is uncompromising: nobody is to be worshipped other than Allah. Allah can forgive any other sin, other than shirk. There is no softness there: the only people who are never forgiven are the people of the shirk”".

وهنا يأتى دورى فى الكلام تعقيبا على ما قاله د. أكرم حتى لا يفهم خطأ. لقد قلت عن كتاب اليهود والنصارى إنه سماوى الأصل. والمقصود التوراة والإنجيل، وهما الوحيان اللذان نزلا على موسى وعيسى. لكن هل الكتاب المقدس الذى فى أيدى اليهود والنصارى الآن هو ذلك الوحى المشار إليه؟ لقد أكد القرآن أن العبث والتبديل قد اعترى الكتابين المذكورين. ومن ثم فإن الخمسة الأسفار الأولى من العهد القديم، تلك الأسفار التى تسمى عند اليهود بـ"التوراة"، وكذلك الأناجيل الأربعة التى يضمها العهد الجديد مع نصوص أخرى ليسا هما التوراة والإنجيل اللذين نؤمن نحن بهما. فالتوراة

والإنجيل وحى سماوى، أما الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد فهو تاريخ لبنى إسرائيل ولعيسى عليه السلام كتبته أيد بشرية، وفيه بعض من ذلك الوحى المشار إليه، لكنه لايتطابق معه بحال، بل فيه نقوص وزيادات وإحلالات وتغييرات وأهواء وسهو ونسيان... وهنا ينبغى أن نفرق بين أمرين: احترامنا لاختيار اليهود والنصارى الدينى وإيمانهم بالكتاب المقدس الذى بين أيدينا الآن، وإيماننا نحن بسماوية هذا الكتاب. نعم إن فيه أشياء تشبه تماما أو تشبه كثيرا ما يقوله القرآن. لكن فيه فى ذات الوقت أشياء أخرى تناقض ما جاء فى كتابنا. فينبغى أن نكون على ذكر من ذلك حين نقرأ العبارة الماضية التى اقتبستُها من كلام الشيخ. ذلك أن العهد القديم مثلا يتحدث عن أبناء الله وبنات الناس. كما يصور نوحا عليه السلام سكيرا يبلغ به السكر أن ينطرح على الأرض عريانا تماما فيدخل عليه ابنه ويرى سوأته. أما إبراهيم فيحكى الكتاب المقدس عنه أنه تخلى عن زوجته لأبيمالك دون أن يحاول مجرد الدفاع عنها أو إخبار الملك بأنها زوجته بل أسلمها إليه ومضى منشغلا بما أفاءه عليه الملك من مواشٍ. وعندنا لوط عليه السلام، الذى يقول العهد القديم عنه إن ابنتيه سقتاه ذات مرة خمرا ونامتا معه الواحدة بعد الأخرى وحملتا وأنجبتا منه. وبالمثل يتحدث العهد القديم عن موسى على أنه، حين قتل المصرى، إنما قتله عن عمد وسبق إصرار لا عن خطإ وغير قصد كما جاء فى القرآن المجيد. وبالمثل يتحدث عن هارون على أنه هو الذى صنع العجل الذهبى لبنى إسرائيل كى يعبدوه. وفى ذلك الكتاب أيضا أن داود قد زنى بامرأة جاره وقائد جيشه، ثم زاد فدبر مؤامرة تخلص بها من القائد المخلص الأمين ليخلو له وجه الزوجة الزانية، التى تزوجها وأنجب منها سليمان، وأن سليمان قد ساعد زوجاته الوثنيات على عبادة الأصنام فى قلب بيته. وفى العهد الجديد أن المسيح عليه السلام قد صُلِب وقُتِل على الصليب على العكس تماما مما يقوله القرآن الكريم... وهكذا.

وفى ضوء ما سبق يسهل علينا أن نفهم الأحاديث التالية، وهى تتعلق بموضوعنا الحالىّ: فعن جابر بن عبد الله "أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ أتى النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بكتابٍ أصابه من بعضِ أهلِ الكتابِ فقرأه على النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: فغضب وقال: أَمُتَهَوِّكون فيها يا ابنَ الخطابِ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتُكم بها بيضاءَ نقِيةً. لا تسألوهم عن شىءٍ فيخبروكم بحقٍّ فتكذبوا به أو بباطلٍ فتُصَدِّقوا به. والذى نفسى بيده لو أنَّ موسى كان حيا ما وَسِعَه إلا أن يتَّبِعَنى". وعنِ ابنِ عبَّاسٍ قالَ: "لمَّا أرادَ اللَّهُ أن يرفعَ عيسى إلى السَّماءِ خرجَ إلى أصحابِهِ، وفى البيتِ اثنا عشرَ رجلًا منَ الحواريينَ، فخرجَ عليهِم من عَينٍ فى البيتِ ورأسُهُ يقطرُ ماءً، فقالَ: إنَّ منكم مَن يكْفرُ بى اثنتَى عشرةَ مرَّةً بعدَ أن

آمنَ بى. ثمَّ قالَ: أيكم يلْقَى عليهِ شبَهى فيقتَل مَكانى ويكون معى فى دَرَجتى؟ فقامَ شابٌّ من أحدثِهم سنًّا، فقالَ لَهُ: اجلِس. ثمَّ أعادَ عليهِم، فقامَ الشَّابُّ، فقالَ: اجلِس. ثمَّ أعادَ عليهِم، فقامَ الشَّابُّ فقالَ: أَنا. فقالَ: أنتَ ذاكَ. فأُلْقى عليهِ شبَهُ عيسى، ورُفِعَ عيسى فى روزنةٍ فى البيتِ إلى السَّماءِ. قالَ: وجاءَ الطَّلبُ منَ اليهودِ، فأخذوا الشَّبَهَ فقتَلوهُ ثمَّ صلَبوهُ. فكَفرَ بِهِ بعضُهُمْ اثنتَى عشرةَ مرَّةً بعدَ أن آمَنَ بِهِ، وافترَقوا ثلاثا: فقالَت طائفةٌ: كانَ اللَّهُ فينا ما شاءَ ثمَّ صعِدَ إلى السَّماءِ. فَهَؤلاءِ اليعقوبيةُ. وقالت فرقةٌ: كانَ فينا ابنُ اللَّهِ ما شاءَ، ثمَّ رفعَهُ اللَّهُ إليهِ. وَهَؤلاءِ النسطورية. وقالت فرقةٌ: كانَ فينا عبدُ اللَّهِ ورسولُهُ. وهؤلاءِ المسلمونَ. فتَظاهرَتِ الكافِرتانِ على المُسْلِمَةِ فقتلوها، فلم يزَلِ الإسلامُ طامسًا حتَّى بعثَ اللَّهُ محمَّدًا، فأنزلَ اللَّهُ عليهِ: "فآمَنت طائفةٌ من بَنى إسرائيلَ"، يعنى الطَّائفةَ الَّتى آمنت فى زمنِ عيسى، "وَكَفرت طائفةٌ"، يعنى الَّتى كفَرت فى زمنِ عيسى، فأيدنا الَّذينَ آمَنوا فى زمَنِ عيسى بإظهارِ مُحمَّدٍ دينَهُم على دينِ الكافِرينَ".

وفى أحداث آخر الزمان يقول حديث آخر إن العرب سيكونون يومئذ قليلين، "وإمامُهم رجلٌ صالحٌ، فبَينَما إمامُهم قد تَقَدَّم يصَلِّى بِهِمُ الصُّبْحَ إذ نزل عليهم عيسى ابنُ مريمَ الصُّبْحَ، فرجع ذلك الإمامُ ينْكُصُ يمْشِى القَهْقَرَى ليتقدمَ عيسى، فيضعُ عيسى يدَه بين كَتِفَيهِ، ثم يقولُ له: تَقَدَّمْ فَصَلِّ، فإنها لك أُقِيمَتْ. فيصَلِّى بهم إمامُهم، فإذا انصرف قال عيسى: افتَحوا البابَ. فيفْتَحُون، ووراءَه الدَّجَّالُ معه سبعونَ ألفَ يهودى كلُّهم ذو سيفٍ مُحَلًّى وسَاجٍ، فإذا نظر إليه الدَّجَّالُ ذاب كما يذوبُ المِلْحُ فى الماءِ، وينطلقُ هاربًا، فيدْرِكُه عند بابِ لُدٍّ الشرقى فيقتلُه، فيهْزِمُ اللهُ اليهودَ فلا يبْقَى شىءٌ مِمَّا خلق اللهُ عَزَّ وجَلَّ يتَواقَى به يهودى إلا أَنْطَقَ اللهُ ذلك الشىءَ، لا حَجَرٌ ولا شجرٌ ولا حائطٌ ولا دابةٌ إلا الغَرْقَدَةُ، فإنها من شَجَرِهِم لا تَنْطِقُ، إلا قال: يا عبدَ اللهِ المسلمَ، هذا يهودى، فتَعَالَ اقتُلْه. فيكونُ عيسى ابنُ مريمَ فى أُمَّتِى حَكَمًا عَدْلًا، وإمامًا مُقْسِطًا يدُقُّ الصليبَ، ويذْبَحُ الخِنْزِيرَ، ويضعُ الجِزْيةَ، ويتركُ الصدقةَ، فلا يسْعَى على شاةٍ ولا بعيرٍ، وتُرْفَعُ الشحناءُ والتباغُض، وتُنْزَعُ حُمَةُ كلِّ ذاتِ حُمَةٍ، حتى يدْخِلَ الوليدُ يدَه فى فِى الحَيَةِ، فلا تَضُرُّه، وتضر الوليدةُ الأسدَ فلا يضُرُّها، ويكونُ الذئبُ فى الغنمِ كأنه كلبُها، وتُمْلَأُ الأرضُ من السِّلْمِ كما يمْلَأُ الإناءُ من الماءِ، وتكونُ الكلمةُ واحدةً فلا يعْبَدُ إلا اللهُ، وتضعُ الحربُ أوزارَها".

وفى حديث آخر نقرأ ما يلى: "أُتِى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بلحمٍ، فرُفِعَ إليه الذراعُ، وكانت تعجبه، فَنَهسَ منها نهسةً ثم قال: أنا سيدُ الناسِ يومَ القيامةِ. وهل تدرون مِمَّ ذلك؟ يجمعُ اللهُ

الناسَ الأولين والآخرين فى صعيدٍ واحدٍ يسْمعُهم الداعى وينفُذُهم البصرُ، وتدنو الشمسُ فيبلغُ الناس من الغمِّ والكربِ ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقولُ الناسُ: ألا تَرَوْن ما قد بَلَغَكم؟ ألا تنظرون من يشفعُ لكم إلى ربِّكم؟ فيقولُ بعضُ الناسِ لبعضٍ: عليكم بآدمَ. فيأتون آدمَ عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشرِ. خلقَك اللهُ بيدِه، ونفخَ فيك من روحِه، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لك. اشفعْ لنا إلى ربِّك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقولُ آدمُ: إن ربى قد غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنه نهانى عن الشجرةِ، فعصيتُه. نفسى نفسى نفسى! اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى نوحٍ. فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوحُ، إنك أنت أولُ الرسلِ إلى أهلِ الأرضِ، وقد سماك الله: عبدًا شكورًا. اشفعْ لنا إلى ربِّك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقولُ: إن ربى عز وجل قد غضبَ اليومَ غضبًا لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنه قد كانت لى دعوةٌ دعوتُها على قومى. نفسى نفسى نفسى! اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى إبراهيمَ. فيأتون إبراهيمَ فيقولون: يا إبراهيمُ، أنت نبى اللهِ وخليلُه من أهلِ الأرضِ. اشفعْ لنا إلى ربِّك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقولُ لهم: إن ربى قد غضبَ اليومَ غضبًا لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنى قد كنتُ كذبتُ ثلاثَ كذباتٍ... نفسى نفسى نفسى! اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسولُ اللهِ، فضَّلك اللهُ برسالتِه وبكلامِه على الناسِ. اشفعْ لنا إلى ربِّك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقولُ: إن ربى قد غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنى قد قتلتُ نفسًا لم أُومَرْ بقتلِها. نفسى نفسى نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسولُ اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وكلَّمتَ الناسَ فى المهدِ صبيا. اشفعْ لنا. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربى قد غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يغضبْ قبلَه مثلَه قطُّ، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه (ولم يذكر ذنبًا). نفسى نفسى نفسى! اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم. فيأتون محمدًا صلى الله عليه وسلم فيقولون: يا محمدُ، أنت رسولُ اللهِ، وخاتمُ الأنبياءِ، وقد غفر اللهُ لك ما تقدمَ من ذنبِك وما تأخرَ. اشفعْ لنا إلى ربِّك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتى تحتَ العرشِ، فأقعُ ساجدًا لربى عز وجل، ثم يفتحُ اللهُ على من محامدِه وحسنِ الثناءِ عليه شيئًا لم يفتحْه على أحد قبلى، ثم يقالُ: يا محمدُ، ارفعْ رأسَك. سَلْ تُعْطَه، واشْفَعْ تُشَفَّعْ. فأرفعُ رأسى فأقولُ: أمتى يا رب، أمتى يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب".

ولدى الحديث عن واقع المسلمين اليوم يقول أكرم ندوى إن المسلمين لم يعودوا يهتمون بغير مظاهر الإسلام دون روح. وهنا أحب أن أضيف أنهم أيضا لا يهتمون بكل مظاهر الإسلام بل ببعضها فقط، وهو البعض الذى لا يقدم ولا يؤخر كثيرا بل إن بعض هذا البعض لا يقدم لا كثيرا ولا قليلا. فمثلا الحجاب مظهر من مظاهر الإسلام، وهو مظهر مطلوب لأنه يصون المرأة، ويحمى الرجال من الفتنة. أما اللحية فليست لها تلك الأهمية. وهناك مظاهر مطلوبة أشد الطلب، ولا وجود لها رغم ذلك فى حياة كثير من المسلمين الحاليين ولا اهتماماتهم. فالنظافة والنظام والجمال والهدوء أشياء نفتقدها فى كثير من بلاد المسلمين. أما قول د. ندوى إن الإسلام لا يهتم بانتساب الشخص إلى الدين فلست أوافقه عليه. فالانتساب يحيط بنا من كل جانب: فعلى سبيل المثال قد خلقنا الله، كما جاء فى كتابه الكريم، شعوبا وقبائل لنتعارف. ولو كان الأمر كذلك لما كان هناك مصرى وشامى وعربى وفارسى ويمنى وحجازى... إلخ. وفى بعض الغزوات كان المحاربون المسلمون يوزَّعون فى أماكن المعركة تبعا لقبائلهم استثارة لغيرتهم على شرف القبيلة التى ينتمى إليها كل منهم فلا ينكصون ولا يهربون ولا يجبنون، بل يقاتلون قتال الأبطال المغاوير. والعبرة ليست بالانتساب أو عدمه بل بإخلاص القلب وتصفية النفس. ولأمر ما قال المسلمون: بلال الحبشى، وصهيب الرومى، وسلمان الفارسى، ومارية القبطية، وأبو عطاء السندى. وبعد الإسلام لم تعد النسبة تقتصر على القبيلة بل شَرِكَها الإقليم أو البلد الذى نشأ فيه الشخص أو اشتهر، فقيل: الحسن البصرى، والإمام البخارى، والترمذى، والنسائى، والجوزجانى. وكان العرب يحرصون على حفظ أنسابهم، فلَمْ يحرم القرآن ذلك، بل ألفينا كُتّاب السيرة يعدون آباء الرسول عليه السلام إلى الجد العشرين حسبما كنا نحفظ سلسلة نسبه الشريف ونحن صغار. ولقد كان الرسول يتحدث فى غير قليل من الأحيان عن قبيلته قريش. كما كان صلى الله عليه وسلم يثنى على الأقوام الذين ينتمى إليهم أصحابه: فعن أبى هريرة "أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تَلا هذهِ الآيةَ: "وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيرَكُمْ ثُمَّ لَا يكُونُوا أَمْثَالَكُمْ". قال: فكانَ سلمانُ إلى جنبِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على فخذِهِ فقال: هذا وقومُهُ. والذى نفْسِى بيدِهِ لوْ كان الإيمانُ منوطًا بالثُّريا لتناولَهُ رجالٌ مِنْ فارسٍ". وعنه أيضا أن رسول الله قال: "أتاكم أهلُ اليمنِ. هم أرقُّ أفئدةً وألينُ قلوبًا. الإيمانُ يمانٌ، والحكمةُ يمانيةٌ". كما أن الإسلام حريص على تمييز البشر بانتساباتهم الدينية: يهود ونصارى ومجوس وصابئة ومسلمون. ثم ها هو ذا د.

أكرم ينتسب إلى "ندوة العلماء" فيقال: "ندوى". إذن فلا عيب فى الانتساب، سواء كان انتسابا إقليميا أو قبليا أو دينيا، والعبرة بالإخلاص أو عدمه.

وهنا أهتبل الفرصة لأبدى تعجبى من تحمس الكاتبة الأمريكية لأن يشهد الشيخ ندوى لليهود والنصارى بالإيمان ويؤكد أنهم ناجون يوم القيامة. ذلك أنها لا تؤمن بأى دين حسب كلامها، فلم إذن تُعَنِّى نفسها كل هذه التعنية لإثبات أن الإسلام يتسامح مع أهل الكتاب؟ أريد أن أقول: إن الإسلام فى نظرها لا يقدم ولا يؤخر، بل الأديان جميعا عندها لا تقدم ولا تؤخر، فعلام إذن هذى الضجة الكبرى؟ علاما؟ ثم إن تصورها بأن الإسلام يقول بنجاة من لا يؤمن به معناه بكل بساطة أنه لا لزوم له ما دامت الأديان السابقة عليه تكفى. أليس كذلك؟ ومعناه بالتالى أن القرآن والنبى يكذبان حين يؤكدان أن من لا يؤمن برسالة محمد كافر ومن أهل النار. أليس ذلك كذلك؟ ثم لماذا لا تذهب فتستفتى القساوسة والحاخامات فى مصيرنا نحن المسلمين وفى نبينا عليه السلام؟ نعم لماذا كل هذه الاستماتة من أجل الحصول على فتاوى من الشيخ تناهض الإسلام؟ إن السيدة الصحفية تريد منا أن نعطى شهادة بالنجاح والنجاة لمن يشتمون نبينا ويشنون على دينه وأتباعه المؤامرات الدنيئة؟ إن هذا تكذيب منا لنبينا وديننا لا مثنوية فيه.

وردا على تأكيد الشيخ بأنه لا بد، للنجاة يوم القيامة، من الإيمان بمحمد ودينه تقول إن ثمة مسلمين تقدميين يؤمنون، على العكس من ذلك، بأن اليهود والنصارى ناجون فى الآخرة، مستشهدين على ذلك بقوله تعالى: "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة"، "لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجًا". وهذا استدلال فى غير موضعه. صحيح أن الناس مختلفون، لكن ليس معنى هذا أن كل صاحب نحلة أو دين أو فلسفة ناجٍ يوم القيامة. كما أن اختلاف الناس فى الشرعة والمنهاج ليس معناه أن كل شرعة أو منهاج صحيحة. إن الناس مختلفون ذكاء وغباء، وتهذيبا وجلافة، وعلما وجهلا، وجمالا وقبحا، وحماقة وحكمة... إلخ، بيد أن هذا لا يمكن أن يعنى أن الذكى والغبى، أو العالم والجاهل مثلا سيان. كذلك قد خلق الله الجراثيم والميكروبات والفيروسات والعقارب والثعابين والضباع والفهود والبراغيث والبراكين والتسوناميات والطواعين، فهل معنى هذا أن الأضرار التى تسببها هذه الأشياء هى والمتع التى تأتينا من الورود والرياحين والأدوية والماء الزلال والعسل واللبن والدفء والنسيم العليل سواء بسواء؟ فهذا مثل هذا. وإلا فلِمَ تقصر كارلا باور النجاة من غير المسلمين على اليهود والنصارى دون

عبدة البقر مثلا وعبدة الشياطين وعبدة الجعارين وعبدة البشر وعبدة الفروج، ما دامت النجاة فى نظر الصحفية الأمريكية لا تحتاج أكثر من العمل الصالح؟

ومن أولئك المسلمين التقدميين الذين يفسرون القرآن تفسيرا حلمنتيشيا، حسبما أشارت كارلا باور فى هذا الفصل، د. أوميد صافى (Omid Safi) الأستاذ الجامعى الأمريكى ذو الأصل الإيرانى الذى يدعى أن القرآن لا يقبل من أية طائفة، بما فيها المسلمون أنفسم، أن تقول باحتكار الحقيقة. ولكن أين فى القرآن هذا يا ترى؟ إنه موجود، حسب هذا الزعم، فى قوله تعالى: "وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى! تلك أمانيهم. قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين". فهل فى الآية ما يدل على صحة هذا التدليس الرخيص؟ إن القرآن إنما يسخر من زعم كل من اليهود والنصارى أنهم هم وحدهم أهل الجنة. فكيف يترتب على تلك السخرية باليهود والنصارى أن يزعم زاعم بأن القرآن يؤكد أن المسلمين ليسوا هم وحدهم الذين سيدخلون الجنة؟ إن معنى هذا الزعم، إن صح، وهو لا يمكن أن يصح، أن اليهود والنصارى سوف يدخلون الجنة. كل ما فى الأمر أنهم لن يدخلوها وحدهم بل سيشْرَكُهم غيرهم من الطوائف. أى أنهم داخلون الجنة فى كل الأحوال. فهل يمكن أن يقول القرآن هذا؟ الواقع أن ذلك هو المستحيل بعينه. لماذا؟ لأن الله يقول بصريح العبارة: "إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويقولون: "نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ"، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا. وأَعْتَدْنا للكافرين عذابا مُهِينا". وهذه الآية قد نزلت فى أهل الكتاب كما هو معروف. وهى واضحة الدلالة على أنه لا بد من الإيمان بمحمد شرطا لدخول الجنة، إذ محمد نبى من الأنبياء، والإيمان بكل الأنبياء شرط محتوم لدخولها. فانظر كيف يكون التدليس على أصوله! وانظر كيف تقول الآية إن دخول اليهود والنصارى الكافرين بمحمد وبالإسلام لا يمكن أن يكون، فيأتى الأستاذ الإيرانى زاعما أنهم سوف يدخلون الجنة.

ثم ما قول صحفيتنا يا ترى فى الإسرائيليين وما يصنعونه بالفلسطينيين من "أعمال صالحة" كل يوم منذ عشرات السنين بدءا بقتلهم واعتقالهم وتفجير بيوتهم وطردهم من بلادهم وسرقة حقولهم وتمزيق أشلاء أطفالهم والاعتداء على أعراض نسائهم وبَقْر بطون الحوامل منهم وحصارهم وخنقهم بمعونة الدول الكبرى الإجرامية، وعلى رأسها أمريكا، وتمرير عيشتهم على الدوام؟ وما قولها أيضا فى "الأعمال الصالحة" التى بَشِم منها الهنود الحمر على أيدى الغزاة الأوربيين أصحاب رسالة الرجل الأبيض حتى ماتوا من البَشَم وانقرضت ملايينهم بعد الأفاعيل الشنيعة التى صبوها فوق رؤوسهم مما

يخجل منه إبليس ذاته؟ ولماذا يا ترى تحارب أمريكا اليسار والإسلام مثلا؟ لماذا لا تتركهما فى حال سبيلهما احتراما لمبدإ التعددية العقائدية؟ لقد تعلمنا من أمريكا، ومن أمريكا وحدها، معنى الحرب الباردة، التى تقوم على تدمير عقائد الآخرين واقتصادهم وثقافتهم دون الدخول فى معترك عسكرى. فلماذا الحرب الباردة يا صحفيتنا؟ ولم لا تستغنون عنها بالتعددية التى فلقتِ بها أدمغتنا بطول الكتاب وعرضه؟ أم هى يا ترى لنا، ولنا وحدنا؟ ألا إن ما كتبته باور فى الكتاب الذى فى أيدينا الآن لهو جزء من الحرب الباردة، ولكنها حرب باردة بأسلوب أنثوى ناعم. ولقد سبق أن سمعتْ بنفسها ما قاله لها أهل قرية الشيخ فى الهند عن تعاطفهم مع الفلسطينيين وغيظهم من انحياز أمريكا للصهاينة المجرمين، فلم يعجبها الكلام، وسرعان ما انتقلت منه إلى غيره واعتُبِر هذا الموقف من بلديى الشيخ وأقاربه مجرد استعراض كلامى ليس إلا. كما أن قوله تعالى: "لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجًا" يشبه ما يقوله القرآن فى عدة مواضع منه من أنه سبحانه يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وفى ذات الوقت يقول جل جلاله إنه سوف يحاسبنا على كل صغيرة وكبيرة من تصرفاتنا وأقوالنا ومواقفنا بما يفيد أننا ذوو مشيئة واختيار فى الهدى والضلال، ولسنا آلات تُحَرَّك يمينا ويسارا دون أن يكون لها كلمة فى مصيرها. أما قولها إن الأمر يشبه أن يكون "سوقا حرة للمعتقدات والأديان" فهى ظرافة أمريكية لا أقدر عليها!

إلا أن ما قاله د. ندوى من أن الإنسان إذا ما فتح عقله للإسلام فلا بد أن يهتدى إليه هو كلام يحتاج إلى مراجعة. لقد قال الرسول نفسه إن المجتهد قد يصيب، وقد يخطئ. أى أنه ليس هناك ضمان مطلق بالصواب، إنما هى اجتهادات ومحاولات مع الأمل فى التوفيق. وهنا يمكن أن نجد بابا لهؤلاء الذين لم يؤمنوا بالإسلام بعد البحث والتقصى والتجرد المخلص والدأب فى السعى وراء الحقيقة، فلعل الله ينظر إليهم على أنهم ممن اجتهدوا فأخطأوا الهدف. لكنه سبحانه هو وحده الذى يعلم مدى استحقاقهم للغفران والمسامحة أو لا. أما نحن فينبغى أن نعرف قدرنا وحدودنا ولا نفتئت على الله عز وجل كما تريد منا كارلا باور أن نفعل. يقول تعالى: "ومن يشاقِقِ الرسولَ من بعدما تَبّين له الهُدَى ويتَّبِعْ غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّه ماتَوَلَّى ونُصْلِه جهنم، وساءت مصيرا". لكن هذا لا يلغى المبدأ العام الذى ينص على أنه لا بد من الإيمان برسالة محمد عليه السلام شرطا للنجاة لكل من بلغته تلك الرسالة ولم يكن هناك ما يغشى عقله فيمنعه من الوصول إلى الحق بشأنها وشأن صاحبها صلى الله عليه وسلم. وقد سبق أن فصلت القول فى هذه المسألة فى عدد من كتبى التى نشرت قبل اليوم. وأظن أن كارلا باور تدخل فيمن أتيحت لهم الفرصة لمعرفة الحق، من خلال محاوراتها التى لا تنتهى مع الشيخ الندوى

وتفصيصها كل صغيرة وكبيرة فى القرآن والحديث بحيث لا يمكن الزعم بأن هناك ما غَشَّى على عقلها وحجب عنها رؤية الحقيقة. ومع هذا فإنى أحس أنها لم تكن يوما من الساعين لمعرفة تلك الحقيقة بل لسوق الشيخ بالحنجل والمنجل لقول ما تريده مما ينشر الاضطراب فى مفاهيم المسلمين ويعكر صفو عقيدتهم. أليس الأمريكان هم أصحاب فكرة "الفوضى الخلاقة"؟ لكن هل رأى أحد منا يوما فوضى خلاقة؟ أرجوكم وألحف فى الرجاء أن تدلونى على أراضى تلك الفوضى الخلاقة الأمريكانية حتى أذهب إليها وأُمَلِّى العين من منظرها، ولكم منى جزيل الشكر وخالص الدعاء!

والملاحَظ العجيب أن د. ندوى لم يخطر له قط أن يناقشها فى توجهها الدينى والسياسى بنفس الأسلوب الذى تناقشه بل ترهقه به، وكأنها ليس عندها شىء يمكن أن يكون محل انتقاد أو حتى ملاحظة عابرة لأن كل ما لديها كامل ليس فيه عيب. ومع هذا نراه يلح على واجب المسلمين فى دعوة الآخرين إلى الإسلام. بل إنه ليصل إلى هذا الذى قلته آنفا بقوله إن هناك أملا فى نجاة من توصل إلى الإيمان بالله وحده باجتهاده الخاص لعدم وجود أى مسلم حوله يمكن أن يستعين به، ومن ثم مات على اعتقاده ذاك دون أن يدخل دين محمد صلى الله عليه وسلم لأنه لم يعرف أن هناك دينا اسمه "الإسلام" ولا أن هناك كتابا اسمه "القرآن". وهو ما علقت عليه كارلا باور مداعبةً بما معناه أنه لو كان هناك بصيص من أمل فى نجاة غير المسلمين فلربما كان من نصيب أحد الناسكين، أى العُبَّاد المنعزلين عن الناس وعن الحياة ولا يتصلون بأحد ولا يعرفون شيئا مما يدور حولهم: "In other words, among non-Muslims, only a hermit might have a shot at salvation. In the Sheikh's estimation, if one knew about the Prophet Muhammad's message and turned away from it, even if one turned toward another faith, one cannot be a true believer".

وبمناسبة كلام د. أكرم عن وجوب قيام المسلمين بالدعوة إلى دينهم أحب أن ألفت الانتباه إلى أن الدعوة الكلامية رغم أهميتها تحتاج إلى دعوة فعلية تدعمها وتجعل تأثيرها أقوى وأنجع وأيسر. والمقصود بالدعوة الفعلية أن يكون الداعية فى فكره ومشاعره وأخلاقه وتصرفاته متبعا لما يقوله الإسلام، وإلا فما معنى أن أدعو الآخرين إلى شىء أنا أول من يهمل الأخذ به؟ فعلى من يدعو الأوربيين مثلا ألا يكون أقل منهم فكرا وعلما وذوقا وسلوكا قويما. ذلك أن النتيجة المترتبة على إهمال الداعية لتعاليم الإسلام هى تشكك المدعوين فى صدق ما يقال لهم عن عظمة هذا الدين، إذ سوف يكون أول سؤال، وهوسؤال منطقى ووجيه: إذا كان دينكم بهذه العظمة وذلك الجمال الذى تصفونه به فلماذا لا تظهر عليكم حلاوته وإشراقاته إذن؟ الواقع أنه من الصعب على عموم الغربيين الإصاخة إلى

دعوة الإسلام بسبب تردى حال أهله بوجه عام، وبالذات فى مجال النظافة والجد والاجتهاد والتفكير المستقل المبدع والسياسة حيث يسود الاستبداد بينهم وتقمع الحريات وتهان الكرامات. ومن الصعب بوجه عام على أى متقدم متحضر أن يطيع من هو أقل منه تحضرا وتقدما.

لقد كنت أنا وزميل لى بالجامعة، ونحن لا نزال ننقل خطواتنا الأولى بها، نتناقش يوما حول برتراند راسل ولماذا لم يسلم، وماذا سيكون مصيره يوم القيامة حين يذهب للقاء ربه وهو لم يقتنع بالإسلام؟ كان ذلك بمناسبة ظهور ترجمة سيرته الذاتية فى مصر فى تلك الأيام وانشغال الرأى العام المثقف بها. وكان رأيى أنه ربما لم تتح له فرصة لمعرفة الإسلام، فهو من بيئة أوربية تؤمن عموما بما يقوله المستشرقون والمبشرون عن ديننا ورسولنا وكتابنا مما لا يساعد على إيقاظ الذهن والتفكير فى طبيعة ذلك الدين الحقيقية والتعرف إلى محاسنه عند كثير من الناس. وكان رأى زميلى أنه سوف يعاقب لأنه لم يدخل الإسلام. فقلت إن أمثاله إنما يعرفون الإسلام من خلال كتابات المستشرقين والمبشرين المعادية المتحاملة. كما أن الفجوة الحضارية بين الغرب وبيننا تجعل تواضع الغربيين أمرا شديد الصعوبة. ثم اتضح لى بعد ذلك أن راسل له كتاب فى تاريخ الفلسفة الغربية: "A History of Western Philosophy" يشتمل على فصل ضاف عن الإسلام. كما علمت أيضا أنه كان له خال مسلم، وأنه كان لا يستلطف هذا الخال، الذى ذكر فى ترجمته الذاتية أنه كانت تنشب بينه وبين خال له آخر قسيس مجادلات حادة.

ومثل راسل فى ذلك هربرت جورج ويلز العالم الطبيعى والروائى والمؤرخ المعروف، الذى كتب، فى تاريخه الموجز للعالم: "A Short History of the World"، فصلا غير قصير عن الإسلام أثنى فيه على النبى فى بعض الأمور، وانتقده انتقادا شديدا فى ذات الوقت فى بعض الأمور الأخرى. ولم يكن سهلا على واحد مثله، فيما أتصور، النجاة التامة من تأثيرات الوسط الذى نشأ فيه والثقافة التى تلقاها والقيم التى يعتز بها، فضلا عن انتمائه إلى أكبر إمبراطورية فى العالم وقتئذ يخضع بل يخنع لها كثير من بلاد العرب والمسلمين خنوعا تاما حتى لقد عابَ النبيَّ عليه السلام من الناحية الجنسية متجاهلا أنه كان صلى الله عليه وسلم مثال العفة والطهارة، أما هو فلم يكن مستقيم الأخلاق، إذ كان يخون امرأته مع سكرتيرته فى مكتبه ومعمله لدن غياب الزوجة. وهو ما استغربته أشد الاستغراب. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد هاج المسلمون فى بريطانيا والهند وغيرها من البلاد التابعة للتاج البريطانى احتجاجا على صدور ترجمة ذلك الكتاب فى الهند باللغة الهندوستانية. فكانت هناك تظاهرات عنيفة وحرق

لنسخة منه فى لندن غضبا لما كتبه مؤلفه عن الرسول الكريم. وكان ذلك فى أواخر ثلاثينات القرن المنصرم.

على أنْ ليست النفوس البشرية قطعية واحدة بل تختلف فيما بينها اختلافا شديدا، ودائما هناك لكل قاعدة شواذ. ومن هذا الوادى الشاعر والأديب والفيلسوف الألمانى جوته، الذى سبق ويلز وراسل بوقت طويل والذى تعرف إلى الإسلام من خلال بعض الترجمات الأوربية لكتابه المجيد، فأحبه وأحب رسوله وكتب عنهما وعن الشعر العربى بإعجاب وانبهار. بل هناك من يقول إنه كان فى الواقع مسلما. وقد صرح بأنه إذا كان الإسلام هو ما يعرفه مما قرأه فى القرآن، فكلنا مسلمون كما قال. وهذا ما ينطبق على الساسة والمفكرين والفلاسفة والفنانين والصحافيين والرياضيين الذين يعتنقون الإسلام هذه الأيام رغم الحملات العاتية التى تشن فى الغرب على هذا الدين ورغم الكراهية والعداء اللذين يحظى بهما الإسلام وأتباعه هناك، بل رغم الأوضاع المزرية التى تسود بلاد المسلمين ولا تجعلهم موضع جاذبية. ولا شك أن هذه الظروف والعوامل المعاكسة تحسب فى صالح أولئك المتحولين رغم ذلك إلى الإسلام.

وإذا صح ما تقوله كارلا باور عقيب ذلك عن د. ندوى: " But still, even many Muslims seemed to be ignoring Muhammad's teachings, said the Sheikh. It was simply human nature to focus on the most recent prophet: "The Jews took Musa to be more important than the religion of Ibrahim," he noted. "The Christians ignored earlier Prophets, and now the Muslims are ignoring the teachings of the other Prophets in favor of Muhammad" " من أنه يأخذ على المسلمين إهمالهم تعاليم الأنبياء السابقين ويدينهم جراء ذلك بشدة فلست أوفقه عليه. ذلك أن تعاليم نبينا قد تضمنت تعاليم الأنبياء السابقين عليه وزادت عليها زيادة كبيرة. ومن ناحية أخرى فإن تعاليم أولئك الأنبياء صلوات الله وسلاماته عليهم قد ضاعت لأن الكتب التى فى أيدى اليهود والنصارى قد تم العبث بها كما يقول القرآن الكريم. وفى كل الأحوال فإن المسلم يطالعها ويعرفها على وجهها الصحيح من خلال قراءته للقرآن أو من خلال ما يقوله علماء الإسلام، وإن كان ذلك فى خطوطها العامة. وبالمثل لاينبغى أن يغيب عن فطنة الشيخ أن كثيرا من تشريعات الأنبياء السابقين قد نسخها الإسلام، فلا لزوم لشَغْل العقل المسلم العادى بها. أما العلماء فهم لايكفون عن قراءة الكتاب المقدس ويقارنون بينه وبين القرآن. كذلك لا أدرى كيف فات الشيخ موقف النبى من عمر مثلا حين رآه ينشغل بورقة من التوراة، إذ غضب منه قائلا: "أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ لو كان موسى حيا لما وسعه إلا أن يتبعنى". وبالمثل فإنى أستغرب أن ينسى الشيخ

أكرم ندوى أن النبى محمدا ليس نبيا عاديا. إنه نبى عبقرى عملاق: "فُضِّلْتُ على الأنبياء بسِتٍّ: أُعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأُحِلَّتْ لى الغنائم، وجُعِلَتْ لى الأرض طهورا ومسجدا، وأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافة، وخُتِمَ بى النبيون". ولو أجرينا مقارنة بين محمد وسائر الأنبياء لهالنا الفرق بين دينه وأديانهم. المسلمون إذن يؤمنون بالأنبياء السابقين وكتبهم ويجلّونهم ويعرفون أن إيمانهم لا يصح إلا بتصديقهم واحترامهم. وكلام الشيخ فى هذا المجال يشبه ما يمكن أن يقوله بعضهم من أن الحاصل على درجة الدكتورية ينبغى أن يرجع إلى مطالعة كتب المرحلة الابتدائية والإعدادية، وإلا لم يكن دكتورا. ترى كيف يكون ذلك، والكتب التى يقرؤها الآن تشتمل على كل ما سبق من كتب مدرسية بسيطة موسعا مفصلا معمقا مواكبا لنضجه مناسبا لخبرته وعقله الكبير؟ والواقع أن المشكلة إنما تكمن فى جهل المسلمين بدينهم وعدم إدراكهم قيمة الكنوز العبقرية التى يتضمنها بسبب انشغالهم باللحى والنقاب وتقصير الثياب والإيمان بالعين والحسد إيمانا مرضيا يشل العقل. فينبغى التركيز على ذلك الجانب.

كذلك تظن الكاتبة أن قوله تعالى من سورة "العنكبوت": "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا: آمنّا بالذى أُنْزِل إلينا وأُنْزِل إليكم. وإلٰهنا وإلٰهكم واحد، ونحن له مسلمون" يعضد ما تقوله من أن أهل الكتاب ناجون يوم القيامة. ولا أدرى ما العلاقة بين هذه الآية وما تقوله الكاتبة من دعواها أن القرآن يبشر غير المسلمين بالنجاة فى الآخرة، تلك الآخرة التى لا تؤمن بها الكاتبة، ومع ذلك تشغل نفسها بها كل هذا الشغلان مما يثير الريبة فى أمرها كله. إن الآية الكريمة تنهى المسلمين عن جدال أهل الكتاب بخشونة أو غلظة. كما تأمرهم بإبراز ما يتميزون به عن وعلى أهل الكتاب، وهو إيمانهم بكل الأوحاء السماوية فى الوقت الذى لا يؤمن أهل الكتاب بالوحى القرآنى، ناهيك عن أن الوحى السماوى الذى نزل على نبييهما قد لحقه العبث. فهل يجد القارئ فى الآية ما توهمنا الكاتبة أنها تتضمنه؟ لا ثم لا ثم لا. إن الإسلام يدعو دائما إلى التعايش السلمى بين أصحاب الديانات المختلفة. لكن المشكلة تكمن فى أنهم لا يريدون أن يرَوُا الإسلام أمام أعينهم لأنه قذى لها. فالكاتبة إذن تقلب الأمر رأسا على عقب وتبذل دائما جهدها لإيهام القارئ أن المشكلة فى المسلمين لا فى أهل الكتاب. وهى منها خطة غير كريمة!

كذلك فالإله الذى يؤمن به اليهود أو النصارى يختلف عن مفهوم الإله فى الإسلام: الإله فى اليهودية هو إله بنى إسرائيل وحدهم، فهو حكر عليهم. وفى النصرانية هو أقنوم من أقانيم ثلاثة: الآب

والابـن والـروح القـدس. أمـا فى الإسـلام فهـو رب العـالمين مـن مـسلمين ويهـود ونـصارى ومجـوس ومشركين. كما أنه واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وهو لم ولا ولا يمكن أن يتجسد أو يموت أو يصلب. وإذا كان الرسول قد كتب صحيفة للتعايش السلمى والتعاون بين مواطنى المدينة أول مهاجَره إليها فإن ذلك لا يعنى بتاتا أنه يقر بصحة دين اليهود والنصارى كما تريد منا الكاتبة أن نؤمن، بل يعنى أن الإسلام يحترم اختيارات الآخرين ويكِلُهم إلى ضمائرهم وإلى الحساب الإلهى يوم القيامة. أما هنا فالأرض تسع من الأحبة أَلْفًا. وليس فى صحيفة المدينة ما يشير ولو من بعد بعيد إلى أن الإسلام يعد أهل الكتاب فى التوحيد مثل المسلمين. نعم هم كالمسلمين، لكن ليس فى التوحيد بل فى حق الحياة آمنين مطمئنين. وللأسف سرعان ما أثبت اليهود أنهم ليسوا مستعدين للتعاون مع أحد، وأنهم ينطوون فى أعماق قلوبهم على الغدر والخيانة، مما يدل على أن المشكلة، كما قلنا، ليست فى الإسلام كما تعمل الكاتبة على إيهام قرائها بل فى غير المسلمين. وهو ما لا تريد أن تتطرق إليه، محاصرةً الإسلام والمسلمين طوال الوقت بهدف الإيهام بأن المشكلة فيه وفيهم وليست فى مكان آخر ولا فى ناس آخرين. صحيح أن القرآن يأمر المسلمين بالقول بأنهم يؤمنون بالذى أنزل إليهم وإلى أهل الكتاب معا، لكن ينبغى ملاحظة أن الكلام هو عما "أُنْزِل" إليهم لا عما "فى أيديهم". فهناك فرق ضخم وهائل بين هذا وذاك كما هو واضح مما تتجاهله الكاتبة دائما لغرض بل لأغراض وأغراض فى نفس كارلا باور.

وهنا تذكر كارلا باور أنها قابلت كاتبة سينمائية آتية من تل أبيب، ودار بينهما حوار حول موقف الإسلام من أهل الكتاب أرادت باور خلاله إقناع السيدة الأخرى بأن الإسلام فى ذاته لا يعادى السامية، فردت عليها الكاتبة السينمائية الآتية من تل أبيب بأن القرآن يصِم اليهود بأنهم قردة وخنازير. تريد أن تقول: إن القرآن يعادى السامية بما لا يمكن تأويله أو تبريره. والواقع أن الإسلام قد أشار فعلا إلى أن الله قد جعل من بعض من لعنهم الله وغضب عليهم قردة وخنازير، وذكر أنهم ممن اعتدَوْا على السبت. وكان ذلك بعدما مد يده لهم وكتب صحيفة بينهم وبين المسلمين ساوى فيها بين الطرفين وأرسى أسس التعاون بينهما، فما كان من يهود سوى الغدر والخيانة بألوانها المختلفة، وعلى رأسها تحالفهم مع كفار قريش حين أَتَوْا لتدمير الإسلام فى غزوة الخندق كما هو معروف، قائلين لهم إن وثنيتهم أفضل من الدين الذى أتى به محمد. وبلغ من وقاحة يهود أنهم كلما سمعوا أذان الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا وشبهوا النداء إلى عبادة الله بصوت الحمير مع أن الذى كان ينادى للصلاة هو بلال بصوته الندى الحنون، ورغم الأثر الجميل الذى يتركه الأذان فى الآذان والنفوس كما شهد بذلك عدد

من غير المسلمين ممن سمعوه حسبما حكى العقاد فى كتابه عن بلال رضى الله عنه، وحسبما قص علينا كل من رشيد رضا وعبد المجيد دريابادى مثلا عند تفسيره لتلك الآية، فضلا عن قولهم عن الله سبحانه متهكمين: "إن الله فقيرٌ، ونحن أغنياء"، و"يد الله مغلولة". وقد رد الشيخ أكرم ندوى على ذلك الكلام بأنه خاص بطائفة معينة من اليهود فى القديم فى إيلات أرادت التحايل على حرمة العمل يوم السبت، أما باقى اليهود فى تلك المدينة ممن لم يخرقوا حرمة السبت فلم يتعرض لهم القرآن بشىء. وهو ما علقت عليه كارلاباور قائلة إنها، لو لم يكن جواب د. ندوى على الهاتف، لاحتضنته (من الفرحة طبعا لا لسبب آخر، والعياذ بالله. فالشيخ ليس وسيما). والحمد لله أن الحوار بينهما كان على الهاتف لا مواجهة، وإلا لشاكت بشرتَها الأمريكيةَ الرقيقةَ لحيةُ الشيخ الهنديةُ الخشنةُ، وآذتها! ونحن لا يرضينا أذيتها أبدا.

كما لا يصح إغفال أن القرآن لم يصف من أشار إليهم بأنهم قردة وخنازير، بل حكى ما وقع لهم. وفوق هذا لم يقل إن هذا هو ما حصل لهم، بل تساءل: هل ينبغى أن أنبئكم به؟ وهذا كل ما هنالك، فضلا عن أن كثيرا من المفسرين يقولون بأن طباعهم صارت تشبه طباع القردةوالخنازير لا أنهم صاروا قردة وخنازير فعلا. لكن كيف تستغرب السيدة التل أبيبية الأمر، وها هو ذا العهد القديم ذاته يصم بنى إسرائيل جميعا بما يعْتَبَر كلام القرآن هذا معه بمثابة المداعبة والتدليل؟ ومعروف عن اليهود أنهم دائما ما يبوؤون بكراهية الأمم التى يعاشرونها حتى لقد صار هناك مصطلح يختص بدراسة طبيعة ذلك التوتر الذى يثيره وجود اليهود فى أى مكان يحلون فيه، وهو مصطلح "المسألة اليهودية".

وقد ظهرت كتب متعددة تتناول ذلك الموضوع من أشهرها الكتاب الذى ألفه كارل ماركس اليهودى، وأكد فيه أن المال هو إله إسرائيل الذى لا ينبغى فى نظرهم أن يوجد معه إله آخر، وأن القومية الخرافية لليهودى هى قومية التاجر الذى لا يعرف سوى المال بشكل عام. وهناك أيضا هيجل ونيتشه وكازنتزاكى وبرونو باور وجان بول سارتر. وممن كتب عنهم صارخا شاكيا لم يترك منقصة ولا خيانة إلا اتهمهم بها الروائى الروسى الأشهر ديستويفسكى. وغريب أن تتحول الدول الغربية، التى طالما أنزلت باليهود الويلات جزاء وفاقا على مؤامراتهم على شعوبها وعلى اقتصاداتها، مدافِعةً عن اليهود ومتخذةً منهم أداة للتنكيل بالمسلمين وإبقائهم أسرى الضعف والتخلف بدءا من التهام معظم فلسطين وتقتيل أهلها وتهجيرهم من بلادهم وهدم بيوتهم على رؤوسهم أمام أنظار العالم جميعا دون أن يتحرك أحد ولا حتى لقول كلمة حق، إلى غير ذلك من ألوان العسف والنكال. وقد وصل التجبر اليهودى فى

العقود الأخيرة من عصرنا هذا إلى الحد الذى ظلوا يضغطون معه حتى صدرت القوانين التى تمنع أى مفكر أو مؤرخ أو سياسى من مراجعة ما يقوله اليهود عما وقع لهم فى ألمانيا الهتلرية بعُجَره وبُجَره، وإلا كان مصيره السجن والغرامة المالية الخانقة. إلا أننا نعتقد أن ذلك لن يدوم إلى الأبد. والأمر مرهون بيقظة المسلمين وشعورهم بكرامتهم ورغبتهم الحقة فى استعادة حقوقهم المهضومة، وإلا فهم لا يستحقون الحياة، ولَبَطْنُ الأرض حينئذ خير لهم من ظهرها!

وها هو ذا القانون الحربى الذى ينظم معارك اليهود مع خصومهم كما جاء فى سفر "التثنية" من العهد القديم مما يعطينا فكرة سريعة عن مشاعر اليهود تجاه بقية البشر: "١٠«حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَى تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ، ١١فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيَسْتَعْبَدُ لَكَ. ١٢وَإِنْ لَمْ تُسَالِمْكَ، بَلْ عَمِلَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. ١٣وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيفِ. ١٤وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِى الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِى أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. ١٥هكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِى لَيسَتْ مِنْ مُدُنِ هؤُلاَءِ الأُمَمِ هُنَا. ١٦وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِى يعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا، ١٧بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا: الْحِثِّيينَ وَالأَمُورِيينَ وَالْكَنْعَانِيينَ وَالْفِرِزِّيينَ وَالْحِوِّيينَ وَالْيبُوسِيينَ، كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ، ١٨لِكَى لاَ يعَلِّمُوكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا حَسَبَ جَمِيعِ أَرْجَاسِهِمِ الَّتِى عَمِلُوا لآلِهَتِهِمْ، فَتُخْطِئُوا إِلَى الرَّبِّ إِلهِكُمْ". ولا أدرى كيف سكت د. أكرم ندوى فلم يشر إلى أى شىء من هذا كله وظل راضيا باحتلال ذلك الرُّكَين الضيق الذى وضعته فيه كارلا باور لا يصنع شيئا سوى الدفاع، مع أننا نعرف أن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم، وبخاصة إذا كان المهاجم على حق، وهجومه سهل ميسور على مَدّ أصابعه لو أراد.

والآن مع آيات القرآن التى تشير إليها الكاتبة الإسرائيلية، وهى موجودة فى سورة "المائدة": "يا أَيها الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يعْقِلُونَ * قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَينَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ". وهذا سبب نزول تلك الآيات حسبما جاء فى تفسير ا لقرطبى: "قال الكلبى: كان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت

اليهود: قد قاموا لا قاموا. وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا. وقالوا فى حق الأذان: لقد ابتدعتَ شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأُمم. فمِنْ أين لك صِياحٌ مثل صِياح العَير؟ فما أقبحه من صوت! وما أسمجه من أمر! وقيل: إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والمجون تجهيلا لأهلها، وتنفيرا للناس عنها وعن الداعى إليها. وقيل: إنهم كانوا يرَوْن المنادى إليها بمنزلة اللاعب الهازِئ بفعلها، جهلًا منهم بمنزلتها. فنزلت هذه الآية، وأن معنى قوله تعالى: "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يعْقِلُونَ" "أنهم بمنزلة من لا عقل له يمنعه من القبائح. رُوِى أن رجلًا من النّصارى، وكان بالمدينة، إذا سمع المؤذن يقول: "أشهد أن محمدا رسول الله" قال: حُرِق الكاذب. فسقطت فى بيته شرارة من نار وهو نائم فتعلقت بالبيت فأحرقته وأحرقت ذلك الكافر معه. فكانت عِبرة للخلق، "والبلاءُ مُوَكَّلٌ بالمنطِق". وقد كانوا يمْهَلون مع النبى صلى الله عليه وسلم حتى يسْتَفْتِحوا فلا يؤَخّروا بعد ذلك. ذكره ابن العربى[3]".

ثم ها هى ذى عينة صغيرة من النصوص الكتابية التى تصم اليهود بكل نقيصة ونسمع فيها دمدمة غضب الرب عليهم كالرعد القاصف: فمن سفر "إشَعْياء" مثلا: "[1]رُؤْيا إِشَعْياءَ بْنِ آمُوصَ، الَّتِى رَآهَا عَلَى يهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ، فِى أَيامِ عُزِّيا وَيوثَامَ وَآحَازَ وَحِزْقِيا مُلُوكِ يهُوذَا: [2]اِسْمَعِى أَيتُهَا السَّمَاوَاتُ وَأَصْغِى أَيتُهَا الأَرْضُ، لأَنَّ الرَّبَّ يتَكَلَّمُ: «رَبَّيتُ بَنِينَ وَنَشَّأْتُهُمْ، أَمَّا هُمْ فَعَصَوْا عَلَى. [3]اَلثَّوْرُ يعْرِفُ قَانِيهُ وَالْحِمَارُ مِعْلَفَ صَاحِبِهِ، أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يعْرِفُ. شَعْبِى لاَ يفْهَمُ». [4]وَيلٌ لِلأُمَّةِ الْخَاطِئَةِ، الشَّعْبِ الثَّقِيلِ الإِثْمِ، نَسْلِ فَاعِلِى الشَّرِّ، أَوْلاَدِ مُفْسِدِينَ! تَرَكُوا الرَّبَّ، اسْتَهَانُوا بِقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ، ارْتَدُّوا إِلَى وَرَاءٍ. [5]عَلَى مَ تُضْرَبُونَ بَعْدُ؟ تَزْدَادُونَ زَيغَانًا! كُلُّ الرَّأْسِ مَرِيضٌ، وَكُلُّ الْقَلْبِ سَقِيمٌ. [6]مِنْ أَسْفَلِ الْقَدَمِ إِلَى الرَّأْسِ لَيسَ فِيهِ صِحَّةٌ، بَلْ جُرْحٌ وَأَحْبَاطٌ وَضَرْبَةٌ طَرِيةٌ لَمْ تُعْصَرْ وَلَمْ تُعْصَبْ وَلَمْ تُلَينْ بِالزَّيتِ. [7]بِلاَدُكُمْ خَرِبَةٌ. مُدُنُكُمْ مُحْرَقَةٌ بِالنَّارِ. أَرْضُكُمْ تَأْكُلُهَا غُرَبَاءُ قُدَّامَكُمْ، وَهِى خَرِبَةٌ كَانْقِلاَبِ الْغُرَبَاءِ. [8]فَبَقِيتِ ابْنَةُ صِهْيَوْنَ كَمِظَلَّةٍ فِى كَرْمٍ، كَخَيمَةٍ فِى مَقْثَأَةٍ، كَمَدِينَةٍ مُحَاصَرَةٍ. [9]لَوْلاَ أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ أَبْقَى لَنَا بَقِيةً صَغِيرَةً، لَصِرْنَا مِثْلَ سَدُومَ وَشَابَهْنَا عَمُورَةَ.

[10]اِسْمَعُوا كَلاَمَ الرَّبِّ يا قُضَاةَ سَدُومَ! أَصْغُوا إِلَى شَرِيعَةِ إِلهِنَا يا شَعْبَ عَمُورَةَ: [11]«لِمَاذَا لِى كَثْرَةُ ذَبَائِحِكُمْ، يقُولُ الرَّبُّ. اتَّخَمْتُ مِنْ مُحْرَقَاتِ كِبَاشٍ وَشَحْمِ مُسَمَّنَاتٍ، وَبِدَمِ عُجُول وَخِرْفَانٍ وَتُيوسٍ مَا أُسَرُّ. [12]حِينَمَا تَأْتُونَ لِتَظْهَرُوا أَمَامِى، مَنْ طَلَبَ هذَا مِنْ أَيدِيكُمْ أَنْ تَدُوسُوا دُورِى؟ [13]لاَ تَعُودُوا تَأْتُونَ بِتَقْدِمَةٍ بَاطِلَةٍ. الْبَخُورُ هُوَ مَكْرَهَةٌ لِى. رَأْسُ الشَّهْرِ وَالسَّبْتُ وَنِدَاءُ الْمَحْفَلِ. لَسْتُ أُطِيقُ الإِثْمَ

وَالاعْتِكَافَ. ١٤رُؤُوسُ شُهُورِكُمْ وَأَعْيادُكُمْ بَغَضَتْهَا نَفْسِى. صَارَتْ عَلَى ثِقْلًا. مَلِلْتُ حَمْلَهَا. ١٥فَحِينَ تَبْسُطُونَ أَيدِيكُمْ أَسْتُرُ عَينَى عَنْكُمْ، وَإِنْ كَثَّرْتُمُ الصَّلاَةَ لاَ أَسْمَعُ. أَيدِيكُمْ مَلآنَةٌ دَمًا. ١٦اِغْتَسِلُوا. تَنَقَّوْا. اعْزِلُوا شَرَّ أَفْعَالِكُمْ مِنْ أَمَامِ عَينَى. كُفُّوا عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ. ١٧تَعَلَّمُوا فَعْلَ الْخَيرِ. اطْلُبُوا الْحَقَّ. انْصِفُوا الْمَظْلُومَ. اقْضُوا لِلْيَتِيمِ. حَامُوا عَنِ الأَرْمَلَةِ. ١٨هَلُمَّ نَتَحَاجَجْ، يقُولُ الرَّبُّ. إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقِرْمِزِ تَبْيضُّ كَالثَّلْجِ. إِنْ كَانَتْ حَمْرَاءَ كَالدُّودِى تَصِيرُ كَالصُّوفِ. ١٩إِنْ شِئْتُمْ وَسَمِعْتُمْ تَأْكُلُونَ خَيرَ الأَرْضِ. ٢٠وَإِنْ أَبَيتُمْ وَتَمَرَّدْتُمْ تُؤْكَلُونَ بِالسَّيفِ». لأَنَّ فَمَ الرَّبِّ تَكَلَّمَ. ٢١كَيفَ صَارَتِ الْقَرْيةُ الأَمِينَةُ زَانِيةً! مَلآنَةً حَقًّا. كَانَ الْعَدْلُ يبِيتُ فِيهَا، وَأَمَّا الآنَ فَالْقَاتِلُونَ. ٢٢صَارَتْ فِضَّتُكِ زَغَلًا وَخَمْرُكِ مَغْشُوشَةً بِمَاءٍ. ٢٣رُؤَسَاؤُكِ مُتَمَرِّدُونَ وَلُغَفَاءُ اللُّصُوصِ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يحِبُّ الرَّشْوَةَ وَيتْبَعُ الْعَطَايا. لاَ يقْضُونَ لِلْيتِيمِ، وَدَعْوَى الأَرْمَلَةِ لاَ تَصِلُ إِلَيهِمْ.

٢٤لِذلِكَ يقُولُ السَّيدُ رَبُّ الْجُنُودِ عَزِيزُ إِسْرَائِيلَ: «آهِ! إِنِّى أَسْتَرِيحُ مِنْ خُصَمَائِى وَأَنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِى، ٢٥وَأَرُدُّ يدِى عَلَيكِ، وَأُنَقِّى زَغَلَكِ كَأَنَّهُ بِالْبَوْرَقِ، وَأَنْزِعُ كُلَّ قَصْدِيرِكِ، ٢٦وَأُعِيدُ قُضَاتَكِ كَمَا فِى الأَوَّلِ، وَمُشِيرِيكِ كَمَا فِى الْبَدَاءَةِ. بَعْدَ ذلِكَ تُدْعَينَ مَدِينَةَ الْعَدْلِ، الْقَرْيةَ الأَمِينَةَ». ٢٧صِهْيوْنُ تُفْدَى بِالْحَقِّ، وَتَائِبُوهَا بِالْبِرِّ. ٢٨وَهَلاَكُ الْمُذْنِبِينَ وَالْخُطَاةِ يكُونُ سَوَاءً، وَتَارِكُو الرَّبِّ يفْنَوْنَ. ٢٩لأَنَّهُمْ يخْجَلُونَ مِنْ أَشْجَارِ الْبُطْمِ الَّتِى اشْتَهَيتُمُوهَا، وَتُخْزَوْنَ مِنَ الْجَنَّاتِ الَّتِى اخْتَرْتُمُوهَا. ٣٠لأَنَّكُمْ تَصِيرُونَ كَبُطْمَةٍ قَدْ ذَبُلَ وَرَقُهَا، وَكَجَنَّةٍ لَيسَ لَهَا مَاءٌ. ٣١وَيصِيرُ الْقَوِى مَشَاقَةً وَعَمَلُهُ شَرَارًا، فَيحْتَرِقَانِ كِلاَهُمَا مَعًا وَلَيسَ مَنْ يطْفِئُ".

وهذا نص آخر، وهو من "مراثى إرميا": ١كَيفَ جَلَسَتْ وَحْدَهَا الْمَدِينَةُ الْكَثِيرَةُ الشَّعْبِ! كَيفَ صَارَتْ كَأَرْمَلَةٍ الْعَظِيمَةُ فِى الأُمَمِ. السَّيدَةُ فى الْبُلْدَانِ صَارَتْ تَحْتَ الْجِزْيةِ! ٢تَبْكِى فى اللَّيلِ بُكَاءً، وَدُمُوعُهَا على خَدَّيهَا. لَيسَ لَهَا مُعَزٍّ مِنْ كُلِّ مُحِبِّيهَا. كُلُّ أَصْحَابِهَا غَدَرُوا بِهَا، صَارُوا لَها أَعْدَاءً. ٣قَد سُبِيتْ يهُوذَا مِنَ الْمَذَلَّةِ وَمِنْ كَثْرَةِ الْعُبُودِيةِ. هِى تَسْكُنُ بَينَ الأُمَمِ. لاَ تَجِدُ رَاحَةً. قَدْ أَدْرَكَهَا كُلُّ طَارِدِيهَا بَينَ الضِّيقَاتِ. ٤طُرُقُ صِهْيوْنَ نَائِحَةٌ لِعَدَمِ الآتِينَ إِلَى الْعِيدِ. كُلُّ أَبْوَابِهَا خَرِبَةٌ. كَهَنَتُهَا يتَنَهَّدُونَ. عَذَارَاهَا مُذَلَّلَةٌ وَهِى فِى مَرَارَةٍ. ٥صَارَ مُضَايقُوهَا رَأْسًا. نَجَحَ أَعْدَاؤُهَا لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَذَلَّهَا لأَجْلِ كَثْرَةِ ذُنُوبِهَا. ذَهَبَ أَوْلاَدُهَا إِلَى السَّبْى قُدَّامَ الْعَدُوِّ. ٦وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بِنْتِ صِهْيوْنَ كُلُّ بَهَائِهَا. صَارَتْ رُؤَسَاؤُهَا كَأَيائِلَ لاَ تَجِدُ مَرْعًى، فَيسِيرُونَ بِلاَ قُوَّةٍ أَمَامَ الطَّارِدِ. ٧قَدْ ذَكَرَتْ أُورُشَلِيمُ فِى أَيامِ مَذَلَّتِهَا وَتَطَوُّحِهَا كُلَّ مُشْتَهَيَاتِهَا الَّتِى كَانَتْ فِى أَيامِ الْقِدَمِ. عِنْدَ سُقُوطِ شَعْبِهَا بِيدِ الْعَدُوِّ وَلَيسَ مَنْ يسَاعِدُهَا. رَأَتْهَا الأَعْدَاءُ. ضَحِكُوا عَلَى

هلاَكِهَا. [8]قَدْ أَخْطَأَتْ أُورُشَلِيمُ خَطِيةً، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ صَارَتْ رَجِسَةً. كُلُّ مُكَرِّمِيهَا يَحْتَقِرُونَهَا لأَنَّهُمْ رَأَوْا عَوْرَتَهَا، وَهِى أَيضًا تَتَنَهَّدُ وَتَرْجِعُ إِلَى الْوَرَاءِ. [9]نَجَاسَتُهَا فِى أَذْيالِهَا. لَمْ تَذْكُرْ آخِرَتَهَا وَقَدِ انْحَطَّتِ انْحِطَاطًا عَجِيبًا. لَيسَ لَهَا مُعَزّ. «انْظُرْ يا رَبُّ إِلَى مَذَلَّتِى لأَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ تَعَظَّمَ». [10]بَسَطَ الْعَدُوُّ يدَهُ عَلَى كُلِّ مُشْتَهَياتِهَا، فَإِنَّهَا رَأَتِ الأُمَمَ دَخَلُوا مَقْدِسَهَا، الَّذِينَ أَمَرْتَ أَنْ لاَ يدْخُلُوا فِى جَمَاعَتِكَ. [11]كُلُّ شَعْبِهَا يتَنَهَّدُونَ، يطْلُبُونَ خُبْزًا. دَفَعُوا مُشْتَهَياتِهِمْ لِلأَكْلِ لأَجْلِ رَدِّ النَّفْسِ. «انْظُرْ يارَبُّ وَتَطَلَّعْ لأَنِّى قَدْ صِرْتُ مُحْتَقَرَةً».

[12]«أَمَا إِلَيكُمْ يا جَمِيعَ عَابِرِى الطَّرِيقِ؟ تَطَلَّعُوا وَانْظُرُوا إِنْ كَانَ حُزْنٌ مِثْلَ حُزْنِى الَّذِى صُنِعَ بِى، الَّذِى أَذَلَّنِى بِهِ الرَّبُّ يوْمَ حُمُوِّ غَضَبِهِ؟ [13]مِنَ الْعَلاَءِ أَرْسَلَ نَارًا إِلَى عِظَامِى فَسَرَتْ فِيهَا. بَسَطَ شَبَكَةً لِرِجْلَى. رَدَّنِى إِلَى الْوَرَاءِ. جَعَلَنِى خَرِبَةً. الْيوْمَ كُلَّهُ مَغْمُومَةً. [14]شَدَّ نِيرَ ذُنُوبِى بِيدِهِ، ضُفِرَتْ، صَعِدَتْ عَلَى عُنُقِى. نَزَعَ قُوَّتِى. دَفَعَنِى السَّيدُ إِلَى أَيدٍ لاَ أَسْتَطِيعُ الْقِيامَ مِنْهَا. [15]رَذَلَ السَّيدُ كُلَّ مُقْتَدِرِى فِى وَسَطِى. دَعَا عَلَى جَمَاعَةً لِحَطْمِ شُبَّانِى. دَاسَ السَّيدُ الْعَذْرَاءَ بِنْتَ يهُوذَا مِعْصَرَةً. [16]عَلَى هذِهِ أَنَا بَاكِيةٌ. عَينِى، عَينِى تَسْكُبُ مِياهًا لأَنَّهُ قَدِ ابْتَعَدَ عَنِّى الْمُعَزِّى، رَادُّ نَفْسِى. صَارَ بَنِى هَالِكِينَ لأَنَّهُ قَدْ تَجَبَّرَ الْعَدُوُّ».

[17]بَسَطَتْ صِهْيوْنُ يدَيهَا. لاَ مُعَزِّى لَهَا. أَمَرَ الرَّبُّ عَلَى يعْقُوبَ أَنْ يكُونَ مُضَايقُوهُ حَوَالَيهِ. صَارَتْ أُورُشَلِيمُ نَجِسَةً بَينَهُمْ. [18]«بَارٌّ هُوَ الرَّبُّ لأَنِّى قَدْ عَصَيتُ أَمْرَهُ. اسْمَعُوا يا جَمِيعَ الشُّعُوبِ وَانْظُرُوا إِلَى حُزْنِى. عَذَارَاى وَشُبَّانِى ذَهَبُوا إِلَى السَّبْى. [19]نَادَيتُ مُحِبِّى. هُمْ خَدَعُونِى. كَهَنَتِى وَشُيوخِى فِى الْمَدِينَةِ مَاتُوا، إِذْ طَلَبُوا لِذَوَاتِهِمْ طَعَامًا لِيرُدُّوا أَنْفُسَهُمْ. [20]انْظُرْ يا رَبُّ، فَإِنِّى فِى ضِيقٍ! أَحْشَائِى غَلَتْ. ارْتَدَّ قَلْبِى فِى بَاطِنِى لأَنِّى قَدْ عَصَيتُ مُتَمَرِّدَةً. فِى الْخَارِجِ يثْكُلُ السَّيفُ، وَفِى الْبَيتِ مِثْلُ الْمَوْتِ. [21]سَمِعُوا أَنِّى تَنَهَّدْتُ. لاَ مُعَزِّى لِى. كُلُّ أَعْدَائِى سَمِعُوا بِبَلِيتِى. فَرِحُوا لأَنَّكَ فَعَلْتَ. تَأْتِى بِالْيوْمِ الَّذِى نَادَيتَ بِهِ فَيصِيرُونَ مِثْلِى. [22]لِيأْتِ كُلُّ شَرِّهِمْ أَمَامَكَ. وَافْعَلْ بِهِمْ كَمَا فَعَلْتَ بِى مِنْ أَجْلِ كُلِّ ذُنُوبِى، لأَنَّ تَنَهُّدَاتِى كَثِيرَةٌ وَقَلْبِى مَغْشِى عَلَيهِ».

[1]كَيفَ غَطَّى السَّيدُ بِغَضَبِهِ ابْنَةَ صِهْيوْنَ بِالظَّلاَمِ! أَلْقَى مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ فَخْرَ إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يذْكُرْ مَوْطِئَ قَدَمَيهِ فِى يوْمِ غَضَبِهِ. [2]ابْتَلَعَ السَّيدُ وَلَمْ يشْفِقْ كُلَّ مَسَاكِنِ يعْقُوبَ. نَقَضَ بِسَخَطِهِ حُصُونَ بِنْتِ يهُوذَا. أَوْصَلَهَا إِلَى الأَرْضِ. نَجَّسَ الْمَمْلَكَةَ وَرُؤَسَاءَهَا. [3]عَضَبَ بِحُمُوِّ غَضَبِهِ كُلَّ قَرْنٍ لإِسْرَائِيلَ. رَدَّ إِلَى الْوَرَاءِ يمِينَهُ أَمَامَ الْعَدُوِّ، وَاشْتَعَلَ فِى يعْقُوبَ مِثْلَ نَارٍ مُلْتَهِبَةٍ تَأْكُلُ مَا حَوَالَيهَا. [4]مَدَّ قَوْسَهُ كَعَدُوٍّ. نَصَبَ يمِينَهُ كَمُبْغِضٍ وَقَتَلَ كُلَّ مُشْتَهَياتِ الْعَينِ فِى خِبَاءِ بِنْتِ صِهْيوْنَ. سَكَبَ كَنَارٍ غَيظَهُ. [5]صَارَ السَّيدُ

كَعَدُوٍّ. ابْتَلَعَ إِسْرَائِيلَ. ابْتَلَعَ كُلَّ قُصُورِهِ. أَهْلَكَ حُصُونَهُ، وَأَكْثَرَ فِي بِنْتِ يَهُوذَا النَّوْحَ وَالْحُزْنَ. ٦وَنَزَعَ كَمَا مِنْ جَنَّةٍ مَظَلَّتَهُ. أَهْلَكَ مُجْتَمَعَهُ. أَنْسَى الرَّبُّ فِي صِهْيَوْنَ الْمَوْسِمَ وَالسَّبْتَ، وَرَذَلَ بِسَخَطِ غَضَبِهِ الْمَلِكَ وَالْكَاهِنَ. ٧كَرِهَ السَّيِّدُ مَذْبَحَهُ. رَذَلَ مَقْدِسَهُ. حَصَرَ فِي يَدِ الْعَدُوِّ أَسْوَارَ قُصُورِهَا. أَطْلَقُوا الصَّوْتَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ كَمَا فِي يَوْمِ الْمَوْسِمِ. ٨قَصَدَ الرَّبُّ أَنْ يُهْلِكَ سُورَ بِنْتِ صِهْيَوْنَ. مَدَّ الْمِطْمَارَ. لَمْ يَرْدُدْ يَدَهُ عَنِ الإِهْلاَكِ، وَجَعَلَ الْمِتْرَسَةَ وَالسُّورَ يَنُوحَانِ. قَدْ حَزِنَا مَعًا. ٩تَاخَتْ فِي الأَرْضِ أَبْوَابُهَا. أَهْلَكَ وَحَطَّمَ عَوَارِضَهَا. مَلِكُهَا وَرُؤَسَاؤُهَا بَيْنَ الأُمَمِ. لاَ شَرِيعَةَ. أَنْبِيَاؤُهَا أَيْضًا لاَ يَجِدُونَ رُؤْيَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ. ١٠شُيُوخُ بِنْتِ صِهْيَوْنَ يَجْلِسُونَ عَلَى الأَرْضِ سَاكِتِينَ. يَرْفَعُونَ التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. يَتَنَطَّقُونَ بِالْمُسُوحِ. تَحْنِي عَذَارَى أُورُشَلِيمَ رُؤُوسَهُنَّ إِلَى الأَرْضِ. ١١كَلَّتْ مِنَ الدُّمُوعِ عَيْنَايَ. غَلَتْ أَحْشَائِي. انْسَكَبَتْ عَلَى الأَرْضِ كَبِدِي عَلَى سَحْقِ بِنْتِ شَعْبِي، لأَجْلِ غَشَيَانِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ فِي سَاحَاتِ الْقَرْيَةِ. ١٢يَقُولُونَ لأُمَّهَاتِهِمْ: «أَيْنَ الْحِنْطَةُ وَالْخَمْرُ؟» إِذْ يُغْشَى عَلَيْهِمْ كَجَرِيحٍ فِي سَاحَاتِ الْمَدِينَةِ، إِذْ تُسْكَبُ نَفْسُهُمْ فِي أَحْضَانِ أُمَّهَاتِهِمْ. ١٣بِمَاذَا أُنْذِرُكِ؟ بِمَاذَا أُحَذِّرُكِ؟ بِمَاذَا أُشَبِّهُكِ يَا ابْنَةَ أُورُشَلِيمَ؟ بِمَاذَا أُقَايِسُكِ فَأُعَزِّيكِ أَيَّتُهَا الْعَذْرَاءُ بِنْتَ صِهْيَوْنَ؟ لأَنَّ سَحْقَكِ عَظِيمٌ كَالْبَحْرِ. مَنْ يَشْفِيكِ؟ ١٤أَنْبِيَاؤُكِ رَأَوْا لَكِ كَذِبًا وَبَاطِلًا، وَلَمْ يُعْلِنُوا إِثْمَكِ لِيَرُدُّوا سَبْيَكِ، بَلْ رَأَوْا لَكِ وَحْيًا كَاذِبًا وَطَوَائِحَ. ١٥يُصَفِّقُ عَلَيْكِ بِالأَيَادِي كُلُّ عَابِرِي الطَّرِيقِ. يَصْفِرُونَ وَيَنْغُضُونَ رُؤُوسَهُمْ عَلَى بِنْتِ أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: «أَهذِهِ هِيَ الْمَدِينَةُ الَّتِي يَقُولُونَ إِنَّهَا كَمَالُ الْجَمَالِ، بَهْجَةُ كُلِّ الأَرْضِ؟» ١٦يَفْتَحُ عَلَيْكِ أَفْوَاهَهُمْ كُلُّ أَعْدَائِكِ. يَصْفِرُونَ وَيَحْرِقُونَ الأَسْنَانَ. يَقُولُونَ: «قَدْ أَهْلَكْنَاهَا. حَقًّا إِنَّ هذَا الْيَوْمَ الَّذِي رَجَوْنَاهُ. قَدْ وَجَدْنَاهُ! قَدْ رَأَيْنَاهُ». ١٧فَعَلَ الرَّبُّ مَا قَصَدَ. تَمَّمَ قَوْلَهُ الَّذِي أَوْعَدَ بِهِ مُنْذُ أَيَّامِ الْقِدَمِ. قَدْ هَدَمَ وَلَمْ يَشْفِقْ وَأَشْمَتَ بِكِ الْعَدُوَّ. نَصَبَ قَرْنَ أَعْدَائِكِ. ١٨صَرَخَ قَلْبُهُمْ إِلَى السَّيِّدِ. يَا سُورَ بِنْتِ صِهْيَوْنَ اسْكُبِي الدَّمْعَ كَنَهْرٍ نَهَارًا وَلَيْلًا. لاَ تُعْطِي ذَاتَكِ رَاحَةً. لاَ تَكُفَّ حَدَقَةُ عَيْنِكِ. ١٩قُومِي اهْتِفِي فِي اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ الْهُزُعِ. اسْكُبِي كَمِيَاهٍ قَلْبَكِ قُبَالَةَ وَجْهِ السَّيِّدِ. ارْفَعِي إِلَيْهِ يَدَيْكِ لأَجْلِ نَفْسِ أَطْفَالِكِ الْمُغْشِي عَلَيْهِمْ مِنَ الْجُوعِ فِي رَأْسِ كُلِّ شَارِعٍ.

٢٠«اُنْظُرْ يَا رَبُّ وَتَطَلَّعْ بِمَنْ فَعَلْتَ هكَذَا؟ أَتَأْكُلُ النِّسَاءُ ثَمَرَهُنَّ، أَطْفَالَ الْحَضَانَةِ؟ أَيُقْتَلُ فِي مَقْدِسِ السَّيِّدِ الْكَاهِنُ وَالنَّبِيُّ؟ ٢١اضْطَجَعَتْ عَلَى الأَرْضِ فِي الشَّوَارِعِ الصِّبْيَانُ وَالشُّيُوخُ. عَذَارَايَ وَشُبَّانِي سَقَطُوا بِالسَّيْفِ. قَدْ قَتَلْتَ فِي يَوْمِ غَضَبِكَ. ذَبَحْتَ وَلَمْ تَشْفِقْ. ٢٢قَدْ دَعَوْتَ كَمَا فِي يَوْمِ مَوْسِمٍ مَخَاوِفِي حَوَالَيَّ، فَلَمْ يَكُنْ فِي يَوْمِ غَضَبِ الرَّبِّ نَاجٍ وَلاَ بَاقٍ. اَلَّذِينَ حَضَنْتُهُمْ وَرَبَّيْتُهُمْ أَفْنَاهُمْ عَدُوِّي»".

ثم هذا نص ثالث، من سفر "هوشع": [١]قَوْلُ الرَّبِّ الَّذِى صَارَ إِلَى هُوشَعَ بْنِ بِئِيرِى، فِى أَيامِ عُزِّيا وَيوثَامَ وَآحَازَ وَحَزَقِيا مُلُوكِ يهُوذَا، وَفِى أَيامِ يرُبْعَامَ بْنِ يوآشَ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ. [٢]أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ، قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: «اذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى، لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ». [٣]فَذَهَبَ وَأَخَذَ جُومَرَ بِنْتَ دِبْلاَيِمَ، فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا، [٤]فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «ادْعُ اسْمَهُ يزْرَعِيلَ، لأَنَّنِى بَعْدَ قَلِيلٍ أُعَاقِبُ بَيتَ ياهُو عَلَى دَمِ يزْرَعِيلَ، وَأُبِيدُ مَمْلَكَةَ بَيتِ إِسْرَائِيلَ. [٥]وَيكُونُ فِى ذلِكَ الْيوْمِ أَنِّى أَكْسِرُ قَوْسَ إِسْرَائِيلَ فِى وَادِى يزْرَعِيلَ».

[٦]ثُمَّ حَبِلَتْ أَيضًا وَوَلَدَتْ بِنْتًا، فَقَالَ لَهُ: «ادْعُ اسْمَهَا لُورُحَامَةَ، لأَنِّى لاَ أَعُودُ أَرْحَمُ بَيتَ إِسْرَائِيلَ أَيضًا، بَلْ أَنْزِعُهُمْ نَزْعًا. [٧]وَأَمَّا بَيتُ يهُوذَا فَأَرْحَمُهُمْ وَأُخَلِّصُهُمْ بِالرَّبِّ إِلهِهِمْ، وَلاَ أُخَلِّصُهُمْ بِقَوْسٍ وَبِسَيفٍ وَبِحَرْبٍ وَبِخَيلٍ وَبِفُرْسَانٍ». [٨]ثُمَّ فَطَمَتْ لُورُحَامَةَ وَحَبِلَتْ فَوَلَدَتِ ابْنًا، [٩]فَقَالَ: «ادْعُ اسْمَهُ لُوعَمِّى، لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ شَعْبِى وَأَنَا لاَ أَكُونُ لَكُمْ. [١٠]لكِنْ يكُونُ عَدَدُ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَرَمْلِ الْبَحْرِ الَّذِى لاَ يكَالُ وَلاَ يعَدُّ، وَيكُونُ عِوَضًا عَنْ أَنْ يقَالَ لَهُمْ: لَسْتُمْ شَعْبِى، يقَالُ لَهُمْ: أَبْنَاءُ اللهِ الْحَى. [١١]وَيجْمَعُ بَنُو يهُوذَا وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مَعًا وَيجْعَلُونَ لأَنْفُسِهِمْ رَأْسًا وَاحِدًا، وَيصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ، لأَنَّ يوْمَ يزْرَعِيلَ عَظِيمٌ.

[١]«قُولُوا لإِخْوَتِكُمْ «عَمِّى» وَلأَخَوَاتِكُمْ «رُحَامَةَ». [٢]حَاكِمُوا أُمَّكُمْ حَاكِمُوا، لأَنَّهَا لَيسَتِ امْرَأَتِى وَأَنَا لَسْتُ رَجُلَهَا، لِكَى تَعْزِلَ زِنَاهَا عَنْ وَجْهِهَا وَفِسْقَهَا مِنْ بَينِ ثَدْيَيهَا، [٣]لِئَلاَّ أُجَرِّدَهَا عُرْيانَةً وَأَوْقِفَهَا كَيوْمِ وِلاَدَتِهَا، وَأَجْعَلَهَا كَقَفْرٍ، وَأُصَيرَهَا كَأَرْضٍ يابِسَةٍ، وَأُمِيتَهَا بِالْعَطَشِ. [٤]وَلاَ أَرْحَمُ أَوْلاَدَهَا لأَنَّهُمْ أَوْلاَدُ زِنًى. [٥]«لأَنَّ أُمَّهُمْ قَدْ زَنَتِ. الَّتِى حَبِلَتْ بِهِمْ صَنَعَتْ خِزْيا. لأَنَّهَا قَالَتْ: أَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّى الَّذِينَ يعْطُونَ خُبْزِى وَمَائِى، صُوفِى وَكَتَّانِى، زَيتِى وَأَشْرِبَتِى. [٦]لِذلِكَ هأَنَذَا أُسَيجُ طَرِيقَكِ بِالشَّوْكِ، وَأَبْنِى حَائِطَهَا حَتَّى لاَ تَجِدَ مَسَالِكَهَا. [٧]فَتَتْبَعُ مُحِبِّيهَا وَلاَ تُدْرِكُهُمْ، وَتُفَتِّشُ عَلَيهِمْ وَلاَ تَجِدُهُمْ. فَتَقُولُ: أَذْهَبُ وَأَرْجعُ إِلَى رَجُلِى الأَوَّلِ، لأَنَّهُ حِينَئِذٍ كَانَ خَيرٌ لِى مِنَ الآنَ.

[٨]«وَهِى لَمْ تَعْرِفْ أَنِّى أَنَا أَعْطَيتُهَا الْقَمْحَ وَالْمِسْطَارَ وَالزَّيتَ، وَكَثَّرْتُ لَهَا فِضَّةً وَذَهَبًا جَعَلُوهُ لِبَعْلٍ. [٩]لِذلِكَ أَرْجعُ وَآخُذُ قَمْحِى فِى حِينِهِ، وَمِسْطَارِى فِى وَقْتِهِ، وَأَنْزِعُ صُوفِى وَكَتَّانِى اللَّذَينِ لِسَتْرِ عَوْرَتِهَا. [١٠]وَالآنَ أَكْشِفُ عَوْرَتَهَا أَمَامَ عُيونِ مُحِبِّيهَا وَلاَ ينْقِذُهَا أَحَدٌ مِنْ يدِى. [١١]وَأُبَطِّلُ كُلَّ أَفْرَاحِهَا: أَعْيادَهَا وَرُؤُوسَ شُهُورِهَا وَسُبُوتَهَا وَجَمِيعَ مَوَاسِمِهَا. [١٢]وَأُخَرِّبُ كَرْمَهَا وَتِينَهَا اللَّذَينِ قَالَتْ: هُمَا أُجْرَتِى الَّتِى

أَعطَانِيهَا مُحِبِّى، وَأَجْعَلُهَا وَعْرًا فيأْكُلُهَا حيوَانُ الْبَرِّيةِ. ١٣وَأُعَاقِبُهَا عَلَى أَيامِ بَعْلِيمَ الَّتِى فِيهَا كَانَتْ تُبَخِّرُ لَهُمْ وَتتَزَينُ بِخَزَائِمِهَا وَحُلِيهَا وَتَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّيهَا وَتَنْسَانِى أَنَا، يقُولُ الرَّبُّ.

١٤«لكِنْ هأَنَذَا أَتمَلَّقُهَا وَأَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْبَرِّيةِ وَأُلاَطِفُهَا، ١٥وَأُعْطِيهَا كُرُومَهَا مِنْ هُنَاكَ، وَوَادِى عَخُورَ بَابًا لِلرَّجَاءِ. وَهِى تُغَنِّى هُنَاكَ كَأَيامِ صِبَاهَا، وَكَيوْمِ صُعُودِهَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ١٦وَيكُونُ فِى ذلِكَ الْيوْمِ، يقُولُ الرَّبُّ، أَنَّكِ تَدْعِينَنِى: رَجُلِى، وَلاَ تَدْعِينَنِى بَعْدُ بَعْلِى. ١٧وَأَنْزِعُ أَسْمَاءَ الْبَعْلِيمِ مِنْ فَمِهَا، فَلاَ تُذْكَرُ أَيضًا بِأَسْمَائِهَا. ١٨وَأَقْطَعُ لَهُمْ عَهْدًا فِى ذلِكَ الْيوْمِ مَعَ حيوَانِ الْبَرِّيةِ وَطُيورِ السَّمَاءِ وَدَبَّابَاتِ الأَرْضِ، وَأَكْسِرُ الْقَوْسَ وَالسَّيفَ وَالْحَرْبَ مِنَ الأَرْضِ، وَأَجْعَلُهُمْ يضْطَجِعُونَ آمِنِينَ. ١٩وَأَخْطُبُكِ لِنَفْسِى إِلَى الأَبَدِ. وَأَخْطُبُكِ لِنَفْسِى بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ وَالإِحْسَانِ وَالْمَرَاحِمِ. ٢٠أَخْطُبُكِ لِنَفْسِى بِالأَمَانَةِ فَتَعْرِفِينَ الرَّبَّ. ٢١وَيكُونُ فِى ذلِكَ الْيوْمِ أَنِّى أَسْتَجِيبُ، يقُولُ الرَّبُّ، أَسْتَجِيبُ السَّمَاوَاتِ وَهِى تَسْتَجِيبُ الأَرْضَ، ٢٢وَالأَرْضُ تَسْتَجِيبُ الْقَمْحَ وَالْمِسْطَارَ وَالزَّيتَ، وَهِى تَسْتَجِيبُ يزْرَعِيلَ. ٢٣وَأَزْرَعُهَا لِنَفْسِى فِى الأَرْضِ، وَأَرْحَمُ لُورُحَامَةَ، وَأَقُولُ لِلُوعَمِّى: أَنْتَ شَعْبِى، وَهُوَ يقُولُ: أَنْتَ إِلهِى».

١وَقَالَ الرَّبُّ لِى: «اذْهَبْ أَيضًا أَحْبِبِ امْرَأَةً حَبِيبَةَ صَاحِبٍ وَزَانِيةً، كَمَحَبَّةِ الرَّبِّ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ وَهُمْ مُلْتَفِتُونَ إِلَى آلِهَةٍ أُخْرَى وَمُحِبُّونَ لأَقْرَاصِ الزَّبِيبِ». ٢فَاشْتَرَيتُهَا لِنَفْسِى بِخَمْسَةَ عَشَرَ شَاقِلَ فِضَّةٍ وَبِحُومَرَ وَلَثَكِ شَعِيرٍ. ٣وَقُلْتُ لَهَا: «تَقْعُدِينَ أَيامًا كَثِيرَةً لاَ تَزْنِى وَلاَ تَكُونِى لِرَجُل، وَأَنَا كَذلِكَ لَكِ». ٤لأَنَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ سَيقْعُدُونَ أَيامًا كَثِيرَةً بِلاَ مَلِكٍ، وَبِلاَ رَئِيسٍ، وَبِلاَ ذَبِيحَةٍ، وَبِلاَ تِمْثَال، وَبِلاَ أَفُودٍ وَتَرَافِيمَ. ٥بَعْدَ ذلِكَ يعُودُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَيطْلُبُونَ الرَّبَّ إِلهَهُمْ وَدَاوُدَ مَلِكَهُمْ، وَيفْزَعُونَ إِلَى الرَّبِّ وَإِلَى جُودِهِ فِى آخِرِ الأَيامِ.

١اِسْمَعُوا قَوْلَ الرَّبِّ يا بَنِى إِسْرَائِيلَ: «إِنَّ لِلرَّبِّ مُحَاكَمَةً مَعَ سُكَّانِ الأَرْضِ، لأَنَّهُ لاَ أَمَانَةَ وَلاَ إِحْسَانَ وَلاَ مَعْرِفَةَ اللهِ فِى الأَرْضِ. ٢لَعْنٌ وَكَذِبٌ وَقَتْلٌ وَسِرْقَةٌ وَفِسْقٌ. يعْتَنِفُونَ، وَدِمَاءٌ تَلْحَقُ دِمَاءً. ٣لِذلِكَ تَنُوحُ الأَرْضُ وَيذْبُلُ كُلُّ مَنْ يسْكُنُ فِيهَا مَعَ حيوَانِ الْبَرِّيةِ وَطُيورِ السَّمَاءِ، وَأَسْمَاكُ الْبَحْرِ أَيضًا تَنْتَزِعُ. ٤«وَلكِنْ لاَ يحَاكِمْ أَحَدٌ وَلاَ يعَاتِبْ أَحَدٌ. وَشَعْبُكَ كَمَنْ يخَاصِمُ كَاهِنًا. ٥فَتَتَعَثَّرُ فِى النَّهَارِ وَيتَعَثَّرُ أَيضًا النَّبِى مَعَكَ فِى اللَّيلِ، وَأَنَا أُخْرِبُ أُمَّكَ. ٦قَدْ هَلَكَ شَعْبِى مِنْ عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ. لأَنَّكَ أَنْتَ رَفَضْتَ الْمَعْرِفَةَ أَرْفُضُكَ أَنَا حَتَّى لاَ تَكْهَنَ لِى. وَلأَنَّكَ نَسِيتَ شَرِيعَةَ إِلهِكَ أَنْسَى أَنَا أَيضًا بَنِيكَ. ٧عَلَى حَسْبَمَا كَثُرُوا، هكَذَا أَخْطَأُوا إِلَى، فَأُبْدِلُ كَرَامَتَهُمْ بِهَوَانٍ. ٨يأْكُلُونَ خَطِيةَ شَعْبِى وَإِلَى إِثْمِهِمْ يحْمِلُونَ نُفُوسَهُمْ.

٩فيكُونُ كَمَا الشَّعْبُ هكَذَا الْكَاهِنُ. وَأُعَاقِبُهُمْ عَلَى طُرُقِهِمْ وَأَرُدُّ أَعْمَالَهُمْ عَلَيهِمْ. ١٠فيأْكُلُونَ وَلاَ يشْبَعُونَ، وَيزْنُونَ وَلاَ يكْثُرُونَ، لأَنَّهُمْ قَدْ تَرَكُوا عِبَادَةَ الرَّبِّ.

١١«اَلزِّنَى وَالْخَمْرُ وَالسُّلاَفَةُ تَخْلِبُ الْقَلْبَ. ١٢شَعْبِى يسْأَلُ خَشَبَهُ، وَعَصَاهُ تُخْبِرُهُ، لأَنَّ رُوحَ الزِّنَى قَدْ أَضَلَّهُمْ فَزَنَوْا مِنْ تَحْتِ إِلهِهِمْ. ١٣يذْبَحُونَ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَيبَخِّرُونَ عَلَى التِّلاَلِ تَحْتَ الْبَلُّوطِ وَاللُّبْنَى وَالْبُطْمِ لأَنَّ ظِلَّهَا حَسَنٌ! لِذلِكَ تَزْنِى بَنَاتُكُمْ وَتَفْسِقُ كَنَّاتُكُمْ. ١٤لاَ أُعَاقِبُ بَنَاتِكُمْ لأَنَّهُنَّ يزْنِينَ، وَلاَ كَنَّاتِكُمْ لأَنَّهُنَّ يفْسِقْنَ. لأَنَّهُمْ يعْتَزِلُونَ مَعَ الزَّانِياتِ وَيذْبَحُونَ مَعَ النَّاذِرَاتِ الزِّنَى. وَشَعْبٌ لاَ يعْقِلُ يصْرَعُ. ١٥«إِنْ كُنْتَ أَنْتَ زَانِيا يا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يأْثَمُ يهُوذَا. وَلاَ تَأْتُوا إِلَى الْجِلْجَالِ وَلاَ تَصْعَدُوا إِلَى بَيتِ آوَنَ وَلاَ تَحْلِفُوا: حَى هُوَ الرَّبُّ. ١٦إِنَّهُ قَدْ جَمَحَ إِسْرَائِيلُ كَبَقَرَةٍ جَامِحَةٍ. اَلآنَ يرْعَاهُمُ الرَّبُّ كَخَرُوفٍ فِى مَكَانٍ وَاسِعٍ. ١٧أَفْرَايمُ مُوثَقٌ بِالأَصْنَامِ. اتْرُكُوهُ. ١٨مَتَى انْتَهَتْ مُنَادَمَتُهُمْ زَنَوْا زِنًى. أَحَبَّ مَجَانُّهَا، أَحَبُّوا الْهَوَانَ. ١٩قَدْ صَرَّتْهَا الرِّيحُ فِى أَجْنِحَتِهَا، وَخَجِلُوا مِنْ ذَبَائِحِهِمْ".

١«اِسْمَعُوا هذَا أَيهَا الْكَهَنَةُ! وَانْصِتُوا يا بَيتَ إِسْرَائِيلَ! وَأَصْغُوا يا بَيتَ الْمَلِكِ! لأَنَّ عَلَيكُمُ الْقَضَاءَ، إِذْ صِرْتُمْ فَخًّا فِى مِصْفَاةَ، وَشَبَكَةً مَبْسُوطَةً عَلَى تَابُورَ. ٢وَقَدْ تَوَغَّلُوا فِى ذَبَائِحِ الزَّيغَانِ، فَأَنَا تَأْدِيبٌ لِجَمِيعِهِمْ. ٣أَنَا أَعْرِفُ أَفْرَايمَ. وَإِسْرَائِيلُ لَيسَ مَخْفِيا عَنِّى. إِنَّكَ الآنَ زَنَيتَ يا أَفْرَايمُ. قَدْ تَنَجَّسَ إِسْرَائِيلُ. ٤أَفْعَالُهُمْ لاَ تَدَعُهُمْ يرْجِعُونَ إِلَى إِلهِهِمْ، لأَنَّ رُوحَ الزِّنَى فِى بَاطِنِهِمْ، وَهُمْ لاَ يعْرِفُونَ الرَّبَّ. ٥وَقَدْ أُذِلَّتْ عَظَمَةُ إِسْرَائِيلَ فِى وَجْهِهِ، فَيتَعَثَّرُ إِسْرَائِيلُ وَأَفْرَايمُ فِى إِثْمِهِمَا، وَيتَعَثَّرُ يهُوذَا أَيضًا مَعَهُمَا. ٦يذْهَبُونَ بِغَنَمِهِمْ وَبَقَرِهِمْ لِيطْلُبُوا الرَّبَّ وَلاَ يجِدُونَهُ. قَدْ تَنَحَّى عَنْهُمْ. ٧قَدْ غَدَرُوا بِالرَّبِّ. لأَنَّهُمْ وَلَدُوا أَوْلاَدًا أَجْنَبِيينَ، اَلآنَ يأْكُلُهُمْ شَهْرٌ مَعَ أَنْصِبَتِهِمْ.

٨«اِضْرِبُوا بِالْبُوقِ فِى جِبْعَةَ، بِالْقَرْنِ فِى الرَّامَةِ. اصْرُخُوا فِى بَيتِ آوَنَ. وَرَاءَكَ يا بَنْيامِينُ. ٩يصِيرُ أَفْرَايمُ خَرَابًا فِى يوْمِ التَّأْدِيبِ. فِى أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ أَعْلَمْتُ الْيقِينَ. ١٠صَارَتْ رُؤَسَاءُ يهُوذَا كَنَاقِلِى التُّخُومِ. فَأَسْكُبُ عَلَيهِمْ سَخَطِى كَالْمَاءِ. ١١أَفْرَايمُ مَظْلُومٌ مَسْحُوقُ الْقَضَاءِ، لأَنَّهُ ارْتَضَى أَنْ يمْضِى وَرَاءَ الْوَصِيةِ. ١٢فَأَنَا لأَفْرَايمَ كَالْعُثِّ، وَلِبَيتِ يهُوذَا كَالسُّوسِ.

١٣«وَرَأَى أَفْرَايمُ مَرَضَهُ وَيهُوذَا جُرْحَهُ، فَمَضَى أَفْرَايمُ إِلَى أَشُّورَ، وَأَرْسَلَ إِلَى مَلِكٍ عَدُوٍّ. وَلكِنَّهُ لاَ يسْتَطِيعُ أَنْ يشْفِيكُمْ وَلاَ أَنْ يزِيلَ مِنْكُمُ الْجُرْحَ. ١٤لأَنِّى لأَفْرَايمَ كَالأَسَدِ، وَلِبَيتِ يهُوذَا كَشِبْلِ الأَسَدِ. فَإِنِّى أَنَا أَفْتَرِسُ وَأَمْضِى وَآخُذُ وَلاَ مُنْقِذٌ. ١٥أَذْهَبُ وَأَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى حَتَّى يجَازَوْا وَيطْلُبُوا وَجْهِى. فِى ضِيقِهِمْ يبَكِّرُونَ إِلَى»".

ثم نص رابع، من سفر "حزقيال": "١وَكَانَتْ إِلَيَّ كَلِمَةُ الرَّبِّ قَائِلَةً: ٢«يا ابْنَ آدَمَ، عَرِّفْ أُورُشَلِيمَ بِرَجَاسَاتِهَا، ٣وَقُلْ: هكَذَا قَالَ السَّيدُ الرَّبُّ لأُورُشَلِيمَ: مَخْرَجُكِ وَمَوْلِدُكِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. أَبُوكِ أَمُورِي وَأُمُّكِ حِثِّيَّةٌ. ٤أَمَّا مِيلاَدُكِ يوْمَ وُلِدْتِ فَلَمْ تُقْطَعْ سُرَّتُكِ، وَلَمْ تُغْسَلِي بِالْمَاءِ لِلتَّنَظُّفِ، وَلَمْ تُمَلَّحِي تَمْلِيحًا، وَلَمْ تُقَمَّطِي تَقْمِيطًا. ٥لَمْ تَشْفُقْ عَلَيكِ عَينٌ لِتَصْنَعَ لَكِ وَاحِدَةً مِنْ هذِهِ لِتَرِقَّ لَكِ، بَلْ طُرِحْتِ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ بِكَرَاهَةِ نَفْسِكِ يوْمَ وُلِدْتِ. ٦فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيتُكِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ، فَقُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِي، قُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِي. ٧جَعَلْتُكِ رَبْوَةً كَنَبَاتِ الْحَقْلِ، فَرَبَوْتِ وَكَبُرْتِ، وَبَلَغْتِ زِينَةَ الأَزْيانِ. نَهَدَ ثَدْياكِ، وَنَبَتَ شَعْرُكِ وَقَدْ كُنْتِ عُرْيانَةً وَعَارِيةً. ٨فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيتُكِ، وَإِذَا زَمَنُكِ زَمَنُ الْحُبِّ. فَبَسَطْتُ ذَيلِي عَلَيكِ وَسَتَرْتُ عَوْرَتَكِ، وَحَلَفْتُ لَكِ، وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِي عَهْدٍ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِي. ٩فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ، وَغَسَلْتُ عَنْكِ دِمَاءَكِ، وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيتِ، ١٠وَأَلْبَسْتُكِ مُطَرَّزَةً، وَنَعَلْتُكِ بِالتُّخَسِ، وَأَزَّرْتُكِ بِالْكَتَّانِ، وَكَسَوْتُكِ بَزًّا، ١١وَحَلَّيتُكِ بِالْحُلِي، فَوَضَعْتُ أَسْوِرَةً فِي يدَيكِ وَطَوْقًا فِي عُنُقِكِ. ١٢وَوَضَعْتُ خِزَامَةً فِي أَنْفِكِ وَأَقْرَاطًا فِي أُذُنَيكِ وَتَاجَ جَمَالٍ عَلَى رَأْسِكِ. ١٣فَتَحَلَّيتِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلِبَاسُكِ الْكَتَّانُ وَالْبَزُّ وَالْمُطَرَّزُ. وَأَكَلْتِ السَّمِيذَ وَالْعَسَلَ وَالزَّيتَ، وَجَمُلْتِ جِدًّا جِدًّا، فَصَلُحْتِ لِمَمْلَكَةٍ. ١٤وَخَرَجَ لَكِ اسْمٌ فِي الأُمَمِ لِجَمَالِكِ، لأَنَّهُ كَانَ كَامِلاً بِبَهَائِي الَّذِي جَعَلْتُهُ عَلَيكِ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ.

١٥«فَاتَّكَلْتِ عَلَى جَمَالِكِ، وَزَنَيتِ عَلَى اسْمِكِ، وَسَكَبْتِ زِنَاكِ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ فَكَانَ لَهُ. ١٦وَأَخَذْتِ مِنْ ثِيابِكِ وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَاتٍ مُوَشَّاةٍ، وَزَنَيتِ عَلَيهَا. أَمْرٌ لَمْ يأْتِ وَلَمْ يكُنْ. ١٧وَأَخَذْتِ أَمْتِعَةَ زِينَتِكِ مِنْ ذَهَبِي وَمِنْ فِضَّتِي الَّتِي أَعْطَيتُكِ، وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ صُوَرَ ذُكُورٍ وَزَنَيتِ بِهَا. ١٨وَأَخَذْتِ ثِيابَكِ الْمُطَرَّزَةَ وَغَطَّيتِهَا بِهَا، وَوَضَعْتِ أَمَامَهَا زَيتِي وَبَخُورِي. ١٩وَخُبْزِي الَّذِي أَعْطَيتُكِ، السَّمِيذَ وَالزَّيتَ وَالعَسَلَ الَّذِي أَطْعَمْتُكِ، وَضَعْتِهَا أَمَامَهَا رَائِحَةَ سُرُورٍ. وَهكَذَا كَانَ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ. ٢٠«أَخَذْتِ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ الَّذِينَ وَلَدْتِهِمْ لِي، وَذَبَحْتِهِمْ لَهَا طَعَامًا. أَهُوَ قَلِيلٌ مِنْ زِنَاكِ ٢١أَنَّكِ ذَبَحْتِ بَنِي وَجَعَلْتِهِمْ يجُوزُونَ فِي النَّارِ لَهَا؟ ٢٢وَفِي كُلِّ رَجَاسَاتِكِ وَزِنَاكِ لَمْ تَذْكُرِي أَيامَ صِبَاكِ، إِذْ كُنْتِ عُرْيانَةً وَعَارِيةً وَكُنْتِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ. ٢٣وَكَانَ بَعْدَ كُلِّ شَرِّكِ. وَيلٌ، وَيلٌ لَكِ! يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، ٢٤أَنَّكِ بَنَيتِ لِنَفْسِكِ قُبَّةً وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَةً فِي كُلِّ شَارِعٍ. ٢٥فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيتِ مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيكِ لِكُلِّ عَابِرٍ وَأَكْثَرْتِ زِنَاكِ. ٢٦وَزَنَيتِ مَعَ جِيرَانِكِ بَنِي مِصْرَ الْغِلاَظِ اللَّحْمِ، وَزِدْتِ فِي زِنَاكِ لإِغَاظَتِي.

٢٧«فَهأَنَذَا قَدْ مَدَدْتُ يدِى عَلَيكِ، وَمَنَعْتُ عَنْكِ فَرِيضَتَكِ، وَأَسْلَمْتُكِ لِمَرَامِ مُبْغِضَاتِكِ، بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيينَ، اللَّوَاتِى يخْجَلْنَ مِنْ طَرِيقِكِ الرَّذِيلَةِ. ٢٨وَزَنَيتِ مَعَ بَنِى أَشُّورَ، إِذْ كُنْتِ لَمْ تَشْبَعِى فَزَنَيتِ بِهِمْ، وَلَمْ تَشْبَعِى أَيضًا. ٢٩وَكَثَّرْتِ زِنَاكِ فِى أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيينَ، وَبِهذَا أَيضًا لَمْ تَشْبَعِى. ٣٠مَا أَمْرَضَ قَلْبَكِ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتِ كُلَّ هذَا فِعْلَ امْرَأَةٍ زَانِيةٍ سَلِيطَةٍ، ٣١بِبِنَائِكِ قُبَّتَكِ فِى رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ، وَصُنْعِكِ مُرْتَفَعَتَكِ فِى كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِى كَزَانِيةٍ، بَلْ مُحْتَقَرَةً الأُجْرَةَ. ٣٢أَيتُهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ، تَأْخُذُ أَجْنَبِيينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. ٣٣لِكُلِّ الزَّوَانِى يعْطُونَ هَدِيةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ هَدَاياكِ، وَرَشَيتِهِمْ لِيأْتُوكِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزِّنَا بِكِ. ٣٤وَصَارَ فِيكِ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِى زِنَاكِ، إِذْ لَمْ يزْنَ وَرَاءَكِ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلاَ أُجْرَةَ تُعْطَى لَكِ، فَصِرْتِ بِالْعَكْسِ.

٣٥«فَلِذلِكَ يا زَانِيةُ اسْمَعِى كَلاَمَ الرَّبِّ: ٣٦هكَذَا قَالَ السَّيدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أُنْفِقَ نُحَاسُكِ وَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُكِ بِزِنَاكِ بِمُحِبِّيكِ وَبِكُلِّ أَصْنَامِ رَجَاسَاتِكِ، وَلِدِمَاءِ بَنِيكِ الَّذِينَ بَذَلْتِهِمْ لَهَا، ٣٧لِذلِكَ هأَنَذَا أَجْمَعُ جَمِيعَ مُحِبِّيكِ الَّذِينَ لَذَذْتِ لَهُمْ، وَكُلَّ الَّذِينَ أَحْبَبْتِهِمْ مَعَ كُلِّ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، فَأَجْمَعُهُمْ عَلَيكِ مِنْ حَوْلِكِ، وَأَكْشِفُ عَوْرَتَكِ لَهُمْ لِينْظُرُوا كُلَّ عَوْرَتِكِ. ٣٨وَأَحْكُمُ عَلَيكِ أَحْكَامَ الْفَاسِقَاتِ السَّافِكَاتِ الدَّمِ، وَأَجْعَلُكِ دَمَ السَّخْطِ وَالْغَيرَةِ. ٣٩وَأُسَلِّمُكِ لِيدِهِمْ فَيهْدِمُونَ قُبَّتَكِ وَيهَدِّمُونَ مُرْتَفَعَاتِكِ، وَينْزِعُونَ عَنْكِ ثِيابَكِ، وَيأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكِ، وَيتْرُكُونَكِ عُرْيانَةً وَعَارِيةً. ٤٠وَيصْعِدُونَ عَلَيكِ جَمَاعَةً، وَيرْجُمُونَكِ بِالْحِجَارَةِ وَيقْطَعُونَكِ بِسُيوفِهِمْ، ٤١وَيحْرِقُونَ بُيوتَكِ بِالنَّارِ، وَيجْرُونَ عَلَيكِ أَحْكَامًا قُدَّامَ عُيونِ نِسَاءٍ كَثِيرَةٍ. وَأَكُفُّكِ عَنِ الزِّنَا، وَأَيضًا لاَ تُعْطِينَ أُجْرَةً بَعْدُ. ٤٢وَأُحِلُّ غَضَبِى بِكِ فَتَنْصَرِفُ غَيرَتِى عَنْكِ، فَأَسْكُنُ وَلاَ أَغْضَبُ بَعْدُ. ٤٣مِنْ أَجْلِ أَنَّكِ لَمْ تَذْكُرِى أَيامَ صِبَاكِ، بَلْ أَسْخَطْتِنِى فِى كُلِّ هذِهِ، فَهأَنَذَا أَيضًا أَجْلِبُ طَرِيقَكِ عَلَى رَأْسِكِ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، فَلاَ تَفْعَلِينَ هذِهِ الرَّذِيلَةَ فَوْقَ رَجَاسَاتِكِ كُلِّهَا.

٤٤«هُوَذَا كُلُّ ضَارِبِ مَثَل يضْرِبُ مَثَلًا عَلَيكِ قَائِلًا: مِثْلُ الأُمِّ بِنْتُهَا. ٤٥اِبْنَةُ أُمِّكِ أَنْتِ، الْكَارِهَةُ زَوْجَهَا وَبَنِيهَا. وَأَنْتِ أُخْتُ أَخَوَاتِكِ اللَّوَاتِى كَرِهْنَ أَزْوَاجَهُنَّ وَأَبْنَاءَهُنَّ. أُمُّكُنَّ حِثِّيةٌ وَأَبُوكُنَّ أَمُورِى. ٤٦وَأُخْتُكِ الْكُبْرَى السَّامِرَةُ هِى وَبَنَاتُهَا السَّاكِنَةُ عَنْ شِمَالِكِ، وَأُخْتُكِ الصُّغْرَى السَّاكِنَةُ عَنْ يمِينِكِ هِى سَدُومُ وَبَنَاتُهَا. ٤٧وَلاَ فِى طَرِيقِهِنَّ سَلَكْتِ، وَلاَ مِثْلَ رَجَاسَاتِهِنَّ فَعَلْتِ، كَأَنَّ ذلِكَ قَلِيلٌ فَقَطْ، فَفَسَدْتِ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ فِى كُلِّ طُرُقِكِ. ٤٨حَى أَنَا، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، إِنَّ سَدُومَ أُخْتَكِ لَمْ تَفْعَلْ هِى وَلاَ بَنَاتُهَا كَمَا فَعَلْتِ أَنْتِ وَبَنَاتُكِ. ٤٩هذَا كَانَ إِثْمَ أُخْتِكِ سَدُومَ: الْكِبْرِياءُ وَالشَّبَعُ مِنَ الْخُبْزِ وَسَلاَمُ الاطْمِئْنَانِ كَانَ لَهَا وَلِبَنَاتِهَا، وَلَمْ تُشَدِّدْ يدَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ، ٥٠وَتَكَبَّرْنَ وَعَمِلْنَ الرِّجْسَ أَمَامِى فَنَزَعْتُهُنَّ كَمَا رَأَيتُ. ٥١وَلَمْ

تُخْطِئِ السَّامِرَةُ نِصْفَ خَطَايَاكِ. بَلْ زِدْتِ رَجَاسَاتِكِ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ، وَبَرَّرْتِ أَخَوَاتِكِ بِكُلِّ رَجَاسَاتِكِ الَّتِي فَعَلْتِ. ٥٢فَاحْمِلِي أَيْضًا خِزْيَكِ، أَنْتِ الْقَاضِيَةُ عَلَى أَخَوَاتِكِ، بِخَطَايَاكِ الَّتِي بِهَا رَجَسْتِ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ. هُنَّ أَبَرُّ مِنْكِ، فَاخْجَلِي أَنْتِ أَيْضًا، وَاحْمِلِي عَارَكِ بِتَبْرِيرِكِ أَخَوَاتِكِ. ٥٣وَأُرَجِّعُ سَبْيَهُنَّ، سَبْيَ سَدُومَ وَبَنَاتِهَا، وَسَبْيَ السَّامِرَةِ وَبَنَاتِهَا، وَسَبْيَ مَسْبِيِّيكِ فِي وَسْطِهَا، ٥٤لِكَيْ تَحْمِلِي عَارَكِ وَتَخْزَيْ مِنْ كُلِّ مَا فَعَلْتِ بِتَعْزِيَتِكِ إِيَّاهُنَّ. ٥٥وَأَخَوَاتُكِ سَدُومُ وَبَنَاتُهَا يَرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِهِنَّ الْقَدِيمَةِ، وَالسَّامِرَةُ وَبَنَاتُهَا يَرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِهِنَّ الْقَدِيمَةِ، وَأَنْتِ وَبَنَاتُكِ تَرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِكُنَّ الْقَدِيمَةِ. ٥٦وَأُخْتُكِ سَدُومُ لَمْ تَكُنْ تُذْكَرُ فِي فَمِكِ يَوْمَ كِبْرِيَائِكِ، ٥٧قَبْلَ مَا انْكَشَفَ شَرُّكِ، كَمَا فِي زَمَانِ تَعْيِيرِ بَنَاتِ أَرَامَ وَكُلِّ مَنْ حَوْلَهَا، بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ اللَّوَاتِي يَحْتَقِرْنَكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ. ٥٨رَذِيلَتُكِ وَرَجَاسَاتُكِ أَنْتِ تَحْمِلِينَهَا، يَقُولُ الرَّبُّ.

٥٩« لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: إِنِّي أَفْعَلُ بِكِ كَمَا فَعَلْتِ، إِذِ ازْدَرَيْتِ بِالْقَسَمِ لِنَكْثِ الْعَهْدِ. ٦٠وَلكِنِّي أَذْكُرُ عَهْدِي مَعَكِ فِي أَيَّامِ صِبَاكِ، وَأُقِيمُ لَكِ عَهْدًا أَبَدِيًّا. ٦١فَتَتَذَكَّرِينَ طُرُقَكِ وَتَخْجَلِينَ إِذْ تَقْبَلِينَ أَخَوَاتِكِ الْكِبَرَ وَالصِّغَرَ، وَأَجْعَلُهُنَّ لَكِ بَنَاتٍ، وَلكِنْ لاَ بِعَهْدِكِ. ٦٢وَأَنَا أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكِ، فَتَعْلَمِينَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ، ٦٣لِكَيْ تَتَذَكَّرِي فَتَخْزَيْ وَلاَ تَفْتَحِي فَاكِ بَعْدُ بِسَبَبِ خِزْيِكِ، حِينَ أَغْفِرُ لَكِ كُلَّ مَا فَعَلْتِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ» ".

فالكتاب المقدس هو أول كتاب وأكثره معاداة للسامية ما دام شتم اليهود دليلا على تلك المعاداة. على أن العهد القديم لا يكتفى بهذا الشتم المقذع بل يصور أنبياء بنى إسرائيل الكبار قتلة وزناة ومتآمرين ومناصرين للوثنية فى قلب بيوتهم. فهل هناك معاداة للسامية أشد من هذا؟ ولقد شارك النبى يحيى عليه السلام فى هذا الأمر بعبارات يعرفها القاصى والدانى كما فى النص التالى من "إنجيل متى": "١وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ يَكْرِزُ فِي بَرِّيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ ٢قَائِلًا: «تُوبُوا، لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. ٣فَإِنَّ هذَا هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً». ٤وَيُوحَنَّا هذَا كَانَ لِبَاسُهُ مِنْ وَبَرِ الإِبِلِ، وَعَلَى حَقْوَيْهِ مِنْطَقَةٌ مِنْ جِلْدٍ. وَكَانَ طَعَامُهُ جَرَادًا وَعَسَلًا بَرِّيًّا. ٥حِينَئِذٍ خَرَجَ إِلَيْهِ أُورُشَلِيمُ وَكُلُّ الْيَهُودِيَّةِ وَجَمِيعُ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالأُرْدُنِّ، ٦وَاعْتَمَدُوا مِنْهُ فِي الأُرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُمْ.

٧فَلَمَّا رَأَى كَثِيرِينَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ يَأْتُونَ إِلَى مَعْمُودِيَّتِهِ، قَالَ لَهُمْ: «يَاأَوْلاَدَ الأَفَاعِي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي؟ ٨فَاصْنَعُوا أَثْمَارًا تَلِيقُ بِالتَّوْبَةِ. ٩وَلاَ تَفْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبًا. لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلاَدًا لإِبْرَاهِيمَ. ١٠وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ

الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. ١١أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلكِنِ الَّذِى يأْتِى بَعْدِى هُوَ أَقْوَى مِنِّى، الَّذِى لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. ١٢الَّذِى رَفْشُهُ فِى يدِهِ، وَسَينَقِّى بَيدَرَهُ، وَيجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ، وَأَمَّا التِّبْنُ فَيحْرِقُهُ بِنَارٍ لاَ تُطْفَأُ» ".

وكذلك فعل السيد المسيح إذ وصفهم بما وصفهم به فى النص التالى، وهو من "متى" أيضا: "٢٢حِينَئِذٍ أُحْضِرَ إِلَيهِ مَجْنُونٌ أَعْمَى وَأَخْرَسُ فَشَفَاهُ، حَتَّى إِنَّ الأَعْمَى الأَخْرَسَ تَكَلَّمَ وَأَبْصَرَ. ٢٣فَبُهِتَ كُلُّ الْجُمُوعِ وَقَالُوا:«أَلَعَلَّ هذَا هُوَ ابْنُ دَاوُدَ؟» ٢٤أَمَّا الْفَرِّيسِيونَ فَلَمَّا سَمِعُوا قَالُوا:«هذَا لاَ يخْرِجُ الشَّياطِينَ إِلاَّ بِبَعْلَزَبولَ رَئِيسِ الشَّياطِينِ». ٢٥فَعَلِمَ يسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «كُلُّ مَمْلَكَةٍ مُنْقَسِمَةٍ عَلَى ذَاتِهَا تُخْرَبُ، وَكُلُّ مَدِينَةٍ أَوْ بَيتٍ مُنْقَسِمٍ عَلَى ذَاتِهِ لاَ يثْبُتُ. ٢٦فَإِنْ كَانَ الشَّيطَانُ يخْرِجُ الشَّيطَانَ فَقَدِ انْقَسَمَ عَلَى ذَاتِهِ. فَكَيفَ تَثْبُتُ مَمْلَكَتُهُ؟ ٢٧وَإِنْ كُنْتُ أَنَا بِبَعْلَزَبُولَ أُخْرِجُ الشَّياطِينَ، فَأَبْنَاؤُكُمْ بِمَنْ يخْرِجُونَ؟ لِذلِكَ هُمْ يكُونُونَ قُضَاتَكُمْ! ٢٨وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ أَنَا بِرُوحِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّياطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ! ٢٩أَمْ كَيفَ يسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يدْخُلَ بَيتَ الْقَوِى وَينْهَبَ أَمْتِعَتَهُ، إِنْ لَمْ يرْبِطِ الْقَوِى أَوَّلاً، وَحِينَئِذٍ ينْهَبُ بَيتَهُ؟ ٣٠مَنْ لَيسَ مَعِى فَهُوَ عَلَى، وَمَنْ لاَ يجْمَعُ مَعِى فَهُوَ يفَرِّقُ. ٣١لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ خَطِيةٍ وَتَجْدِيفٍ يغْفَرُ لِلنَّاسِ، وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يغْفَرَ لِلنَّاسِ. ٣٢وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ يغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يغْفَرَ لَهُ، لاَ فِى هذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِى الآتِى. ٣٣اِجْعَلُوا الشَّجَرَةَ جَيدَةً وَثَمَرَهَا جَيدًا، أَوِ اجْعَلُوا الشَّجَرَةَ رَدِيةً وَثَمَرَهَا رَدِيا، لأَنْ مِنَ الثَّمَرِ تُعْرَفُ الشَّجَرَةُ. ٣٤يا أَوْلاَدَ الأَفَاعِى! كَيفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا بِالصَّالِحَاتِ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ؟ فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يتَكَلَّمُ الْفَمُ. ٣٥اَلإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنَ الْكَنْزِ الصَّالِحِ فِى الْقَلْبِ يخْرِجُ الصَّالِحَاتِ، وَالإِنْسَانُ الشِّرِّيرُ مِنَ الْكَنْزِ الشِّرِّيرِ يخْرِجُ الشُّرُورَ. ٣٦وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ بَطَّالَةٍ يتَكَلَّمُ بِهَا النَّاسُ سَوْفَ يعْطُونَ عَنْهَا حِسَابًا يوْمَ الدِّينِ. ٣٧لأَنَّكَ بِكَلاَمِكَ تَتَبَرَّرُ وَبِكَلاَمِكَ تُدَانُ».

٣٨حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيينَ قَائِلِينَ:«يا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيةً». ٣٩فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ:«جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يطْلُبُ آيةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيةٌ إِلاَّ آيةَ يونَانَ النَّبِى. ٤٠لأَنَّهُ كَمَا كَانَ يونَانُ فِى بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيامٍ وَثَلاَثَ لَيالٍ، هكَذَا يكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ فِى قَلْبِ الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيامٍ وَثَلاَثَ لَيالٍ. ٤١رِجَالُ نِينَوَى سَيقُومُونَ فِى الدِّينِ مَعَ هذَا الْجِيلِ وَيدِينُونَهُ، لأَنَّهُمْ تَابُوا بِمُنَادَاةِ يونَانَ، وَهُوَذَا أَعْظَمُ مِنْ يونَانَ ههُنَا! ٤٢مَلِكَةُ التَّيمَنِ سَتَقُومُ فِى الدِّينِ مَعَ هذَا الْجِيلِ وَتَدِينُهُ، لأَنَّهَا أَتَتْ مِنْ أَقَاصِى الأَرْضِ لِتَسْمَعَ

حِكْمَةَ سُلَيمَانَ، وَهُوَذَا أَعْظَمُ مِنْ سُلَيمَانَ ههُنَا! ٤٣إِذَا خَرَجَ الرُّوحُ النَّجِسُ مِنَ الإِنْسَانِ يَجْتَازُ فِي أَمَاكِنَ لَيسَ فِيهَا مَاءٌ، يطْلُبُ رَاحَةً وَلاَ يَجِدُ. ٤٤ثُمَّ يقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى بَيتِى الَّذِى خَرَجْتُ مِنْهُ. فَيأْتِى وَيجِدُهُ فَارِغًا مَكْنُوسًا مُزَينًا. ٤٥ثُمَّ يذْهَبُ وَيأْخُذُ مَعَهُ سَبْعَةَ أَرْوَاحٍ أُخَرَ أَشَرَّ مِنْهُ، فَتَدْخُلُ وَتَسْكُنُ هُنَاكَ، فَتَصِيرُ أَوَاخِرُ ذلِكَ الإِنْسَانِ أَشَرَّ مِنْ أَوَائِلِهِ! هكَذَا يكُونُ أَيضًا لِهذَا الْجِيلِ الشِّرِّيرِ»".

ومن "متى" كذلك: "١حِينَئِذٍ جَاءَ إِلَى يسُوعَ كَتَبَةٌ وَفَرِّيسِيونَ الَّذِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: ٢«لِمَاذَا يتَعَدَّى تَلاَمِيذُكَ تَقْلِيدَ الشُّيوخِ، فَإِنَّهُمْ لاَ يغْسِلُونَ أَيدِيهُمْ حِينَمَا يأْكُلُونَ خُبْزًا؟» ٣فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ:«وَأَنْتُمْ أَيضًا، لِمَاذَا تَتَعَدَّوْنَ وَصِيةَ اللهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ؟ ٤فَإِنَّ اللهَ أَوْصَى قَائِلًا: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَمَنْ يشْتِمْ أَبًا أَوْ أُمًّا فَلْيمُتْ مَوْتًا. ٥وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: مَنْ قَالَ لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ هُوَ الَّذِى تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّى. فَلاَ يكْرِمُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ. ٦فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيةَ اللهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ! ٧يا مُرَاؤُونَ! حَسَنًا تَنَبَّأَ عَنْكُمْ إِشَعْياءُ قَائِلًا: ٨يقْتَرِبُ إِلَى هذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيكْرِمُنى بِشَفَتَيهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّى بَعِيدًا. ٩وَبَاطِلًا يعْبُدُونَنِى وَهُمْ يعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِى وَصَايا النَّاسِ».

١٠ثُمَّ دَعَا الْجَمْعَ وَقَالَ لَهُمْ:«اسْمَعُوا وَافْهَمُوا. ١١لَيسَ مَا يدْخُلُ الْفَمَ ينَجِّسُ الإِنْسَانَ، بَلْ مَا يخْرُجُ مِنَ الْفَمِ هذَا ينَجِّسُ الإِنْسَانَ». ١٢حِينَئِذٍ تَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَقَالُوا لَهُ: «أَتَعْلَمُ أَنَّ الْفَرِّيسِيينَ لَمَّا سَمِعُوا الْقَوْلَ نَفَرُوا؟» ١٣فَأَجَابَ وَقَالَ:«كُلُّ غَرْسٍ لَمْ يغْرِسْهُ أَبِى السَّمَاوِى يقْلَعُ. ١٤اُتْرُكُوهُمْ. هُمْ عُمْيانٌ قَادَةُ عُمْيانٍ. وَإِنْ كَانَ أَعْمَى يقُودُ أَعْمَى يسْقُطَانِ كِلاَهُمَا فِى حُفْرَةٍ». ١٥فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: «فَسِّرْ لَنَا هذَا الْمَثَلَ». ١٦فَقَالَ يسُوعُ:«هَلْ أَنْتُمْ أَيضًا حَتَّى الآنَ غَيرُ فَاهِمِينَ؟ ١٧أَلاَ تَفْهَمُونَ بَعْدُ أَنَّ كُلَّ مَا يدْخُلُ الْفَمَ يمْضِى إِلَى الْجَوْفِ وَينْدَفِعُ إِلَى الْمَخْرَجِ؟ ١٨وَأَمَّا مَا يخْرُجُ مِنَ الْفَمِ فَمِنَ الْقَلْبِ يصْدُرُ، وَذَاكَ ينَجِّسُ الإِنْسَانَ، ١٩لأَنْ مِنَ الْقَلْبِ تَخْرُجُ أَفْكَارٌ شِرِّيرَةٌ: قَتْلٌ، زِنىً، فِسْقٌ، سِرْقَةٌ، شَهَادَةُ زُورٍ، تَجْدِيفٌ. ٢٠هذِهِ هِى الَّتِى تُنَجِّسُ الإِنْسَانَ. وَأَمَّا الأَكْلُ بِأَيدٍ غَيرِ مَغْسُولَةٍ فَلاَ ينَجِّسُ الإِنْسَانَ»".

ولنستمع إلى هذا أيضا: "١حِينَئِذٍ خَاطَبَ يسُوعُ الْجُمُوعَ وَتَلاَمِيذَهُ ٢قَائِلًا:«عَلَى كُرْسِى مُوسَى جَلَسَ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيونَ، ٣فَكُلُّ مَا قَالُوا لَكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ فَاحْفَظُوهُ وَافْعَلُوهُ، وَلكِنْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ لاَ تَعْمَلُوا، لأَنَّهُمْ يقُولُونَ وَلاَ يفْعَلُونَ. ٤فَإِنَّهُمْ يحْزِمُونَ أَحْمَالًا ثَقِيلَةً عَسِرَةَ الْحَمْلِ وَيضَعُونَهَا عَلَى أَكْتَافِ النَّاسِ، وَهُمْ لاَ يرِيدُونَ أَنْ يحَرِّكُوهَا بِإِصْبِعِهِمْ، ٥وَكُلَّ أَعْمَالِهِمْ يعْمَلُونَهَا لِكَى تَنْظُرَهُمُ النَّاسُ: فَيعَرِّضُونَ عَصَائِبَهُمْ وَيعَظِّمُونَ أَهْدَابَ ثِيابِهِمْ، ٦وَيحِبُّونَ الْمُتَّكَأَ الأَوَّلَ فِى الْوَلاَئِمِ، وَالْمَجَالِسَ الأُولَى فِى الْمَجَامِعِ، ٧وَالتَّحِياتِ فِى الأَسْوَاقِ، وَأَنْ يدْعُوَهُمُ النَّاسُ: سَيدِى سَيدِى! ٨وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تُدْعَوْا سَيدِى، لأَنَّ

مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ، وَأَنْتُمْ جَمِيعًا إِخْوَةٌ. ٩ولاَ تَدْعُوا لَكُمْ أَبًا عَلَى الأَرْضِ، لأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ١٠ولاَ تُدْعَوْا مُعَلِّمِينَ، لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ. ١١وَأَكْبَرُكُمْ يَكُونُ خَادِمًا لَكُمْ. ١٢فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ.

١٣«لكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُغْلِقُونَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ قُدَّامَ النَّاسِ، فَلاَ تَدْخُلُونَ أَنْتُمْ وَلاَ تَدَعُونَ الدَّاخِلِينَ يَدْخُلُونَ. ١٤وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تَأْكُلُونَ بُيُوتَ الأَرَامِلِ، ولِعِلَّةٍ تُطِيلُونَ صَلَوَاتِكُمْ. لِذلِكَ تَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ. ١٥وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تَطُوفُونَ الْبَحْرَ وَالْبَرَّ لِتَكْسَبُوا دَخِيلاً وَاحِدًا، وَمَتَى حَصَلَ تَصْنَعُونَهُ ابْنًا لِجَهَنَّمَ أَكْثَرَ مِنْكُمْ مُضَاعَفًا. ١٦وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمْيَانُ! الْقَائِلُونَ: مَنْ حَلَفَ بِالْهَيْكَلِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ، وَلكِنْ مَنْ حَلَفَ بِذَهَبِ الْهَيْكَلِ يَلْتَزِمُ. ١٧أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ! أَيُّمَا أَعْظَمُ: أَلذَّهَبُ أَمِ الْهَيْكَلُ الَّذِي يُقَدِّسُ الذَّهَبَ؟ ١٨وَمَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ، وَلكِنْ مَنْ حَلَفَ بِالْقُرْبَانِ الَّذِي عَلَيْهِ يَلْتَزِمُ. ١٩أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ! أَيُّمَا أَعْظَمُ: أَلْقُرْبَانُ أَمِ الْمَذْبَحُ الَّذِي يُقَدِّسُ الْقُرْبَانَ؟ ٢٠فَإِنَّ مَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِكُلِّ مَا عَلَيْهِ! ٢١وَمَنْ حَلَفَ بِالْهَيْكَلِ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِالسَّاكِنِ فِيهِ، ٢٢وَمَنْ حَلَفَ بِالسَّمَاءِ فَقَدْ حَلَفَ بِعَرْشِ اللهِ وَبِالْجَالِسِ عَلَيْهِ. ٢٣وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُعَشِّرُونَ النَّعْنَعَ وَالشِّبِثَّ وَالْكَمُّونَ، وَتَرَكْتُمْ أَثْقَلَ النَّامُوسِ: الْحَقَّ وَالرَّحْمَةَ وَالإِيمَانَ. كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَعْمَلُوا هذِهِ وَلاَ تَتْرُكُوا تِلْكَ. ٢٤أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمْيَانُ! الَّذِينَ يُصَفُّونَ عَنِ الْبَعُوضَةِ وَيَبْلَعُونَ الْجَمَلَ. ٢٥وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُنَقُّونَ خَارِجَ الْكَأْسِ وَالصَّحْفَةِ، وَهُمَا مِنْ دَاخِل مَمْلُوآنِ اخْتِطَافًا وَدَعَارَةً. ٢٦أَيُّهَا الْفَرِّيسِيُّ الأَعْمَى! نَقِّ أَوَّلاً دَاخِلَ الْكَأْسِ وَالصَّحْفَةِ لِكَيْ يَكُونَ خَارِجُهُمَا".

ليس ذلك فقط بل نقرأ فى "Ginzburg's Legends of the Jews, Vol. 6, p.85" أن موسى قد مسخ بعض الذين اعتدوا فى السبت قردة، مسخهم فعلا، لا اعتباريا كما يقول معظم المفسرين المسلمين: "ONE Sabbath breaker was turned into an ape by Moses". وهذا هو النص كاملا من الكتاب المذكور:

"Legends of the Jews :Moses in the Wilderness [453-462] (which reads: They found Moses in the house of study; this is in agreement with Sifra), and Special. Leg., de Col. Par, 8, describes the ep- isode of the Sabbath breaker in a manner similar to that found in rabbinic sources. According to Tosefta Yebamot 1.10, and parallel passages in Babli and Yerushalmi, the high-priestly family of Caiafas (KS'p, "ape") hailed from Bet Mekoshesh, "the house of the stick- gatherer". In view of the legend — undoubtedly Jewish — found in Koran 2.60, that Moses transformed the Sabbath breakers into apes, one is inclined to trace some

connection between the Caiafas ("apes") and their place of origin, "the house of the stick-gatherer ", the W^pQ being the typical case of the Sabbath breaker. See note 790".

فما القول فى هذا؟ هل نقول إن موسى أو الربانيين الذين كتبوا هذا عنه كانوا معادين للسامية؟ وهل تجرؤ السيدة التل أبيبية أو السيدة كارلا باور على مهاجمتهم واتهامهم بتلك التهمة؟ كيف، وهم من بنى إسرائيل ومن كبار رجالهم؟ أم إن الإسلام هو الحائط المائل لكل من هب ودب؟ كذلك جاء فى التلمود أن المصريين، عندما كانوا يطاردون العبرانيين، قد مُسِخوا قردة وخنازير. فكيف سكتت السيدتان عن هذا الكلام فلم تقيما الدنيا وتقعداها باعتبار هذا القول معاداة للمصرية؟ وبالمناسبة فخلال كلام القرآن فى سورة "الأعراف" عن المعتدين فى السبت من أهل حاضرة البحر الذين كانوا يتحايلون على اصطياد السمك رغم حرمة ذلك اليوم، والذين أشار إليهم د. أكرم ندوى، لا نجد فى القرآن إلا قوله تعالى: "فقلنا لهم: كونوا قِرَدَةً خاسئين"، وهو ما يتقارب جدا مع قصة تصيير موسى لبعض المعتدين فى السبت قردة حتى لكأنها هى. وأيا ما يكن القول فى هذه القضية فقد نزلت هذه الآية فى المدينة، واليهود موجودون فيها وسمعوها لأول نزولها وسمعوا المسلمين يرددونها، فلم يفتحوا فمهم بكلمة. ولو كان ما قاله القرآن خطأ لما سكت يهود، الذين كانوا ينتهزون كل شاردة وواردة كى يسخروا من الإسلام وأتباعه دون أى حياء. فما معنى سكاتهم هذا؟ وبالمثل نقرأ فى الكتابات اليهودية قصة تقول إن ثلاثة من بناة برج بابل قد مُسِخوا قرودا: " There was a legend to the effect that of the three classes of men that built the Tower of Babel, one was turned into Apes (Sanh. 109a; compare Yalḳ., Gen. 62)". فكيف نقبل هذه، وندين تلك؟

الإسلام: دين جديد أم لا؟ ودين عدوانى أم لا؟

والآن إلى الفصل الثالث عشر: "Beyond Politics". وأول ما يقابلنا منه الحديث عن معنى "الإسلام" فى القرآن: أهو دين جديد؟ وهل المسلمون هم أتباعه المختصون به؟ أم إن الإسلام هو مجرد إسلام الوجه لله، والمسلم من يفعل ذلك؟ وتخبرنا المؤلفة أن أكرم ندوى وافقها على أن المقصود فى القرآن هو المعنى الثانى لا الأول. وقد لاحظتُ، عند دراستى للترجمة القرآنية التى قام بها محمد أسد، الصحفى النمساوى اليهودى الذى أعلن إسلامه فى عشرينات القرن الماضى فى السعودية أيام الملك عبد العزيز آل سعود، أنه يترجم هاتين الكلمتين بنفس المعنى الذى ترجمتها كارلا باور إليه ووافقها عليه د. ندوى. وإنى لأستغرب ذلك أشد الاستغراب لأن من شأن هذا الفهم الغريب المريب تمييع الأمور وتصيير الإسلام الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم شيئا هلاميا لا قيمة له ما دامت النجاة مضمونة لكل من يسلم وجهه لله، وما من إنسان حاشا الملحدين إلا وسيقول إنه يسلم أمره لله. أجل سيقول ذلك اليهودى والنصرانى والشنتوى والكونفوشيوسى ومن لا يؤمن بأى دين سماوى. بل سيقول ذلك عابد البقرة ذاته. أما أن يكون معنى الإسلام هو الدين الذى أتى به نبينا صلى الله عليه وسلم فهذا يستلزم الإيمان به عليه السلام والصلاة والزكاة والصيام والحج على النحو الذى كان صلى الله عليه وسلم يؤدى به هذه العبادات، فضلا عن الامتناع عن الزنا والخمر والربا والخنزير وغير ذلك من الموبقات، والتألم لما يصيب ذلك الدين من إساءات، والانتفاض للدفاع عنه كلما هدده مهدد... إلخ.

ولا أدرى كيف سارع د. ندوى إلى الموافقة على هذا التفسير العجيب. ترى لو كان الأمر كذلك فلِمَ يشترط القرآن الإيمان بمحمد عليه السلام، ويعد من يرفضه كافرا، ويوم القيامة له عذاب مهين كما جاء فى سورة "النساء"؟ ودعنا من الآيات الكثار التى تشدد على الإيمان به صلى الله عليه وسلم وتتوعد من يكذبه وينكر نبوته؟ ولم قامت الحروب عقب وفاته صلى الله عليه وسلم بين المسلمين وكثير من القبائل العربية التى أرادت أن يكون لها نبى من أفرادها أو أن تتحلل من الزكاة مثلا؟ هل قالوا إنهم لم يعودوا يسلمون أنفسهم لله؟ كلا. فما معنى محاربتهم إذن؟ وما معنى العمل على نشر الإسلام، الذى جاء به محمد منذ أول لحظة أعلن فيها نبوته مرورا بالرسائل التى بعث بها إلى الملوك من حوله يدعوهم إلى الدخول فى دينه، وانتهاء بغزوة تبوك، ثم الفتوح العالمية التى قام بها الصحابة بعده عليه الصلاة

والسلام؟ ولماذا يا ترى يعيش أكرم ندوى وأسرته على الطريقة الإسلامية التى حددها القرآن والسنة ولم يكتفوا بإسلام أنفسهم لله، وما أسهل ذلك الإسلام؟

ثم لماذا يقال عن الإسلام وحده هذا الكلام العجيب ولا يفكر أحد أن يقوله عن اليهودية أو النصرانية أو عبادة البقر مثلا؟ ترى هل يقبل اليهودى أن تقول له: دعك من اليهودية لأنها ليست دينا مستقلا متميزا، وتعال نسلم أنفسنا لله ونتخلى عن الإيمان بشعب الله المختار ونأكل الخنزير ولا نهتم بموسى وهارون أو ببيت المقدس مثلا والعودة إليها وطرد الفلسطينيين المساكين منها وقتل أطفالهم ونسائهم وأبطالهم ونسف بيوتهم على رؤوسهم وسرقة حقولهم وزيتونهم جراء هذا؟ وما الذى يشغل تلك الصحفية اليهودية فى هذا الموضوع وغيره من الموضوعات التى تفجرها بطول كتابها وعرضه مما يشكك فى كل شىء تقريبا استقر عليه الأمر فى ديننا؟ ترى، إن كانت تحب المسلمين وتعمل لمصلحتهم وتريد أن تعينهم على نيل حقوقهم، فلم لا تترك هذا الأمر، وهى ليست مؤهلة لتناوله ولا يمكنها أن تحسنه أبدا، وتعمل بدلا من هذا على فضح إسرائيل وأمريكا وتسلط الضوء على المظالم البشعة التى تحيق بالمسلمين، وبالفلسطينيين منهم على وجه الخصوص، على يد أهل وطنها فى أمريكا وأهل دينها فى تل أبيب، وهو الأمر الذى تحسنه أفضل من غيرها وسيكون لكلامها فيه وقع قوى على الغربيين؟ أما مواصلة الحفر حول كل جذور الإسلام وتحتها بغية اقتلاعها مع التظاهر بالرغبة فى تمتينها فنشكرها عليه ونلتمس منها الإقلاع عنه.

وأغرب من هذا كله، وهو كومٌ وحده، أنها تعزو ظهور "أسطورة" صراع الحضارات إلى الإيمان بأن الإسلام دين متميز له شخصيته المستقلة وجماعته المعروفة، وليس مجرد الاستسلام لله، وكأننا نحن الذين اخترعنا تلك الأسطورة لا هم، وكأننا أيضا نحن الذين نعتدى عليهم منذ قرون. إن المسلمين لم يعرفوا يوما "صراع الحضارات" على النحو الذى يعرفه الغرب بهدف استئصال الآخرين أو محو هويتهم وإلحاقهم به ذيولا وعبيدا حقراء. أجل لم يمح المسلمون أية أمة أو أى دين من على وجه البسيطة كما فعل الغربيون فى الأندلس وأمريكا وأستراليا وفلسطين. لقد فتح المسلمون البلاد ونشروا دينهم، لكن دون إكراه أو خداع، ودون أن يفكروا فى طمس أى دين غير دينهم أو محق أى شعب غير العرب. فانظر كيف تقلب كارلا باور الأمور وتتحدى المنطق والعقل وصولا إلى غايتها من التشكيك فى كل ثوابت الإسلام! أما منطقها العجيب الذى يسرى بين سطورها وتحت حروفها فهو أنه لو تخلى المسلمون عن هويتهم لتركهم الأمريكان فى حالهم ولم يفكروا فى مصارعة حضارتهم. وأنا معها فى أن

تلك سوف تكون النتيجة الحتمية لتخلينا عن هويتنا، إذ لن يكون لنا أوانئذ وجود ذو معنى أو قيمة، وسوف نتقبل الضرب بالأحذية على رؤوسنا ووجوهنا وأقفائنا دون تذمر أو شكوى بله الدفاع عن أنفسنا أو ديننا. وهذا، فيما يخيل لى بل فيما أرجح بل فيما أنا موقن منه، هو هدف كارلا باور من وراء كل تلك الخَوْتَة الكذابة التى تمارسها علينا على مدى كتابها كله. والملاحظ أن أكرم ندوى يتراجع عما كان يتمسك به من آراء عن الإسلام فى عدد غير قليل من الحالات، ويتبنى آراء تلك الصحفية.

وأغرب الغريب أنها توجه كل جهودها نحونا نحن ونحو تغيير معتقداتنا وأصول ديننا، وكأننا نحن المشكلة، رغم أننا المظلومون المضطهَدون المسروقون المعتدى عليهم المستنزَفة ثرواتهم، فى الوقت الذى تترك الأمريكان والأوربيين والإسرائيليين القتلة المجرمين فى حالهم ولا تحاول التعرض لهم فى شىء. لقد اصطنع الأمريكان اصطناعا أسطورة "صراع الحضارات" كى يبقوا على مجتمعهم متحفزا مشتعلا بالبغضاء والكراهية بعدما أسقطوا الشيوعية، فلم يجدوا ما يوجهون نحوه رصاص حقدهم وغلهم سوى الإسلام. لكن كارلا باور تتجاهل هذا كله وتنصحنا بالتخلى عن شخصية ديننا والاندماج فى الغرب دون تذمر أو سخط، والإكباب على أحذية الأمريكان نلعقها فوق البيعة!

أجل لقد استخدم القرآن المجيد مرارا فى الحديث عن منهج الرسل جميعا كلمة "الإسلام"، إلا أن هذا هو أحد استعماليها فقط، وهو الاستعمال العام، وسببه أن منهجهم جميعا، عليهم صلوات الله وسلامه، واحد رغم اختلاف شرائعهم فى بعض تفاصيلها، أما المعنى الاصطلاحى لهذه الكلمة فى القرآن وفى الحديث فهو دين محمد. ونبدأ بالحديث النبوى فنسوق هذه النصوص المشهورة: "بُنِىَ الإسلام على خمس: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله..."، "المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده"، "المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يسْلِمه ولا يخذله"، "المسلم على المسلم حرام"، "المسلمون على شروطهم"، "المسلمون تتكافأ دماؤهم". أما بالنسبة للقرآن الكريم فإن "الإسلام" فى قوله جل جلاله فى الآية ١٧ من سورة "الحجرات": "يمُنّون عليك أن أَسْلَموا. قل: لا تَمُنّوا علىَّ إسلامكم، بل الله يمُنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين" لا يمكن إلا أن يكون الدين الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم.

ومثل ذلك قوله جل شأنه: "ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقْبَل منه، وهو فى الآخرة من الخاسرين"، الذى أتى عقب قوله مخاطبا رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام: "قل: آمنّا بالله وما أُنزِل علينا وما أُنْزِل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتِىَ موسى وعيسى والنبيون

من ربهم، لا نفرِّق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون" مما يدل على أن "الإسلام" فى الآية هو دين محمد، وإلا لكانت محاجته لأهل الكتاب لا معنى لها، إذ لو كان "الإسلام" هنا مستعملا بمعناه العام لكان جوابهم: "ونحن أيضا مسلمون مثلك سواء بسواء". وبمستطاعنا أن نستشهد بالآيات التالية أيضا: "اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورَضِيتُ لكم الإسلام دينا"، "أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه؟"، "ومن أظلم من افترى على الله الكذب وهو يدْعَى إلى الإسلام؟"، "فمن يرِدِ الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام"، "رُبَما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين"، "إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات... أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما". وفوق ذلك فحين هاجر النبى وأتباعه إلى يثرب وكتب الصحيفة التى تنظم العلاقة بين طوائف المدينة المنورة نراه يسمى أتباعه: "المسلمين" بينما يسمى اليهود بـ"اليهود" ولا يقول عن الفريقين إنهما كلاهما مسلم!

وأغرب من ذلك أن د. ندوى يدعو المسلمين إلى الصمت على إهانة القرآن والرسول كما هو الحال فى رواية سلمان رشدى والرسوم الكاريكاتورية الدانماركية وغض الطرف عن ذلك والاكتفاء بالدعاء لمهينى ديننا العظيم ونبينا الكريم بالهداية مع عدم التظاهر ضدهم أو ضد إجرامهم. وحجته أن القرآن يخلو من الدعوة إلى التظاهر. وهذه حجة ظريفة جدا، فالقرآن أيضا يخلو من الحديث مثلا عن السيمنارات التى يعقدها لطلابه. ترى هل هناك كلام فى كتاب الله عن السيمنار؟ بل هل توجد فيه تلك الكلمة أصلا؟ فهل نؤثِّم الرجل لأنه يفعل شيئا لم يذكره القرآن؟ ولكن ماذا يقول يا ترى عن أشعار حسان مثلا التى كان يدافع بها عن الرسول ضد محاولات المشركين واليهود إهانته والنيل منه صلى الله عليه وسلم؟ أَوَطَلَبَ الرسولُ من حسان وغيره من شعراء المسلمين أن يكفوا ألسنتهم وأقلامهم عن المعتدين ويكتفوا بالدعاء لهم كما تصنع أية "ولية ساعةَ مغربية"؟ ألم ينطلق بعض المسلمين لمعاقبة المجرمين الذين كانوا يهينون المسلمين ونبيهم وأعراضهم ممن لا تستطيع الدولة الوصول إليهم بسلاسة؟ وحين مد أحد المشركين يده فى صلح الحديبية وأمسك بلحية الرسول وهو يفاوضه هل سكت المسلمون على هذه الحركة العفوية أم هل انتفضوا وضربوا اليد التى أمسكت باللحية الشريفة وهددوا صاحبها إن عاد لمثلها؟ لقد رأَوْا فى هذا انتقاصا من مكانته صلى الله عليه وسلم حتى لو لم يكن الانتقاص مقصودا، فلم يتجاهلوا الأمر ولم يغْضُوا عليه هوانا وذلة بل ردوا، وكان ردهم قامعا مخيفا.

لا بل إن القرآن نفسه دائما ما يرد على العدوان بمثله فيصف المشركين مثلا بأنهم كالأنعام بل هم أضلّ، ويقول عن اليهود إنه سبحانه قد جعل منهم القردة والخنازير. فلم يا ترى لم يلزم القرآن المسلمين بدلا من ذلك بالدعاء للكافرين؟ والطريف أن د. ندوى بعد قليل سوف يشير إلى سخرية اليهود من صلاة المسلمين فى المدينة، لكنه سرعان ما يقفز فوق تلك الحادثة دون أن يذكر الوحى الذى نزل ردا على ذلك الإجرام، وهو قوله تعالى إنه قد جعل منهم القردة والخنازير. فعلام يدل هذا؟ كذلك مما نصح به د. ندوى الشبان المسلمين الغاضبين لنبيهم ودينهم أن يدْعُوا هؤلاء المعتدين إلى الإسلام. وهذا أمر جميل، لكن فاته أن دعوة هؤلاء إلى الإسلام تستلزم إقناعهم بأنهم مخطئون فيما قالوه عن الإسلام. فكيف يا ترى يتسق هذا مع نصيحته لأولئك المسلمين الغيورين على دينهم بالصمت وعدم الرد أو المبالاة بما يكْتَب إهانة للرسول ودينه؟ واضح أن هناك تخبطا واضحا فى موقف د. أكرم.

ثم إنه يمضى قائلا إن بريطانيا أعطت المسلمين المقيمين فيها الكثير: أعطتهم ثروتها، وأعطتهم التكنولوجيا. فالمسلمون مجرد آخذين لا يعطون شيئا بالمقابل. وهذا كلام ساذج جدا: فالمسلمون لا يحصلون على صدقات البريطان، بل يعملون كما يعمل غير المسلمين هناك، ويشاركون فى كل شىء بدءا من العمل الشاق فى حفر أنفاق القطارات تحت الأرض منذ عشرات السنين وانتهاء بالتدريس فى الجامعات، كما أنهم يدفعون الضرائب مثلما يفعل غيرهم. أم ترى البرلمان البريطانى أصدر قانونا بإعفائهم من الضريبة؟ ثم لا ينبغى أن ننسى ما كسحه البريطان من ثروات المسلمين أيام الاستعمار التى امتدت قرونا ولا المساعدات الفعالة والتضحيات الهائلة الحاسمة التى قدمها الضباط والجنود المسلمون أثناء الحرب العالمية لبريطانيا. وفوق هذا فإن البريطانيين فى أية معاهدات اقتصادية بينهم وبين الدول الإسلامية حتى الآن يحصلون على نصيب الأسد.

ولا أدرى لماذا تجاهل الندوى التظاهرات بوصفها مما أعطاه البريطان للمسلمين، ومن حقهم بل من واجبهم اهتبال الفرصة والتظاهر حين يكون هناك داع للتظاهر تعبيرا عن مواقفهم السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية ما داموا لا يؤذون أحدا بتظاهرهم أو يوقعون الضرر على أى شىء. أم إنه لا بد أن يأخذ المسلمون على أقفائهم دون أن ينبسوا ببنت شفة، اللّهم إلا بالدعاء لمن ضربهم على قفاهم؟ معنى ذلك هو أن نأخذ من النصارى ما يقوله الإنجيل من مباركة لاعنينا وإدارة خدنا الأيسر لمن صفعنا على خدنا الأيمن بدلا من رد العدوان بمثله أو فى القليل: الاعتراض على العدوان أو فى أقل القليل: الصياح تعبيرا عن الألم من هذا العدوان، وتركهم يضربوننا ويهينوننا

ويقتلوننا. وهو لون من التخصص لطيف! فمعروف أن الحياة قائمة على التخصص، ويا بخت من بات مغلوبا ومضروبا ومشتوما ومقتولا ومسروقا، ولم يبت غالبا. أى يا بخت من تخصص فى تلقى الضرب والإهانة من غيره وترك التخصص فى إنزال الضرب والإهانة لغيره. وهو مما يغرى المعتدين باستمراء العدوان والتمادى فيه، ويعوّدنا على الانبطاح وعدم التذمر أو الشكوى أو فتح الفم أصلا. والحق أن مثل تلك الخطة تساعد اللص والقاتل على تأدية مهمته فى سلام واطمئنان وراحة بال دون أن يستعجل فى شىء أو يقلق على شىء. ولو كان المسلمون فى أوربا وأمريكا انتهجوا هذا النهج لظلوا يسامون أبشع ألوان الخسف والهوان. أما اعتراضهم وفعالياتهم الأخرى ردا على تلك الإهانات والاعتداءات فقد نبهت طوائف كثيرة فى تلك المجتمعات إلى قضيتهم وجعلتهم يعيدون النظر فى الأمر ويقْبِلون على القرآن المجيد يقرأونه ليعرفوا أصل الحكاية، وهو ما انتهى فى عدد غير قليل من الحالات إلى اعتناق الإسلام.

بل إن بعض الكبار ممن تولى كِبرْ تلك الإهانات قد تحول مسلما بفعل تلك الضغوط المعنوية التى انتهجها المسلمون، ولو كانوا قد أصاخوا السمع لنصيحة أكرم ندوى ما بكت عليهم السماء والأرض ولا أحد من سكان الأرض. ثم هل نسى د. ندوى أن فلسفة الحياة لدى الغربيين تتلخص فى أن القوى يأكل الضعيف؟ فلو استمرأ المسلمون دور الضعيف لما صحا ضمير الغربيين لأن هذا سيكون مصداقا لتلك الفلسفة. أما وقوفهم ضد تلك الاعتداءات فإنه ينبه الغربيين إلى أن المسلمين ليسوا ضعفاء إلى درجة الموت بل هناك بقية من حياة لا تزال تتردد فى أجسادهم وأرواحهم مما يدفعهم إلى معاودة النظر فى فلسفتهم تلك. على أن هذا لا يعنى أن يتفرغ المسلمون للشكوى والتظاهرات، بل عليهم مع هذا كله وقبل هذا كله وبعد هذا كله أن يشاركوا فى خدمة المجتمعات التى يعيشون فيها فيكونوا أحسن العاملين وأتقنهم أداء وأعظمهم إبداعا وأحرصهم على النظافة والنظام واحترام القانون وأكثرهم تعاونا وأشدهم عطفا على مستحقى العطف والمرحمة. باختصار: عليهم أن يتمسكوا بقيم دينهم. وبدون التمسك بها فإنهم لا يستحقون الانتساب إلى دين محمد عليه الصلاة والسلام.

الواقع أن كلام د. ندوى فى هذه النقطة يذكرنى بما كان يدعو إليه اللورد هدلى الإنجليزى، الذى أعلن تحوله إلى الإسلام فى بدايات القرن العشرين، إذ كان يلح على ألا يفكر المسلمون الذين كانت بريطانيا تحتل بلادهم آنذاك فى الثورة على الإمبراطورية البريطانية، معتبرا ذلك من مفاخر الإسلام، الذى يؤكد هو أنه يرفض تمرد أتباعه على أية دولة تحكمهم مهما كان دينها ومهما صنعت بهم، ويعد ذلك

التمرد أسوأ الآثام التى يمكن ارتكابها. كما يذكرنا بغلام أحمد المتنبئ الهندى القاديانى، الذى كان يفاخر بأنه من أخلص رعايا بريطانيا وأنه يدعو المسلمين إلى الخضوع للحكم البريطانى دون تذمر، وحرَّم الجهاد على المسلمين فى الهند وفى غير الهند حتى لا يفكروا مجرد تفكير فى الثورة على بريطانيا. إنه حلقة فى نفس السلسلة، والملامح العامة هى نفس الملامح، والخطوط الأساسية للفكرة هى ذات الخطوط، والسفسطة هى السفسطة، والغاية هى الغاية. ويجد القارئ الكريم أفكار اللورد هيدلى فى هذا الموضوع فى كتابه المشهور: "A Western Awakening of Islam"، أما الهندى ميرزا غلام أحمد، نبى القرن التاسع عشر الكذاب، فمعروفة مواقفه للقاصى والدانى، إذ كان حريصا فى كتاباته وفى جميع المناسبات التى تمر به على مهاجمة فكرة الجهاد تقربا من الإنجليز وتطلعا إلى الحصول على أموالهم ورضاهم.

أما د. ندوى فيرى أنه لا يصح من المسلم أن يميز بين أخيه المسلم وغير المسلم، فالكل عنده سواء، متناسيا أن معظم كلام الرسول يدور حول المسلم بالدرجة الأولى بما يعنى أن غير المسلم يأتى بعد المسلم، على القاعدة القرآنية التى تقول: "الأقربون أولى بالمعروف". يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه. بحسب امرئ من الشر أن يَحْقِر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعِرْضه"، "المسلم للمسلم كالبنيان: يشد بعضه بعضا"، "مَثَلُ المسلمين فى توادِّهم وتراحمهم كمَثَل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعَى له سائر الأعضاء بالسهر والحمَّى"، "المسلم مَنْ سَلِم المسلمون من لسانه ويده". على أنى لا أقول إنه لا يصح أن نعطى غير المسلمين شيئا، بل كل الذى أقوله هو أننا ينبغى أن نبدأ أولا بالمسلمين مثلما يبدأ غير المسلمين بمساعدة أبناء طائفتهم لا حرج عليهم فى ذلك لأن هذا هو الشعور الفطرى فى مثل تلك الحالة. إن كلام أكرم ندوى أشبه بأن يأتى أحدهم إليه فيقول: "لا يصح أن تميز فى التعامل بين أفراد أسرتك وغيرهم فى أى شىء". وإذا كان أعضاء حزب العمال مثلا لا يسوون فى التعامل بين منسوبى الحزب وبين أعضاء حزب المحافظين فكيف يطلب أحد من المسلمين ألا يفرقوا فى أى شىء بين أبناء دينهم وسواهم؟ إن ثم قيودا كثيرة تحدد الدائرة التى يتحرك فيها الشخص كالطبقة والدين والقومية والوظيفة والشحصية والجيرة والزمالة والصداقة والقرابة والثقافة وغير ذلك. فمن الصعب جدا قيام تفاهم وارتياح متبادل بين كناس مثلا ومخرج سينمائى أو بين أستاذ جامعى ومونولوجست. وبالمثل ليس من السهل أن يكون النصرانى على راحته مع مسلم بنفس الدرجة والكيفية التى يكون فيها على راحته مع رجل من أهل دينه. بل إن الصوفى المسلم لا يشعر فى صحبة المعتزلى بنفس الدرجة من

الاطمئنان والرضا مع أمثاله من الصوفية. بل إن الأهلاوية لا يجدون أنفسهم فى رفقة الزملكاوية كما يجدونها فى رفقة أنصار ناديهم... وهلم جرا.

وبالمناسبة فكلام أكرم ندوى يوحى بأن المسلمين هناك ليسوا بريطانيين. لا يا أخى الكريم، إن كثيرا من المسلمين هناك هم بريطانيون أبا عن جد، وليسوا كلهم ممن هاجروا إليها من الهند أو الباكستان مثلا، فضلاعن أن أولئك المهاجرين الهنود والباكستانيين قد اكتسبوا الجنسية البريطانية، وصاروا بريطانيين، ولا يصح أن يقال لهم إن البريطان أَعْطَوْكم التكنولوجيا، إذ هم بريطان أيضا، وهم يشاركون فى الإبداع التكنولوجى كسائر أبناء الشعب البريطانى الذى يمثلون جزءا منه. والبريطان لا يتصدقون بجنسيتهم على أحد، بل كل شىء محسوب بالمسطرة والفرجار. كما أنه قد جاء على البريطان يوم كانوا يعيشون فى بلاد المسلمين، ولم يكن يستطيع أحد أن يقول لأى منهم:ثلث الثلاثة كم؟ لأنهم كانوا محتلين مستعمرين بقوة السلاح والعسف والإجرام الذى لا يعرف التفاهم ولا الرحمة. لقد كانوا يعاملون المسلمين بغطرسة وقسوة وغلظة ويسومونهم سوء العذاب والهوان والتحقير. فالهنود والباكستانيون الذين يعيشون فى بريطانيا، مهما يكن فيهم من عيوب وعليهم من ملاحظات، لا يمكن أن يكونوا بالسوء ولا الفظاظة التى كان عليها البريطان أيام كانوا يحتلون بلادهم، ودعك من الإجرام والتوحش اللذين كان البريطان يزاولونها هناك مما لا يمكن أن يدور شىء منه ولو من بعيد بخيال المسلم البريطانى ذى الأصول الآسيوية، بل ولا المسلم البريطانى البريطانى أبا عن جد.

وبالمناسبة فإنى ممن يعشقون نظافة بريطانيا وديمقراطيتها وعدالتها الاجتماعية وارتقاء مستوى معيشتها ونظامها واستقامة التعاملات فيها واحترام القانون واهتمامها بالعلم والإبداع العقلى والفنى وتجويد العمل وإتقانه وسهر الحكومات على راحة الشعب ومصالحه والامتناع عن عمل أى شىء يمكن أن ينزل به الضرر ويسبب له المعاناة، ولا يسهل علىَّ أبدا نكران شىء من حلاوتها وجمالها، وهو ما نلفيه فى كل الدول الغربية واليابان وكوريا الجنوبية، وتشاركها فيه بعض الدول الإسلامية القليلة كماليزيا وتركيا وأندونيسيا مثلا. وليس معنى هذا أن الدول الغربية تخلو من العبوب، والعيوب القاتلة، كالخمر والإباحية الجنسية والشذوذ وانتشار الإلحاد وأكل الخنزير والغطرسة على الشعوب الأخرى والعمل على تأخرها دائما وسرقة ثرواتها بطرق شيطانية والعدوان عليها بشراسة وهمجية مستغلة الفارق الكبير فى الاستعدادات الحربية بينها وبينهم. وإن ذكرياتى فى أكسفورد ولندن لتلح علىَّ إلحاحا عنيفا حتى لأحلم أحيانا بالشوارع التى كثيرا ما ذرعتها أنا وزوجتى وطفلانا ندفعهما بالتناوب أمامنا وهما

جالسان فى كرسيهما المزدوج، وكل شىء حولنا نظيف وجميل ومنظم، والناس جميعا هادئون كل منهم منصرف إلى عمله يؤديه فى حب واهتمام. ليس هذا فحسب، بل إنى لأفكر فى بريطانيا وأتحدث عنها كما لو كانت وطنى الثانى. فأنا حين أقول ما أقول ردا على الندوى لا أقوله من منطلق الكراهية لبريطانيا وأهلها بل من منطلق العدل والفهم السليم والعميق.

ثم يستمر د. أكرم فى المغالطة فيقول: "على المسلمين أن يكونوا متسامحين مع أصحاب الأديان الأخرى"، وكأننا نكرههم ونعتدى على حقوقهم ولا نريد لهم الحياة الآمنة. فانظروا واعجبوا. ثم يضرب الأستاذ الدكتور مثلا على ما يريد من المسلمين أن يعملوا فيقول لهم: هل يعْقَل من تاجر فتح دكانا يسترزق منه أن يصيح فى المشترين ألا يقتربوا من دكانه؟ والسؤال هو: وهل عُهِد عن المسلمين أنهم يطردون من يقترب من دينهم يريد التعرف إليه والدخول فيه؟ بل هل هذا هو موضوعنا أصلا؟ لقد كان د. ندوى يتحدث عن الإهانة التى توجه للإسلام والمسلمين ونبيهم ورد الفعل الذى ينبغى لهم القيام به، وليس عن رفض المسلمين مَنْ يحبون دينهم أو يرغبون فى التعرف إليه. لكن د. ندوى يخلط الأوراق فيما هو واضح.

أما الآية التالية من سورة "المائدة": "يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم..." فأنا معه فى أنها ليست على إطلاقها بل تعالج موقفا كان اليهود فيه يعادون المسلمين معاداة شنيعة ويضعون أيديهم فى أيدى المشركين ويسخرون من عباداتهم... يريد أن يقول إنها لا تريد من المسلمين أن يقاطعوا أهل الكتاب مقاطعة مبدئية، أى لا تريد أن تكون العداوة بينهم وبين أهل الكتاب دائمة لازبة. ولقد كنا فى بريطانيا نصاحب غير المسلمين وندعوهم إلى بيوتنا، وتعد زوجتى لهم الطعام وتتفنن فى إعداده، فنقضى أمسية جميلة معا كنت أزاول فيها على راحتى لغتى الإنجليزية ونعيش جوا اجتماعيا لذيذا. وكان بعضهم يرد لنا الدعوة، وبعضهم لا يفعل. ولكنى أكذب لو قلت إن الانفتاح بيننا وبينهم كان واسعا، إذ رغم المشترك بين البشر جميعا مما هو إنسانى عام هناك اختلافات كثيرة بيننا وبينهم: فهم يشربون الخمر ويأكلون الخنزير ويتراقص الرجال والنساء منهم، ونحن لا نفعل ذلك. وثم قدر من التحرر الجنسى لا يمكننا أن نتعايش معه مهما كنا متسامحين ومرنين. كما أن هناك اختلافات فى الدين والأذواق والسلوك والمواقف من شأنها أن تجعل الاختلاط غير سلس فى كل الأحوال. وهم أنفسهم لا يرحبون كثيرا بنا لتلك الاعتبارات ذاتها. ومن ثم أستغرب أن ينادى د. ندوى المسلمين بالانفتاح على البريطانيين تمام الانفتاح. فهذا غير ممكن لا من

جهة المسلمين فحسب بل من جهة غير المسلمين أيضا. وإذا كان هو غير منفتح على إخوانه المسلمين الذين لا يشاطرونه آراءه السياسية والدينية فكيف يتوقع أن يتم هذا بين المسلمين وغير المسلمين فى بريطانيا؟

ومِنْ بين مَنْ كنا نُسَرّ بدعوتنا لهم على العشاء مسز أَدَمِكْ، التى كانت تعطينى دروسا فى الإنجليزية أول مقدمى أكسفورد، وابنها الشاب الصغير دوجلاس، وماريان السيدة الأسكتلندية التى كانت تصحبنا فى جولات رائعة بسيارتها فنزور معها مكانا يشبه المغارة بعض الشبه كى نمتع أعيننا بزهور البلُو بِلْز (الأجراس الزرقاء)، وتأخذنا فى رحلات قصيرة حول أكسفورد تشرح لنا خلالها كل ما يصادفنا فى طريقنا على نحو شائق جميل. وكان من زوارنا الدائمين مستر نايتْ، مدرس الإنجليزية الخصوصى لزوجتى، ومصحح رسالة الدكتورية لى، وكان يأخذ جنيها إسترلينيا واحدا فى الحصة، التى لم يكن لها طول محدد، فضلا عن مشاركته لنا فى العشاء. وكانت صحبته لطيفة تبعث على السرور، وكنا نأنس به، وكان يجلس معنا أطول فترة ممكنة كلما أتى إلينا ليلا، بل كان يشاهد معنا مباريات كأس العالم ١٩٧٨م، وكان بطبيعة الحال يشجع الفرق الأوربية على حين أشجع أنا الفرق اللاتينية دون أن يظهر هو ضيقا من هذا التباين رغم تحزبى الواضح المستفز أحيانا لفرق أمريكا الجنوبية... وهكذا. إذن فليس العبد لله من أنصار مقاطعة غير المسلمين، وبخاصة أن الله، كما أخبرنا فى القرآن المجيد، قد خلق الناس مختلفين، وجعل لكل منا شرعة ومنهاجا. وإنى أفهم الشرعة والمنهاج بمعنى أسلوب الحياة والحضارة. وهذا مظهر من مظاهر الغنى الحياتى الذى جاد به الكرم الإلهى على البشر.

وأحسب أننى منذ وقت بعيد أتصف بشىء من سعة الأفق وأعى أن البشر لا يمكن أن يكونوا على عقيدة واحدة أو دين واحد. وإذا كان أصحاب الدين الواحد مختلفين ومنقسمين فيما بينهم، وإذا كان الفرد الواحد قد ينقلب من مذهب إلى مذهب داخل الدين الواحد، فما بالنا بمن لا يشاركوننا ديننا؟ لا بد أن يكون الاختلاف أشدَّ وأحدَّ بيننا وبينهم. وإذا كان الله الخالق الرازق قد خلقنا مختلفين كما جاء فى سورة "هُود" فكيف نصر على أن يكون الناس جميعا على ملة واحدة؟ هذا غير ممكن. وكنت أحفظ منذ صباى قول سيد الأنبياء: "من ظلم معاهَدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طِيب نفسه فأنا حَجِيجُه يوم القيامة". بل لست أجد حرجا أى حرج فى تهنئة أهل الكتاب بأعيادهم مثلما لا يجد بعضهم حرجا فى تهنئتنا بأعيادنا... وهكذا. وأنا بهذا لا أتمنى أن يبْقَوْا على كراهيتهم أو رفضهم للإسلام بل أتمنى لهم السعادة على مدار العام الجديد. وهذا كل ما هنالك.

وقد دخلت، وأنا صغير بالمعهد الدينى بطنطا، كنيسة فى آخر شارع الحكمة أيام كان شارعا جديدا، وكانت المناسبة عرسا نصرانيا. كما كنت أشاهد، على أنه أمر عادى، موكب الموتى النصارى يتقدمه القسس والموسيقى النحاسية بشارع القنطرة بوسط المدينة حيث تقع إحدى الكنائس. وكان معى فى المدرسة الأحمدية الثانوية زملاء نصارى يجلسون بجوارنا ونتحدث معا، وقد نتناقش فى الدين دون حساسية على قدر ما أتذكر الآن. وكانت هذه فرصة ليتعرف كل منا على دين الآخر. كما ذهبت ذات مرة مرجعَنا من المدرسة، وأنا فى السنة الأولى الثانوية، مع زميل لى نصرانى إلى بيته، فاستقبلتنى أمه استقبالا طيبا، وطلبتُ منهم نسخة من "الإنجيل"، فأعطتنى واحدة أخذت أطالعها فرأيت أنها تتكلم عن حكايات وأمور تناولها القرآن، وإن كان الأسلوبان مختلفَىِ الطعم تماما، فضلا عن بعض التفصيلات المختلفة هنا أو هناك. ثم فهمت بعد ذلك أن هذا ليس هو "الإنجيل" بل "العهد الجديد"، وهو يضم أربعة أناجيل لا إنجيلا واحدا علاوة على أعمال الرسل ورسائلهم ورؤيا يوحنا، وأن تسمية "العهد الجديد" تشير إلى كتب بنى إسرائيل التى تشكل "العهد القديم" بمعنى أن هناك عهدين: عهدا قديما كانت الشريعة فيه متشددة، وعهدا جديدا صارت الشريعة فيه سهلة تركز على الباطن دون الانشغال بالخارج كثيرا، فلم يعد هناك مثلا رجم للزانى والزانية ولا تحريم للخنزير... إلخ. المهم أن تؤمن بيسوع ابنا للآب، أرسله إلى العالم ليكفر عن سيئاته بدءا بخطيئة آدم الأولى التى تسببت فى إخراجه هو وزوجته من الجنة، وكانت نتيجة ذلك أن مات مصلوبا فداء للبشرية.

وثم نقطة أخرى، فالدكتور ندوى يتحدث عن اليهود والنصارى وكأنهم مسالمون لنا تمام المسالمة كلهم أجمعين، وكأنه لا يوجد صليبيون وصهاينة يعادوننا ويؤذوننا وأخذوا فلسطين منا وأعطَوْها لليهود ظلما وعدوانا وافتراء على التاريخ والحق، وهو ما تُعْتَبَر معاداة اليهود للنبى والمسلمين فى يثرب إلى جانبه شيئا هينا لينا، إذ ماذا تساوى تلك العداوة القديمة إزاء التخطيط الدولى الجهنمى الذى يعمل على إبقاء المسلمين متخلفين يرزحون تحت نير الاستبداد، الذى يقف معه صليبيو الغرب وصهيونيو إسرائيل؟ وإن لم يعن هذا أن المسلمين أبرياء من المسؤولية، إذ المسؤولية مسؤوليتهم بالدرجة الأولى. وعلى هذا ينبغى ألا ننخدع بما قاله أكرم ندوى إذا كان يقصد اليهود والنصارى بإطلاق كما أفهم من كلامه. فهناك فعلا أهل كتاب لا ضرر من ورائهم، لكن هناك أهل كتاب آخرين يحقدون على الإسلام ونبيه ومعتنقيه حقدا ناريا مدمدما. وهؤلاء ينبغى التعامل معهم بنفس الطريقة التى كان مسلمو المدينة يتعاملون بها مع اليهود آنذاك.

وليس معنى هذا أن نجبههم من الباب للطاق مباشرة بالكلام القارس أو المواقف العدائية بل أن نكون على حذر فلا ننفتح عليهم دون داع ولا نكشف لهم أمورنا ونطلعهم على أسرارنا ولا نصادقهم، وإن لم يكن من الممكن مقاطعتهم تماما، إذ قد يكونون زملاءنا أو رؤساءنا فى العمل مثلا. وحين كنت فى بريطانيا لم نكن نسأل عن دين التاجر الذى نشترى منه أو سائق سيارة الأجرة التى نركبها أو جارنا الذى نمر به ونحييه أو الطبيب الذى يعالجنا ... إلخ مع معرفتنا أنهم جميعا إما نصارى أو يهود أو لا يؤمنون بدين. وكان الاحترام هو المبدأ السائد فى التعامل معهم: هم يحترموننا، ونحن نبادلهم الاحترام. وعلى هذه الشاكلة تمضى الحياة سهلة رهوة سلسة دون مشاكل تذكر. المهم ألا ننساق إلى التنازل عن ثوابتنا مرضاة لهم أو تقربا إليهم. وبالمثل لا يصح أبدا أن نبادرهم بالظلم أو الإساءة. ثم لا ننس أننا وإياهم يجمعنا بلد واحد لا بد من التكاتف لخدمته إن لم يكن من أجل شىء فمن أجل أن نعيش جميعا فيه عيشا مريحا بل سعيدا.

أما فى مصر فلم أميز يوما فى التعامل داخل المحاضرات بين طالب مسلم وآخر غير مسلم، فكلهم أمانة فى يدى، وكلهم أبنائى. وفى العادة أحرص على ألا تثار فى المحاضرة القضايا الخلافية دون مبرر. وأحيانا يأتينا طلاب غير مسلمين من أوربا وأفريقيا، فنعاملهم على أحسن ما يكون ونبتعد عن مواضع الخلاف الدينية بقدر الإمكان. وأذكر مرة أننى كنت أحاضر مجموعة من الطلاب الطليان بكليتى منذ ثلاث سنوات، وكانت المحاضرة عن قضية تتعلق بالإسلام ويرد فيها اسم النبى مرارا، فكنت أشفعه بـ"صلى الله عليه وسلم" كما يصنع المسلمون عادة فى مثل هذا السياق، ثم جاء دور الحديث على أحد الطلاب الإيطاليين، فسألنى: أنا لا أريد أن أقول: "النبى محمد" بل "محمد" فقط، كما لا أريد أن أقول: "صلى الله عليه وسلم"، فهل فى ذلك من حرج؟ أجبته: لا حرج على أى نحو. فأنا مسلم، ومن الطبيعى أن أقول ذلك، أما أنت فلا تؤمن بنبوته عليه السلام، ومن ثم لا عليك ألا تقوله. وانتهت المسألة عند هذا الحد. ودائما ما أقول لطلابى المسلمين فى المحاضرات: لا بد أن نشغّل عقولنا فى كل شىء يختص بديننا. ولا يصح أن نَخِرّ صُمًّا وعُمْيا وبُكْمًا على ما يقال لنا بها فى ذلك كلامى نفسه رغم اعتزازى بفكرى وآرائى وما أكتبه فى مؤلفاتى وما أقوله فى محاضراتى، بل أَخْضِعوا كل شىء للعقل والتحليل بشرط أن تقرأوا كثيرا حتى يكون لتحليلكم وتشغيلكم لعقولكم معنى لا أن تهجموا بجهل على القضايا المثارة فتَضِلّوا وتُضِلّوا. ودائما ما أؤكد لهم أن ما أقوله أو أكتبه ليس سوى اجتهاد

بشرى يقبل الصواب والخطأ رغم ما بذلته من وقت وتفكير وتحقيق فى تحريره. وكما أنى قد أخالف من سبقونى فى بعض ما قالوه فمن الطبيعى أن يخالفنى اللاحقون فى بعض ما أقوله أو أكتبه.

ومما قاله أكرم ندوى ويحتاج إلى مناقشة، ومناقشة عنيفة، طلبه من المسلمين أن يتركوا السياسة ولا يعملوا بها، ففى الإسلام لا يهم أن نبنى دولة أو برلمانا بل أن نتجه إلى الله. كما أنه يبغض الشكوى إلى البشر، إذ الشكوى فى رأيه لا تكون إلا لله. والمهم فى الإسلام هو الآخرة لا الدنيا. وهذا الكلام موجود فى الفصل الرابع عشر من الكتاب الذى نحن بصدده. وأول تعليق لى على هذا الكلام هو أنه مما يثلج صدور الدول الاستعمارية المبغضة للإسلام والمسلمين وصدور الحكام المسلمين المستبدين الموالين لأولئك المستعمرين أن ينصرف المسلمون عن الدنيا والسياسة والشكوى مما يقع عليهم من ظلم وإجحاف. إن هذا لهو التسليم الكامل لأعدائنا. وهل هناك خبر أكثر إسعادا لهم من أن نزف إليهم البشرى بأننا قد تركنا لهم الجمل بما حمل؟ ثم من قال إن الشكوى لا تكون إلا لله؟ وهل الله سوف ينزل من السماء ليحقق العدل ويزيل المظالم؟ إنه سبحانه وتعالى يقول: "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم"، ولم يقل: اتركوهم لأقاتلهم بنفسى وأقتلهم. كما أنه يدين بنى إسرائيل إدانة شديدة حين طالبهم موسى بالدخول على الجبارين فى بيت المقدس فأجابوه بأنهم باقون فى مكانهم حتى ينتهى موسى وربه من مقاتلتهم. وليس لهذا أو ذاك من معنى سوى أن البشر مطالبون بتحقيق أهدافهم بأيديهم. ألم يقل سبحانه: "إن تنصروا الله ينصركم"، "وأقرِضوا الله قرضًا حسنًا"؟ ألم يشتغل الرسول بالسياسة؟ ألم يبن دولة؟ ألم ينشئ جيشا؟ ألم يخزن الأسلحة؟ ألم يحارب؟ ألم يخطط ويناور ويعمل على خداع الأعداء؟ ألم يستمع إلى شكاوى الناس؟ ألم يقض بينهم؟ أم قال لهم يا ترى: اذهبوا فارفعوا شكاواكم إلى الله؟ ثم لماذا لم يدن أكرم ندوى اغتصاب اليهود بمساعدة البريطان وأمريكا وسائر الدول الغربية لفلسطين وإقامة دولة لليهود على أرضها ظلما وعدوانا؟ ولماذا لم تنبهه الصحفية اليهودية إلى هذا؟ أم إن إقامة الدول حلال للمجرمين، وحرام على أصحاب الأرض إذا كانوا مسلمين؟ ألا إن هذا لشىء غريب ومريب!

والعجيب أن أكرم ندوى يقول إن إبراهيم وعيسى مثلا لم يهتما بإقامة دولة. والرد سهل بل فى منتهى السهولة، وهو أن محمدا نبينا عمل على إقامة دولة ونجح، وكان الله يوجهه ويباركه ويأمره بكل ما يفعل من أجل إقامة الدولة والحفاظ عليها وتقويتها وتوسعتها. أم يجب أن نكذب القرآن والحديث والسيرة والتاريخ ونقول إنه عليه السلام لم ينشغل أو يشتغل بإنشاء دولة، وإن صحابته قد صححوا،

أستغفر الله، الخطأ الذى وقع فيه فألْغَوْا كل خطوة اتخذها فى هذا المضمار؟ أليس ذلك مما يبعث على القهقهة؟ كما كان داود وسليمان حاكمين على دولة وشعب، فضلا عن دور بعض الأنبياء الآخرين فى توجيه الدولة وحكامها. لقد وصلت بالرجل السفسطة إلى الحد الذى قال فيه إن النبى لم يكن يريد احتياز القوة ولا بناء دولة فى المدينة، بل القوة هى التى رُمِيتْ عليه رميا. إى والله هذا ما يقوله الدكتور. ومع ذلك فلنمش معه إلى باب الدار، ونقول: ترى لو كان احتياز القوة وإقامة الدولة أمرا سيئا أكان الرسول ينتهز الفرصة ويعض على القوة بالنواجذ حين ألقيت عليه ويتوسع فيها ويشيد دولة ويفتح مكة ويمد سلطانه على الجزيرة العربية كلها ويفكر فى نشر الإسلام خارجها؟ ثم من يا ترى رمى القوة على الرسول؟ وما الذى أكرهه على قبولها إذا كانت تناقض غاية الدين؟ وهل كان الله سبحانه ليتركه يمضى فى هذا الطريق لو كانت القوة والسلطة والدولة شرا كما يزعم د. ندوى؟ فانظروا بالله عليكم إلى هذه السفسطة.

وإذا كانت قوة الغرب شيئا سيئا فلم تركتَ الهند يا دكتور وأتيتَ إلى بريطانيا؟ لا تقل من فضلك إنك أتيت لتدعو الناس إلى الإسلام، فقد كانت الهند بحاجة إلى دعوتك لأن الناس هناك، كما هو واضح من كلامك، لا يفهمون الإسلام على النحو الصحيح، علاوة على أننى لم أسمع بك تدعو البريطان إلى دين محمد بل تحصر نفسك فى مخاطبة المسلمين هناك وتدخل معهم فى جدالات لا تنتهى وتوزع التقوى على من تحب وتحجبها عمن تحب وتغريهم بالاستسلام والخنوع والمذلة. ترى لم لا تطبق مبدأك فى التجاهل الذى تتبعه مع أعداء الإسلام؟ أم إن تخصصك هو فقط فى العراك والجدال مع المسلمين؟ ولم لا تترك كُلًّا وما يعتقد وتنصرف إلى ممارسة التقوى التى صَدَّعْتَ بالحديث عنها أدمغتنا؟ إن التقوى شىء مهم، لكن لا بد من إقامة مجتمع إسلامى له حكومته ونظمه ومؤسساته ككل مجتمع فى الدنيا حتى يستطيع المسلمون ممارسة تلك التقوى فى حرية وأمان واطمئنان. أم أن الله كتب على المسلمين دون سائر البشر ألا يكون لهم نظام سياسى يتمثل فى دولة تكفل لهم الكرامة والعزة والعدالة والسيادة وتساعدهم على انطلاق طاقاتهم ومواهبهم وإحراز الحضارة والتقدم وتهيئ لهم عبادة الله على نحو مطمئن خال من القلق والخوف؟

الحق أنى لا أكاد أصدق عينى وأنا أقرأ للرجل هذا الكلام. إنه يمنّ على المسلمين البريطان بما فعلته بريطانيا لهم. ورغم ما قلتُه عن المغالطة السخيفة فى هذا القول فإنى أذكّره بأن بريطانيا لم تتبع نصيحته العجيبة هذه بل ناضلت وكافحت حكامها المستبدين حتى تحققت لها الديمقراطية التى تفخر

بها بين دول العالم. فلم يريد أكرم ندوى من المسلمين ألا يتعلموا هذا من بريطانيا وأن ينتهجوا بدلا منه نهجا مناقضا للنهج البريطانى؟ أتصور لو كان د. ندوى يعيش فى عصر عمر لضربه عمر بالدرة على رأسه حتى أوجعه. لقد صاح رضى الله عنه فى المتنطعين بأن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، كما ضرب رجلا يظهر النسك ويتماوت قائلا له: لقد أَمَتَّ علينا ديننا، أماتك الله! نعم إن العمل السياسى وحده لا يكفى بل لا بد من الإصلاح الأخلاقى والنفسى أولا حتى تؤتى الديمقراطية (أو فلنقل: الشورى) أكلها فلا يتحول الأمر إلى مجرد مظهر للديمقراطية لا مضمون له كما هو حادث فى معظم الدول الإسلامية التى تمتلك برلمانات وتعرف الأحزاب والانتخابات. وبمناسبة ما نحن فيه فإن كاتب هذه السطور لا يخفى عليه أن فى الديمقراطيات الغربية ذاتها قدرا من التدليس والتزييف والضحك على ذقون الجماهير، لكن الديمقراطية رغم ذلك أفضل مليون مرة من الاستبداد وسياسة الكرباج، فضلا عن أن الأحزاب المنافسة لا تترك تدليسات الخصوم وخداعاتهم تمر دون فضحها وهتكها والنيل من مرتكبيها، مما من شأنه أن يقلل تلك الألاعيب إلى أدنى حد. كذلك يلفت النظر نعى د. ندوى على المصلحين الدينيين الذين يهتمون بالسياسة بأنهم إنما يريدون تقليد الغرب. لكن هل تقليد الغرب سئ دائما؟ فلماذا تمن، يا د. أكرم، على المسلمين فى بريطانيا أنها أعطتهم التكنولوجيا وغير التكنولوجيا؟ إن الغرب قد نجح فى التكنولوجيا وغير التكنولوجيا لأنه نجح فى تشييد دول قوية ذات أسس سليمة. فهل نحرن قائلين: لن نقلد الغرب فى بناء دولة؟ ألم يسمع د. ندوى بالحكمة القائلة: الحكمة ضالة المؤمن، يطلبها أنى وجدها؟

الواقع أن البريطان لو جَرَوْا على هذا النهج لكانوا الآن فى مؤخرة الأمم ولما كانوا يعيشون فى البحبوحة التى يحيونها بل كانوا مثل كثير من المسلمين بؤسا وشقاء وتخلفا ومذلة. إن فى بريطانيا عيوبا كغيرها من دول العالم، لكن فيها محاسن كثيرة على رأسها تلك الديمقراطية، التى لم تتحقق إلا بالاشتغال بالسياسة وبالكفاح ضد الاستبداد وبمغامسة الدنيا، التى لا يمكن المسلمين أن يحرزوا الآخرة إلا إذا نجحوا فيها وتبوأوا مكانا عليا. أما ما يقوله د. أكرم فليس من الإسلام فى شىء. إن ما يقوله هو المغالطة بعينها. وهو يرى أن الوقت الذى ننفقه فى المظاهرات والإعداد لها ينبغى أن ننفقه فى الصلاة. الله أكبر! لقد فاتتنا هذه يا شيخنا. ولقد فاتت نبينا أيضا، إذ لم يكن ينفق وقته كله للصلاة، وكان يقول لمن يبقى فى المسجد يصلى بينما ينصرف أخوه إلى العمل والسعى على المعاش والإنفاق عليه هو أيضا إن أخاه هذا أعبد منه. كما فاته صلى الله عليه وسلم هذا حين أخر صلاة العصر إلى أن يصل هو

والجيش إلى بنى قريظة قبل أن يعلم القرظيون بزحفه نحوهم وقبل أن تبوخ حماسة المسلمين، الذين كانوا منصرفين من غزوة مظفرة كادوا أن يضيعوا فيها بسبب خيانة القُرَظِيين لولا ستر الله ورحمته وتدبيره. وكان ينبغى أن يؤجل صلى الله عليه وسلم هذا كله حتى ظهور د. ندوى والاستفادة من نصيحته. وحين تقول الكاتبة له: "لكن هذا سوف يترتب عليه أن تحكم الدول الظالمة العالم" يرد عليها: فليكن. وماذا فى ذلك؟ إن تلك الدول لن تحكم العالم فى الحقيقة بل الله. أى أن المظالم التى ترتكب فى التاريخ الإنسانى كله صاحبها هو الله. أليس هو الذى يحكم فى كل الدول؟ لكنه سبحانه وتعالى يقول: "قاتلوهم يعذبْهم الله بأيديكم"، "أُذِن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلِموا، وإن الله على نصرهم لقدير"، "فإن قاتلوكم فاقتلوهم. كذلك جزاء الكافرين"، "الشهر الحرام بالشهر الحرام، والحُرُمات قِصاص"، "ولَمَنِ انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل". فهل تراه جل جلاله أخطأ؟ أستغفر الله!

إن أكرم ندوى يغالط فيخلط بين حكم الكون وحكم الدول: إن الله هو حاكم الكون، أما فى عالم السياسة فالحكام هم البشر. صحيح أن أمور الكون جمعاء فى كل مكان وزمان لا تخرج عن يد الله سبحانه طرفة عين، لكن صحيح أيضا أن الله سبحانه خلق البشر وخلق لهم شيئا من الإرادة الحرة يدبرون بها أمورهم ويصوغونها حسبما يشاؤون فينجحون فى أحيان كثيرة. ومن هذه الأمور سياسة الدول وحكمها. ولو قلنا إن الذى يحكم الدول هو الله سبحانه لما كان للحساب معنى، إذ سوف يقال له يوم القيامة: لقد كنتَ سبحانك الحاكم علينا، وهذه هى نتيجة حكمك لنا. فما ذنبنا إذا كنت أنت نفسك جل جلالك لم تستطع أفضل من هذا؟ ثم إذا ما كان الله هو الذى يحكم فى كل الدول فلم ترك النبى مكة، وكان يعيش هناك فى ظل حكم الله؟ أم ترى حكم الله فى يثرب أفضل من حكمه فى مكة؟ لكن هل قدرة الله تتفاوت صعودا وهبوطا؟ وحتى لو أغضينا الطرف عن هذا فلنا سؤال هام هو: لماذا يا ترى أمسك النبى بمقاليد الأمور فى المدينة ما دام الله هو الذى يحكم هناك؟ أتراه صلى الله عليه وسلم كان يرى أن حكمه للمدينة أفضل من حكم الله عز وجل؟ ونفس الشىء يقال عن فتحه مكة. ألم تكن مكة قبل الفتح تحت حكمه سبحانه وتعالى؟ فلم آثر النبى صلى الله عليه وسلم أن يحكمها هو؟ ألايرى القارئ مدى سخف ذلك التفكير؟

لقد كنت أظن أن مثل هذا الكلام قد تجاوزه الزمان وتم وضعه فى المتاحف كى تتفرج عليه الجماهير بوصفه تحفة من تحف العصور المتخلفة. لكن ها نحن أولاء نرى أنهم قد أعادوه من المتاحف وعرضوه مرة أخرى فى واجهات المحلات الفكرية وصاروا ينادون عليه للضحك به على العامة السذج

البلهاء. لو أنه قال إن الوصول إلى العدالة السياسية يحتاج إلى ثقافة أعمق وخطوات تحضيرية طويلة وانتفاضة شاملة فى الأمة علميا واقتصاديا مثلا، وإنه سوف تكون هناك حالات فشل وخيبات متعددة قبل الوصول إليها مثلما وقع فى الدول الغربية قبل أن يبلغوا ما بلغوه لضربنا له تعظيم سلام، لكنه يقول كلاما عجيبا لا يدخل عقل عاقل ولا يتسق مع أى منطق سوى منطق التضليل والاستبلاه. إن النجاح الديمقراطى فى بلاد المسلمين لن يتم بين عشية وضحاها بل لا بد له من تضحيات ورقى فكرى ونفسى وأخلاقى، وإلا كان الفشل كما حدث فى ثورات الربيع العربى حيث كانت الجماهير تظن أن ثروات البلاد سوف تقسم ثانى يوم عليها بيضةً مقشَّرةً ثم تذهب فتغط فى النوم دون أن تحمل هم العمل والتعب ووجع الدماغ. ترى إذا كان قد فات الدكتور ندوى التعلم من البريطانيين فكيف فاته فى بلاده أن يتعلم الدرس من عباد البقرة حوله فى كل مكان بالهند، فيعرف أن الديمقراطية من السبل الأكيدة إلى التقدم والرقى والسعادة فى الدنيا؟ السعادة النسبية بطبيعة الحال، فالسعادة المطلقة ليست من بُنَيات دنيانا هذه التى يحفها الكبَد والكمد والنكد. أما النوم فى العسل (أو فى المسجد: سيان) فلن يوصل إلا إلى الكوارث والتخلف الغليظ الذى لا برء منه ولا شفاء. إن الله إنما خلقنا لنحقق ما نريده مما نحن بحاجة إليه لا لنلقى بأمورنا عليه جل وعلا ونذهب نغط فى نوم عميق. لقد حصر الله الصلاة فى خمسٍ فقط لا يستغرق أداؤها كلها بوضوئها سوى نصف ساعة. ولو كان يريد لنا أن نمضى وقتنا فى الصلاة بدل التظاهرات والجهاد ضد الاستبداد والاستعمار لفرض علينا خمسة آلاف صلاة فى اليوم ولما استجاب لرجاء نبيه محمد فى تخفيضها أبدا ولظللنا من يومها لا نفيق من الصلاة، إذ ما إن ننتهى من صلاة حتى ندخل فى صلاة، وهكذا دواليك إلى أن نموت: نموت من الهرم أو من الدوخة من الصلاة.

لكنْ بعد ذلك كله هل الإسلام دين عدوانى يضع نصب عينيه إكراه الناس على اعتناقه واطراح أديانهم السابقة مستخدما حد السيف؟ نسمع كثيرا عن آية السيف فى سورة "التوبة" وأنها الآية التى تبيح للمسلمين الاعتداء على الآخرين وإجبارهم على الدخول فى دينهم. لقد فتحت الكاتبة هذا الموضوع فى الفصل الخامس عشر: "War Stories". ونص الآية المذكورة هو: "فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصُروهم واقعدوا لهم كل مَرْصَد...". وقد علق الدكتور ندوى على الآية بالإشارة السريعة إلى أنها لم تنزل إلا بعدما عمل الرسول مع مشركى مكة كل ما فى وسعه من لزوم السلم واحترام المعاهدات التى كانت بينه وبينهم فلم يرعووا وظلوا يضطهدون دينه وأتباعه، وانتهى بهم الأمر إلى خيانة بنود المعاهدة التى وُقِّعَت فى الحديبية وأسست

للسلم بين الفريقين لمدة عشر سنوات ما إن مر منها عدة أشهر حتى انقض المشركون فمزقوها بعدوانهم على المسلمين وحلفائهم. إلى هنا، وليس لى أى اعتراض على ما قال الدكتور. لكنه يمضى بعد ذلك قائلا إن الآيات القرآنية التى سبق نزولها نزول تلك الآية كانت تحض الرسول على الصبر وعدم الرد على العدوان بمثله. وهنا موضع مغالطة بشعة من د. ندوى، وإلا فمتى يا ترى نزلت الآيات التالية مثلا: "أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظُلِموا، وإن الله على نصرهم لقدير"، "الشهرُ الحرامُ بالشهر الحرام، والحُرُماتُ قِصَاص. فمَنِ اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم"، "وقاتِلوا فى سبيل الله الذين يقاتِلونكم"، "فإن قاتَلوكم فاقتلوهم. كذلك جزاء الكافرين"، "فإذا لقيتم الذين كفروا فضَرْبَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشُدّوا الوَثَاق"، "وقاتِلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة"، "إن الله يحب الذين يقاتِلون فى سبيله صفا كأنهم بنيانٌ مرصوص"، "وكأينْ من نبىٍّ قاتَلَ معه رِبِّيون كثيرٌ، فما وَهَنُوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفوا وما استكانوا"، "إن الذين توَلَّوْا منكم يومَ التقى الجَمْعان إنما استزلَّهم الشيطانُ ببعض ما كسبوا"... إلخ؟ لقد نزلت كلها وآيات أخرى تشبهها قبل نزول آية التوبة، ومعنى ذلك أنه كان هناك قتال بين المشركين والمؤمنين قبل تلك المرة، وكذلك بينهم وبين اليهود، وأن القرآن كان يعضد المسلمين ويحثهم على الاستبسال فى القتال ويعزيهم حين ينزل بهم قَرْح. أى أن كلام د. ندوى غير صحيح بالمرة. ثم دعُونا من النصوص وتعالَوْا بنا إلى التاريخ: ألم تكن هناك غزوة بدر وغزوة أحد وغزوة بنى قريظة، فضلا عن السرايا الحربية فيما بين ذلك؟ أمن المعقول أن د. ندوى يجهل هذا الذى أقول على ذلك النحو الشنيع؟ فلم إذن يتصدى لمعالجة تلك القضايا؟ ومن العجب العاجب أن نرى أكرم ندوى بعد قليل يجيز الجهاد ضد أعداء الإسلام متى ما سدوا الطريق ومنعوا دعاة المسلمين من عرض الإسلام على الناس لجذبهم إليه.

أيا ما يكن الأمر فهذا هو شرح الآية الخامسة من سورة "التوبة"، التى يتخذها أعداء الإسلام دليلا على أن الإسلام دين القتل والإرهاب وإكراه الناس بالسيف على اعتناقه. ونص الآية هو: "فإذا انسلخ الأشهُرُ الحُرُمُ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واقتلوهم واقعدوا لهم كل مَرْصَد...". والمتأمل فيها وفى ألفاظها وأسباب نزولها وسياقها من الآيات التى حولها ومن القرآن كله سوف يتحقق أن ما يقوله أعداء ديننا ليس إلا أباطيل وتدليسات متهافتة. كيف؟ أولا المشركون فى الآية ليسوا كل المشركين بإطلاق بل طائفة منهم فحسب، إذ إن "أل" فى الكلمة هى للعهد وليست للجنس ولا للماهية. أى أن المشركين المأمور بقتلهم هم مشركون معينون لا يستغرقون المشركين كلهم جميعا.

فأى طائفة من المشركين إذن هؤلاء؟ إنهم هم المشركون الذين كانت بينهم وبين المسلمين معاهدة فلم يحترموها وغدروا بهم واعتدَوْا عليهم وقتلوا فريقا منهم خيانةً وغِيلَةً. والدليل على ذلك قوله تعالى عقب هذا: "كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام؟ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم. إن الله يحب المتقين * كيف وإن يظْهَروا عليكم لا يرْقُبوا فيكم إِلًّا ولا ذمةً؟ يرْضُونكم بأفواههم، وتأبى قلوبُهم، وأكثرُهم فاسقون * اشْتَرَوْا بآيات الله ثمنًا قليلًا فصَدُّوا عن سبيله. إنهم ساءَ ما كانوا يعملون". فالمشركون الذين أمر القرآن المسلمين بقتلهم إنما هم المشركون الخائنون الغادرون الذين أخذوا فريقا من المسلمين غيلة فقتلوهم رغم ما كان بين الطائفتين من اتفاقيات مغلظة. لقد كان الأمر أمر علاقة بين دولتين لا أمر أشخاص من هنا وأشخاص من هناك. ولا يصلح أن تترك الدول حقها وكرامتها فى هذه الظروف دون أن تعاقب الغادرين الخائنين، وإلا انتقض أمرها وطمع فيها كل من هب ودب. وثالثا لم يحدث فى الواقع أنْ وضع المسلمون هذا الأمر موضع التنفيذ، إذ قد آتى ثمرته بمجرد إعلانه على الملإ، فكف المشركون شرهم عن المسلمين ودخل منهم فى الإسلام من دخل. ليس ذلك فقط، بل إن القرآن قد أعطى المشركين المعتدين فترةَ سماحٍ أربعةَ أشهرٍ قبل أن تدخل الآية حيز التطبيق يستطيع فيها كل مشرك أن يسيح فى البلاد خلالها دون أن يتعرض له المسلمون بأى أذى. بل إن أى مشرك لو استجار بالمسلمين حينئذ لوجب على المسلمين أن يجيروه بأمر القرآن فى هذه السورة ذاتها إلى أن يسمع كلام الله ثم يبلغوه مأمنه فى طمأنينة وسلام دون أن يرَوِّعوه مجرد ترويع، فضلا عن أن ينْزِلوا به أى ضرر.

على أنْ ليس هذا كل شىء، إذ القرآن يوجب على المسلم أن يعامِل، بمنتهى البر والإقساط، غير المسلم ما دام لم يقاتله فى الدين ولم يعتد عليه أو يخرجه ظلما من وطنه. ثم إن الإسلام يحرّم على المسلمين الاعتداء على أىّ أحد لأن الله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين، اللّهم إلا إذا بُدِئوا بالعدوان الغشوم، فعندئذ من حقهم رد العدوان بمثله. وهذا مما لا يمكن أن يشاحّ فيه عاقل منصف. فهذا هو تفسير الآية الخامسة من سورة "التوبة"، التى جعل أعداء الإسلام هِجِّيراهم التشنيعَ بها على الإسلام واتهامَه تدليسًا وافتراءً بأنه دين عدوان وإكراه. وهو تفسير يرتكز، كما رأينا، على التحليل اللغوى والسياق القرآنى والمناسبة التاريخية التى ظهر فيها النص. ولولا هذا التحليل والتفسير لَظَنَّ مَنْ لا عِلْم لهم أن ما يردده أعداء الإسلام فى هذا المضمار جَرَّاءَ امتلاخِ الآية من سياقها هو كلام صحيح.

وفى ضوء هذا التحليل ينبغى أن نقرأ صدر سورة "التوبة" بآياته الخمس عشرة كلها لا الآية الخامسة وحدها بعيدا عن سياقها. يقول تعالى: "بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ ينْقُصُوكُمْ شَيئًا وَلَمْ يظَاهِرُوا عَلَيكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يعْلَمُونَ * كَيفَ يكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيفَ وَإِنْ يظْهَرُوا عَلَيكُمْ لا يرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يعْمَلُونَ * لا يرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ ينْتَهُونَ * أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيدِيكُمْ وَيخْزِهِمْ وَينْصُرْكُمْ عَلَيهِمْ وَيشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيذْهِبْ غَيظَ قُلُوبِهِمْ وَيتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

وفى النهاية أحب أن أتوقف قليلا إزاء الحكاية التى قصها أكرم ندوى على كارلا باور مفضلا الصوفى على المجاهد فى سبيل الله: "A group of mujahidin on their way to battle stayed overnight at the lodge of some Islamic mystics, or Sufis. In the morning, one young Sufi disciple, awed by the warriors' steeds and swords, went to his sheikh and told him that he was joining the mujahidin. Armed jihad was the easy route, his sheikh warned. Far harder was the struggle to maintain a lifetime of submission to Allah. "It is easy for me to have my neck cut once," the elder explained. "It is hard for me to bow my head all the time, day after day"". وإنى لأستغرب كيف لم يجد د. ندوى غير الصوفى يفضله على المجاهد مع ما نعرفه من أن القوى الاستعمارية تشجع دائما الحركات الصوفية

وتحاول بكل ما لديها من وسائل إعلامية أن توهم الجماهير الجاهلة بأن التصوف هو الإسلام الصحيح. وللقوى الاستعمارية كل الحق فى هذا الجهد الشيطانى، إذ المتصوفة بوجه عام يعيشون على الخرافة ويروجون لها ويحولون الدين إلى فولكلور مضحك. وهم كسالى من الطراز الأول، ويحبون أن يأكلوا ويشربوا ويسكنوا ويلبسوا دون مقابل. وهل هناك ما هو أنفع وأفيد للأعداء من هذا الضرب من المتدينين الذين يتركون لهم الدنيا يعيثون فيها ما يحلو لهم على النحو الذى يحلو لهم، بل ويتعاونون معهم فى خيانة دينهم؟

ولقد درست منذ عدة أعوام هذا الجانب التدينى، فألفيت نشاط كثير من أصحابه يقوم على الكذب والباطل والتضليل ومحاولة إقناع العامة بأنهم ذوو معجزات وكرامات وأن الذهب يسيل من أطرافهم وهم يتوضأون، وأنهم يطيرون فى الهواء، ويمكنهم أن يعيشوا دون طعام أو شراب أية مدة يريدون دون أية مقاساة، ويوجدون فى مكانين متباعدين فى ذات الوقت، وتطوى لهم الأرض فيقطعون فى دقائق ما يأخذ من الآخرين أسابيع وشهورا، ويمدون أيديهم فيكبشون المال كبشا من الفضاء حولهم، لكنهم لا يبالون به لأنهم غير معنيين بالحياة الدنيا، فى الوقت الذى يخرون عليها فى الواقع عابدين إياها خاضعين لها خاشعين أمامها خشوعا جبانا مخزيا. وهناك أيضا مزاعمهم عن الاتحاد مع الله أو حلوله سبحانه وتعالى فيهم، وحديثهم العجيب عن المدارج الروحية التى يمرون بها حتى يبلغوا ذلك الاتحاد أو هذا الحلول دون أن يعتريهم انتكاس أبدا، إذ هم فى صعود دائما. وهو لون سخيف وقاتل من الغرور الروحى. وعدد منهم يدعى أنه بوصوله إلى ذلك المقام السامق قد سقطت عنه الفرائض والمسؤوليات. ومن مضحكات الحشاشين المتصوفين زَعْم أحد كبارهم المشاهير فى تاريخ الإسلام أنه كان يطير من سطح بيته والناس نيام ويجلس على سن الصارى طوال الليل. يقصد صارى الملقى الذى ينصبه البكاشون أيام الاحتفال بوَلِىّ المكان. ولكم أن تتخيلوا كيف يجلس هذا الأفاق على سن الصارى! باختصار: لقد وجدت كثيرا من الصوفية يعشقون حياة التنبلة والخدر والبكش والكذب.

وها هو ذا أكرم ندوى يفضلهم على الذين يجاهدون بأنفسهم. لا أقول إن المجاهدين على حق دوما، ولا أقول إن أسلوبهم صحيح باستمرار، ولا أقول إنهم مستعصون على الخداع والتضليل من الآخرين، وإلا ما استعملتهم أمريكا أكثر من مرة فى حرب أعدائها ثم تخلصت منهم بعدما تكون قد استنفدت أغراضها من ورائهم فتقتلهم أو على الأقل: تطاردهم فى كل مكان بالعالم لا تتركهم ينعمون

بالراحة لحظة من اللحظات، فضلا عن أنه من السهل اختراق الأعداء لصفوفهم ووصول أعتى المنافقين إلى منصب الرئاسة والتوجيه بينهم ووجود عُبّاد الدنيا بين ظَهْرانَيهم ووقوع كثير منهم فى شر غبائهم وتنطعهم، فضلا عن أنه من الممكن أن يكونوا، دون علمهم، أداة فى يد أعدى خصومهم بحيث يضحك هؤلاء عليهم فيزينون الشر لهم ويصورونه على أنه خدمة عظيمة للإسلام. كذلك فكلام بعضهم عن المعجزات أو الكرامات لا يدخل العقل كما هو الحال فى حديث الضابط الباكستانى الذى التقته كارلا باور فى تحقيق صحفى لجريدتها وتحدث عن قطع رقاب كثير من الروس فى أفغانستان على أيدى الملائكة. إن المعجزات خاصة بالأنبياء، وأنا لا أشغل نفسى بأية معجزة لم يذكرها القرآن المجيد. أما إذا كان د. أكرم ندوى يعيب على بعض زعماء المجاهدين أنهم لا يطبقون ما يدعون إليه على أنفسهم وأولادهم فكثير منهم فى ذات الوقت يقدم روحه وماله خالصين فداء لدينه ووطنه. وأيا ما يكن الأمر فإن هذا كله لا يقلب الجهاد من ناحية المبدإ عملا شريرا يعاب ويشوَّه. كما أن عموم المجاهدين فى سبيل الله بكل يقين أفضل ألف مرة من جماهير المتصوفة، الذين يلمِّعهم د. ندوى عبثا ودون جدوى. فالفرق بين هؤلاء المتصوفة وبين من يجاهد بحياته فى سبيل الله "كالفرق بين السما والعمى" على حد قول العامة عندنا فى مصر.

الجحيم الأخروى

ما إن شرعتُ أقرأ فى الفصل السادس عشر من كتاب كارلا باور عن أكرم ندوى حتى ضحكت إلى أن فطست، أو على وجه الدقة: إلى أن كدت أفطس. فقد حكى لنا الشيخ أكرم ندوى قصة ظريفة جدا عن شخص طرق عليه الباب ذات صباح، فذهب ليرى من الطارق، ففوجئ بمبشر يقدم له الكتاب المقدس ويعرض عليه الدخول فى النصرانية، فبادره الشيخ متسائلا: وماذا إن لم أومن بالنصرانية؟ هل سأدخل النار؟ ليسارع المبشر مطمئنا إياه خشية أن يعيقه الرعب من النار عن اعتناق الدين الجديد، ومن ثم قال له بكل تأكيد:لا لا، لا تخف. لن تدخل النار. إن الكتاب المقدس لا يقول هذا أبدا. فما كان من الشيخ إلا أن تركه بالباب وعاد إلى داخل البيت وأحضر له نسخة من الكتاب المقدس يمتلكها وفيها خطوط تحت النصوص الكثيرة التى تتحدث عن النار وأهوالها. لقد ضحكت وأنا أتخيل المبشر وقد باغته الشيخ بما ينكر وجوده من النصوص الكتابية زورا وعبثا.

وقد سألته المؤلفة سؤالا مباشرا: هل هناك فعلا فى الآخرة نار حقيفية؟ أم إن الأمر لا يعدو أن يكون مجازا للتعبير عن المتاعب التى سوف يواجهها الشخص هناك؟ وكان جواب الشيخ أن هناك نارا حقيقية لا ريب فى هذا، نارا كهذه التى نعرفها. وقد ذكرت المؤلفة أن من المفكرين المسلمين من يرى أن هذا كله مجاز. لكنه أصر على رأيه، وكانت هذه من المرات النادرة التى يصر فيها الشيخ على التفسير الحرفى للقرآن. ويكفى أن نقرأ قوله تعالى عن يوم القيامة: "يوم تُبَدَّل الأرضُ غير الأرض والسماوات"، وقول الرسول عليه السلام عن الجنة: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، وكذلك الأوصاف التى أدلى بها صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه المختلفة عن متع الجنة من نساء وطعام وشراب مما يختلف جذريا عما نعهده من أمور الدنيا، حتى يتبين لنا أن الأمر ليس كما يقول الشيخ. وهناك نصوص مثل قوله سبحانه: "ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأَضَلُّ سبيلا"، إذ لا شك أن العمى، بالمعنى الحقيقى، لا يمكن أن يكون فى ذاته سببا للعذاب الأخروى كما هو معروف، ولا بد من ثم أن يكون الكلام على المجاز، والمقصود الكفر والانحراف الأخلاقى. كذلك فالبشر لا يأكلون النار، ومع هذا نقرأ فى القرآن قوله عز شأنه: "إن الذِينَ يكْتُمُون ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الكِتَابِ وَيشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أولئك ما يأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ إلا النَّارَ". وبالمثل هناك فى قوله تعالى: "كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله" مجاز، إذ الحرب لا تحتاج إلى نار بالضرورة. ومثله قوله جل جلاله: "قُطِّعَتْ لهم ثيابٌ من نار"، والنار لا تصنع منها الثياب. كما أن النار التى نعرفها حين تحرق الجلد واللحم فإن

المحترق يموت وينتهى أمره، أما نار الآخرة فحين تُنْضِج الجلد ينبت مكانه جلد آخر حتى يتجدد إحساس المحترق بالعذاب إلى ما شاء الله. كذلك فأعضاء الإنسان لا تتكلم ولا تشهد على أحد، فضلا عن أن تشهد على صاحبها، إلا أنها يوم القيام سوف تتكلم وتشهد على صاحبها وتجادله وتفحمه. وفى الجحيم لن يكون هناك نار فحسب بل وزمهرير أيضا. ولا ندرى كيف يكون تعذيب الزمهرير فى النار. أما فى الجنة فلن يكون ثم شمس ولا زمهرير رغم علمنا أن البشر يحتاجون فى الدنيا إلى التعرض إلى أشعة الشمس من أجل صحة أجسادهم. من هنا فإنى أقول: هناك فعلا نار، لكنها ليست كنارنا الدنيوية أو هناك ألوان من العذاب رهيبة الإيلام سوف نقاسيها، مع ترك تحديد كيفياتها لله سبحانه.

وعلى كل فالمجاز ظاهرة من الظواهر فى كل نظام لغوى، وإن كان من علماء المسلمين من ينكر وجوده، وبالذات فى القرآن، ظنا منهم أنه كذب. والقرآن، كما يقولون، لا يمكن أن يحتوى على الكذب لأنه من عند الله سبحانه وتعالى، الذى لا يقول غير الحق. وهم، فى إنكارهم للمجاز، يتعسفون الكلام فى لَىِّ كل مجاز وإثبات أنه حقيقة. فإذا قابلوا مثلا وصف الرسول عليه السلام لفرسه بقوله "إِنْ وجدناه لَبَحْرًا"، أى شديد العدو سريعه، قالوا إن البحر معناه: واسع كبير. ومن ثم فوصف الحصان بـ"البحر" ليس على التشبيه بالبحر، بل بمعنى أنه واسع الخطوة شديد السرعة. وهذا مجرد مثال، وهو تمييع للأمور كما يظهر لكل ذى عينين. فنحن، حين نقول: "بحر" فقط ينصرف الذهن فورا وبلا أدنى تردد أو ارتياب إلى المساحة المائية المعروفة، ولا يمكن أن يتطرق الذهن أبدا إلى غير ذلك، ثم يأتى فيما بعد التعبير المجازى، فنقول عن فلان إنه بحر، أى كريم، وعن غرفة إنها بحر، أى شديدة الاتساع، وعن عالِمٍ إنه بحر، أى غزير المعرفة متدفق الكلام... وهكذا دواليك مما لم يكن فى الأصل مقصودا بكلمة "بحر" بل أضيف ويظل يضاف إليها ما دامت تستخدم على الألسنة وعلى أسلات الأقلام. ولا يشذ القرآن عن هذا، فهو يقول مثلا عن الكافرين الذين ألغَوْا عقولهم ولم يعودوا يميزون بين الحق والباطل: "دوابّ" فى قوله تعالى ذكره: "إن شر الدواب عند الله الصُّمُّ البُكْمُ الذين لا يعْقِلون"، "إن شر الدوابّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون". ومثله قولنا عن أى شخص غبى بليد الذهن إنه "حمار" مما لم يكن موجودا فى الكلمة فى الأصل، لكنه ألحق بمعناها حين لوحظ أن الحمار غبى بليد. ومنها قول القرآن عن اليهود: "مَثَلُ الذين حُمِّلُوا التوراةَ ثم لم يحملوها كمَثَلِ الحمارِ يحمل أسفارا". كما قد نصف شخصا ثالثا بأنه "ينهق" إشارة إلى أنه قبيح الصوت مزعجه، فتكون هذه إضافة لمعنى النهيق لم تكن متضمَّنة فى الكلمة من قبل، بل جَدَّتْ مع الأيام. ويؤكد هذا أننا نقول أيضا عن شخص آخر إنه "حمار

شغل "، فلا تكون هذه العبارة سبابا وإهانة كالعبارات السابقة، بل تدل على صبره على أداء الواجب الثقيل وانخراطه فى العمل دون توانٍ أو كسل أو تذمر من كثرة الشغل الذى يتعين عليه إنجازه. وفى قول القرآن عن نفور المشركين من القرآن وفرارهم من سماع كلمة الحق: "كأنهم حُمُرٌ مستنفِرَة * فَرَّتْ من قَسْوِرة" معنى آخر هو النفور الشديد عن مواجهة الحقيقة والخوف من الاستماع إلى رسالة القرآن وكأنها أسد لا يملك الحمار أمامه سوى الهروب بأقصى طاقته. وهذا معنى جديد على الكلمة. كما يطلق "الحمار" أيضا على خشبة فى مقدمة الرحل تقبض عليها المرأة وهى فى مقدَّم البرذعة، فيكون هذا استعمالا آخر لم يكن الكلمة تعرفه قبل ذلك. و"حمار الصَّيقَل" خشبته التى يصقل عليها الحديد. فهذا استعمال جديد كذلك لم يكن للكلمة به عهد أول ظهورها... وهلم جرا. وكل أهل لغة يفرقون بين الحقيقة والمجاز فى استعمالاتهم لها، اللّهم إلى المتنطعين الذين يعترضون على ما لا يقبل اعتراضا ولا إنكارا. وقد قيل عن حق إن المجاز هو شطر الحسن فى الكلام. وهذا صحيح، فإنه يضفى على اللغة ثراء وإدهاشا وجمالا يبعث النشوة فى النفوس. والحديث فى هذه المسألة يطول، ويجد القارئ مناقشة أكثر تفصيلا وأوسع مدى للموضوع فى كتابى: "منكرو المجاز فى القرآن والأسس الفكرية التى يستندون إليها".

هذا، وقد جاء فى الفصل الحالى من كتاب كارلا باور ذكر الصحفى النمساوى اليهودى الذى أسلم فى منتصف عشرينات القرن الماضى فى السعودية: محمد أسد، وروت المؤلفة مدح الشيخ الفائق له. فهل يعرف الشيخ أن أسد يقول بالمجاز فى الجنة والنار وفى المعجزات النبوية وفى أشياء أخرى كثيرة فى القرآن المجيد كما تقول ترجمته للقرآن: "The Message of the Qur'ân"؟ إن فى القرآن نصوصا كثيرة تتحدث عن معجزاتٍ وقعت على يد عدد من الأنبياء والرسل، وفيه أيضا آيات أخرى تقول لمشركى مكة، الذين كانوا يتعنتون على الرسول صلى الله عليه وسلم مطالبين إياه أن يأتيهم ببعض المعجزات كما كان يفعل الأنبياء السابقون، إن المعجزات لم تُجْدِ مع الأمم الخالية، إذ ظلوا على كفرهم رغم وقوع ما طلبوه منها. ومع هذا فإن بعض المفسرين فى العصر الحديث قد درجوا على تأويل هذه المعجزات بما يخْرِجها عن إعجازيتها ويلْحِقها بالحوادث المعتادة التى تخضع لقوانين الطبيعة المطردة، ومن هؤلاء محمد أسد. وقد سبقه إلى هذه الخطة المفسرون القاديانيون مثل مولاى محمد على وملك غلام فريد فى ترجمتيهما التفسيريتين للقرآن الكريم إلى الإنجليزية. ولعل مولاى محمد على هو الوحيد الذى ورد اسمه فى ترجمة محمد أسد من بين المفسرين غير العرب، ولهذا دلالته.

لقد ذكر القرآن المجيد فى ثلاثة مواضع منه تهديد قوم إبراهيم عليه السلام له بتحريقه فى النار وأن الله أنجاه من كيدهم. وإذا كانت العبارة فى موضعين من هذه الثلاثة لا تحدِّد أَأُلْقِىَ خليلُ الله فى النار فعلا أم لا، فإن الموضع الثالث واضح الدلالة فى أنه قد أُلْقِىَ فيها لكن الله منعها من إحراقه، وذلك فى قول رب العزة: "قالوا (أى قومه عليه السلام): حَرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا:يا نارُ، كُونِى بَرْدًا وسلاما على إبراهيم". بَيدَ أن محمد أسد يؤكد أنه "لم يحدث أَنْ ذَكَر القرآن فى أى موضع منه أن إبراهيم قد أُلْقِىَ بجسده فعلا فى النار وبقى حيا فيها، بل إن قوله تعالى فى الآية ٢٤ من "العنكبوت"، على العكس من ذلك، يشير إلى أنه لم يلْقَ فى النار. وفضلا عن هذا فبمستطاعنا تتبع مصدر القصص الكثيرة المستفيضة والمتعارضة التى طَرَّزَ بها المفسرون القدامى تفسيرهم للآية التى نحن بصددها، فى الخرافات التلمودية، ومن ثم فمن الممكن أن نلقى بها دُبْرَ آذاننا. أما ما يقوله القرآن هنا وكذلك فى آية "العنكبوت" والآية ٩٧ من "الصافات" فلا يزيد، فيما يبدو، عن أن يكون إشارة رمزية إلى نار الاضطهاد التى كان على إبراهيم أن يقاسيها والتى ستصبح بعد ذلك، بسبب عنفوانها، مصدر قوة روحية وسلام باطنى له".

ولنا على هذا الكلام كلام مثله: فأولا ليس فى القرآن البتةَ ما يدل على أن خليل الرحمن لم يقْذَف به فى النار، وإلا لكذَّب القرآن بعضُه بعضًا، فإن آية "الأنبياء" تقول بصريح العبارة إنه سبحانه قد أمر النار أن تكون "بردا وسلاما على إبراهيم" بما يدل على أنه قد ألقى فيها فعلا، لكنه سبحانه سَلَبَ عنها خاصّة الإحراق. وعلى أية حال فها هى ذى آية "العنكبوت" أضعها مرة أخرى تحت بصر القارئ ليحكم بنفسه، إذ تقول: "فما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا :اقتلوه أو حرِّقوه، فأنجاه الله من النار"، فهل يرى القارئ الكريم فيها أن قومه عليه السلام لم ينفذوا فعلا ما عزموا عليه؟ ألا يوافقنى على أن هذه الآية مظلومة؟ ومثلها آيتا "الصافات"، وهذا نصهما: "قالوا : ابنوا له بنيانا فأَلْقُوه فى الجحيم * فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين". إذن فنحن أمام نصوص قرآنية ثلاثة: اثنان منها لا يقولان إن إبراهيم لم يلق به فى النار، وثالثها يقول إنه قد قذف به فيها لكن الله جردها من طبيعتها المحرقة.

أما تأويل أسد لهذا النص الأخير بأن المقصود هو نار الاضطهاد فقائم على التكلف العنيف، إذ قد دخل الموضوع وفى ذهنه إنكار المعجزات، وإلا فأين فى الآية ما يدل على أن المراد شىء غير الظاهر؟ الحقّ أنْ ليس فى الآية ما يدل على شىء من ذلك، وإنما اعتقاد بعض الناس، حتى من بين المسلمين أنفسهم، فى أن قوانين الكون لا يمكن إيقافها أبدا هو المسؤول عن الرغبة فى صرف مثل هذه الآيات

عن ظاهرها إلى تلك التمحُّلات الغريبة. ولكى يطمئن القارئ إلى ما أقول ألفت نظره إلى أن "نار الاضطهاد" التى يذكرها أسد لم تكن خاصة بإبراهيم وحده، بل كل الأنبياء والرسل قاسَوْا لَظَاها، فكانت فى نهاية الأمر بردا وسلاما عليهم، فلماذا يا ترى لم يذكرها القرآن إلا فى حالة إبراهيم وحده دون سائر الرسل والأنبياء؟

وبالنسبة لعيسى عليه السلام نجد محمد أسد يؤوِّل كلامه فى المهد بأنه إشارة مَجَازية للحكمة النبوية التى كانت تلهم عيسى منذ وقتٍ جِدّ مبكر من حياته. لكننا نعرف أن اليهود، عندما أشارت إليه أمه وهو لا يزال فى المهد كى يسألوه فيما يريدون أن يعرفوه عن السر فى ولادتها إياه دون زواج، كان ردهم عليها: "كيف نكلِّم من كان فى المهد صبيا؟"، وحينئذ أجابهم عيسى بقوله: "إنى عبد الله، آتانى الكتاب وجعلنى نبيا"، فماذا يقول أسد فى هذا؟ إنه يؤوِّل الزمن الماضى هنا فى "آتانى" و"جعلنى" بأنهما يدلان على أن ذلك سوف يحدث فى المستقبل لا أنه حدث فى الماضى. وجوابنا هذا يدل على صحة ما قلناه عن هذه الآية، إذ معنى الكلام حسب تأويله هو أن الله سيؤتينى الكتاب وسيجعلنى نبيا فى المستقبل، ومعنى هذا بدوره أنه عليه السلام لم يكن قد أصبح نبيا بعد، ومعنى هذا ثالثا أنه كان صغيرا حقا، أليس كذلك؟ وإلا فلو لم يكن عيسى قد تكلم فعلا فى المهد فلماذا لم يذكر القرآن ذلك عن غيره من الأنبياء أيضا، وكلهم بحمد الله قد رعى الله خطواتهم منذ بداية حياتهم وصنعهم على عينه؟ ولماذا يوافق القرآن ما جاء فى بعض الأناجيل من أنه عليه السلام قد تكلم فعلا فى المهد؟ أيعْقَل أن يحكى القرآن القصة كما رواها أحد الأناجيل مما يؤكد وقوعها، ثم ينقلب على نفسه وعلى ذلك الإنجيل مغمغما فى همس لم يسمعه إلا محمد أسد ومن يلفّون لفّه بأن شيئا من ذلك لم يقع، وإنما هو كلام فى الهواء؟ وبالمناسبة فإن القاديانيين هم أيضا ينفون كلام عيسى فى المهد ويؤولونه بما يخرجه عن إعجازيته. وهذا هو ديدنهم مع الآيات الخوارق التى يؤيد الله بها أنبياءه ورسله كما قلنا.

الواقع أننى لا أستطيع أن أوافق محمد أسد على ذلك المنهج الذى سلكه واتفق فيه مع جماعة القاديانيين، تلك التى ظهرت فى الهند فى القرن التاسع عشر، وكان لبعض رجالها صولة فى باكستان إبان نشأتها فى منتصف القرن الماضى، وهو الوقت الذى كان فيه أسد هناك يعمل فى وزارة الخارجية، وبالذات فى الوفد الباكستانى إلى الأمم المتحدة قريبا من ظفر الله خان (القاديانى)، الذى كان وزيرا للخارجية الباكستانية ورئيس وفد الباكستان إلى الأمم المتحدة فى تلك السنين. وسبب مخالفتى لأسد أن القرآن قد أثبت المعجزات لعدد من الرسل والأنبياء بعبارات لا تحتمل تأويلا إلا إذا حطمنا قواعد اللغة

والمنطق، فضلا عن أن الآية ٥٩ من سورة "الإسراء" تقول بصريح العبارة ردا على مطالبة مشركى قريش لمحمد عليه السلام بأن يأتيهم بمعجزة كى يصدقوه ويؤمنوا به: "وما مَنَعَنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون"، وهو ما يدل على أنه كانت هناك معجزات يظْهِرها الله للكفار ثم توقفت عند مجىء محمد. والآن ما معنى هذا؟ إننا لو جارينا الأستاذ أسد لترتب على ذلك أن القرآن قد اتبع فى الرد على الكفار منهجا عبثيا: فهو قد أثبت المعجزات للرسل السابقين رغم أنه لم تكن هناك معجزات ولا يحزنون، مُطْمِعًا بذلك المشركين فى التعنت على الرسول والإلحاح فى مطالبته أن يأتيهم هو أيضا بمعجزات مثل الأنبياء السابقين عليه الذين أقر هو نفسه أن الله كان يعضدهم بها، ومُوقِعًا نفسه بهذه الطريقة فى مأزق غريب لا يجد مخرجا منه إلا بالقول بأن عصر المعجزات قد ولى. ولقد كان فى غنى عن هذا كله لو قال من البداية إنه لم تكن هناك معجزات فى أى وقت، وإنه لم يحدث أنْ أتى أى رسول أو نبى بشىء منها، أو لو أنه على الأقل قد سكت فلم يتعرض لهذه النقطة، حتى إذا طالب المشركون الرسول بمعجزة كان جواب القرآن عليهم: "ومن قال لكم إنه كانت هناك معجزات حتى تطالبوه بمثلها؟". أيعْقَل أن يضع الله سبحانه رسوله فى هذه الزاوية الضيقة الحرجة دون أدنى داع؟ وحتى لو قلنا إن الرسول هو مؤلف القرآن (أستغفر الله!) فإنه لم يكن ليوقع نفسه فى هذه الورطة التى لا يحْسَد أحد عليها، وهو العبقرى الراجح العقل البعيد النظر. ثم كيف يتفق القرآن الكريم مع ما جاء فى العهدين القديم والجديد عن معجزات موسى وعيسى بالذات رغم تأكيده أنهما قد تعرضا للعبث والتحريف؟...

وعلى أساس من التأويل أيضا نراه يتناول الجَنّة والنار وما فيهما من نعيم وعذاب، فهو يؤكد أن أوصاف الجنة من أكل وشرب ولبس، وكذلك كلّ ما يتعلق باليوم الآخر فى القرآن، إنما هى تعبيرات رمزية لتقريب هذه الأمور، ولا يصح فهمها على ظاهرها بأية حال: فـ"اتكاء أهل الجنة على فُرُشٍ بطائنها من إستبرق" كما جاء فى الآية ٥٤ من سورة "الرحمن" معناه عنده الراحة التامة والسلام الشامل لا أكثر ولا أقل، "والرحيق المختوم" المذكور فى الآية ٢٥ من سورة "المطففين" مجرد إشارة رمزية لمشاعر البهجة الأخروية المركزة التى لا تخطر على قلب بشر، و"ضَحِكُ الذين آمنوا فى الجَنّة من الكفار" فى نفس السورة هو مجرد معنى مجازى يشير إلى سعادتهم بحظهم الطيب لأن مثل ذلك الضحك مما لا يليق بالمؤمنين، و"أنكال" سورة "المدثر" التى أعدها الله يوم القيامة لأهل الجحيم ليست سوى رمز على بقاء النفس فى العالم الآخر مقيدة بمتعها وشهواتها الجسدية، ومن ثَمَّ لا تستطيع بلوغ عالم الروح والصفاء،

و"ضَرِيع" سورة "الغاشية"، وهو فيها طعام أهل النار، إنما هو مشتق من "الضراعة"، وليس إلا تعبيرا مجازيا... وهكذا.

ومن الواضح أنه ينظر إلى متع الجسد نظرة تقززية وأن الحياة الآخرة لديه إنما هى حياة روحية محضة. وهذه نظرة شائعة بين قطاع من المسلمين، ولا أعرف لماذا، ولا على أى أساس من آيات القرآن أو أحاديث النبى يقولون بذلك، ولا لأى سبب يحتقرون الجسد ويعلون من شأن الروح وحدها. إن كلا من الجسد والروح هو صنعة الله، فلماذا نحتقر ذلك ونفضل هذه عليه؟ ألأن الجسد يمرض ويشيخ ويتغضن ويفرز البصاق والعرق والعماص والبلغم والبول والبراز والقيح والصديد وتتغير رائحته مع مرور الوقت؟ سبحان الله! وهل الروح بمنأى عن العيوب والثلمات؟ ألا يشعر الإنسان بالملل والضيق واليأس والشح والحقد والغرور والضعة والأنانية والشك والسهو والنسيان والغباء واشتهاء المحرمات؟ أليست هذه ألوانا من النقص تعترى الروح البشرية، وغيرها كثير؟ إذن فلم تلك النظرة الدونية للجسد؟ ثم من قال إن أجساد أهل الجنة ستكون كأجسادنا هنا على الأرض؟ إن آيات القرآن وأقوال الرسول واضحة الدلالة على أنها ستكون خالية من كل ما يسبب لنا الألم والضيق والتقزز فى الدنيا، فما المشكلة إذن؟

والآن ماذا يا ترى يقول أكرم ندوى فى محمد أسد؟ وماذا يقول فيه كذلك حين يعرف أنه ينفى العصمة عن الأنبياء ويرى أنهم يرتكبون الكبائر والفواحش؟ إنه يلح على بشرية الرسل والنبيين، وهذا أمر لا يمكننا المشاحة فيه، إلا أنه دائما ما يجعل إشارته إلى بشرية الرسل والأنبياء منطلقا للقول بأنهم، مثل سائر البشر، معرضون للخطإ كلما سنحت الفرصة. فعلى سبيل المثال يقول، عند تعليقه على قوله تعالى: "وما أرسلنا مِنْ قَبْلِك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى أَلْقَى الشيطانُ فى أمنيته، فينسخ الله ما يلْقِى الشيطانُ ثم يحْكِم الله آياتِه، واللهُ عليمٌ حكيمٌ"، إن إلقاء الشيطان فى أمنية النبى والرسول معناه ألا يكون هدفهما الأخذ بيد أمتهما فى معراج الرقى الروحى، بل إحراز القوة والتأثير الشخصى. لكن أىُّ نبى أو رسول يا تُرَى استطاعت الشياطين أن توسوس له بوضع مطامحه فى القوة والنفوذ الشخصى فوق الغاية النبيلة التى انتدبه لها رب العزة والجلال؟ ها هو ذا القرآن الكريم بين أيدينا، وليس فيه شىء من ذلك على الإطلاق.

وفى كلمته التمهيدية التى يقدم بها لسورة "القصص" يقول إن "معظم قصة موسى فى تلك السورة تصور الجانب البشرى الخالص فى حياته، أو بتعبير آخر تصور الدوافع وألوان الحيرة والأخطاء

التى تشكل جزءا من الطبيعة البشرية، وهو ما يبرزه القرآن إبرازا رغبة منه فى مقاومة أى ميل عند المتدينين إلى عَزْو أية صفات شبه إلهية إلى أحد من رسل الله". وبعد قليل يعقِّب على اقتتال المصرى والإسرائيلى وتدخُّل موسى عليه السلام ووَكْزه للمصرى الوكزةَ التى قضت عليه دون قصد منه، فيقول إن "الآيتين ١٦-١٧ من هذه السورة تومئان إلى أن الإسرائيلى لا المصرى هو المخطئ. والظاهر أن موسى قد تقدم لمساعدة الإسرائيلى بدافع من الميل الغريزى نحو ابن جلدته دون اعتبار للصواب والخطإ فى هذه القضية، وإن كان قد تبين له أنه اجترح إثما فظيعا، لا بقتله إنسانا بريئا فقط رغم أنه قتل غير مقصود، بل بإقامته تصرفه كذلك على أساس من التحيز العنصرى".

وفى أحد الهوامش التى خصصها للتعليق على قصة يونس عليه السلام وإبَاقه إلى الفُلْك المشحون حين لم يجد من قومه آذانا صاغية، نراه يختم كلامه بقوله إن الهدف من هذه القصة فى القرآن هو تفهيمنا أنه، ما دام قد "خُلِق الإنسان ضعيفا" كما جاء فى سورة "النساء"، فإن الأنبياء أنفسهم غير محصَّنين ضد أى من ألوان الضعف المركوزة فى الفطرة البشرية. وهو ما يعنى بوضوح أنهم عليهم السلام يمكن أن يرتكبوا أى شىء مما يقع فيه البشر هانَ أو عَظُم. وقد كرر المعنى ذاته فى تفسيره لقوله جل جلاله مخاطبا نبيه محمدا عليه السلام: "ليغفرَ لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر"، إذ يؤكد أن الإنسان مهما ارتقى فى معراج الخُلُق وكان حميد السجايا فإنه عرضة للوقوع فى الخطإ بين الحين والحين، وأن الآية تشير من طَرْفٍ خفىٍّ إلى أن التحرر من الأخطاء مقصور على الله سبحانه.

وفى ضوء هذا نستطيع أن نفهم قوله بصدد الحديث عن الخَصْمين اللذين تسوَّرا المحراب على داود عليه السلام وشكا أحدهما الآخر إليه بأنه طلب منه نعجته الوحيدة التى لا يملك سواها كى يضمها إلى قطيعه المكوَّن من مائة نعجة...إلخ، إذ تساءل قائلا: هل الأنبياء معصومون من الذنوب والخطايا كما يقول علماء المسلمين القدامى أو لا؟ ثم يجيب بأن هؤلاء العلماء يذكرون أن داود قد أحب امرأة قائدة العسكرى أوريا ورسم خطة للتخلص منه لكى يخلو له وجه الزوجه، إذ أمر بأن يوضع فى مكان مكشوف على خط المواجهة مع الأعداء حيث قُتِل، وعندئذ تزوج داود المرأة وأنجب منها سليمان، وإن أنكروا فى ذات الوقت أن يكون قد زنى بها إنكارا شديدا. ومن الواضح هنا أيضا أن أسد مع عدم عصمة الأنبياء.

لكن لو أن داود عليه السلام قد صنع بأوريا هذا الذى ادُّعِىَ عليه أكان الله سبحانه تارِكَه دون مؤاخذة، وهو الذى عرَّض يونسَ عليه السلام لتلك التجربة المرعبة المؤلمة، تجربة ابتلاع الحوت له

وبقائه فى بطنه أياما وليالى، لمجرد غضبه من قومه وإباقه إلى الفلك المشحون بسبب صلابة رقابهم ولجاجهم فى الكفر والطغيان؟ إن التآمر على قتل إنسان برىء طمعا فى زوجته الجميلة ليس بالأمر الهين الذى يمكن أن تُعَدِّىَ عنه السماء بمثل هذه البساطة، وإلا فالعفاء على الأخلاق بل على النبوة ذاتها! والمضحك فى الأمر أن من قبلوا من علماء المسلمين على داود هذه الدعوى السخيفة بل المجرمة كانوا حرصاء فى ذات الوقت على أن يبرئوه من تهمة الزنا، وكأن قتل الأبرياء بدم بارد وتخطيط مسبق ودون خالجة من ضمير ليس بشىء بجانب هذه التهمة!

إن القصة القرآنية تقول إن الأخ الغنى لم يأخذ من أخيه الفقير نعجته فعلا، بل كل ما فى الأمر أنه سأله ضمَّها إلى نعاجه. فهذا كل ما هنالك، وإذن فلو أن هذين الخصمين ملاكان أرسلهما الله إلى داود، كما جاء فى بعض كتب التفاسير، لينبهاه على سبيل التلميح إلى الجريمة التى ارتكبها، فأى جدوى من هذا التصرف ما دام قد سبق السيفُ العَذَل وتمت الجريمة ولم يعد من سبيل لتداركها؟ إن هذا عبث لا تليق نسبته إلى المولى عز وجل، الذى كان قادرا على أن ينبه نبيه فى هذه الحالة تنبيها مباشرا يمنع الجريمة قبل وقوعها بدلا من تركه يقترفها ثم عتابه له بعد فوات الأوان؟ ثم إذا كان الأنبياء يمكن أن يجترحوا جريمة القتل والتآمر على هذا النحو، فما الفرق بينهم إذن وبين عتاة المجرمين؟ إن الإنسان العادىّ لا ينحط إلى هذه الدركة، فكيف يتَدَهْدَى إلى مثلها الأنبياء والمرسلون، الذين اصطفاهم الله على سائر خلقه وصنعهم على عينه وجعلهم من الأخيار أُولِى الأيدى والأبصار وزودهم بالحكمة والتقوى على أحسن حال؟ وفضلا عن ذلك فالقرآن نفسه يقول عن داود عليه السلام فى سورة "ص" ذاتها: "وإن له عندنا لَزُلْفَى وحُسْنَ مآب"، فكيف يمدحه الله سبحانه هذا المديح العظيم ويأتى بعضنا فيتهمه تلك التهمة الشنيعة جريا وراء اليهود الملاعين الذين لم يتركوا نبيا ولا رسولا إلا افترَوْا عليه أشنع ضروب البهتان فى كتبهم؟ أنكذِّب القرآن ونصدق العهد القديم؟

ونأتى إلى وَكْزَة موسى، التى ينبغى ألا يفوتنا أنها كانت قبل النبوة وكانت مجرد وَكْزَة أراد بها عليه السلام أن يدفع العدوان أو ما ظنه عدوانا على ابن جلدته فى بلدٍ كان الاضطهاد والعسف يتناوشان بنى إسرائيل فيه لا لشىء إلا لضعفهم وهوانهم وقلة حيلتهم آنئذ، لكن كانت للأقدار مشيئة أخرى، إذ مات المصرى بسببها. وأغلب الظن أنها كانت "القشة التى قصمت ظهر البعير". أى أن أسباب الموت كانت مهيأة لطَىّ صفحة ذلك الرجل من الوجود، كأن يكون مصابا بأزمة قلبية مثلا، فجاء وَكْز موسى فى ذلك الوقت مصادفة واتفاقا ليكون هو العامل الظاهرى الذى أودى بحياته. ولنلاحظ أن موسى قد

أنَّبه ضميره على الفور ولذَّعه تلذيعا شديدا، فأخذ يستغفر ربه ويبتهل إليه نادما أشد الندم رغم أنها ليست سقطة أخلاقية كما قلنا.

ومن الأسئلة التى وجهتها كارلا باور أيضا للشيخ السؤال التالى: ما الذى سوف يحدث فى الآخرة لواحدة مثلى لا تؤمن بدين، بل تعتقد فقط فى وجود إله على نحو ما؟ والإجابة الجاهزة هى: طبعا ستدخل النار. وهذا فعلا ما قاله لها الشيخ أكرم، وإن حاول تلطيف الكلام بقدر ما وسعه التلطيف. لكن ينبغى أن يفصَّل الكلام فى تلك القضية بعض التفصيل حتى تتضح الصورة من كل جوانبها. يقول سبحانه وتعالى: "لا يكلف الله نفسها إلا وسعها"، ومعروف أن الوسع يختلف من إنسان لإنسان: فهل نتوقع مثلا أن يفهم الطلاب جميعا كل ما فى الكتاب المقرر، وبنفس الدرجة من العمق والصحة؟ وهل نتوقع من الأعشى أن يبصر الألوان إبصارا صحيحا كسليم العينين؟ وهل نتوقع من المريض العليل الهزيل أن يرفع من الأثقال ما يرفعه بطل الحديد فى هذا المضمار؟ وعلى نفس الشاكلة هل نتوقع من الناس جميعا رغم اختلافهم فى الذكاء وسعة الاطلاع وعمق التفكير والمرونة العقلية والنفسية والخلفية الحضارية والدينية والاجتماعية والقومية أن ينتهوا إلى الإيمان بالإسلام وأن يؤمنوا به الإيمان الصحيح متى ما عُرِض عليهم؟ هل الأوربى الذى ملأه القساوسة والمبشرون والحاخامات والمستشرقون تعصبا ضد الإسلام ونبيه وعاش طول عمره يسمع عن سيدنا رسول الله الأكاذيب يكون إيمانه بالإسلام بنفس السهولة التى يؤمن بها من أتى من بيئة ثقافية وحضارية وعقلية غير مبغضة لسيدنا رسول الله، ووجد من أبيه أو أخيه أو صديقه أو أستاذه مثلا تفهما وتشجيعا على تتبع الحق والاستمساك به متى تبين له أنه هو الحق؟ هل اليهودية الأمية العجوز التى لا يمكن أن تشك طرفة عين فى صحة دينها حسبما تربت ونشأت سوف تحاسب يوم القيامة على عدم مسارعتها إلى اعتناق الإسلام عند عرضه عليها بنفس الصرامة التى يحاسب بها مسلم باع نفسه للشيطان عمدا مع سبق الإصرار لقاء منصب أو مال أو خوفا من فضيحة مخزية أمسكها عليه شياطين الإنس، وترك دينه وارتد عنه إلى الكفر؟ بطبيعة الحال لا. ثم عندنا كذلك قوله عز من قائل: "ومن يشاقِقِ الرسولَ من بعدما تَبَيَنَ له الهُدَى ويتَّبِعْ غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تَوَلَّى ونُصْلِه جهنمَ، وساءت مصيرا" مما يفهم منه أنه لا بد أن يتبين له الحق لكنه يعاند ويتمرد ويصر على الكفر حتى يصلى جهنم، وإلا فلا. وكذلك لدينا قول رسولنا العبقرى العظيم: "من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد". معنى ذلك أن المجتهد، أى الباحث الذى لم يأْلُ جهدا ولم يدخر وسعا وأخلص فى التحقيق والتدقيق والتقصى

ولم يتيبس مخه عنادا وعصيانا بل كان مرنا منفتحا، لن يعدم الأجر إن شاء رب العباد. فماذا يريد الواحد أعظم من هذا؟ إنه إذن لجاحدٌ للنعمة يستحق ضرب القباقيب!

وأنا من الذين يعتقدون أن رحمة الله واسعة لدرجة مذهلة بشرط أن يبذل الإنسان كل ما فى وسعه بحثا عن الحق وعملا للخير، فرحمته وسعت كل شىء كما جاء فى القرآن، ورحمته سبقت غضبه كما يقول الحديث القدسى، والله سبحانه يغفر الذنوب جميعا كما ورد فى سورة "الزُّمَر". وإذا كان القرآن يحكى عن جهنم على لسان المولى سبحانه: "يومَ نقول لجهنم: هل امتلأتِ؟ وتقول: هل من مَزِيد؟" ويقول جل وعلا: "لأملأن جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين" مما يفهم منه أنها تطلب دائما المزيد فإنه سبحانه هو نفسه القائل فى كتابه العزيز أيضا وصفا للجنة: "جنةٍ عَرْضُها السماواتُ والأرضُ" مما يفهم منه أن جهنم رغم طلبها المزيد دائما ليست بالنسبة إلى سعة الجنة شيئا يذكر. على أن يكون واضحا أننى لا أتكلم عن شخص بعينه، بل أكتفى برسم الخطوط العامة. إلا أن الذى لا أفهمه هو أن كارلا باور، حسبما تخبرنا فى كتابها، قد وجدت نفسها وعزاء قلبها فى القرآن وأَلْفَتْ صورة الله فيه جليلة عظيمة، بل استولى عليها القرآن استيلاء، لكنها رغم ذلك لم تسلم، أى لم تقم بالقفزة اللازمة من عدم الإيمان إلى الإيمان. إنه موقف غير مفهوم لأنها، فيما يبدو لى، ليس لها عذر فى اتخاذ هذا الموقف، وبخاصة أنها قضت ردحا طويلا من الزمن استفسرت فيه عن كل شىء فى الإسلام. لكن هذا هو مصيرها هى لا مصير أحد آخر، وهى حرة فى اتخاذ القرار الذى يرضيها، وهى الوحيدة التى سوف تتحمل جريرته.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد كان عندى طالب فى تسعينات القرن الماضى يأتى إلَيَّ فى مكتبى بالكلية ويسألنى عن مصير الجاحظ يوم القيامة، وهل سيدخل الجنة أو لا؟ فأعاجله بدورى ضاحكا: ولكن لم الجاحظ بالذات؟ فيقول لى: لأنه معتزلى! فأغرق فى الضحك وأقهقه ملء صدرى وملء جيوبى وأكمامى وشنطتى وأدراج مكتبى، وملء الغرفة وباحات الجامعة كلها، بل ملء الكون أجمع. وهنا يعيد السؤال، فأجيبه وأنا لا أزال أضحك: وهل قالوا لك إننى سوف أقف على باب الجنة أنظم الدخول إليها، فأسمح لهذا بالولوج، وأحرم ذاك وأرده خائب المسعى؟ بل هل أستطيع أنا أن أعرف مصيرى فى ذلك اليوم؟ إننى سأكون أسعد السعداء لو نجوتُ من النار ولو بلجنة رأفة. ثم أكر عليه مهاجما هجوم الدعابة وأنا أنظر إلى أسنانه البنية: طبعا أنت تدخن؟ فيقول: نعم، وأنت تعرف ذلك. فأعقِّب قائلا: لكن عمنا الجاحظ لم يكن يدخن. ثم أسأله كرة أخرى: وهل تصلى دائما؟ فيقول لى فى انكسار: أحيانا وأحيانا. فأعلق بقولى: لكن عمنا الجاحظ، فيما أتصور، كان يصلى كل الصلوات. ثم

أضيف السؤال التالى: وهل تقرأ كثيرا كما ينبغى أن يفعل طالب ناضج مثلك طبقا لما يريد الإسلام من أتباعه؟ فيقول وقد أخذ القلق يداخله: لا، بل قراءتى قليلة. فأقول: أعرف هذا الذى تقول، بينما عمنا الجاحظ كان يكترى دكاكين الوراقين ويقضى فيها يومه وليله يقرأ ويقرأ ويقرأ حتى لتقول الرواية إن الكتب سقطت عليه ذات ليلة فمات. ثم أعاجله بسؤال آخر: وهل تكتب مدافعا عن الإسلام كما كان يفعل الجاحظ؟ بل هل تكتب شيئا أصلا تنوّر به العقول وتروّح به عن القلوب؟ فيبسط كفيه إلى الأمام كأنه يقول: أنا، يا مولاى، كما خلقتنى! فيرتفع صوتى بالقهقهة قائلا له: ثم تطاوعك نفسك يا منحوس أن تأتى فتسألنى عن مصير الجاحظ متصورا أنه لن يريح رائحة الجنة بعد هذا كله؟ اغرب عن وجهى يا ولد! فيبتسم من مداعبتى ويجلس إلى جوارى صامتا، وأستمر أنا فى الضحك!

لكن لماذا ينظر هذا الطالب إلى الجاحظ على هذا النحو؟ لقد أفهمه هو وأمثالَه بعضُ المشايخ أن العقيدة الإسلامية الصحيحة التى لا يقبل الله سبحانه أبدا سواها هى عقيدة أهل السنة والجماعة. وعلى هذا فقد احتكر أهل السنة الجنة والفردوس وحجزوا كل الأماكن، ولم يعد هناك ولا خرم إبرة لغيرهم. فالشيعة والخوارج والمعتزلة ولا أدرى مَنْ أيضا من الفرق والمذاهب مصيرهم جهنم الحمراء بلا مثنوية ولا تردد. إن الأمور عندهم مجرد قوالب كلامية محفوظة يرددونها آليا كما سمعوها من أولئك المشايخ. وعبثا أفهم أمثال هؤلاء أن الإسلام عبارة عن أوتوستراد رحيب شديد الاتساع يضم مسارات كثيرة مَنْ يسلك أحدها مجتهدا مخلصا لا يفتئت على غيره ولا يظلمه ولا يفكر فى إيذائه فهو ناجٍ بمشيئة الله وكرمه ورحمته. وليس من المعقول أن نحول هذا الأوتوستراد إلى خيط عنكبوت معلق فى الهواء عبر جهنم، وعلى من يريد دخول الجنة أن يعدو عدوا فوق هذا الحبل من غير استعانة ولا بزانة خشب يحفظ بها توازنه، ودون أن يتطوح جسمه يمينا أو شمالا بل دون أن يهتز له جفن أو يضطرب له قلب، وإلا سقط فى الحال فى الهوة الفاغرة فاها تحته تتلظى فيها ألسنة اللهب تلمظا لأى عابر من غير أهل السنة والجماعة. ثم أقول لهم: إن كل فرقة من فرق المسلمين ترى فى نفسها أنها الفرقة الوحيدة الناجية، والباقون ضائعون لا محالة، لكن الله أرحم بعباده من أن يلزمهم خطا واحدا أدق من الشعرة وأحد من السيف مَنْ خرج عنه قِيدَ أنملة هلك هلاكا أبديا، وإن الناس مختلفة فى العقول والأذواق والمشارب والاقتناعات. وبعض معارفى يظنون أننى معتزلى رغم ما يقرأونه فى كتبى من انتقادات لبعض آراء المعتزلة، مثلهم فى هذا مثل سواهم من الفرق، إذ أبين ما فى كل فرقة من حسنات وعيوب حسب

اجتهاداتى، مردفا أننى أنا أيضا عرضة للوقوع فى الأخطاء، وأنه سوف يأتى من يكتشف فى كتاباتى عيوبا ويدل الناس عليها مثلما أصنع أنا مع الآخرين.

وأذكر فى هذا المجال أنى كتبت منذ سنوات بحثا من عشرات الصفحات تناولت فيه التهمة المعلقة فوق رأس ابن المقفع بأنه زنديق، وطالعت كل كتاب له صلة بالموضوع، وحللت تحليلا مفصلا مرهقا جميع ما وصلنا من مؤلفات الرجل وما قيل عنه وعن حياته وأخلاقه وتصرفاته وعلاقاته بالآخرين وما عُزِى له من أقوال، وسافرت بعقلى وفكرى عبر الأزمان والأمكنة المختلفة، بعد أن استعنت بكل صديق يمكنه مساعدتى، ومنهم صديق مصرى فى سويسرا أمدنى بصورة من كتاب "الرد على ابن المقفع الزنديق اللعين" بتحقيق المستشرق الإيطالى جويدى سنة ١٩٢٨م، الذى كنت أبحث عنه منذ أكثر من خمس عشرة سنة حتى حصلت أخيرا على تلك الصورة منه بعد محاولات مضنية قبل ذلك ذهبتْ عبثا، ليأتى فى نهاية المطاف أحد المعلقين فى المنتدى العلمى المشباكى (الإنترنتى) الذى نشرت فيه البحث المذكور فيكتب أربعة أسطر لا غير أصدر فيها حكمه الجازم الحاسم على البحث بأننى ضيعت وقتى إذ دخلت مجالا لست متخصصا فيه وخالفت ما يقوله علماء السنة والجماعة فى زندقة الرجل. ولم يفكر المعلق الظريف فى أن يعمل عقله فيما كتبت ويقلب براهينى وتحليلاتى واستنتاجاتى، مكتفيا بترديد ما حفظه كأنه آلة صماء، وغافلا عن أن الطباطبائى الذى اتهم ابن المقفع بالزندقة ومعارضة القرآن ليس من أهل السنة والجماعة بل من الشيعة، وأن الباقلانى مثلا لم يشارك فى ذلك الاتهام، وكان أقرب إلى تبرئة الرجل. ودعنا من بعض الكتاب الكبار المحدثين ممن لا يرون فى الرجل زنديقا ولا فكَّر قط فى معارضة القرآن.

وأترك القارئ الآن مع هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تصور رحمة الله تعالى بعباده: قال تعالى: "إنما التوبةُ على الله للذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من قريب. فأولئك يتوب اللهُ عليهم. وكان الله غفورا رحيما". "إن الله لا يظلم مثقالَ ذَرَّة. وإنْ تَكُ حسنةً يضاعفْها ويؤْتِ مِنْ لَدُنْه أجرا عظيما". "قل: يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعا. إنه هو الغفور الرحيم". "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها. ومن جاء بالسيئة فلا يُجْزَى إلا مِثْلَها، وهم لا يظْلَمون". "مَثَلُ الذين ينْفِقُونَ أموالَهم فِى سبيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سبعَ سنابلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ. واللَّهُ يضَاعِفُ لمن يشاءُ. واللَّهُ واسعٌ عليمٌ". "والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهم ذكروا اللهَ فاستغفَروا لذنوبهم، ومَنْ يغفرُ الذنوبَ إلا الله؟ ولم يصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون *

أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجرى من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها. ونِعْمَ أجرُ العاملين". "إن الحسناتِ يذْهِبْن السيئاتِ. ذلك ذكرَى للذاكرين". "من تاب وآمنَ وعمل صالحا فأولئك يبَدِّلُ اللهُ سيئاتِهم حسناتٍ. وكان الله غفورا رحيما". "ورحمتى وسِعَتْ كلَّ شئٍ. فسأكتبُها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون". "الذين يحملون العرشَ ومَنْ حوله يسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا: ربَّنا، وَسِعْتَ كلَّ شئٍ رحمةً وعلمًا، فاغفر للذين تابوا واتَّبَعوا سبيلَك وقِهِمْ عذابَ الجحيم * ربَّنا، وأَدْخِلْهم جناتِ عَدْنٍ التى وَعَدْتَهم ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. إنك أنت العزيزُ الحكيمُ * وقِهِمُ السيئاتِ. ومَنْ تَقِ السيئاتِ يومئذٍ فقد رحمتَه. وذلك هو الفوزالعظيم".

وفى الحديث النبوى: "لَلَّهُ أفرحُ بتوبة أحدكم من رجل بأرض فلاة دوِّية مهلكة معه راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه وما يصلحه فأَضَلَّها، فخرج فى طلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى مكانى الذى أضللتُها فيه فأموت فيه، فرجع إلى مكانه، فغلبته عينه، فاستيقظ، فإذا راحلته عند رأسه، عليها طعامه وشرابه وما يصْلِحه". "يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر. ومن تقرَّب منى شبرا تقربت منه ذراعا. ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا. ومن أتانى يمشى أتيتُه هرولة. ومن لقينى بقُرَاب الأرض خطيئةً لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة". "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك: فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو هَمَّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة". "من سَنَّ فى الإسلام سُنّةً حسنةً فعُمِل بها بعده كُتِب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شىء. ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعُمِل بها بعده كُتِب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شىء". "ما يصيب المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هم ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشَاكُها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه". "كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذ أنا مِتُّ فأحرقونى ثم اطحنونى ثم ذَرُونى فى الريح، فوالله لئن قدر على ربى ليعذبنِّى عذابا ما عُذِّبَه أحد. فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: "اجمعى ما فيك منه"، ففعلتْ، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: "يا رب، خشيتك"، فغفر له". "لا أحد أصبر على الأذى من الله تعالى: يدعون له الصاحبة والولد، وهو يعافيهم ويرزقهم".

"أَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا". "عن عامر أخى الخضر بن محارب: إنى لببلادنا إذ رُفِعَتْ لنا رايات وألوية، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأتيته وهو تحت شجرة قد بُسِط له كساء، وهو جالس عليه، وقد اجتمع إليه أصحابه، فجلست إليهم، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسقام فقال: إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه، وموعظة له فيما يستقبل. وإن المنافق إذا مرض ثم أُعْفِى كان كالبعير عَقَله أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه. فقال رجل ممن حوله: يا رسول الله، وما الأسقام؟ والله ما مرضتُ قط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم عنا، فلستَ منا. فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء، وفى يده شىء قد التف عليه، فقال: يا رسول الله، إنى لما رأيتك أقبلتُ إليك فمررت بغَيضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن فى كسائى، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسى، فكشفت لها عنهن، فوقعت عليهن معهن، فلففتهن بكسائى، فهن أولاء معى. قال: ضعهن عنك. فوضعهن وأَبَتْ أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أتعجبون لرحمة أم الأفراخ فراخها؟ قالوا: نعم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فوالذى بعثنى بالحق لَلَّهُ أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها. ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتَهن، وأمّهن معهن. فرجع بهن".

"قُدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَبْى، فإذا امرأة من السبى تسعى، إذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتَرَوْن هذه طارحةً ولدها فى النار؟ قلنا: لا والله، وهى تقدر ألا تطرحه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أرحم بعباده من المرأة بولدها". "جعل الله الرحمة فى مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه". "إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها". "إن الله يمهل حتى يذهب شطر الليل الأول، ثم ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى ينشقّ الفجر".

"أذنب عبد ذنبا، فقال: اللّهم اغفر لى ذنبى. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أَى ربِّ، اغفر لى ذنبى. فقال تبارك وتعالى: عبدى أذنب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أى رب، اغفر لى ذنبى.

فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك". "والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم". "إن الله تعالى يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس، ويقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أَى رَبِّ. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه قد هلك، قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطيه كتاب حسناته بيمينه. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم! ألا لعنة الله على الظالمين".

"إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم. قال: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادى؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رَأَوْنى؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: وكيف لو رَأَوْنى؟ قال: يقولون: لو رأوْك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا. قال: يقول: فما يسألوننى؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رَأَوْها. قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوْها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوْها كانوا أشدّ عليها حرصا، وأشدّ لها طلبا، وأعظم فيها رغبة. قال: يقول: فمِمَّ يتعوّذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رَأَوْها؟ قال: يقولون: لو رَأَوْها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأُشْهِدكم أنى قد غفرت لهم. قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم. إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشْقَى بهم جَلِيسُهم".

"قال أناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم تَرَوْنه يوم القيامة كذلك. يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة... ويضْرَب جسر جهنم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللّهم سَلِّمْ سَلِّمْ. وبه كلاليبُ مثل شوك السعدان. أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قَدْر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم: منهم الموبق بعمله ومنهم المخردل ثم ينجو. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن

يَخْرِج من النار من أراد أن يَخْرِج ممن كان يشهد ألا إله إلا الله، أَمَر الملائكةَ أن يخرجوهم، فيعْرِفونهم بعلامة آثار السجود، وحَرَّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتُحِشوا، فيصب عليهم ماء يقال له: ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار فيقول: يا رب، قد قشبنى ريحها، وأحرقنى ذُكَاؤها، فاصرف وجهى عن النار. فلا يزال يدعو الله، فيقول: لعلك إن أعطيتُك أن تسألنى غيره. فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول بعد ذلك: يا رب، قَرِّبْنى إلى باب الجنة. فيقول: أليس قد زعمتَ ألاّ تسألنى غيره؟ ويلك ابن آدم! ما أغدرك! فلا يزال يدعو، فيقول: لعلى إن أعطيتك ذلك تسألنى غيره. فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. فيعطى اللهَ من عهودٍ ومواثيقَ ألا يسأله غيره، فيقرّبه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: رب، أدخلنى الجنة. ثم يقول: أوليس قد زعمتَ ألا تسألنى غيره؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: يا رب، لا تجعلنى أشقى خلقك. فلا يزال يدعو حتى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها. فإذا دخل فيها قيل: تمنَّ مِنْ كذا. فيتمنى، ثم يقال له: تمنَّ مِنْ كذا. فيتمنى حتى تنقطع به الأمانى، فيقول له: هذا لك، ومثله معه. قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا. قال: وأبو سعيد الخدرى جالس مع أبى هريرة لا يغير عليه شيئا من حديثه، حتى انتهى إلى قوله: هذا لك ومثله معه. قال أبو سعيد: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هذا لك وعشرة أمثاله".

وأخيرا فى نهاية الكتاب تتوقف الكاتبة لترصد التطورات التى أدخلتها علاقتها بالشيخ على شخصيته وسلوكه، ومنها مثلا انفراده بها فى المتحف الأشمولى بأكسفورد مثلا لإعطائها دروسا فى القرآن، مما تبرز هى نفسها خروجه على ما تواضع المسلمون عليه فى الهند، وبخاصة إذا كان فاعل ذلك عالما من ندوة العلماء هناك. وهو ما يذكرنى بأول تقرير من تقارير مؤسسة راند حيث نجد خطة أمريكا فى التخلص من الإسلام من خلال تقريب من يسَمَّوْن بـ"المعتدلين" واستخدامهم فى ضرب المتشددين تجاه الغطرسة الأمريكية والمناضلين ضد تدخلها فى شؤوننا والعبث بديننا وصوغه حسب مصالحها وأهوائها، ثم بعد تخلص الأمريكان من المتشددين ينقلبون فيضعون أيديهم فى أيدى العلمانيين لضرب المعتدلين المغفلين... وهكذا دواليك! وهذه المؤسسة تدعو حكومة بلادها إلى عدم الوقوف مكتوفة الأيدى أمام التفاعلات الاجتماعية التى تعصف ببلاد المسلمين ووجوب السعى للتمييز بن الطوائف المختلفة وإذكاء التباعد بينها، إذ تقوم الدراسة بذكر الاتجاهات الدينية المختلفة ما بين أصولية وتقليدية

وإصلاحية وحداثية وعلمانية، واضعة حدودا واضحة تبين مواقف أصحاب هذه الاتجاهات المختلفة من القضايا المحورية كدور المرأة فى العمل العام وتعدد الزوجات وحقوق الأقليات فى المجتمع المسلم والحجاب والجهاد وغير ذلك. كما تقوم الخطة التى يدعو إليها واضعو التقرير على ضرب الطوائف الدينية الإسلامية بعضها ببعض عن طريق تقريب هذه الطائفة أو تلك فى وقت معين للانتفاع بموقفها أو رأيها الذى ترى الإدارة الأمريكية أنه يتطابق أو يقترب مما تريده فى القضية المطروحة، حتى إذا ما تم التغيير المزمع انقلبت أمريكا عليهم وركلتهم ركلتها المعروفة، ثم استدارت لغيرهم تستعين بهم إلى أن تنال لبانتها منهم فتركلهم بدورهم بحذائها الذى لا يرحم ولا يعرف للوفاء ولا لتقدير الجميل معنى... وهكذا دَوَالَيك!

وإن الإنسان ليتساءل: بأى معنى تتدخل أمريكا فى ديننا بحيث ترى من حقها أن تغيره وأن من واجبنا أن نصيخ لما تقول ونسمع له وننفذه دون أدنى اعتراض؟ والجواب أن أمريكا إنما تتدخل بحق قوة السلاح. وهذه حقيقة لا يمكن أحدا أن ينكرها، فلو لم تكن أمريكا قوية بقنابلها ومدافعها وطائراتها وبوارجها ودباباتها وصواريخها ومدرعاتها وأجهزة اتصالاتها ومخابراتها وميزانياتها ومواردها الاقتصادية وعلومها واختراعاتها وصرامة نظامها وتخطيطها وطموحها لسيادة العالم ومثابرتها على تحقيق ما تصبو إليه وتجهيز البدائل المختلفة مقدما وعدم الانتظار إلى الوقت الضائع على طريقتنا، حتى إذا ما سُدَّ فى وجهها طريق استطاعت أن تجد فى الحال أو فى الوقت المناسب على أقل تقدير طريقا آخر، لو لم تكن أمريكا قوية بهذه الطريقة وإلى هذه الدرجة لما استطاعت، بل لما فكرت مجرد تفكير، بل لما خطر لها أصلا أن تتدخل فى حياتنا وفى أخص خصائص أمورنا على هذا النحو العارى الجلف الوقح.

وعلى هذا الأساس فلو أردنا أن نكفّ أمريكا عن مثل هذا التدخل فليس أمامنا إلا أن نكون أقوياء إلى الحد الذى يردعها عن هذا التصرف حيالنا والاستهتار بنا وبشؤوننا وبديننا والاحتقار الهائل لنا. وليس شرطا أن نكون فى نفس قوة أمريكا الآن، وإنما يمكن أن نلزمها حدودها لو رأت أن مثل هذه التصرفات التى تمارسها معنا سوف تكلفها غاليا، وذلك عن طريق الاستغناء عنها قدر المستطاع، وعن طريق الصلابة والقدرة على الصمود فى وجه مخططاتها، وعن طريق المقاومة المسلحة، وعن طريق تلاحم الشعوب مع حكوماتها وغيرة الحكومات على مصالح شعوبها واحترامها لها، وعن طريق الشورى، وعن طريق العلم والثقافة والعمل الجاد والإنتاج والإبداع فى كل المجالات، وعن طريق الإقلال من الكلام الفارغ الذى لا يجْدِى والإكثار من العمل، وعن طريق التنبه للعملاء الذين ينتقيهم

أعداؤنا من بيننا كى يبثوا التخذيل فى صفوفنا ويدعونا إلى الاستسلام لهم ويعملوا على نشر أفكارهم وقيمهم ويشككونا فى ديننا وتاريخنا ورموزنا، وكذلك عن طريق الوحدة بين الأمم العربية والإسلامية.

وهذه النقطة الأخيرة فى منتهى الأهمية، فالغرب إنما يرمينا عن قوس واحدة مهما بدا الأمر لنا أحيانا غير ذلك، إذ هو يتصرف نحونا بوصفنا أعداءه الألداء. وإيانا أن ننخدع بموقف بعض الدول الغربية حينما يبدو من هذا السياق أو ذاك أنها تعارض سياسات بعضها الآخر تجاهنا. وهذا هو السبيل الذى يجب أن ننتهجه إذا أردنا أن تكون لنا قيمة فى سوق العلاقات الدولية ولا نكون هَمَلا كالبهائم التى ليس لها صاحب يسأل أو يدافع عنها. ومنذ قديم الزمان، والقوة فى عالم العلاقات البشرية هى التى تقرر ما يمكن وما لا يمكن. أما ما يقال من أن الحق وحده يغلب القوة فهو كلام فارغ لا قيمة له فى دنيا البشر. ذلك أن القوة تتكون من عناصر كثيرة من عناصر النجاح والانتصار، أما الحق فليس سوى عنصر واحد لا يستطيع شيئا بمفرده بل لا بد له من عناصر أخرى من عناصر القوة كالإيمان به والاستعداد للمنافحة عنه والتذرع لنصرته بقوة السلاح والتخطيط والدهاء والصبر وطول البال وتجميع الحشود حوله وإعداد كل ما يلزم للمعركة من طعام وشراب وملابس وتوعية... إلخ.

وعلى هذا فإذا أردنا فعلا أن نكون مالكين لمصائرنا وأن تكون القرارات التى تتعلق بمستقبلنا ومستقبل بلادنا من صنع أيدينا، فليس من سبيل أمامنا إلا القوة: نكتسبها إذا لم تكن متاحة لنا، أو نحافظ عليها إذا كانت فى حوزتنا. ولا شك أن الناظر فى أحوال العرب والمسلمين فى هذه اللحظة التاعسة البائسة من تاريخهم لن يسره أبدا ما يراه من هذه الأحوال: فالكسلُ والبلادة والكذبُ والنفاق وقلة الصبر وكراهيةُ العملِ والعجزُ عن الإتقانِ والشعورُ بالهوان والرضا بالمذلة والانسحاقُ أمام الغرب هو سيد الموقف، كما أننا لا نحاول صادقين الخروج من هذه الدائرة الجهنمية أبدا، متناسين أن البشر إنما هم الذين يصنعون إمكاناتهم إذا شاؤوا أو يفرّطون فيها!

وسبيل القوة، كما يراه المسلمون المتمسكون بدينهم، هو العلم والعمل والإتقان والكرامة والحرية والعدل الاجتماعى والتعاون والمساواة وسيادة القانون والذوق الراقى والحساسية العقلية والنفسية وصلابة الأخلاق، ومن قبل ذلك العبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج انطلاقا من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لا كأساس للجدال والشقاق كما هو مشاهد الآن بين كثير من المسلمين الذين أصبحوا كلهم بقدرة قادر مفتين متضلعين من الفقه وعلم الكلام، بل كأساس للعمل والتجويد والخوف من الله ومن حسابه الشديد الذى لا يفلت شيئا دون أن يؤاخذ عليه، اللّهم

إلا كان لنا فيه عذر من ضعف قاهر أو ظرف كاسر! ومن سبيل القوة أيضا اليقظة والتنبه لما يحيكه لنا أعداؤنا ومن يوالونهم من بين ظهرانَينا ممن يشاكلوننا لسانا وسَحْنة وموطنا، لكنهم يخالفوننا قلبا ومنزعا وضميرا باعتزازهم بأعداء البلد والدين والأمة وركونهم إليهم وضلوعهم معهم، وإذا فوتحوا فى شىء من ذلك كان جوابهم: إنما نحن مصلحون. وما هم فى الحقيقة بمصلحين، بل هم المفسدون! هذا هو السبيل لامتلاك القوة، أما تضييعُ الوقت والجهد فى التفاهات والشكليات التدينية واستعراضُ العضلات فى ميدان التقعر والتفيهق الذى حذّرَنا منه وبغّضَنا فيه سيدنا رسول الله فهو عَرَضٌ من أعراض التخلف ودليل على أن أصحابه مرضى يعانون من ضعف فى دينهم وأخلاقهم، وليس من شأنه أبدا أن يرفع أمة من حضيضها أو ينتشل فردا من الوهدة التى تردى فيها، وإنْ حَسِب التافهون المتحذلقون أنهم يحسنون بعملهم هذا صنعا.

وأخيرا فقد لاحظت تركيز الشيخ أكرم ندوى على أن العبرة بالحياة الآخرة، أما الدنيا فلا قيمة لها لأنها عابرة وزائلة. وهذا كلام خطير رغم أن الدنيا فعلا زائلة وعابرة، فالدنيا فى الحقيقة نعمة إلهية، وعلينا أن نتقبلها بشعور غامر بالجميل من يد المولى سبحانه شاكرين حامدين، ونبذل كل جهد ممكن فى ترقيتها وتحسينها ونعمل على إحراز عوامل القوة فيها حتى لا تأكلنا الذئاب المتربصة بنا. والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف كما قال الرسول الكريم عليه السلام، واليد العليا خير من اليد السفلى، كما أن تَرْك المسلم ورثته من بعده أغنياء خير من تركهم عالة يتكففون الناس. بل إن الرسول ذاته ليحض على تملك القوة العسكرية: "ألا إن القوة الرمى" تطبيقا لقوله تعالى: "وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم مِنْ قوةٍ ومن رِبَاط الخيل تُرْهِبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم وآخرين مِنْ دونهم". وجعل القرآن التقاعس عن الإنفاق على الجيش وتسليحه وعدم الانخراط فيه للدفاع عن الدين والوطن إلقاءً باليد إلى التهلكة. ومن نعم الله على عباده البيت الواسع والزوجة الصالحة والطعام الهنىء. وإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. والنظافة من الإيمان. وتمشيط الشعر وتنظيف الأسنان وتبييضها من السنة المحمدية. وهذا كله، وهو مجرد أمثلة على الطائر، يدل دلالة حاسمة على أن الإسلام لا يعرف إهمال الدنيا. بل إن المسلم إن أهمل دنياه فلسوف يخسر دنياه وأخراه جميعا، إذ الدنيا مزرعة الآخرة، ولا حصاد هناك ما لم نزرع الأرض هنا ونبذل جهودنا فى تكثير الثمار وتحسينها. والتقوى التى يكثر الشيخ من ذكرها وإبرازها ليست شيئا هيوليا بلا ملامح، بل هى كل نشاط خير نقوم به تجاه أنفسنا أو أسرتنا أو وطننا أو ديننا أو الإنسانية جمعاء وسائر المخلوقات. إنها العمل الجاد والإتقان والتنظيم ومشاورة

الآخرين فى المشروعات التى ننشئها والاجتهاد فى تطويرها وترقيتها وإحراز الثروة والغنى والقوة الاقتصادية، وإلا لكان عبد الرحمن بن عوف مثلا آثما، إذ كان من الصحابة الشديدى الثراء بما كان يزاوله من تجارة رغم أنه هاجر إلى يثرب وهو لا يملك شيئا يذكر.

إن الدنيا لو كانت فاقدة القيمة لما امتن الله بنعمه فيها على عباده، بل لما خلقها أصلا ولوجدنا ستارة الخلق تنفتح على الحياة الآخرة مباشرة دون أن تكون هناك دنيا أساسا. لكننا ننظر فى القرآن فنجد تذكيرا لنا وامتنانا علينا بشمسها وقمرها ونجومها وكواكبها وأنهارها وبحارها ونباتها وحيوانها وطعامها وشرابها ورياحها ومطرها وظلالها وجبالها وبيوتها وما وهب الله عباده فيها من الزوجات والبنين والحَفَدة. أجل كيف يمتن الله على عباده بكل هذه النعم لو كانت الدنيا ونِعَمها بلا قيمة؟ وإذا كان الأمر كذلك فلم يا ترى لم يبق الشيخ فى الهند مكتفيا بأقل القليل من الطعام وأرخص الملابس وأضيق البيوت ويمارس التقوى على راحته دون أن يتعرض لإغراءات الدنيا والحضارة الغربية فى بريطانيا ويتعرف إلى صحفية أمريكية يهودية تشكك فى كل شىء يتعلق بالإسلام بهدوء ودهاء وتدافع عن حق الشواذ من اللوطيين والسحاقيات وتنثر الريبة فى النفوس تجاه المجاهدين الذين يذودون عن أوطانهم ضد الاستعمار الغربى والصهيونى ولا تقول كلمة واحدة تدين بها أمريكا أو إسرائيل أو أى بلد غربى، ويخلو بها بحجة إعطائها درسا فى القرآن رغم أنه يعطى سلسلة من الدروس العامة تستطيع أن تلتحق بها وتبتعد عن الانفراد به وحدها؟ وكيف يقال ذلك عن الدنيا، والأنبياء والملائكة جزء منها؟ وكيف يقال ذلك عن الدنيا، والله قد جعل الإنسان فيها خليفة، وزوده بما لم يزود به ملائكته فعلَّمه الأسماء كلها مما تفوَّق به على الملائكة، وأسجدها له؟ ثم كيف يقال ذلك عن الدنيا، والدنيا هى مسرح الحضارة البشرية بكل ما فيها من إبداع عجيب شاهق وعبقرية عقلية وأدبية وفنية وصناعية وبيوت ومعابد ومدارس وصروح للتمثيل وملاعب ومسابقات رياضية وسيارات وطائرات وغواصات وصواريخ وأدوية وأدب وتصوير وموسيقى ومطابع ومزارع ومصانع ومتاجر وكتب ومذياع ومرناء ومشباك... إلخ؟

وكيف يصف الشيخ كل تلك المسرات والمباهج والسعادات والخيبات والآلام والتعاسات التى تتعاور نفوسنا على الأرض بأنها لا معنى لها؟ وكيف يصف الغرائز والشهوات والتطلعات والآمال والابتهالات والطاعات والعصيانات والإنجازات والكوارث التى نعيش تحت مطارقها طوال الوقت بأنها لا معنى لها؟ أوَكُلّ ذلك حقا لا معنى له؟ نعم نحن نعرف أن متاع الدنيا بالنسبة إلى الآخرة شىء

قليل، لكنها فى حد ذاتها ليست بالقليلة إطلاقا. إن هذه الدنيا تضم فى كنفها المجتمعات والدول والتاريخ المتناوح الآماد والأجيال المتتالية التى لا تكاد تنتهى، وفيها تتم الحروب والمعاهدات والحب والبغض والزيجات والخيانات والطلاقات، وعليها نُقْبِل بل نترامى تحت أقدامها ونحن مربوطون إليها بأمراس من حديد لا يمكن الإفلات منها أبدا مهما قست علينا وحرمتنا وخيبت آمالنا فيها وانهالت علينا مصائبها. أوكل ذلك لا معنى له؟ إن الدنيا لو لم يكن فيها سوى "مرتفعات ويذرنج"، التى أقرؤها الآن للمرة لا أدرى الكَمْ منذ طالعتها لأول مرة حين كنت فى الإعدادية عام ١٩٦٣م، بما فيها من أحزان ومرارات ومشاعر عاصفة وقسوة وحقد وطباع متوحشة وثلوج وبرارٍ وموت وإلحاد، لكفى بها سببا كى نعرف أن الدنيا ليست شيئا لا قيمة له. وإن لم يكن فى كلامى هذا مقنع للشيخ فسوف أدعو الله أن يحيى مستر هيثكليف الذى لا يرحم أحدا، ويسلطه عليه. وأنا زعيم أنه سوف يشْفَى من هذا الكلام العجيب الذى يقوله عن الدنيا.

فهرست الكتاب

=========